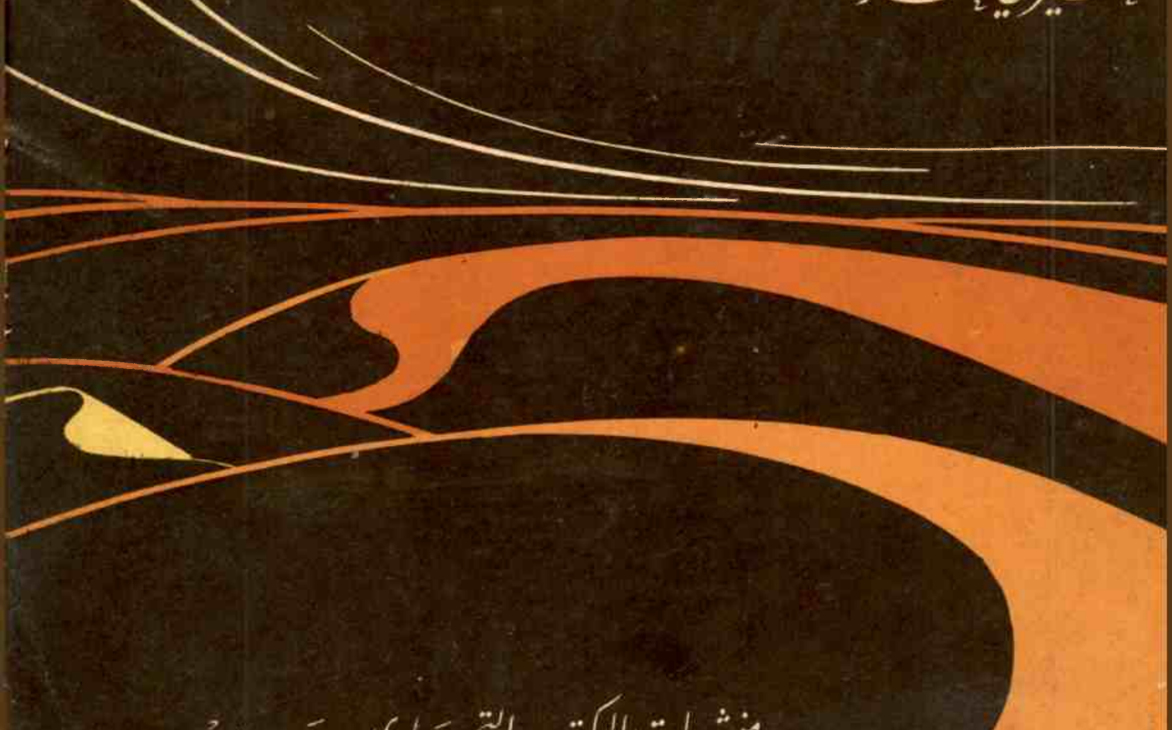
جورج غيرستر

الصحراء الكبرى

تعريب
خيري حماد



منشورات المكتب التجاري - بيروت

مراجعة كتاب
الصحراء الكبرى
تأليف جورج
غيرستر
منشورة في عدد
12 مايو 1961م
من مجلة العلم
Science
الامريكية

المراجعة فيها
اشارة الى بعض
المغالطات و الاخطاء
التي وقع فيها
مؤلف الكتاب



May 12
Vol 133, Iss 3463

Sahara, Desert of Destiny. Georg Gerster. Translated by Stewart Thomson. Coward-McCann, New York, 1961. xi + 302 pp. Illus. + maps. $5.

Gerster's *Sahara* is a prize package of its kind. An awesome mass of factual information, sparingly sprinkled with misinformation, is presented so skillfully that the book is as enjoyable to read as a good novel. Unfortunately, in the sections dealing with prehistory and native customs, fact is mixed indiscriminately with fantasy. Specialists will heave many a weary sigh as they encounter tediously obsolete and confused theories concerning rock paintings and camels, the Hyksos and the Garamantes, the feudal matriarchal free-loving Tuareg and such. Arabic words often defeat the author utterly. For example, *Sah'ra* does not mean "mouse-coloured" but "a desert habitable in spots," a *Gandourah* by definition cannot have a hood, and *Davel Askri* is certainly a strange rendering of *Dar el Askri*. Curious factual errors occasionally creep in too. It is stated that "the early palaeolithic" only "goes back some eight to fifteen thousand years" although "the Early Stone Age" may go back "hundreds of thousands"; Rene Caillié (misspelled Caillé as usual) is said to have been "the first European to reach Timbuctoo"; and so on.

But all of this is relatively unimportant. The immediate future of the Sahara is a matter of rapidly increasing urgency because of the major roles that Moslem Africa and the Mediterranean are beginning to play in the struggle for survival of the West. In this context Gerster shines as a singularly penetrating political and economic analyst.

Water is, of course, the main thing in the Sahara. Obviously even the most primitive native communities cannot live without it, while oil drilling installations consume such enormous quantities that they depend on the discovery of new and practically inexhaustible reservoirs of water. This situation poses a whole series of problems which are clearly explained and discussed most entertainingly.

The bulk of Gerster's book is devoted to the consideration of these and other natural resources. Search, discovery, and exploitation are described minutely and as painstakingly evaluated, all in an easy-flowing style that makes them fascinating. And if the author hasn't heard that the discovery of diamonds near Silet was a hoax, it hardly matters.

Gerster goes on to discuss the impact of modern industrial expansion on native institutions. He closes with a searching and impartial examination of the perilous problems of a near future in which conflicting forces of political aspirations and economic necessity will become increasingly difficult to reconcile.

For students of political science, economics, and human and industrial geography, this book is a real goldmine. Nor can any reader, regardless of prejudice, help but be lost in admiration for the author's forthright and yet charitable objectivity. *Sahara* is a really valuable and palatable contribution in the critical fields of international and inter-religious political economy.

LLOYD CABOT BRIGGS
Peabody Museum, Harvard University

انظر الصفحات الثلاثة
قبل الغلاف الاخير
لهذا الكتاب

جورج غيرستر

الصحراء الكبرى

أرض الغد المشرق للجزائر العربية

تعريب
خيري حماد

المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

الطبعة الأولى

تموز (يوليو) ١٩٦١

تقدمة المعرب

أخذ اسم صحراء الجزائر ، او الصحراء الافريقية الكبرى ، يتردد كثيراً على الالسنة ، في الآونة الأخيرة ، ولا سيما بعد أن بدأت المفاوضات في ايفيان ، بين ممثلي حكومة الجمهورية الجزائرية ، وبين ممثلي فرنسا ، لوضع حد لهذه الحرب الساعرة ، التي تلتهب في البلاد منذ اكثر من سبع سنوات ، بسبب اصرار الشعب الجزائري على نوال حريته واستقلاله كاملين غير منقوصين ، وبسبب إصرار فرنسا من ناحيتها ، على استعمار هذا الجزء الغالي من الوطن العربي الكبير ، وجعله مسرحاً لاستغلال مستوطنيها من الفرنسيين الذين يريدون ان يفرضوا عليه سيطرتهم ، وان يستغلوا خيراته وثرواته .

وكان اسم الصحراء ، قد بدأ يظهر في الصحف وعلى الالسنة منذ بضع سنوات عندما شرعت فرنسا تجري فيها تجاربها النووية ، وتفجيراتها الذرية ، وعندما تناقلت الانباء اكتشاف الزيت ، وغيره من كنوز الثروة الطبيعية في جبالها ، وتحت رمالها المحرقة اللاهبة .

وتسعى فرنسا اليوم ، سعياً جدياً حثيثاً ، الى اقتطاع

الصحراء من الجزائر ، لأنها تريد ان تحتفظ بخيراتها لنفسها ، ولأنها تطمع في استغلال ثرواتها الطبيعية ونفطها ، ولكن الجزائر ، التي كانت الصحراء ولا تزال جزءاً لا يتجزأ منها ، تصر على وحدة الوطن الجزائري ، لأنها تريد أن تحتفظ بخيراتها لنفسها ، ولأنها لا تريد أن تترك في أرضها موطىء قدم للاستعمار يهدد منه افريقيا ، التي تعتبر حرب الجزائر النضالية ، في طليعة المعارك العامة لتحريرها من كل استعمار اجنبي .

وهذا الكتاب الذي نضعه اليوم بين ايدي القراء ، هو عرض شامل للصحراء ، في تاريخها وجغرافيتها ، وحضاراتها القديمة ، ومياهها ، ونخيلها ، وثرواتها الدفينة ، وغير الدفينة ، وقد وضعه مؤلفه « غيرستر » السويسري ، بموضوعية وتجرد ، لا يخرجان احياناً عن الهوى ، وان كانا يدلان على فهم عميق ودراسة وافيه شاملة .

انه الكتاب الأول من نوعه عن الصحراء التي كانت حتى عهد قريب سراً مغلقاً فاصبحت اليوم حديث كل انسان .

بيروت في ٥ — ٥ — ١٩٦١

خيري حمّاد

مقدمة المؤلف

اشعر بأنني مدين لعلماء الجغرافيا ، ببعض الاعتذار على عنوان هذا الكتاب . فهم يؤثرون الحديث عن النيل كنهر صحراوي ، وعن السكة الحديدية الممتدة بين وادي حلفا والخرطوم كسكة حديدية عبر الصحراء . وهم يفضلون استخدام كلمة « الصحراء الكبرى » لتشمل المنطقة الصحراوية الواسعة الممتدة من الاطلنطي الى البحر الاحمر . لكن موضوع هذا الكتاب لا يتناول إلا الصحراء التي تحتلها فرنسا في افريقيا ، والتي تشمل ارضاً مساحتها اربعة ملايين ونصف المليون من الكيلو مترات المربعة ، ولا يعيش فيها الا ثمانمائة وسبعون الفة من السكان . وهي تعني ثلاثة ارباع المنطقة الصحراوياً كلها ، وثلث عدد سكانها . وحدود الصحراء التي تحتلها فرنسا طبيعية احياناً وسياسية احياناً اخرى . وهي تلتقي في الغرب بالمحيط الاطلنطي وبالصحراء التي تحتلها اسبانيا ، أما في الشرق ، فتلتقي بالسودان وليبيا وتونس ، وتحدها في الشمال تونس ومراكش ، والمنطقة المزروعة من الجزائر ، أما في الجنوب فتحدها الاراضي التي تنبت الطحالب والتي هي امتداد

لسهوب السودان .

ومع ذلك ، فأنا اتقدم بهذا الاعتذار ، وأنا مرتاح الضمير ، اذ أن الصحراء الكبرى في الغرب ، كانت تعتبر دائماً جزءاً منفصلاً عن الصحراء الليبية في الشرق ، كما أصبحت في السنوات الاخيرة نتيجة المجهود البشري الجبار ، مركزاً لتجارب ومغامرات عظيمة دوّى صداها في جميع انحاء العالم . وهذا المجهود ، هو موضوع هذا الكتاب .

جورج غيرستر

١

الإبل والخيل

« وهنا تعيش ايضاً الثيران التي تسير في مرعاها الى الوراء لسبب بسيط واحد ، وهو ان قرونها معقوفة الى الامام . مما يجبرها على الرجوع الى الوراء في مرعاها . إذ انها لا تستطيع الاندفاع دائماً الى الامام . ولا تختلف هذه الثيران عن غيرها من الابقار باستثناء ذلك . إذ أنها تتشابه معها في كثافة الجلد وصلابته . وتقوم هذه الثيران باصطياد الاحباش الذين يعيشون في الكهوف ولهم عربات تجرها خيول اربعة وهؤلاء الاحباش هم اسرع الشعوب ركضاً في العالم » .

— هيرودتس —

الصحراء ، كلمة عربية تعني الارض الجرداء . وكانت تمثل للعرب ارضاً واسعة ومسطحة ، قاحلة من كل نبات ، في لون هو مزيج من الرمادي والبني ؛ وهذا هو المعنى الذي حملته في الآداب الجاهلية . وتحمل الصحراء طابع الموت ولونه . واستعمل اليعقوبي ، وهو جغرافي عاش في القرن التاسع ، كلمة الصحراء لتعني التربة التي يدفن الناس فيها موتاهم . ولكنها في القرن نفسه

ظهرت في كتاب لجغرافي مصري اسمه ابن الحكم ، عنوانه « غزو الشمال الافريقي » ، لتعني لأول مرة جزءاً من افريقيا الشمالية .

ويعتبر الأوروبيون الواحات جزءاً من الصحراء ، فهي بالنسبة اليهم كالزمردة التي توضع وسط البرونز الجامد . والواحة للسائح العادي العارض ، هي الحادث الهام أو الذروة في تجاربه في الصحراء . أما اولئك الذين يقيمون في الصحراء ، ولا سيما من البدو الرحل ، فلا يزالون يربطون بين الصحراء وبين مفازع الموت . وعندما يتحدثون عنها ، لا يفكرون بما في واحاتها من بساتين النخل ولا في آبارها وواحاتها على أنها جزر حيّة في محيطات شاسعة من الرمال القاحلة والحصى . وابن قبيلة الشعانبة ، الذي يترك واحة الغوليّة إنما يتحدث عن الذهاب الى الصحراء .

وقد تمت السيطرة على الصحراء . واذا كان لإنسان أن يسجل وصفاً كاملاً لهذه السيطرة ، فان عليه أن يخصص جزءاً كبيراً من كتابه لجهود الابل وهي السابق الاخير لطائرة الهليوكبتر .

وكان البعير ذو السنام الواحد ، عجلة الانتقال الأولى في الصحراء . ولهذه العجلة خصائص معينة اهمها ، القيادة على اربع عجلات ، وبثلاثة محولات مع صندوق خاص كبير للاحتياطي من الوقود ، وعجلات اضافية ، ومقياس للزيت ، ورافعة أمامية قوية . وقوة حرق الوقود فيها ، على النقيض من الاعتقاد الشائع ، كبيرة وعالية .

وتعزي الى كل شيء يستطيع الصمود لحرارة الصحراء الملتهبة قوى اسطورية . ويصدق هذا بصورة خاصة على الجمال . ومن المشهور عنها انها حيوانات سريعة . ويشرح « الخالدون » من رجال المجمع العلمي في باريس ، الهجين في معجمهم على النحو التالي : « انه مزيج مخيف من علم الحيوان وعلم الاشتقاق » . وهذا ما ذكره اميل فيليكس غوتييه ، الحجة الفرنسي في دراسة شؤون الصحراء . ويبدو أن الخالدين ، لم يجربوا قط امتطاء سنام البعير ، أو تجربة سرعته . والكلمة اليونانية التي اشتقت منها كلمة « الهجين »

في الفرنسية وهي « درومي‌داري » تعني الركض أو السرعة . ويقال إن أفراد قبيلة الطوارق قطعوا مسافة مائة وخمسين ميلاً او مائة وثمانين ميلاً في اربع وعشرين ساعة على الهجن وهم يطاردون لصوص الجمال . ويقال إن شخصاً يدعى الحاج محمد من ورغله ، وكان عليه أن يسلم رسالة في توغورت التي تبعد عنها مائة ميل ، وقد عاد بالرد في الليلة التالية . ويقال ان الكبتن ليكوك ، قام على رأس فريق من جنوده الهجانة بحملة تأديبية قطع فيها ستمائة ميل في عشرة أيام ، ووجد الوقت الكافي للاشتباك في معركتين . وكان ابن الصحراء الذي حدثني عن هذه الأعمال العظيمة ، وهو رجل ذو تجارب واسعة ، وقد اصيب بالشلل من عضة ثعبان ذي قرون قد اكد لي ان الهجن كانت تدفع دائماً الثمن في هذه المغامرات وتموت من الارهاق .

وتروي قصص العرب الكثير عن ذكاء الابل ودماثتها . فقد يغفو مسافر في الصحراء وقت القيلولة ، ليفيق من غفوته فلا يرى اثراً للهجين الذي يركبه . وسرعان ما يكتشف أنه على بعد عدة مئات من الياردات من المكان الذي اغفى فيه . وعندما ينحني ليلتقط خطام البعير يجده محصوراً في جحر يربوع ، وهو حيوان صغير بحجم الفأر . ومن هذا يتضح ان جذب الفأر للخطام كان كافياً لقيادة الجمل ! !

وهكذا مضى الجمل في الاساطير كحيوان سريع واليف . وكان أول هجين امتطيته في حياتي عنيداً ، الف نوعاً من الرتابة في سلوكه . ولم تفلح اية وسيلة من وسائل الاقناع او العنف في حمله على السير بسرعة تزيد على الميلين في الساعة . وقد حملني بمنتهى التلطف وعدم الاكتراث . ولم يبد اهتماماً إلا بشيئين لا ثالث لهما ، أولهما البلح الاخضر الجديد ، إذ بينما كنا نمضي جنباً الى جنب في بساتين نخيل الواحة ، كان يمد رقبته الطويلة كالثعبان من ناحية الى اخرى فيلتقط في فمه بمنتهى الدقة والعناية ، ما يجده على جانبي الطريق من ثمار النخيل المحملة بين الاوراق . ولم تفلح معه الأوامر ولا الانذارات ولا الهمزات بقدمي . وكان كل ما يفعله أن يستدير بوجهه ،

فيبصق باحتقار وكأنه بحار عجوز يبصق ما مضغه من الطباق . أما الشيء الثاني فهو النعال القديمة من جلدية او مطاطية ، إذا عثر عليها بين الرمال ، فهو يضعها في فمه غير مكترث بالمسامير . ولا ادري أي شيء كان اكثر إدهاشاً لي ، هل هو وفرة النعال في الصحراء ، او ذوق هذا الجمل السيىء في استساغة نتاج اسكافي من ابناء الواحة .

وقد تبعت هذه المسيرة من ورغلة الى سدراته ، رحلات اخرى في الهجر او في تاسيلي او في موريتانيا . ولم تؤد رحلاتي على الرغم من تعددها الى تبديل رأيي في الجمل ، وهو رأي يشترك فيه الكثيرون معي . ويرى الانسان عجباً اذا ما ابصر بدورية من الهجانة تقوم بواجب من أعمال الدورية . ولم يحدث قط أن عرض فارس جواده للاهانات التي يصبها الهجّان على بعيره . وقد تولدت هذه الشتائم عبر القرون والاجيال بسبب ما يعرف عن الجمل من عناد ، وما يبدو عليه من تصنع ، وما ينهال من فمه من سيول متواصلة من اللعاب . وليس من الشاق على الانسان العادي ، لا الخبير في شؤون الخيل ، ان يميز بين حصان الجرّ ، والجواد الكريم ، أما التمييز بنظرة خاطفة بين الهجين — جمل السباق او الركوب — وبين جمل الجر ، فيتطلب بعض الخبرة . فهجين الركوب لا يأتي ثمرة الاختيار في التناسل . ولا يولد الهجين مخصصاً للسباق . فاذا كان حظه طيباً اختير من صغره ، ودرب تدريباً خاصاً . ولا تربى هجن السباق ، أما المَهَرة التي طالما سمعنا عن رقصها ، فهي مجرد هجن اسطورية لا وجود لها . وقد يخدع الانسان بقوائم الجمل الطويلة وهامته المرتفعة فيحسبه مهرياً ، وعند التجربة يبدو حيواناً بطيئاً . ويسير جمل الجر ، في مسيرته الاولى بمعدل ميلين في الساعة الواحدة . واذا ما لوحق بعصا بصورة مستمرة ، ارتفعت هذه السرعة الى ثلاثة اميال او اربعة في الساعة . ولا تتعدى معظم الهجن هذه السرعة المألوفة طيلة حياتها . ويستطيع هجين الركوب الممتاز ان يقطع في المشية العادية ، اذا لم يكن حروناً ، اربعة اميال في الساعة او اكثر قليلاً . أما اذا هرول هرولة متوسطة ، فقد يقطع ستة اميال في الساعة ،

ولكن لفترات قصيرة . أما إذا ركض ركضاً سريعاً في حالتي الاغارة أو الهزيمة فقد يقطع اثني عشر ميلاً في الساعة ، ولكنه يصبح اعرج بعد فترة قصيرة من ركضه . ولا يمكن أن يحافظ على هذه السرعة ، مدة طويلة من الزمن الا إذا نخز أو همز ، بحيث تسيل الدماء من الجراح التي يثخن بطنه بها . ومن الافضل ان لا تستعمل كلمة « العدو السريع » مطلقاً . فالهجين حيوان متردد ، وقد لا يصح اتهام البعير بالافتقار الى احترام الذات اذ انه عندما يعدو سريعاً ، تأخذ قدماه تضربان فِي جميع الاتجاهات وتكون النتيجة مضحكة وغريبة . وهناك تشبيه آخر ، يعرض الى الذهن وهو أنه يشبه الرجل الذي يرقص على طاولة تدور .

ومع ذلك يقال لنا ، ان الراقصات يشعرن بالزهو والغرور عندما يقارنهن الانسان بالجمال . وهناك قول مأثور « إن الحياة صحراء ، وان المرأة هي الجمل الذي يساعدنا على قطعها » . وهناك قول آخر ، ان الله عندما خلق آدم ، بقيت هناك كومتان من الصلصال ، خلق الله من احداهما جملاً ومن الاخرى شجرة نخيل . ولهذا فان الابل والنخيل جزء من الاسرة الانسانية خلقهما الله ، ليسهلا على الانسان حياته على الارض . وللرحل من بدو الصحراء الغربية تفسير لعناد الجمل وهيئة القناعة الذاتية التي تبدو عليه فهم يقولون « ان للرسول مائة اسم يعرف الرجل تسعة وتسعين منها ، ويعرف الجمل الاسم المائة » .

ولم يكن ذكاء الجمل أو دماثته أو خفته هي الصفات التي جعلت منه الرفيق الذي لا غنى للرجل عنه في الصحراء . كما ان ندرة ما يحتاج اليه من غذاء لم تكن السبب ايضاً ، اذ على الرغم من أنها من الفضائل التي شاع عزوها الى الجمل ، الا أنها لم تكن من الصفات التي حباه الله بها . ففي مكنة البعير أن يستهلك عشرين غالوناً من الماء في شربة واحدة وان يأكل كمية لا حد لها من المواد الصلبة . فهو حيوان نهم ومبطان ، وخبير في المأكولات والمشروبات في آن واحد . واذا ما اعطي حق الخيار ، امكنه التمييز بين الحشائش النافعة

والاعشاب الضارة . والحسنة الوحيدة فيه التي تجعله صالحاً بصورة استثنائية لاحوال الصحراء ، ان اوقات طعامه مرنة وغير محدودة لا بقياس الساعات ولا حتى بقياس الأيام .

وليس سنام الجمل بخزان للماء ، لا بصورة مباشرة ولا غير مباشرة . وهذا السنام انما هو حشد من الشحم . فهو والحالة هذه مقياس مثالي للوقود . وفي وسع راكب الجمل ، ان يحكم من حجم السنام ، عما بقي لديه من حيوية . فاذا سار الجمل سيراً شاقاً ، تقلص السنام وضوئل . وفي اجازة البعير السنوية التي تمتد ستة اشهر عندما يواصل الرعي من شروق الشمس الى مغيبها ، يمتلىء سنام الجمل حتى يغطي ظهره تماماً . ولا ريب في أن الطبيعة كانت تفكر بالانسان وحاجاته عندما خلقت سنام الجمل . انه الوسيلة لمنع الشحم من الانتشار في الجسم كله واختزان الحرارة . أما معدة الحيوان فتوجد على ثلاثة اجزاء وتستطيع استيعاب ما يزيد على خمسين غالوناً . وقد صمم الجدار الخارجي لاختزان الماء والعصارات الغذائية ، ويعرف سائقو الاظعان أنهم اذا واجهوا الموت عطشاً قتلوا الجمل ، وحصلوا على الماء منه . وسواء اذا كان الماء قد اخضرّ ، أو اصبح سيىء المذاق فهذا شيء آخر . والشيء الغريب في الجمل أو سفينة الصحراء او « سيارتها » انه لا يضم مستودعاً كبيراً للوقود فحسب ، بل انه يضم ايضاً مستودعاً للاحتياطي ركب في الجسم بصورة عجيبة . ويستطيع الجمل ، حتى لو نفد الماء من جسمه ان يعيش يومين او ثلاثة أيام اخر بلا ماء . فانسجته اللحمية تؤمن الماء ، وهذا هو المدهش . فجسم الانسان اذا تعرض للهواء الحار والجاف يصبح الدم فيه خاملاً كثير البلادة ، وتحل لحظة لا يجري فيها في عروقه ، بسرعة كافية لنقل الحرارة الى الجلد واطلاقها ، وهنا يصاب الانسان بنوبة قلبية . أما دم الجمل ، والفضل في ذلك يعود الى جهاز بارز لم يتضح للعلم بعد ، فيستطيع الاحتفاظ بثباته الطبيعي حتى ولو خسر كمية هائلة من الماء . ويستطيع أن يتحمل خسارة كمية من الماء تعادل ربع وزنه ، وهو ضعف ما يستطيع جسم الانسان تحمله ،

واذا ما شرب الجمل بضع دقائق ، استعاد النقص السابق . وفي استطاعته أن يتحمل ارتفاع درجة الحرارة من تسعين فهرنهايت في الليل الى مائة وخمس درجات في النهار دون أن يعرق جسده .

ولا يخلو سوء الفهم الشائع ، عن عدم تكاليف الجمل ، وسرعته ونشاطه واحتماله من بعض الاخطاء . فللجمل طريقته الخاصة في الاحتجاج على سوء معاملته بطريقة غير معقولة ، وهي أن يموت .

ويتحدث الرواة عن الجمل فيقولون : « ويمضي الجمل حاملاً حمله ، وماشياً بسرعته المعتادة ، دون أن يشكو أو يتذمر ، وقد قتله الاعياء والتعب . وعندما يصل الى نهاية احتماله ، يقف فجأة ، كسيارة نفد منها زيتها ، ويبرك على الارض ، ثم تفيض روحه بشيء من الكبرياء ، وبتعبير بعيد عن الموت ، وكأن افكاره انتقلت الى مكان آخر . وكثيراً ما يخيل الى صاحبه ، قبل أن يكتشف موته ، انه يلعب احدى حيله والاعيبه » .

واحتل الفرنسيون في عام ١٩٠١ « طريق النخل » ، المؤدية الى واحة توات ، وهي المدخل الرئيسي للصحراء الغربية . وكان من الضروري نقل المؤن والامداد الى الوف الجنود ، فحملت الجمال فوق طاقتها ، وسقطت عشرات الألوف منها ميتة احتجاجاً على محمولها . وقد خسرت الجزائر نصف ما فيها من جمال في هذه العملية وحدها . وامتدت جثث الجمال الوف الأميال على طرق الصحراء . ويقول غوتييه الذي نقلت عنه بعض المقتطفات اكثر من غيره لأنه أول من فهم الجمل وكتب عنه بدقة ورشاقة ، انه كان في وسع الأعمى أن يعرف طريقه في الصحراء مسترشداً برائحة الموت . وانتشرت هذه الرائحة التي زكمت الانوف حتى وصلت الى باريس حيث اثارت هذه المذبحة الفظيعة فضيحة سياسية .

فكيف وصل الجمل الى شمال افريقيا ؟ هنا ينقسم المؤرخون والبحاثون . ويعتقد البعض ان الجمل ظهر في الصحراء الكبرى لأول مرة منذ فجر التاريخ ، بينما يقول البعض الآخر إنه انتقل اليها . وسواء أصحت هذه النظرية او تلك ،

فان الجمال وصلت الى هناك ، في نفس الطريق التي وصلت فيها الماشية . وقد انتقلت هذه كلها من الجزيرة العربية الى الحبشة عن طريق باب المندب ، وهو المضيق الذي يفصل البحر الاحمر عن خليج عدن . وهاجر الجمل من الحبشة الى مصر مع نهر النيل ، وعبر من مصر الى برقة وفزان حيث انتشر في الصحراء وأصبح سفينتها المعروفة .

ويقول غوتييه ، ان الجمل استخدم في افريقيا الشمالية ولا سيما في تونس كحيوان للحمل وللركوب منذ القرن الثالث الميلادي . وقد عثر على أدلة تثبت هذه الحقيقة في بعض الاكتشافات الاثرية والنقوش . واذا ما حكمنا على طريقة الركوب في تلك الأيام من الرسوم والنقوش تبيّن لنا أن الراكب كان يمتطي صهوة الجمل أمام سنامه ، أو وراءه على نوع من السرج ، أو على السنام نفسه ، والطريقة الاخيرة لا تصلح للسير بالبعير بسرعة . ولم تتحقق السرعة في سير الابل الى ان تم اختراع سرج جديد يوضع على السنام ، مع جيوب له توضع فيها « زمزميات الماء » المصنوعة من الجلد . وبدأ الهجّان منذ هذا الوقت يستخدم قدميه في حث هجينه على السرعة . وقد قابلت عدداً ، من الهجانة ، تتركز شخصياتهم في أقدامهم وحركاتها . ويقول غوتييه ، ان السرج و « زمزمية الماء » استخدما لأول مرة في القرن الرابع عندما ظهر راكبو الجمال من البدو على شكل قراصنة الصحراء . ولا ريب في ان ثيودور مونود ، الرحالة والمكتشف المشهور في الصحراء الغربية كان على حق في اهدائه كتابه « الهجانة » الى « الجمل والماعز . الى سفينة الصحراء وزمزمية الماء المصنوعة من جلد الماعز . فهما اللذان استطاعا قهر الصحراء » .

ولعل جان لارتيجوي ، كان اكثر عصرية في اهدائه كتابه « الصحراء في سنتها الأولى » الى « سيارة الجيب وطائرة الداكوتا » ، وهما كما قال « الوسيلتان اللتان ايقظتا الصحراء من سباتها الطويل ، وبدلتا جميع ما لحياتها من طرائق » .

وكانت عملية الطيران الاولى عبر الصحراء الى النيجر في عام ١٩٢٠ .

وكان رائد الطيران في الصحراء جوزيف فويمين الذي أصبح فيما بعد رئيس اركان السلاح الجوي الفرنسي . فقد احال الصحراء من خط فاصل الى خط رابط ، يصل بين جبال الاطلس وافريقيا السوداء . ولكن الصحراء قبل خضوعها واستسلامها حصلت على ضحية بارزة في شخصية الرجل الواسع الاحترام بين الجزائر وتمبكتو وهو ماري — جوزيف — فرنسوا — هنري — لابيرين .

عيّن الكبتن (الرئيس) لابيرين ، في السنة الأولى من القرن الحالي ، ضابطاً مسؤولاً عن واحات الصحراء . ويعتبر هذا المنصب حتى يومنا هذا من المناصب الشاقة المتعبة ، ولكنه في تلك الأيام ، كان منصباً في منتهى القسوة والشدة . ولو عيّن فيه أي انسان آخر غير لابيرين في ذلك الحين ، لوجده اكثر مما يطيق ويحتمل . وكانت فرنسا قد احتلت مساحات واسعة من الصحراء ، ولكنها كانت تفتقر الى الوسائل لفرض سيطرتها . وكانت جماعات البدو الرحل ، تغير على الواحات التي لا حماية لها ، لسلب القوافل ، وغزو بعضها بعضاً ، ومن ثم الاختفاء قبل أن تتمكن القوات الفرنسية القوية من التدخل .

وخطرت للابيرين فكرة ، تقوم على النظرية القائلة ، بأنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، فخلق « الوحدات الصحراوية » ، وهي فرق من الدرك الصحراوي الراكب ، ضم اليها رجال قبيلة « الشعانبة » ، وهي قبيلة عربية من راكبي الجمال وخالقي الاضطرابات ، تقيم في شمال الصحراء . وكان نابوليون قد الّف فرقة من الهجانة ، ولكن أفرادها كانوا خيالة يمتطون الجمال بدلاً من الخيل . ولم يكونوا لا هم ولا هجنهم يشعرون بأية راحة . أما الطريقة التي اتبعها لابيرين فكانت مختلفة تماماً . وكانت نقطة البداية التي اعتمد عليها : الجمل والعادات المحلية ، والملابس البدوية . ولم يكن يهمه مطلقاً أي اثر يمكن لجيشه أن يتركه في الوطن اذا « ارتدى السراويل القصيرة والقمصان وقبعات القش » . ولكن كان يهمه اكثر من أي شيء آخر ، ان يؤمن الهجن لفرقته البدوية . ولذا فقد أعدّ لكل هجان ثلاثة جمال ، اعتبرها ملكاً له ، فقد دفع

اثمانها من مخصصاته ، وكان يعرف كيف يستطيع أن يعاملها دون أن يتعبها أو يقتلها . ولم تكن لديه اسطبلات او ثكنات ، فقد ظل الهجانة «ككلاب البحر في المحيط الصحراوي » ، من البدو الرحل . وتمكن لابيرين بقوته المؤلفة من عدد قليل من الضباط الفرنسيين وضباط الصف ومائتي رجل من قبيلة «الشعانبة» من تحقيق اقصى ما يمكن من النتائج . وتمكن في غضون بضع سنوات من تثبيت أقدام فرنسا في ممتلكاتها الصحراوية ، ومن تأمين الطمأنينة والسلامة لها .

وعندما نشبت الفتن في الحرب الكونية الأولى في الصحراء، وكان لابيرين قد غدا جنرالاً ، اعيد الى الصحراء ، لإعادة السيطرة عليها . وكانت حملته الثانية لا تقل عن الاولى نجاحاً ، فأعاد الهدوء والنظام الى الصحراء ، وكانت النتائج التي حققها مهمة من الناحيتين السياسية والعسكرية . وقد غدت حياته اسطورة لعدد من الاسباب . فقد احب شيئاً واحداً وهو الصحراء . وكانت طريقته في تكييف نفسه لحياة الصحراء رائعة . إذ كان اشبه ما يكون بجماله ، يستطيع أن يصوم عدة أيام متوالية وأن يعيش بضعة أيام اخرى على حفنة من التمر او رغيف من الذرة ، ولكن عندما تحين الفرصة يأكل بشراهة لا مثيل لها . والغريب انه لم يكن ضخم الجسم مارده ، بل كان رجلاً ضئيلاً ذا ساقين قصيرتين وصوت رفيع بعيد عن النبرة العسكرية . وقد تمكن هذا الرجل في رحلاته الاستطلاعية التي لا حد لها ولا حصر ، والتي كان يحشو دائماً دفتره بالمعلومات الجغرافية التي يجمعها ابانها ، من املاء الاماكن الخالية في خريطة الصحراء . وكانت له مواهب لا تجارى في الاحتمال والاكتفاء الذاتي والشجاعة ومع ذلك ، لم يكن بالانسان المتعصب . وكان حيثما ذهب يوحي بالثقة للآخرين في شخصه بما يبديه نحو الفقراء من لطف ومن تفهم لمشاكل أهل الصحراء ، وصبر وتفكير .

وقرر طيارو السلاح الجوي القيام بأول محاولة لاجتياز الصحراء جواً في عام ١٩٢٠ . وتقرر أن تقوم طائرات من ذوات المحرك الواحد والجناحين برحلة الى المدينة التي لا تزال تحمل ذلك الاسم السحري الذي كلف الكثيرين

من الجوالّين حياتهم ، وهي تمبكتو او « رومة النيجر » . واتخذت اعدادات كاملة وحددت الطريق وأماكن الهبوط ومستودعات الوقود والتموين بمنتهى الدقة والعناية . ووقفت الدوريات الصحراوية ، لتؤدي مهمة سيارات الاسعاف واقيم البرق اللاسلكي في تامنراسيت ، واشارت علامات الدخان الى الطريق بين هذه الواحة وبين السودان .

وكان الجنرال لابيرين آنذاك في الستين من عمره ، ولم يكن بين المشتركين في حملة الفضاء هذه ، ولكن بعد أن حلقت الطائرة من مطار الجزائر ،حاملة الجنرال الذي يتولى القيادة ، اضطرت الى العودة ، فصدر اليها الأمر بالطيران الى باريس فوراً . وقفز لابيرين ليسد الثغرة ، مهنئاً نفسه على هذه اللمسة الخاطفة من الحظ ، التي قدر لها ان تكون بمثابة الحكم عليه بالاعدام . فانضم الى الحملة في بسكره . وقد تحطمت احدى الطائرات اثناء تحليقها في ورغلة ، بينما اضطرت الثانية الى العودة اليها قبل أن تصل الى اينيفيل ، واضطرت الثالثة الى القيام بهبوط اضطراري أمام عاصفة رملية على مقربة من عين صلاح . ولم تصل الى تامنراسيت في جبال الهجر ، إلا بضع طائرات قليلة . واستقبلت قبيلة الطوارق بقيادة صديق لابيرين ، موسى اغا اماستاني ، طيور الجو استقبالاً حماسياً . ومضى فويمين ولابيرين في المرحلة الثانية من الرحلة الى « تن زواتن » ، ولكن الطائرتين وقعتا في عواصف رملية ضيّقت عليهما طريقهما . واضطرت طائرة لابيرين الى الهبوط في الصحراء بعد أن نفد الوقود منها . وانقلبت الطائرة على نفسها ، وكان طيارها هو الوحيد بين ركابها الثلاثة الذي لم يصب بأذى ، واصيب عظم الترقوة الايسر عند لابيرين بكسر ، كما اصيبت ركبته اليمنى ببعض الاضرار ، وبعض الضلوع بالكسر ، أما فويمين فقد مضى في طريقه دون أن يحس بحالة رفاقه .

واشترك الثلاثة في علب البسكويت وبعض علب الاطعمة التي كانوا يحملونها معهم . وقننوا الماء تقنيناً شديداً ، وكان الهواء من حولهم يتلظى بوقد الحرارة الشديدة التي لا ترحم . وانقضى يومان بعد تحطم الطائرة ، وهم يحاولون العثور

على بئر وعلى طريق للجمال ، قدروا أنها لن تبعد عنهم اكثر من اربعين ميلاً ، ولكن جميع جهودهم ذهبت ادراج الرياح .

وكتب لابيرين في يومياته ، بخط يد رجل انهكه التعب والاعياء يقول : « عدنا الى الطائرة في التاسعة من مساء الواحد والعشرين » . كانت هذه آخر يومية كتبها لابيرين . وقد رسم في نهاية الصفحة خطاً اخيراً واضحاً بقلمه رمز به الى نهاية حياته . وقام الطيار والميكانيكي بعد اسبوع واحد من محاولة الاستطلاع الفاشلة الأولى ، بمحاولة جديدة واخيرة للوصول الى « تين زواتين » ، التي تبعد كما قدرا نحواً من خمسة وسبعين ميلاً . ولم يكن الجنرال في وضع يمكنه من السير ، فتركا له تنكتين من الماء والكاكاو ، مع انبوب مطاطي في كل منهما ، حتى يستطيع الجريح أن يشرب منهما دون ارهاق أو تعب ، ثم خلفاه ومضيا الى الصحراء . ولكن هذه كانت لا تزال في حاجة اليهما ليشهدا موت لابيرين البطيء والمؤلم . فقد عاد الرجلان بعد ساعات طوال ، خيل اليهما أنها أيام ، الى حطام الطائرة. لقد تعطلت بوصلتهما ، ويبدو انهما سارا في طريق دائري . وظل الطيار والميكانيكي على قيد الحياة عشرين يوماً بعد تحطم الطائرة . وقد عثر عليهما الهجانة قرب الطائرة ، على بعد مائة وخمسين ميلاً من «تين زواتين» . أما لابيرين، فكان قد مات في الخامس من آذار. ودفن في تربة تامنراسيت الحمراء، على مرمى حجر من قبر صديقه الاب شارل دي فوكو ، الذي قتل في الصحراء في عام ١٩١٦ . ويقوم القبر الذي يعلوه اهرام صغير ، في الظل المتنقل لشجرة من اشجار الطرفاء . وهكذا يكون القائد والناسك ، أو الجندي ورجل الروح ، يمثلان مزيجاً غريباً ترك اثراً ملحوظاً في تاريخ الصحراء .

وظل الجنرال لابيرين سبعة عشر يوماً على قيد الحياة قبل أن يموت . وقد جعلت الصحراء من ميتته البطيئة تكفيراً عن العلامات التي تخطط الطريق الصحراوي ، حيث لم يكن هناك قبلاً الا عظام الجمال النخرة ، ولمحطات

الوقود في الواحات، ولرائحة الزيت في بساتين النخيل ولكل ما صاحب غزو الصحراء الآلي ، من هدير ودوي وازيز ، ولاختفاء الابل مرغمة من الصحراء واختفاء القوافل معها ، ولتخلي البدو الرحل عن خيامهم ليعيشوا تحت سقوف دائمة ، وللازمة التي تهدد غذاء ساكني الصحراء الازلي وهو التمر .

ورمز موت لابيرين الى نهاية حقبة ، وبداية حقبة اخرى ، اذ اعلن دخول العصر الآلي الى الصحراء .

ولم تكن الطائرة قد احرزت الأولوية في الصحراء ، وانما كسبت سباقاً مع الزمن . فالحرارة التي تحمل الوقود على التبخر ، والرياح التي تملأ الآلة بالرمال ، والرمل المحترق الذي يذيب العجلات ، والافتقار الى الطرق ، كلها عوامل عرقلت فوز السيارة في السباق . وقد حاول شخص يدعى الرائد (الميجور) بين، في عام ١٩٠٨ اجتياز الصحراء الكبرى بدراجة نارية . وسارت الأمور معه سيراً حسناً حتى ورغلة ، ولكنه قبل وصوله الى واحة الغوليه ، انكسرت آلة الدراجة معه . ولم تتمكن أية سيارة من الوصول الى عين صلاح حتى عام ١٩١٦ . ولكن بعد سنة تمكنت مجموعة مؤلفة من خمس سيارات بقيادة الجنرال لابيرين من الوصول الى هذه الواحة . وفشلت محاولة لابيرين في المضي الى الهجر . وتمكنت عدة شاحنات في عام ١٩٢٠ من الوصول الى تامنراسيت حاملة التجهيزات لمحطة الاذاعة فيها ولكن تسعاً من مجموع اثنتين وثلاثين سيارة غادرت الجزائر ، هي التي تمكنت فقط من استكمال الرحلة . وتمكنت سيارتان فقط منها من العودة الى ورغلة .

وانقضى عامان آخران ، قبل أن تستطيع اولى السيارات عبور الصحراء الكبرى بكاملها . ففي ليلة السادس عشر من كانون الأول عام ١٩٢٢ الشديدة البرودة ، انطلقت خمس سيارات سيتروان ، لها عجلات « محراث آلي » ، من توغورت باتجاه الجنوب . ولم يكن ثمة امل كبير في نجاحها . وقد امتنع قائدا الحملة ، جي.ام. هاردت و إل اودوان — دوبروي ، عن الاستعلام قصداً من الهجانة عن أحوال الطرق واتجاهاتها . وقد أرادا النجاح في مهمتهما

دون أن يكونا مدينين بشيء للجمل أو لخدمات راكبي الجمال . وقد نجحا بالفعل ، ففي السابع من كانون الثاني عام ١٩٢٣ ، وصلا الى تمبكتو دون أن يفقدا سيارة واحدة من قافلتهما .

وأخذ اختراق الصحراء بعد هذا التاريخ يسير الى الأمام في خطوات جبارة . وصممت شركتا السيارات رينو وبيرلييه ، المنافسة لرينو ، سيارة تسير على ست عجلات ، وتحرق وقوداً يعادل خمسة عشر غالوناً في كل مائة ميل . وبدأت شركة لاتيكور ، في عام ١٩٢٥ ، تسير خطاً جدياً منظماً من طولوز الى الدار البيضاء ومنها في الصحراء الاسبانية الثائرة الى داكار . وكان احد الرواد الاوائل في هذا الخط ، انطوان دي سان – ايكسوبيري . واقيم في عام ١٩٣٠ اول سباق للسيارات في الصحراء . وتمكنت اربعون سيارة مكشوفة من قطع الصحراء دون وقوع أي حادث الى أن وصلت ضفاف نهر النيجر . واصدرت شركة شل في عام ١٩٣٤ ، اول دليل « للسفر بالسيارة والجو عبر الصحراء » . وظهرت الداكوتا وسيارة الجيب على المسرح ، وكانتا بمثابة الجد الأول ، لشعب كامل من سيارات الصحراء . وكان لدى علماء « بعثة بيرلييه تينيريه » التي نجحت في استكشاف المناطق الخالية من الماء ، والعذراء تقريباً بين الهجر وبحيرة شاد ، اسطول صغير من هذه السيارات تحت تصرفها . فقد كان لديها تسع شاحنات من طراز « الغزال » ، وخمس سيارات اصغر حجماً كيفّت لتوافق أوضاع الصحراء ، وطائرة داكوتا (د.سي ٣) ، وطائرة سيزنا ، وطائرة هيلوكبتر . وهكذا بعد الفي عام ، من الزج بالجمل كسفينة الصحراء ، في هذا الميدان ، اصبح من المتوقع أن يلقى في سلة المهملات وان يقام له نصب تذكاري يكتب عليه « الى الجمل المجهول ، اعترافاً بفضله » . وأصبح في امكان الهيلوكبتر أن تنزل علماء طبقات الارض ، في المناطق الجبلية القاحلة في قلب الصحراء ، والصعبة الارتقاء ، والتي لم يكن الا الجمل وحده يستطيع الوصول اليها طيلة قرون عديدة .

وهكذا تم قهر الصحراء على صعيد المسافات . وقابلت في تامنراسيت في

عام ١٩٥٨ ، طالباً بريطانياً ، سافر مشياً مع ركوب السيارات احياناً بصورة مجانية اذا تيسرّت له ، من الجزائر ، قاطعاً الفاً ومائتي ميل لرؤية بلاد الرجال الملثمين .

وليس من محض الصدفة أن نداء المغامرة في مضمار الزمن ، يبدأ عندما يرضي الانسان نداء المغامرة في المسافات . وتضم الصحراء في الاقاصيص الحجرية المدونة على جدرانها الصخرية ، وبوسائلها التي سبقت عصور التاريخ ، وفي ما تنطوي عليه احشاؤها من متحجرات ترابية ، سجلاً رائعاً لم تحل رموزه بعد ، يشرح تاريخها وتاريخ الجنس البشري معها . ولا ريب في أن قصة الاستكشاف هذه لا تقل في اغرائها ، عما في الرحلة الى تمبكتو بحثاً عن الذهب فيها من اغراء .

وكان عام ١٩٥٦ ، سنة معجزات للصحراء . ففي كانون الثاني تفجرت الارض في « ايجلي » عن اول بئر للبترول في الصحراء . وقامت بعثة يقودها هنري لهوتي في شباط من العام نفسه ، بالصراع مع الارض الصخرية في تاسيلي ، بحثاً عما اسماه احد المستكشفين « اكبر اثارة فنية يجربها العلماء منذ اكتشاف ضريح توت عنخ امون » . وعاد الاستاذ كويزيل في شهر نيسان من أواسط الصحراء الكبرى ، وقد جمع المعلومات اللازمة لكتابه المثير عن تحليل عمليات تلقيح النبات . وفي تموز وجد لهوتي نفسه وجهاً لوجه مع الهة الخصب ذات القرون ، المعروفة باسم « سيدة اوان رهيت البيضاء » ، بينما تفجر في حاسي مسعود على بعد اربعمائة ميل الى الشمال ، اغنى بئر للبترول في المنطقة كلها ..

ويعمل علماء طبقات الارض ، تحرسهم المدافع الرشاشة الآن ، بمعاولهم في بطن الصحراء . ولا يعتبر العمل تحت حراسة عسكرية شيئاً جديداً ، بل اصبحت تقليداً مألوفاً بدأه جورج – بارتليمي – مديريك فلاما ند، الذي يقول عنه معجم لاروس انه كان « جوالاً فرنسياً وعالماً بطبقات الارض ولد في باريس ، ومات في الجزائر (١٨٦١ – ١٩١٩) وقد قام بأعمال تنقيب

مهمة ، لدراسة اوضاع طبقات الارض في افريقيا الشمالية ، واشترك في الحملة التي أدت الى احتلال عين صلاح في عام ١٨٩٩ » . وقد اكتشف فلاماند بين ما اكتشفه، أن حاميته العسكرية كانت تعتبره انساناً مجنوناً . وقد استخدمت عمله ، ستاراً تخفي وراءه حقيقة نشاطها وأعمالها . وكانت قبيلة الطوارق لا تزال تسيطر على منطقة « تيديكلت »، وكان رجال الهجر الملثمون ، يعتبرون مركزها في واحة عين صلاح ، ملكاً لهم . وحتى ذلك التاريخ ، لم يكن الارجلان اوروبيان قد وضعا اقدامهما في قصر عين صلاح ، واحدهما اسكوتلندي ، ويدعى غوردون لايينغ والثاني الماني ويدعي ايرهارد روهلفس . وكانت عين صلاح ، سوقاً مهمة من أسواق الرقيق وريش النعام والعاج ، ومسحوق الذهب والاقمشة والشاي والتمور . وكانت عشيرة الطوارق ، قد قررت ان تنزل اقصى العقاب بكل اجنبي يجتاز خط الحدود الذي وضعوه هم لمنطقتهم . وكانت المذبحة الناجحة التي أبادوا فيها حملة كاملة يقودها العقيد فلاترز في عام ١٨٨١ قد اسكرتهم بنشوة النصر . واصيبت كبرياء فرنسا في صميمها ، وتلقت هذا التحدي بخلق اسطورة لا حول قتلاها فحسب ، بل حول قاتليهم من رجال الطوارق . وهكذا غدا العقيد الذي كان ضعيفاً للغاية ، وضابطاً مجرماً ، شهيداً في عين الفرنسيين وبطلاً قومياً ، بينما غدا الطوارق ، الذين كانت اسلحتهم من مخلفات العصور الوسطى ، وكانوا ضعفاء بالنظر لقلة عددهم ، اشداء ، لا يقهرون . وآمن الرأي العام الفرنسي بتحريم اية مغامرات عسكرية اخرى في الصحراء ، أما الدوائر العسكرية الافرنسية فكان لها رأي آخر . ولذا لم يدهش فلاماند ، عندما رأى حامية عسكرية قوية مؤلفة من نحو من مائة واربعين مسلحاً تلحق ببعثته الجيولوجية المسافرة الى تيديكلت . ولكن الطوارق لم يضيعوا وقتهم عبثاً ، اذ لم يكد فلاماند يظهر في أراضيهم ترافقه حاميته حتى هاجموها. ولم يباغت العسكريون بهذا الهجوم الذي توقعوه وخططوا له . ولم تكن هذه المسرحية الهزلية موجهة ضد الطوارق بقدر ما كانت موجهة ضد الحاكم العام في الجزائر ، وهو موظف كثير الحذر والحرص

يضع عمله فوق كل اعتبار . وكان من المؤكد ان مثل هذا الموظف سيرفض الموافقة على مثل هذه الحملة العسكرية المقنّعة ، ولكنه بوغت مباغتة كلية ، بالمهزلة التي مثلها عالم طبقات الارض البريء .

ويبدو أن فلاماند نفسه لم يعرف بالمناورة إلا بعد هجوم الطوارق ، عندما تولى الرائد (الميجور) بين ، القيادة ، واستدعيت وحدات عسكرية تبلغ من مجموعها قوة فوج ، بسرعة صاروخية ، لتظهر في المكان وكأنها خرجت من بطن الأرض لتعزيز الحامية الحارسة . وعلى الرغم من احتجاجات العالم ، فقد وقع اشتباكان عنيفان اسفرا عن احتلال عين صلاح في الأيام الاخيرة من القرن التاسع عشر . وهكذا وصلت فرنسا ، على الرغم منها ، الى عتبة بلاد الهجر والطوارق . وعندما واجه الحاكم العام هذا الأمر الواقع ، كيفّ نفسه على أحسن ما يرام لتقبله ، وحمل باريس على ابتلاع هذه الفتوحات الجديدة . ولم يلق صعوبة بالطبع في ذلك ، لأن المشروع قد نجح . أما فلاماند ، فلم يجد من السهل عليه أن يتقبل الحقيقة المرة وهي أنه قد خدع . وتحدى الرائد بين للمبارزة بالرماح على الكثبان الرملية في عين صلاح . وقد عوّض عليه غضبه ما كان يفتقر اليه من خبرة وتجربة في استخدام السلاح ، وكاد بين الذي قدر له أن يكون فيما بعد من الرواد الأوائل في استخدام الدراجات النارية في الصحراء ، ان يكون اول مرشح مقبول للمقبرة المسيحية في عين صلاح .

وكان فلاماند مولعاً كل الولع بالحجارة المكتوبة . وتمكن بعد عمل شاق استغرق سنوات عدة من البحث العلمي والتنقيب في الميدان ، من اكتشاف عدة مواقع تضم كتابات على الحجر . وقد تضمن كتابه « الحجار المكتوبة » الذي صدر بعد عامين من وفاته وصفاً مسهباً كاملاً ، للنتائج التي حققها وتوصل اليها . وكان هذا الكتاب اول مؤلف شامل عن الكتابات الحجرية في الصحراء .

أما قصة اكتشاف رسوم تاسيلي فقصة ثانية ، وقد بدأت شأنها في ذلك شأن التنقيب عن الكتابات الحجرية في الصحراء بوجه عام ، على ايدي ضباط

تمكنوا من أن يجمعوا بين علم طبقات الارض وفن الحرب . وكان الرائد الاول في هذا الميدان الرئيس (الكبتن) كورتييه . فقد شاهد في عام ١٩٠٩ ، صورة حيوان مرسومة بالطين الاحمر على مجموعة متدلية من الصخور . وخيل اليه أن هذا الحيوان هو البيسون ، لكنه كان في الحقيقة ثوراً . وعثر الملازم غارديل ، في عام ١٩١٢ ، أي في السنة التي انتصر فيها على قبائل العجير والطوارق ، في « اسيبي » ، على عدد من الرسوم على مقربة من بئر تقوم على طريق القوافل القديم المؤدي الى سوق الملح المعروف في « بيلمه » . وتعود هذه الرسوم الى مختلف الحقب التاريخية ، وهي تضم صور الثيران والخيل والظباء والبرابرة والرموز العربية . وذكر كونراد كيليان في عام ١٩٢٨ — ١٩٢٩ وهو أول من تنبأ بوجود نفط في الصحراء وان لم يعترف بنبوءته، انه وجد صور الزرافة ومناظر الصيد ، والمحاربين المسلحين بالسهام والأقواس. وعثر الرئيس دوبريه والملازم نولي في عام ١٩٣٢ على مجموعات من البيوت الصخرية اثناء قيامهما برحلة استكشافية داخل تاسيلي . وقد وقفا ذاهلين أمام صورة العربات تجرها الخيول ، والاسماك ، وقطعان الثيران ومجموعات كلاب الصيد .

٢

موعد مع ملكة الهجر

قال لي الرئيس (الكبتن) روسي ٭ ، عندما قابلته في الجنة من أعمال مقاطعة تاسيلي التي يتولى ادارتها .. « ان لهوتي على موعد مع انتينيا . وهذا هو السر كله » . ولا يلقى روسي بالكلام جزافاً وعلى عواهنه فهو يعرف ما يقول وما يتحدث عنه ، وهو لا يخفي سراً عندما يعترف هو ايضاً بأنه عبد من عبيد انتينيا . وكان قد قرأ الاطلانتيد وهو في الثامنة عشرة من عمره وسرعان ما التحق بفرقة الهجانة .

وانتينيا هذه ، هي بطلة قصة بيير بنوا المشهورة عن الاطلانتيد ، وهي من سلالة الاطلنتيديين وتعيش في قصر سحري في جبال الهجر . وهناك سحرت ضابطين فرنسيين ، واسرتهما الى ان قضت عليهما .

وكان عمل بيير بنوا ، اكثر من مجرد اضافة ثلاثمائة وخمسين صفحة جديدة من الخيال الابداعي الرومانطيقي الى الآثار الادبية الخالدة التي كتبت عن الاطلانتيد وهي الآثار التي بدأها افلاطون بقصته المشهورة التي طبع منها حتى الآن ملايين الصفحات . وليست انتينيا مجرد بطلة من بطلات قصص المغامرات ؛

فقد مضى أحد أصحاب الملايين من الامريكيين الى الحد الذي اكد فيه للعالم بأسره ، بأن انتينيا ، وجدت وعاشت ، وكان هذا في عام ١٩٢٥ ، عندما كشفت الحفريات التي جرت تحت بعض الآكام في « ابي العيس » عن وجود جدة قبيلة الطوارق ، اذ عثر على جمجمة امرأة بيضاء ، دفنت في مدافن الملوك .

وانتينيا ، هي ساحرة الصحراء ، وقد بلغ عدد الذين استهوتهم من الذكور ، حداً كبيراً . وأنا افكر الآن بعدد الملازمين الذين استهوتهم الرمال ، واجتذبهم سحرها ، كما اجتذبتهم الصخور والوحدة ، فدفنوا انفسهم في الصحراء ، وأداروا ظهورهم عن طيبة خاطر ، لمستقبلهم وغدهم . وأنا افكر بالرؤساء الذين لا يحلمون بالترقية الى رتب أعلى ، بل بارسال تقرير الى اكادمية العلوم أو الى الكتاب السنوي لمؤسسة الدراسات الصحراوية . وقد قام ضباط فرنسيون بثلاثة ارباع الاكتشافات في الصحراء الكبرى . وكان على طلاب الصحراء ان يشكروا الجنرال لابيرين ، لأنه هو نفسه كان متعشقاً للصحراء ، ولأنه لم يكن يمنع أياً من ضباط وحداته ، اذا عهد الى جنوده ، جميعاً بحفر الارض بحثاً عن رؤوس النبال التي يعود عهدها الى ما قبل التاريخ . وقد استن الجنرال تقليداً ما زال مستمراً حتى يومنا هذا . لكن الفضل كل الفضل يعود لانتينيا نفسها . فما عجزت روح لابيرين عن تحقيقه ، تمكنت انتينيا بسحر عناقها من تنفيذه .

نشر بنوا قصته عام ١٩١٩ . وكان هنري لهوتي من قرائها الاوائل . وهو غلام في السادسة عشرة من عمره ، ولد يتيماً وفقيراً ، وعاش على اكتاف الكنيسة ، ولكنه سقط في غرام انتينيا . وكانت له غايتان كبيرتان في حياته ، اولاهما ان يعرف الصحراء ويستكشفها ، فكثيراً ما كان صهره يبعث اليه منها ببعض الورود التي تنبت في الرمال . أما الغاية الثانية فهي أن يتعلم الطيران . وقد تحققت له هذه ، عندما اصابته القرعة العسكرية ، وأوفد الى احدى وحدات سلاح الطيران . أما الغاية الثانية فلا يمكن لها أن تتحقق الا بفضل جهوده الخاصة .

وعلى الرغم من أنني لم اجتمع بلهوتي ، إلا ان اسمه كان يذكر أمامي في كل مناسبة ، سواء اكنت في خيمة استوائية من خيام منقب عن البلاتين ، أو في « بار » في معسكر من معسكرات الباحثين عن الزيت ، أو في قلعة حربية . واذا ما حكمت على الرجل من المناقشات التي كنت استمع اليها تبين لي ان لهوتي خلق لنفسه مائة عدو مقابل صديق واحد . وكانت شجاعته وعناده ، واحتماله وتقشفه ، اشياء لا يرقى اليها الشك ، ولكن ناقديه كانوا يؤكدون دائماً أن هذه الخصال لم تكن لتنفصل قط عن طموحه الطاغي وسعيه الحثيث لفرض نفسه وإرادته .

ولم يجد لهوتي أن من السهل عليه أن يحافظ على موعده مع انتينيا ، اذ لم تحن الفرصة له الا في عام ١٩٢٨ ، وكان آنذاك يدرس علم الحيوان ، فقرر متحف التاريخ الطبيعي في باريس ، ان يعرض خدماته على الامير سكتس دي بوربون — بارما ، ليرافقه في حملته . وتقرر ان ينضم الى الحملة التي كانت تعمل في الصحراء ، كخبير في الافاعي والزواحف . وعندما هبط لهوتي ارض الجزائر سمع بأن عالماً آخر من علماء الحيوان قد تسلم العمل ، الذي اوفد هو خصيصاً للقيام به . ولم يكن يعرف احداً في شمال افريقيا . ولم تكن لديه اتصالات أو حتى أموال كافية للعودة الى فرنسا . ولو كان أي انسان آخر في مكان لهوتي لعاد فوراً على اول سفينة . ولكنه قرر ، أن يعمل في الحشرات بدلاً من الزواحف التي اوفد للعمل فيها . وكانت الهيئة الرسمية الوحيدة التي في وسعها أن تساعد شاباً يتوق الى اكتشاف الصحراء ، هي « مكتب العناية بالنباتات الزراعية » . فعهد اليه المكتب بالقيام ببعض البحوث عن الجراد . وكانت الأموال الموجودة تحت تصرفه محدودة للغاية ، ولكنه اصبح يشغل على الأقل منصباً رسمياً ، وغدا حراً في التجول في الصحراء . وسرعان ما غدا لهوتي خبيراً بالجراد ، وأصبح الطلب عليه شديداً لقتله وابادته . وقد اكتشف المناطق التي يفقس فيها الجراد اثناء هجرته ، وتمكن في غارة واحدة قام بها على مقربة من تمبكتو ، من ابادة مليون وثلاثة ارباع المليون غالون من الحشرات

واصيب حاكم في منطقة نهر النيجر ، بمرض اقعده عن العمل ، فعهد الى لهوتي بالحلول محله ، حيث استمر يعمل ثلاثة اشهر ، وعندما عرضت السلطات عليه بطاقة سفر مجانية الى الوطن ، رفض العرض ، وعاد فقطع الصحراء وحيداً على ظهر الابل . ووصل في نهاية عام ١٩٣١ وقبل يومين من حلول عيد الميلاد الى مدينة الجزائر ، وقد لوحت الشمس وجهه ، وغدا العبد الذي كرّس نفسه للصحراء .

ولم يغفر زملاء لهوتي من رجال العلم له قط ، تلك الفترة الملأى بالمغامرات من حياته . وحصل فيما بعد على شهادة الدكتوراه . فقد تقدم الى الامتحان في عهد الاحتلال الألماني لفرنسا ، ولكن الامتحان لم يكن سهلاً عليه إذ اصيب اصابة بالغة في احدى الغارات البريطانية ، ولما حان موعد الامتحان اخذوا يحملونه الى السوربون على ظهر « نقالة » . وحصل على شهادته في علم التاريخ الطبيعي للاجناس البشرية وعهد اليه بمنصب رفيع في المؤسسة القومية للبحث العلمي . وشرع يهتم بالمتحف البشري في باريس ومنح الميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية الفرنسية ، تقديراً « لبحوثه مدة خمسة وعشرين عاماً في الصحراء » ، كما منح وسام الاستحقاق الصحراوي من درجة ضابط . وعلى الرغم من كل هذا ، فقد ظل ناقدوه يلمسون اثاراً من روح « المغامر » هنا وهنالك من البحوث العلمية التي كان يصدرها ، كما كانوا ينتقدون فيه جرأة غالبة في التفسير ، وادعاء في النظريات ، واصطناعاً في الملاحظة ..

لكن اياً من اشد خصومه لم يكن يستطيع ان ينكر عليه ، انه كان يحس في الصحراء وكأنه يعيش في بيته . فمنذ انتهاء حملة مكافحة الجراد دأب على العودة الى الصحراء . واذا شئنا التعبير عن رحلاته بارقام الاميال التي قطعها على ظهور الجمال ، قلنا انه دار حول العالم مرتين . ولا يستطيع تقدير هذا الا كل من عرف ركوب الابل ، أي انه قطع كهجّان خمسين الف ميل . وقد شهد له الجنرال مينيير ، وهو من مكتشفي الصحراء ايضاً بما يعتبر خيراً من أي وسام اذ قال : « ان لهوتي يعرف الصحراء اكثر من أي انسان آخر » .

ولم يحصل لهوتي على هذه الشهادة بسهولة ، بل بحياة طويلة من العزلة في الصحراء.
وقد تكون بعض الاستنتاجات التي وصل اليها لهوتي بفضل اكتشافاته متسرعة وعاجلة واحياناً غير معقولة ، ولكن الفضل يرجع اليه في اكتشاف تلك الكنوز الغنية في جبال تاسيلي والحفاظ عليها .

وفي عام ١٩٣٣ ، ذهب الملازم برينانز على رأس فئة من الهجانة الى وادي الجراد . وكانت هذه الرحلة تمريناً عادياً من نوع الرحلات الاستكشافية التي اعتاد الهجانة القيام بها . لكن جو الصحراء يفرض على الرتابة شيئاً من الجدّة والمغامرة . وكان برينانز أول اوروبي يدخل هذا الوادي الذي يقطع هضبة تاسيلي . وفجأة لاحظ الضابط على الجدران المنخفضة التي تحيط بطرفي مجرى النهر الجاف ، اشكالاً غريبة لم يرَ لها مثيلاً من قبل .

وقد كتب لهوتي يقول : « واصدر الملازم امره فوراً لرجاله بالترجل عن هجنهم ، وخيل اليه انه يعيش في حلم . فقد رأى صوراً لالعاب ضخمة نقشت على الصخور . فقد كانت هناك فيلة تمشي وقد رفعت خراطيمها ، وجواميس الانهار التي جاءت من مياه قريبة لترعى ، ووحداء القرن وقد مشت بقرونها مهددة ، وزرافات وقد خطت بهامات مرفوعة وكأنها تمد اعناقها الى الاشجار الشوكية .. وبالاختصار ، كان هذا الوادي الذي احرقته الشمس يؤلف صورة رائعة » .

وواصل برينانز السير في ذلك الطريق الى ان وصل الى حاجز لا يمكن قطعه من الصخور فاضطر الى العودة . وسرعان ما ابلغ الساطات نبأ الاكتشاف الجديد . وأوفدت باريس والجزائر الجغرافيين وعلماء ما قبل التاريخ . ومضى لهوتي الى المكان بصورة غير رسمية .

وارتحل لهوتي مع بيريت الجغرافي من قلعة بوليناك صاعدين الى الطرف الشمالي من هضبة تاسيلي ، باتجاه وادي الجراد ، حتى وصلا الى واحة مهجورة ذات اشجار قديمة ، توقفا عندها . وبدا لهما ان الطريق اغلقت امامهما بحاجز لا يمكن اقتحامه من عساليج النخيل والنباتات المتسلقة . وقد يئس بيريت من

امكان المرور ، بينما رفض لهوتي التفكير حتى في التراجع . وشق له ممراً ضيقاً عبر النباتات الصحراوية التي كانت اشبه بدغل استوائي منها بنباتات جبلية صحراوية . وتشققت يداه وذراعاه ، وسالت الدماء من جراحه ، وتقطعت ملابسه من الاشواك ، وهو يشق طريقاً ضيقاً يمر فيه ووراءه القافلة . واقام السائحان معسكراً وراء هذه النباتات حيث وجدا بحيرة قريبة ملأى بالاسماك ، اقبلوا على صيدها بدبابيس عقفوها ووضعوا في رؤوسها قطعاً من التمر . وكانت هذه الاسماك من بقايا الصحراء الخصبة ، التي كان على لهوتي أن يحل رموزها الموجودة على جدران تاسيلي الصخرية .

وقضى مختلف الاساتذة الذين جاءوا من باريس والجزائر بضعة أسابيع في الصحراء . أما لهوتي فقد قضى ثمانية عشر شهراً كاملة . وقام يرافقه بريننانز احياناً ، واحياناً وحده ، باستكشاف جميع المنطقة الواقعة في تاسيلي وغيرها من سفوح جبال الهجر . ونفقت الجمال الاربعة التي كان قد استثمر فيها جميع أمواله واحداً اثر اخر ، فقد كانت الطرق الوعرة ، فوق تلك الصخور القاحلة التي احرقتها الشمس ، اكثر مما تحتمل او تطيق . وعاد لهوتي الى فرنسا وهو لا يحمل اكثر من حمولة خرج . ولكنه لم يستطع أن يبعد من خواطره الصور المرسومة على الصخور ، اذ بالاضافة الى الصور المنقوشة المجهولة التي اكتشفها ، فقد عثر ايضاً على صور على العروق الصخرية واحياناً في تجاويف تخفيها الصخور ، واحياناً على سطوح الصخور نفسها . وكان بريننانز قد دله اولاً على الصور التي اكتشفها الى الشمال من الجنة في الطرف الجنوبي من جبال تاسيلي . ولما كان لهوتي قد استمر في عمليات التنقيب ، وعثر على صور جديدة ونقوش أخذ ينقلها فان مالديه من أوراق الرسم والألوان التي يستخدمها نفد قبل أن تنفد الصور .

وأخيراً تألفت حملة تاسيلي في عام ١٩٥٤ ، وهي الحملة التي كان لهوتي يحلم بها منذ عشرين عاماً . وكانت أعماله الاخرى ونشوب الحرب ، والاصابات التي لحقت به من الغارات الجوية هي التي اجلت تنفيذ هذه الخطة . وكان

من الممكن أن لا تؤدي الحملة في عام ١٩٥٤ الى اية نتيجة لولا ان عالمة الاجيال ، يولاند تشودي ، كانت قد زارت تاسيلي في عام ١٩٥٠ . وكانت الغاية الرئيسية من زيارتها ، القيام بدراسة جيلية « اثنولوجية » لبدو الطوارق في الهجر ، ولكن المحل ذلك العام ، كان قد ارتحل بهم نحو الجنوب . ولهذا صرفت هذه العالمة السويسرية الجريئة وقتها في دراسة الرسوم الصخرية . وقد اكتشفت عدداً من الرسوم الجديدة ، ونقلت صورها بمنتهى العناية ونشرتها في ايطاليا تحت رعاية الاستاذ باولوغرازيوزي ، الحجة الايطالي المشهور في النقوش الصخرية . وكانت غرفة الكنز في تاسيلي ، مفتوحة للجميع ، وعندما نقلت يولاند تشودي بعض المجوهرات منها ، لم يكن وراءها أي دافع خارجي آخر ، سوى خدمة قضية المعرفة الانسانية. ولكنها كانت بعملها هذا، قد غزت دون ان تشعر ، منطقة كان لهوتي يعتبرها ، خاصة به . وادركت السلطات الفرنسية التي كانت تغار على صحرائها ، الخطر المتزايد من غزو الاجانب الآخرين لتاسيلي .

وطلع فجر اليوم العشرين من شهر شباط عام ١٩٥٤ ليكشف عن منظر من الفوضى لا يكاد يصدق في قلعة واحة الجنة . فقد كان ثمة خمسة من سائقي الجمال يسبون ويشتمون بينما كان نحو من ثلاثين جملاً ، في حالة هياج شديد ، ووقف الفنانون الاربعة والمصور ، الذين حشدهم لهوتي في حملته يحاولون عبثاً اعادة النظام الى هذه الفوضى الضاربة اطنابها .

والجنة واحة رائعة الجمال بقلعتها البيضاء كالثلج وحدائقها الملأى بأشجار الخوخ ، وشجيرات الورد المتسلق . وهناك في وادي الجرايو ، الذي تملؤه اشجار النخيل مساحات فسيحة من الارض مزروعة بالقمح والشعير والذرة . وفوقها يقوم حائط من صخور تاسيلي ، لونه كلون المشمش في ساعات الشروق المبكرة ، وكلون الرصاص في ضوء الظهيرة الذي لا يرحم ، ويتحول بعد المغيب من حمرة الخمر الى سواد الحبر . ولا ريب في ان المنظر من قلعة شارليت كان سيكتسب شهرة عالمية ويشار اليه بأربع نجوم في كل كتاب من

كتب الادلة ، لولا أنها بعيدة ، وصعبة المنال، بعد النجوم عن الارض . وتبعد الجنة عن مدينة الجزائر نحواً من الف وخمسمائة ميل ، ستمائة منها فوق طرق صحراوية وعرة ، ومائتان وخمسون منها فوق ارض صخرية لاتسير فيها الا القوافل التي تحطم الاعصاب . ولا تقع الجنة على أي طريق جوي مدني . ولا غرو والحالة هذه اذا لم نجد مركز منطقة تاسيلي ، مذكوراً حتى في دليل ميشيلين للجزائر والصحراء الكبرى .

والجنة كلمة عربية تعني الفردوس . ومن الأقوال الشائعة في الصحراء : « في وسعك ان ترى الجنة وان تموت بعدها » . لكن فريق لهوتي ، لم يكن يفكر في الموت في ذلك اليوم من أيام شهر شباط عندما حملوا جمالهم ثلاثة اطنان من المعدات والمؤن . فالفردوس الذي يبحثون عنه واقع في الصور المهترئة ، والتي اتلفها الطقس والموجودة على صخور تاسيلي .

ولا يزال الناس في الجنة يذكرون الحملة ذكرى هي مزيج من الحب والاحترام . وحتى الرجال الذين علمتهم الصحراء على الخشونة مع رفاقهم ، والذين لا يتأثرون بسهولة ، لم يكونوا معتدلين في مديح رجال هذه الحملة .

وسمعت احد هؤلاء الرجال يقول : لقد ابتلعتهم تاسيلي ، وبصقتهم واحداً بعد واحد . ولقد عادوا لينظموا ارسال المؤن الجديدة أو ليلقوا العناية الطبية . كانت لحاهم طويلة ، وملابسهم مهلهلة ، وفي المرحلة الاخيرة من الاعياء . انهم من رجال القرن العشرين ولكنهم يعيشون حياة العصور الحجرية ، ولكني لم أرَ أياً منهم ، قد ثبطت عزائمه ، حتى فراساتي ، الذي اضطروا لاعادته الى الوطن لانه خسر ثلاثة ارطال من وزنه » .

وكان من الشاق والعسير الذي يحطم الاعصاب ، ايصال الجمال الى الهضبة عن طريق ذلك الممر الضيق الذي لا تستطيع المرور منه الا حيوانات الجر . وكثيراً ما انهارت الجمال في الطريق ، واضطر الرجال الى حمل ما كانت تحمله . ولكن كل هذا لم يكن الا جزءاً صغيراً من التجارب والمتاعب التالية . وقامت الحملة بنقل الصور . وكان الرسامون يبدأون بنقل الخطوط العريضة

للصور ، الى الورق بعد تتبعها على الصخر التي هي من نفس لونه . وسرعان ما تملأ الابعاد المختلفة والظلال الاصلية . وكان التصوير الفوتوغرافي في معظم الحالات أمراً مستحيلاً ، بسبب الافتقار الى الابعاد والى الضوء ، وبسبب اوضاع السطوح الصخرية . وبينما يكون الفنانون مشغولين في نقل الصور واحدة اثر اخرى ، كان لهوتي يذرع المناطق المحيطة بحثاً عن صور جديدة . وكان من الشاق احياناً العثور عليها وهي مخبوءة تحت الطبقات السطحية التي ألفتها القرون الطويلة ، وتحت قشرة من الرمل والطين والغبار . ولنأخذ مثلاً واحداً ، فقد قضت البعثة نحواً من اسبوعين مرابطة على مقربة من معبد الاله المريخي العظيم ، قبل ان يظهر الجدار اية علائم تشير الى اظهار أي شيء ، وقبل ان يبدأ شبح الصحراء في الظهور تحت الاسفنجة المبللة .

ولكن الاسفنجة حققت مع مضي الشهور اكثر من مائة معجزة ومعجزة . فقد احالت قطعاً مظلمة وسنجابية من الجدر الصخرية الى ألوان متألقة تخلب البصر . ولم يكن ثمة أي خطر قط على الرسوم نفسها . ومن حسن الحظ ، ان فنان ما قبل التاريخ قد مزج ألوانه بسرعة مع بروتينات الحليب ومع عصارات نباتية صمغية ، ولاسيما من الاكاسيا او من اشجار اللبان العربي . وقد ساعدت الطبيعة الامتصاصية الموجودة في الاحجار الرملية على الاحتفاظ بهذه الألوان . وكان العيب الوحيد في هذه الطريقة المبتكرة في ترطيب الجدران ، هو أنها كانت تجد طريقها للتسرب الى مياه الشرب الثمينة ومياه الطبيخ .

ومضت الحملة تنقل الصور .. ويالها من كلمة بسيطة !! ولكن العملية خلقت مشاكل ومتاعب لا حد لها ولا حصر . كان الرجال يعملون في اماكن يتراوح ارتفاعها بين ستة آلاف وستة آلاف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر . وفي الشتاء كانت ايديهم تتجمد من شدة القر ، ولكنهم ما كادوا يكيفون اصابعهم على حمل الفرشاة باصابع لا ترتعد ، حتى وجدوا انفسهم مرغمين على تكييف انفسهم لصيف تاسيلي الطويل . ثم جاءت رياح الصحراء التي يتوقف العمل ابانها اياماً ، اذ يندمج الغبار ابانها مع الألوان ، وتمزق شدتها

ورق الرسم . وكانت دفقة واحدة من هذه الريح اذا اهملت ، كافية لتخريب عمل اسابيع طويلة . وفي الظروف العادية ايضاً ، هناك الاجهاد البدني الشديد من العمل في حيز مقفل ، وتحت صخور معلقة . وقد فهموا الآن لماذا تصلب عنق ميشيل انجيلو عندما كان يرسم سقف الكنيسة . وكان نقل الصور العالية على الجدران يعني الحفاظ على التوازن فوق موائد الرسم وكأن الفنانين من راقصات « الترابيز » .

ولم تكن معيشة هؤلاء البهلوانات وكأنهم في « سيرك » ، أحسن من معيشة فناني العصور ما قبل الحجرية . فالحصى تمزق احذيتهم ، وثيابهم تقطعت الى مزق ، وأخذوا يعانون من الجوع والعطش . وكانوا يبحثون في الليل عن المأوى في بطن الصخور ، وكانوا في النهار ، يستخدمون الحجارة العادية لطحن حنطتهم .

وكان لهوتي قد خطط في البداية ان ينتهي من هذا الواجب الذي فرضه على نفسه في غضون ثمانية اشهر ، ولكن بعد انتهاء تلك المدة لم يكن قد اكمل اكثر من نصف العمل . فقد كانت الاكتشافات في كمّها وكيفها تفوق كل ما توقعه . ففي مكان يدعى « الجبارين » ، ظهرت اكثر من خمسة آلاف صورة في مسّيف (جدار جيولوجي ضخم) ، طوله ثمانمائة ياردة واتساعه سبعمائة ، كما ظهرت بقايا نحو « دزينة » من الحضارات المختلفة ، حشرت مع بعضها دون أن يكون ثمة علاقة واضحة بينها ، ورسمت بعضها فوق بعض ، وكان الرسام يمسح الأولى ليضع الثانية فوقها ، وبعضها مأخوذ من الطبيعة ، والبعض الآخر في منتهى الدقة ، بينما البعض الثالث جريء في اطلاقه ، وقد غطت هذه الرسوم كل اتساع ممكن من المصغّرات الى التماثيل المصورة

وتحتم على لهوتي ان يحشد عدداً آخر من المساعدين للمرحلة الثانية من العمل . فقد كان الاجهاد والارتباطات الاخرى في الوطن ، قد خفضت عدد أفراد فريقه الاصلي إلى أن لم يبق منهم احد تقريباً . وكان شتاء عام ١٩٥٦ — ١٩٥٧ في منتهى القسوة . وسقط الثلج في تاسيلي وهو أمر نادر الوقوع في قلب الصحراء.

وكنتيجة لهذه الأوضاع المناخية الشاذة ، تأخرت عودة الحملة الى فرنسا ، ولم يصل آخر عضو من اعضائها الى باريس الا في العاشر من تموز عام ١٩٥٧ .

وكان للهوتي كل ما يبرر رضاه عن النتائج . فقد تمكنت حملته من نقل ثمانمائة صورة صخرية بكل امانة ودقة على ورق للرسم تبلغ مساحته نحواً من خمسة عشر ألف قدم مربع . وبالطبع لم تكن هذه هي كل الرسوم التي أزاح الأرض عنها هو ورفاقه . ولا ريب في أن الدليل لصور تاسيلي الذي يمتد على ارض طولها خمسمائة ميل وعرضها اربعون ميلاً ، ما زال يضم بضعة الوف اخرى من الصور التي لم تكتشف بعد . ولكن حملة لهوتي قد اقامت الدليل على ان وسط الصحراء الكبرى ، كان في اوائل العصر الحجري ، مليئاً بالسكان وان هضبة تاسيلي كانت محور حضارات وشعوب مجهولة سبقت التاريخ .

ولعل من ابرز هذه الاكتشافات صورة مرعى جبارين . وقد اكتشف لهوتي صوراً اخرى تضم عدداً اكبر من الحيوانات ، ولكنها اقل منها غنى في خطوط ألوانها وتوزيعها ، وأقل منها ايضاً حيوية وتفصيلاً . فالرسم ليس مجرد صورة لعدد كبير من الحيوانات وانما هو يظهر مرعى كاملاً بقادته ، وعدائيه ، ومتشرديه وتائهيه . ومع ذلك فقد تمكن الفنان الذي رسم هذه الصورة من ان يعامل كل حيوان فرد في مرعاه بمنتهى الحب والرعاية . فليس هناك حيوانان متشابهان . واللوحة الصخرية التي تجمع بين الحمرة والصفرة ، مليئة بثروة من الصباغات ، هي فريدة في نوعها بالنسبة الى صور ما قبل التاريخ . وكانت الألوان التي استخدمها فنانو تاسيلي ، بالاضافة الى الاحمر والاسود ، البنفسجي والاصفر والاخضر وحتى الازرق . وكان التركيب مختلفاً ايضاً . فهناك صور عدة تمثل مختلف أنواع الماشية . وهناك القرون الرفيعة والثخينة والقصيرة والطويلة والملفوفة والمبسوطة ، وبعضها ملتو ليات غريبة ، بينما بعضها يمتد الى الأمام مستقيماً . ومعظم الماشية في لون واحد يجمع بين الاصفر الشاحب والاحمر والبنفسجي والاخضر والازرق ، وبعضها منقط او مخطط . والقطيع لا يرعى ، وانما هو في حالة مسيرة سريعة ينتقل من

مرعى الى آخر . ويقف راع لون جلده بني ، وراء اكبر مجموعة من البقر ، وقد ارتدى ثوباً احمر وغطاء احمر على رأسه ، وفتح ذراعيه يحاول سوق الابقار الشاردة . ولكن الحيوانات القائدة ، تبدو وكأنها قد اقبلت على نوع من العوائق . وهناك بقرة رسمها الفنان مقعية على الارض ولعلها ميتة . والى جانبها امرأة بنيّة اللون ايضاً ، ترتدي غطاء احمر على رأسها . وتبدو المرأة مسرعة في خطاها مع مجموعة من الرجال الحمر الاجسام ، ليسيروا مع القطيع . وهذه المجموعة التي لم يكمل تصويرها . موثرة كل التأثير . انها بمثابة الخاتمة للصورة كلها ، وما تضمه من تركيب يبدو ان الفنان كان مهتماً به اشد الاهتمام ، وان كان اهتمامه بالمحتوى أو بالقصة ابلغ واشد . لكن هذه القصة نفسها هي التي ظلت بالفعل خافية على ابصارنا . اذ ليس في وسعنا ان نتأكد من ان البقرة المذبوحة ليست قرباناً لأحد الآلهة .

والصورة الأخرى البارزة ، التي احتفظ بها في ذاكرتي ، هي صورة الزرافات الثلاث . وكانت اثنتان منها كما يبدو من الذكور ، وهما يتقاتلان على انثى ، وقد رسم الفنان صورة القتال ، وكأنهما يرقصان الباليه . أما الحيوان الثالث وهو الانثى ، فيرقب الخصام بنظرة تنطوي على الفضول . وتبدو في الصورة نعامة تهرب من الماردين الراقصين ، وفي موخرة الصورة بعض الظباء تفر طالبة النجاة ايضاً » . أما في مقدمتها ، فصياد يحبو على يديه ، وقد امسك بيمناه قوسه ونشابه ، بينما حمل في يسراه ظبياً صغيراً على قطعة من الرصاص يغطي بها نفسه . ومن الواضح أن الفنان قصد بالزرافات والصياد والنعامة ، ان تشكل صوراً مستقلة ثلاثاً .

أما صورة السباق ، فلمحة دراماتيكية رائعة . فعربة الصيد تحمل ثلاثة رجال . ويكاد الرجل الواقف في الوسط ان يقذف برمحه على جاموس بري . أما السائق فيقف في المقدمة وخطام الجواد في يديه . ويبدو الحصان وكأنه يطير فقد امتد ذراعاه وخلفيتاه ، في شكل متناسق . وانتشر ذنب الحصان بينما ظهرت العصائب ممتدة من المحور الذي يربط بين العجلات السبع .

وفي صورة انشودة الرعاة ، زرافة مع صغيرها ، وقد احنت الأم رقبتها على الرضيع ، الذي ينكمش الى الوراء خائفاً من كلب ينبح . ويبدو الصياد في يسار الصورة وهو يقترب وقد حمل قوسه ونشابه مستعداً .

وفي صورة المعركة ، مجموعات من صغار الرجال من ذوي الجلود الحمراء ، بعضهم عراة وبعضهم يرتدون المآزر ، يتقاتلون . ويظهر البعض في اقصى ما يمكنهم من حركة وسلاحهم الرئيسي القوس والسهم . ولا ريب في أن الصورة تعطي درساً حقيقياً موضوعياً للنبالين الطامحين ، اذ تظهر السهم وهو ينطلق من قوسه ، كما تظهر وقفة النبّال ، وهو يشد قوسه استعداداً لاطلاق السهم . ويظهر احد المحاربين وهو يلوح بهراوة خشبية .

وتظهر صورة شبح الصحراء ، اضخم شكل لما قبل التاريخ اكتشف حتى الآن . والجزء الادنى من الصورة مفقود ، ولكن طول العملاق في الغالب يبلغ عشرين قدماً . وقد تذكر لهوتي صورة قرأ عنها في اساطير الفضاء ، فجعل منه « الاله المريخي العظيم » . ولكن هذا الوحش المخيف قد يكون ايضاً غواصاً من غواصي اعماق البحار ، او من تلك الاشكال الخزفية التي تبدو في الادب الشعبي (الفولكلور) لمختلف البلاد . فالرأس كبير مدور وهو متصل بالكتفين مباشرة دون أن يكون هناك عنق . والكتفان محدودبان . وهناك سلسلة من الخطوط بين الرأس والجذع قصد منها أن ترمز الى بعض أدوات الزينة . أما الشعر فجدائل تشبه قشور الموز . وفي وسط الرأس كرتان متراكزتان يعتقد انهما عينان . وهناك الى اليسار ، يجلس هيكل مماثل ولكنه اصغر حجماً

ولعل صورة الانثى الجميلة التي اكتشفها كلود غويشارد على الصخور المعلقة في مسيّف « اوانرهيت » اكثر حياة وانسانية . فمن الصعب أن يقول الانسان ما اذا كانت المرأة تركض او ترقص . فاحدى قدميها لا تكاد تلامس الارض بينما ترتفع الساق الأخرى على استعداد للخطوة التالية . وهي تضع على نفسها مجموعة ضخمة من المجوهرات ، وتتدلى من ذراعيها وخصرها وركبتيها « شراشيب » رائعة التطريز . وهناك نقوش من الوشم على كتفي

المرأة وجسمها وثدييها وساقيها . وحول معصميها وكاحلي قدميها أسوار من الفضة أما يداها فتختفيان في قفازين مقفلين بجلد رفيع . ويبرز من رأسها قرنان من قرون البقر ، وبينهما شعر غزير من جدائل يتدلى على صدرها وحقل من الحنطة . ولا ريب في أن حركات الجسم المهتزة ، والمجوهرات التي تحركها الرياح ، والجدائل الذهبية ، تضفي على الصورة روعة وسحراً . ويرمز حقل الحنطة بين القرنين الى الهة الخصوبة ، أو الى كاهنة احدى المعتقدات الزراعية . وقد اطلق لهوتي على هذه الصورة تكريماً لذكرى استاذه الاب بروي ، لما عرف عنه من شدة تعلقه « بسيدة براندنبرغ البيضاء » في جنوب غرب افريقيا ، اسم « سيدة اوانرهيت البيضاء » .

ولم يكن هذا كل شيء . فقد عثر في زاوية نائية بعيدة في كهف من كهوف « جبارين » على صورة امرأة تكاد تكون خيالية في جمالها . انها في حجم اكبر من حجمها في الحياة الواقعية ، ومرسومة باللونين الأبيض والأحمر . وهي راكعة على ركبة واحدة ، ومتكئة برأسها على ثنية ذراعها . وقد ربط شعرها بعصابة وامتد وشاح على ظهرها . وتكاد الصورة تنبض بالنبل والعظمة ، وتتطلع المرأة نحو الشمال باتجاه بلاد اليونان . وقد تكون اميرة او كاهنة او الهة .

وعندما مرت قطعة الاسفنج للمرة الثالثة على الحجر ، وظهرت هذه الصورة الجميلة ، هتف لهوتي صارخاً .. « ها قد اجتمعنا اخيراً ! »

لقد اطلق عليها اسم انتينيا بطلة الاطلانتيد .

٣

صيّادون ورُعاة

وقلت منفجراً .. آه لو كنت هناك الآن .

فرد عليّ رينيه موسو بصوت جاف .. ستمنى بخيبة أمل . فالنسخ التي رأيتها في متحف اللوفر في باريس اكثر جمالاً من الاصل . فمنذ عودة لهوتي من هناك ، تكونت طبقة جديدة من الرواسب فوق الصور . ولا ريب في أن خيالك سيصاب بصدمة شديدة .

كنا في الطائرة في طريقنا من الجنة الى قلعة فلاترز . وتحتنا تنتشر المحجة التي يقصدها عشاق فن ما قبل التاريخ ، والمتحف الموجود في الهواء الطلق الذي يعتبر اضخم متحف من نوعه في العالم . ودوّى ازير « الشاحنة الطائرة » ، فوق جبال تاسيلي والعجير . ومرت بنا جبال منعزلة وكأنها جزر تغسل شواطئها بحار من الرمال ، ورأينا الاخاديد العميقة في الصخور والجدران العالية تختفي عن النظر وراء اكوام كبيرة من الصخر والحصى ، والمسيّفات تترى وراء المسيّفات ، وقد ابلاها عامل الزمن ، ولكنها ما زالت واقفة بجرأة وراء الهضبة العالية . والمنفرجات المعتمة وراء صخور كأنها جذوع الاشجار ،

وقباب ونتوءات واهرامات ، ومدن مهجورة يستطيع الانسان ان يميّز في انقاضها ، مكان الاسواق والشوارع والمنعطفات والبيوت والقصور .. انها الصور المجنونة التي لا يصدقها العقل للتآكل .

وكنت قد اجتمعت بموسو في الجنة ، وحسبته في بداية الأمر امريكياً يتقن الفرنسية . وكان يتنقل في الصحراء بكل سهولة ويسر ، وكأنها ملعب من ملاعب الغولف . وعندما كان يواجه مشكلة من المشاكل ، كان يزن الأمور ويتطلع بعينيه الضيقتين ، ويقيس الابعاد والمسافات الى مرج اخضر غير منظور . وعلى الرغم من أنه ولد في باريس ، فهو يمت بالفعل الى الولايات المتحدة ، وقد جاء يتجسس على الصحراء الكبرى لحساب شركة تعدين امريكية . ولو كان يعمل لحسابي ، لطردته من عمله فوراً . فقد كان لا يبدي الا اهتماماً ضئيلا بالأمور التي هي حديث كل يوم في جبال تاسيلي والهجر ، واعني بها الماس والبلاتين ، والاسبستوس (الحرير الصخري) ، والثوريوم واليورانيوم . ولكنه كان يمضي الى ابعد الحدود بحثاً عن المتاعب وراء صورة على الصخر ، فقد كانت الصور الصحراوية هوايته .

وتذكرت معرض لهوتي الرائع في باريس، فذكرت أن صور تاسيلي قد اغنت العالم بكنوز من الجمال الفني . وقد اكتشف ميدان جديد ، يدهش عشاق الفن ويدور برؤوسهم ، وهو مع ذلك ليس بالميدان المجهول كلية .

ووافقني موسو على رأيي وقال : « طالما ان عشاق الفن هؤلاء لا يهتمون الا بالشكل واللون . أما الاخصائي فيستثيره هذا الاكتشاف بالطبع . ولكنه لا يشعر بالسعادة الفكرية . فهو يواجه عدداً من المشاكل الجديدة التي لا يستطيع حلها والاسئلة التي لا يستطيع الاجابة عليها . فهو اشبه ما يكون بمحاسب يريد أن يصفي حساباته وان يستخلص نتائجها ، ولكنه يواجه كل لحظة بنداً جديداً من الحساب ، لم يكن قد لاحظه في البداية . وكان اكتشاف لهوتي في تاسيلي ، الذي اضيفت اليه بعض المواد الاخرى في عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ ، اكبر هذه البنود وابرزها . ولكنه لم يكن على كل حال البند الوحيد . فقد

أضاف لهوتي نفسه مادة جديدة عندما قام بأول جرد منظم للصور الصخرية في وادي الجراد في عام ١٩٥٩ . وقد نقل فريقه اربعة آلاف صورة من مجموع هذه الصور ، مستخدمين طريقة جديدة استعملوا فيها المطاط السائل . وكان بين هذه الصور ، اعظم النقوش التي سبقت التاريخ والتي عرفت حتى الآن ، تصور زرافات ارتفاعها اكثر من عشرين قدماً . وحيوانات وحيدة القرن التي يبلغ طولها ٢٥ قدماً ، والفيلة التي ترتفع خمسة عشر قدماً عن الارض . ولكن بالاضافة الى اكتشافات لهوتي ، فلا يكاد يمضي شهر واحد على الصحراء منذ اناستيقظت من نومها الطويل ، إلا وتظهر اكتشافات جديدة يزاح فيها الستار عن صور صخرية جديدة . وقد تم اكتشاف نحو من عشرين الف صورة في السنوات القليلة الاخيرة على الجدران الصخرية في الصحراء . واعتقد أن هذا الرقم هو على كل حال ، أقل من الحقيقة » .

وكانت الشمس التي مالت نحو الغروب قد اشعلت النار في جبال تاسيلي . وكانت مراوح الطائرة تكاد تغطس ، في الحمم البراقة . وبدأت الاشباح تبدو في الاخاديد الحافة وقد استطالت ، وكأنها نهيرات من الحبر الازرق . وبينما كان الظلام يزحف على هذا المنظر الحزين الرائع ، كنت وموسو ، نقارن ملاحظاتنا على هوايتنا المشتركة ، وكأننا طالبان خرجا لتوهما من قاعة الامتحان وسارعا لاستعادة ما وعته ذاكرتاهما عن الامتحان .

ويسرد متحف صور الصحراء قصة الحركة الدائبة المستمرة في الصحراء . والحضارات المتعاقبة والاجناس والشعوب والقبائل والعشائر التي اتت معها الى الصحراء بفنها أو ورثت عن اسلافها ، تقاليد فنية كانت قائمة ثم حملت رسالتها . ولكن ماذا تمثل هذه الاساليب الفنية المختلفة ؟ وهل يكون كل اسلوب منها تعبيراً عن فنان فرد أو عن مدرسة او عشيرة ؟ وهل تطورت هذه الاساليب في وقت متزامن وبصورة مستقلة أو في تسلسل تاريخي ؟ وهل في الامكان تتبع آثار أي نظام متسلسل تاريخياً ، سواء بصورة نسبية او مطلقة ؟ وأية حضارات أو أجناس أو شعوب أو قبائل أو عشائر لها علاقة بهذه الاساليب؟

وهل كان سكان الصحراء من السود أو السمر أو الحمر او البيض ؟

كانت هذه بعض الاسئلة التي نوجهها الى بعضنا البعض . أما القائمة الحقيقية فأطول من هذا بكثير .

وفي الامكان القيام بدراسة هذه الرسوم الصخرية الموجودة في الصحراء من زاويتين مختلفتين . ففي وسع هذه الدراسة ان تقارن بين هذه المخلوقات الفنية التي اوجدها رجل ما قبل التاريخ مع غيرها من ابتكارات العصور الاخيرة . ومن الممكن من الناحية الأخرى ، أن نطرح جانباً كل فكرة عن التأثيرات والاتصالات الاجنبية وان نحاول تنظيم هذه الرسوم في شكل من اشكال النظام القائم على أساس هذه الأعمال الفنية نفسها .

وقد جرت محاولة للسير في الطريق الأولى ، ولكنها لم تؤد الى اية نتيجة . فالرسوم الصخرية الصحراوية ليست بكل تأكيد ظاهرة طبيعية منعزلة قائمة بذاتها . اذ أن بعض هذه الصور تذكر الانسان بتلك المنحوتة على الصخور في شرق اسبانيا وبفن رجل الادغال في جنوب افريقيا . وهل يعني هذا ان هذه الظواهر الخاصة قد انتقلت من اسبانيا عبر افريقيا الشمالية الى رأس الرجاء الصالح ، كتعبيرات مميزة لعنصر معين او بصورة فردية ؟ او لا يمكن ان تكون عملية مستمرة ومتزامنة ، بحيث تؤلف فروعاً وبراعم في شجرة واحدة ؟ أو أن وجوه الارتباط هذه لا تعدو ان تكون تشابهاً في الاسلوب لا يمكن أن يصمد أمام فحص دقيق !؟

وكانت اولى الارتباطات التي اكتشفت في مصر ، ولا سيما مع حضارات ما قبل التاريخ في وادي النيل . وقد ادى الاكتشاف الاخير لمومياء طفل الى الجنوب الغربي من فزان ، تعود في تاريخها الى عهود اقدم بكثير من المومياء التي عثر عليها في وادي النيل الى إلقاء ضوء على العلاقة بين مصر ما قبل الاسر الفرعونية والاراضي الصحراوية الواقعة الى غرب النيل . وقد اقتبس لهوتي كثيراً من النظريات الفنية في اكتشافاته الصحراوية تشبه تلك التي عثر عليها في قبور الفراعنة وكهوف طيبة . فكيف تمكن مثل هذا الفن الرفيع الذي يشهد

الى اسلوب خاص من شق طريقه الى صخور تاسيلي ؟ وهل كانت هذه الرسوم من عمل المصريين الذين اسرهم اعداؤهم من الليبيين ؟ أو هل تعلم الاسرى الليبيون في مصر من الفنانين المصريين هذا الفن ؟ وقد لا يصبح الرد على هذا السؤال أسهل اذا عرفنا ان الصور الصحراوية تشبه الى حد بعيد لا أعمال طيبه وتل العمارنة الفنية فحسب ، بل رسوم اشوز وكريت ايضاً ، وان بعضها يحمل ايضاً الطابع الزنجي . وكانت الصحراء طيلة قرون عدة في التاريخ الدرع الواقي الذي يحمي افريقيا السوداء من فضول شعوب البحر الابيض المتوسط واوروبا . أما في ذلك الوقت ، عندما كانت الصحراء مكسوّة بالخضرة ، فقد كانت معرضة في الواقع للكثير من التأثيرات الخارجية . وليس ثمة من مهمة امتع ولا اروع من ان يثبت الانسان هوية كافة هذه التأثيرات وان يعود بكل منها الى أصلها ومصدرها . ولكن جميع هذه المحاولات قد انتهت لسوء الحظ الى متاهة من علامات الاستفهام .

وكانت الطريقة الثانية هي الوحيدة التي قطعت شوطاً الى حد ما ، وهي التي تنطوي على تجزئة الرسوم الى مجموعات على اساس خطتها او تصميمها وقد تم حتى الآن التحقق من اربع مجموعات تمت الى اربع فترات زمانية مختلفة ، وهي مجموعات الصيادين والرعاة والخيل والابل . ويدرك علماء الآثار تمام الادراك ان الشباك التي نشروها على طرائدهم ، شباك واسعة ، ولكن هذا التصنيف الخام قد صمد للتجربة .

وتمثل صور الصيادين كل ما يتعلق بحيوانات الصيد من فيلة وزرافات ووحيد القرن ، والنعام والوعل — وهو شيء خاص بهذه الفترة الزمانية — وجاموس النهر (سيد قشطه) ، والتمساح والاسماك . وليست هناك في هذه المرحلة أية محاولة للجمع أو التأليف ، فالحيوانات لا تظهر في صورة قطعان ، وانما فرادى على الغالب . والاحجام بارزة كل البروز ، فالحيوانات ولاسيما الزرافة ، ترسم صورتها او تحفر بحجمها الطبيعي . أما طريقة التصوير فوجودية طبيعية . وحيث يكون الشكل منحوتاً ، فان الخطوط تكون عميقة ومعظمها

على شكل الحرف الانكليزي (V) ، مع طبقة سوداء أو معتمة . والصور البشرية في هذه المرحلة نادرة ، وعندما تظهر ، فإن الرجال غالباً ما يكونون من الملثمين ، واقنعتهم من جلود الحيوانات ، أما سلاحهم فالهراوات والعصي المعقوفة التي تعود الى صاحبها بعد استعمالها . ولعل الكلب ، رفيق الصيادين الدائم ، هو الحيوان الأليف الوحيد الذي يبدو في هذه الفترة .

وفي فترة الرعاة ، تصبح الصور اصغر حجماً وتختفي الطبيعية ليحل محلها شيء من الاطلاقية او المظهرية . وبدلاً من الصورالفردية ، تبدو تشكيلات جماعية فسيحة، أما الخطوط في الصخور فمعظمها على شكل حرف (U) ، واقل عمقاً مع طبقة اقل قتاماً ، وكثيراً ما تكون من لون وجه الصخر نفسه .

وتمثل الصور التي تبدو فيهذه الفترة ايضاً ، وحيد القرن والنعام ، والغنم البري والغزال والخنزير البري والاسد وحمار الوحش ، والريم (بقر الوحش) والاسماك . ولا يرى الانسان جاموس النهر الا نادراً . أما الحيوان الغالب على معظم الصور في هذه الفترة فهو الثور. وتبدو قطعان كاملة من الثيران ترافقها الاغنام والماعز يقودها الرعاة والكلاب، وقد رسمت جلودها المرقطة، وآذانها وحوافرها واذنابها بمنتهى الدقة والعناية . لكن ابرز مظهر في هذه المنحوتات هو التنوع الكبير في اشكال القرون التي يعوج بعضها إلى الأمام أو الى الاسفل كانياب الفيل . ولا ريب في أن هذا التنوع يشير الى عملية تنشئة نشطة ومتنوعة .

وكان الرعاة من الرحل . لما كانت الثيران تستعمل كحيوانات للحمل والركوب ، وكان الرعاة دائمي التنقل انتجاعاً للكلأ ، فان هذه الحيوانات لم تكن تتاح لها الفرصة لتصبح بدينة . وتمتد اثداء الابقار الى الوراء مما يشير إلى أن حلبها تم من الخلف لا من الجوانب .

ويغلب على الرجال الذين يبدون في صور فترة الرعاة ومنحوتاتها أن يكونوا عراة ، ولكنهم احياناً يضعون مئزراً . ونراهم يعنون بحيواناتهم أو يشتركون في احتفالات ذات طقوس معينة او يشتغلون في اعمال بيتية . ويشير الكثير من المناظر الى الأعمال الزراعية ، ولذا فمن المعقول ان يفترض أن

تربية الماشية كانت تسير جنباً الى جنب مع أعمال الزراعة اليدوية . والسلاح الرئيسي هو السهم والقوس ، وهو ما يستخدمونه كما يبدو في حماية قطعانهم من الغارات أو في القيام بغارات عرضية على قطعان أخرى . وتظهرهم بعض الصور وهم في حالة القتال . وعثر لهوتي ايضاً على بعض الصور التي تظهر محاربات من النساء ، وقد رسمت الواحدة منهن بثدي واحد . والتفسير الصحيح لهذا ان الفنان قد اختلط عليه التمييز بين الصورة الجانبية والصورة الكاملة ، فكان بذلك سباقاً لبيكاسو في هذا الخلط ، وان كان نتيجة الصدفة لا التصميم . أما لهوتي فيرى من الناحية الاخرى ان هذه النسوة كن من المحاربات الشديدات ، حتى ان من المحتمل ان يكن قد قطعن احد ثدييهن ليكن اكثر تحرراً في استعمال القوس والنبال . وهذا الافتراض معقول ، فقد قابل الجنود الفرنسيون قبل نحو من نصف قرن فقط على ساحل العبيد الفي امرأة من محاربات الامازون وكن من ذوات الثدي الواحد ويؤلفن الحرس الخاص المشهور للملك بيهانزين .

وقد يكون من الخطأ ان يتصور الانسان انتقالاً مفاجئاً من فترة الصيادين الى فترة الرعاة . ولا ريب في أن مربي الماشية شقوا طريقهم الى هذه المنطقة قادمين من الجنوب الشرقي ، واقاموا نوعاً من الاتفاق مع قبائل الصيادين . ولا يستطيع الرعاة ان يعيشوا بدون صيد ، اذا أرادوا الحفاظ على مواشيهم وان رغبوا في تنوع الطعام ، يضاف الى هذا ان القطعان كانت في حاجة الى الحماية من الوحوش . ولا يستبعد ان يكون المحليون قد غدوا « جوكيي » الرعاة وسائقي ابقارهم لاسيما وان لحوم الصيد كانت قد غدت نادرة في ذلك الوقت . وليس هناك على وجه التأكيد من دليل على أن الرعاة قد اخضعوا الصيادين بقوة السلاح . وهناك كل ما يدعو الى الافتراض من الناحية الاخرى بأن الصراع بين الفئتين قد قرره ازدهار تربية المواشي نسبياً بالنسبة الى وجود الصيادين الذي يعتمد على العمل اليومي .

وعندما نصل الى مرحلة تقرير الفترة التي بدأ بها عهد الرعاة ، نبدأ في

رؤية طلوع النهار . وعلى الرغم من أننا ما زلنا في حاجة الى تعلم الكثير عن تاريخ الحيوانات الأليفة الا أن من المعتقد أن تربية الماشية قد ادخلت بين الألف الخامس والألف الرابع عن طريق باب المندب في الطرف الجنوبي من البحر الاحمر الى افريقيا ومنها الى مصر والسودان . وهذا لا يعني بالطبع استبعاد احتمال تأليف الفصائل المحلية من الحيوانات البرية التي غدت اسلاف الحيوانات ذات القرون الطويلة التي تظهر في الصور الصخرية .

واختفى الفيل ووحيد القرن والجاموس البري من صور الفترة الثالثة . وأخذ الفنانون يحصرون عملهم في الماعز والغزال والنعام والزرافة والاسد الصغير والريم . وغدا الرجال يحملون الدروع والرماح القصيرة والطويلة . واخذت صور الحيوانات والرجال تظهر بشكل هندسي ، وهو الأسلوب الذي يغلب على هذه الفترة الثالثة . لكن العنصر الغالب هو الحصان والعربة . وللعربات عجلتان أو اربع عجلات ويجرها جوادان او اربعة جياد تكون دائماً في حالة طراد . ويحمل محورها مظلة تغطي منصة . ويقف السائق وزمام الخيل في يده . وتظهر معظم الصور عربات صيد او قتال ، وان كانت العربات قد غدت الوسيلة المألوفة للنقل ايضاً .

وارى لزاماً عليّ أن اشير هنا الى اول من كتب تأريخاً عن الصحراء وهو هيردوس الملقب « بأبي التاريخ المعاصر » . فقد كان اول من استكشف الصحراء على حد علمنا مجموعة من « النساميين » الذين كانوا يعيشون في سهل سرتة العظيم الى الجنوب الشرقي من طرابلس. ويسجل هيرودس ان عدداً من العائلات السامية كان لها « ابناء من ذوي النشاط البارز » وان هؤلاء الابناء عندما كبروا أوغلوا في « مختلف أنواع الشرور والآثام » . وضرب هؤلاء الشبان في ذات يوم ازلامهم ، فجاءت القرعة على خمسة منهم ، تمونوا بالغذاء والماء ، ومضوا يستكشفون الداخل الذي لم يكن قد استكشف بعد . وبعد ان تعمقوا بعيداً عن النطاق الساحلي وجدوا انفسهم اولاً في منطقة ملأى بالحيوانات البرية لينتقلوا بعدها الى صحراء لا زرع فيها ولا ضرع . وعندما قطعوا هذه الصحراء

« واستغرق قطعهم لها اياماً عدة ، وجدوا سهلاً تملؤه الاشجار . فسارعوا الى اقتطاف بعض اثمارها ، وبينما هم كذلك خرج عليهم رجال صغار الاجسام طولهم أقل من المعتاد فألقوا القبض عليهم ، وساقوهم ، دون ان يستطيعوا التفاهم معهم لا بلغتهم ولا بلغة النساميين . واجتازوا بهم مستنقعات عظيمة حتى وصلوا الى مدينة وجدوا جميع أهلها من الاقزام السود . ويمر بهذه المدينة نهر كبير ، يستمر جريانه منذ طلوع الشمس حتى غروبها وتشاهد فيه تماسيح نهرية »

وكان هؤلاء الشبان من أهل « نسامون » احسن طالعاً من خلفائهم من جوّابي الصحاري ، فقد عادوا الى مدينتهم ليرووا قصصهم الرائعة عن افريقيا السوداء .

ولم يقتحم هيرودس نفسه الصحراء ، ولكنه قام قبيل منتصف القرن الخامس بزيارة برقة ، كما عرف الكثير عن أحوال داخلية ليبيا من تجار كيدنيبا اليونانية وسائقي الجمال فيها . وقد كتب على ضوء هذه المعلومات التي جمعها اشياء كثيرة عن الشعوب التي كانت تعيش على طول ساحل « بحر الظلمات » ، من حوض النيل الى سيرته الصغيرة .

فقد كتب يقول : « وبالاضافة الى هؤلاء ، فهناك في الداخل ، صحراء ليبيا ، وعلى ارض هذه القفار ، تقوم مساحات واسعة من الرمال تمتد من طيبة في مصر الى اعمدة هرقل . وعلى هذه المساحات الرملية ، وعلى مراحل بين الواحدة والاخرى عشرة أيام من الترحال ، قطع ملحية ، تقوم على شكل كتل مرتفعة ، في قمة كل منها ، ووسط الاملاح يتفجر ينبوع من المياه الباردة وآخر من المياه الحارة . ويعيش الرجال في ضواحي هذه المناطق ، على أطراف الصحراء ووراءها .

« ويعيش العمونيون على بعد عشرة أيام من طيبه ، وعلى بعد عشرة أيام اخرى منها الى الغرب ، تقع العقيلة ، وهي واحة يزرع فيها أهل نسامون اشجار النخيل .

« وعلى بعد عشرة أيام اخرى من العقيلة ، جبل رملي آخر ، فوقه ينبوع وواحة من اشجار النخيل كغيرها من الواحات . وفي هذه المنطقة يعيش شعب قوي وعظيم يدعى « القرامنت » . وهذا الشعب يغطي الارض بالملح ثم يزرع القمح . وهنا تعيش ايضاً الثيران التي ترعى الكلأ وهي تسير الى الوراء للسبب التالي . فقرونها ملوية الى الأمام ولذا فهي تضطر الى المسير الى الخلف عندما ترعى الكلأ ، اذ انها لا تستطيع المشي الى الأمام لأن قرونها تضرب الارض . وباستثناء هذه الظاهرة فإن هذه الثيران لا تختلف عن الثيران الاخرى الا بكثافة جلودها وخشونتها . ويطارد هؤلاء القرامنت الاحباش الذين يعيشون في الكهوف بعربات تجرها جياد اربع . ويعتبر هؤلاء الاحباش الذين يعيشون في الكهوف اسرع الناس عدواً . لكن ساكني الكهوف يأكلون الافاعي والسحالي وغيرها من الحيوانات الزاحفة . ولا تشبه اللغة التي يتحدثون بها لغة أي شعب آخر ، فهم يهذرون مثل الوطواط » .

وقد نقل رينيه موسو هذه الفقرات من هيرودس حرفياً دون أن يحتاج الى ازعاج ذاكرته .

وقال وكأنه يعتذر عن ذلك .. ان التعليم الفرنسي القديم الطراز ، يقضي بحفظ الكثير عن ظهر قلب » .

ووجدت فيما بعد أن هذا البيان ليس صحيحاً بالمرة . فقد كان يحمل كهنريك بارث وغيره من مكتشفي الصحراء السابقين ، كتاب هيرودس معه وكأنه المرشد الذي لا غنى له عن اوضاع الصحراء السابقة للتاريخ .

وكانت اهم نقطة ضعف في هيرودس ايمانه بكل ما هو غريب واسطوري . وكنتيجة لذلك فان معلوماته ظلت مدة طويلة لا تعامل بما تستحقه من احترام وتقدير . ولكن الاكتشافات الاثرية الاخيرة عن العالم القديم ، جاءت مصداقاً للكثير من اقواله . فعندما يرى الانسان صور الثيران من ذوات القرن الغريبة في منحوتات الصحراء الصخرية ، يميل كثيراً الى تصديق قصته عن الثيران التي تسير الى الوراء في مرعاها . ويكاد الانسان يشعر بالدهشة تجاه معلومات

هيرودس عندما يرى صور الماشية « القرامنتية » ، ولهذا غدا كل ما يقوله عن القرامانتيين شيئاً مصدقاً حرفياً .

ولعل من مصادر المعرفة عن القرامانتيين ، ما ورد في كتابات عالم الطبيعة بيني والمؤرخ تاسيتوس ، والجغرافيين سترابو وبطليموس . فقد كان هؤلاء القرامانتيون يعملون في جيش هانيبال ، كجنود من المرتزقة ، وزحفوا معه الى أبواب رومة نفسها . وعندما وطد الرومان أقدامهم في افريقيا الشمالية فيما بعد ، كانت غارات هذا الشعب في طرابلس تحدث لهم الكثير من المتاعب . ونظمت رومة عدداً من الحملات التأديبية . لكن اسلوب القارامنتيين ، كان الانسحاب واغلاق الآبار وراءهم ، وهي سياسة تدمير الارض التي عرفتها حروب الصحراء فيما بعد . ولكنهم خضعوا في القرن الأول الميلادي للسادة الجدد وغدوا يلعبون دوراً مهماً في حملات الرومان الصحراوية التالية .

وكانت فزان عاصمة القرامنت . وكانت الجرمة مدينة قرامنتية قديمة . ولا تزال مدافن الجرمة — التي لم تكتشف معظمها بعد تضم اكثر من خمسين الف قبر . وقد سيطر هؤلاء في أيام صولتهم على جميع انحاء فزان وتاسيلي والهجر ، وامتد نفوذهم غرباً الى الاطلنطي وجنوباً الى النيجر . ولهذا فان فترة الخيل والعربات في الصور الصخرية الصحراوية ، تعرف ايضاً بفترة القرامنت واذا ما أردنا الدقة في التعبير ، فليس ثمة من دليل مؤكد ، على ان هؤلاء هم الذين زخرفوا الصخور بصور العربات الحربية ، فقد كانت هناك شعوب أخرى تعيش في ليبيا ، وكانت ترتحل في الصحراء في عربات تجرها الجياد . ولكن لما كان هيرودس لا يتحدث الا عن القرامنت ، فقد اصبحوا وقد عرفوا بأنهم الفنانون الذين رسموا الصور الصخرية .

ولا نعرف شيئاً عن المكان الذي جاء منه هذا الشعب ، ولا عن المكان الذي مضوا اليه . ولكن الخبراء متفقون على أن العرب عندما غزوا هذه المنطقة في القرنين السابع والحادي عشر الميلاديين دفعوا باحفاد هؤلاء الأقوام جنوباً الى بطون الصحراء . وقد أصبحوا يدعون الآن بالطوارق . وليس ثمة من

اتفاق في الرأي على الأصل الذي جاءوا منه . والافتراض السليم الوحيد هو على رأي هيرودس « أنهم جاءوا مما وراء البحار » . أما موعد مجيئهم ، فما زال كذلك لغزاً تحوطه الاسرار . وقد وجدوا أمامهم السكان الاصليين ، من الاحباش ، ليصطرعوا معهم ويخاصموهم . ونعود فنسأل من هم هؤلاء الاثيوبيون او الاحباش ؟ ان الكلمة الاغريقية تعني انهم « الرجال الذين احرقتهم الشمس » . وكان الاثيوبيون شعباً اسمر اللون . ومع أنهم ليسوا من الزنوج ، إلا أنهم يمتون الى المجموعة الزنجية العنصرية . ولعل خير دليل على ذلك هو « رجل اصيلار » ، وهو الهيكل العظمي المتحجر الذي عثر عليه في الحبشة والذي يعود الى اوائل العصر الحجري . فهذا الرجل يشبه الى حد كبير احد رجال البانتو او الهوتنتوت . وهناك ادلة اخرى تظهر في بعض المعدات التي ترجع في اصلها الى الجنوب ، وكذلك التفاصيل الزنجية الكثيرة التي تبدو في الصور الصخرية .

ولا ريب في أن الاحباش الذين يشير اليهم هيرودس يؤلفون جزءاً يمثل سكان الصحراء في فترتي الصيادين والرعاة . ولا ريب ايضاً في أن القارامنت الذين كانوا من البيض ، وكانوا من المحاربين ، رأوا في هؤلاء السكان السود الاصليين منحة الهيه . ففي تلك الحقبة التي هي بداية فترة القرامنت ، كان طقس الصحراء حاراً نسبياً، وفي مثل هذا الطقس الحار لا يستطيع إلا سود الأجسام العمل في الارض وفلاحتها . ولهذا نكاد نجزم بأن القرامنت لم يقضوا على الاحباش ، وكانت غزواتهم لصيد الرجال التي سجلها هيرودس اشبه ما تكون بالغزوات التي كان الطوارق يقومون بها بعد عدة قرون في السودان لاقتناص العبيد . وقد عثر عالم الآثار الايطالي سيرجي اثناء تنقيباته في مقبرة الجرمة – غاراما على جماجم بشرية لرجال بيض وآخرين سود . ولا ريب ان الآخرين كانوا من العبيد او الاتباع الاحباش في عاصمة القرامنت .

ولكن هل اختفى الاحباش من الصحراء تماماً اليوم ؟ هناك في الاقسام الغربية من الصحراء ، قصص لا تزال تروى عن شعب غريب يدعى البافور ،

لا هو بالابيض ولا بالاسود . ويقول علماء الاجناس البشرية ، ان هذا الشعب يؤلف جيباً اثيوبياً في الصحراء ، وعلى الرغم من عدم وجود دليل معين فمن المحتمل أن يكون ابناء البافور الصيادين « الايمراج » الذين يقيمون على سواحل الاطلنطي ، والصاغة « الاينادين » المقيمين في الغرب . وادت حركات الاسماك ، وعدم وجود ينابيع للمياه في تلك المناطق الى جعل « الايمراج » من البدو الرحل الذين يدأبون على التنقل في الصحراء . أما « الاينادين » فهم المنبوذون من الصحراء . وتقول الاساطير ان جدهم تلصص على النبي عند الغسل ، فحلت به اللعنة . واذا لمس المرء احدهم ، أصبح نجساً ، واذا تزوجت المرأة احدهم غدت منبوذة . وعلى الرغم من هذا الاحتقار التقليدي الذي يحاط به الصاغة ، فان الناس ينظرون اليهم بشيء من الخوف والاحترام ذلك لانهم يتعاملون بالنار والهواء والماء ، وهي العناصر الرئيسية في السحر .

وهناك قبيلة اخرى تعيش في جبال تيبستي وتسمى بالتيبوس ، ويطلق عليها العرب اسم « ناس فرعون » أو « ابناء فرعون » كما تعيش في واحة الكفره التي كانت في وقت من الاوقات جزءاً من جبال تيبستي ، حيث وجدت بعض المومياء . وهذا لا يعني ان التيبوس من المصريين ، ولكن ليس في وسع انسان ان ينكر تأثير مصر على الرسوم والمنحوتات الصخرية . ولون بشرة التيبوس الذين امتزجوا بالسكان الزنوج في الجنوب يتراوح من لون « الكرميل » الى لون الابنوس ، ولعل ابرز ما فيهم من ميزات ، الانف الاقنى ، والشعر الواقف المستقيم . وليس في وسع الانسان ان يصنفهم لا مع المصريين ولا مع الزنوج ولا مع العرب او البربر . والاستنتاج الوحيد انهم نسل الاحباش الاقدمين . ويقول العلماء الذين يؤيدون هذه النظرية ان التيبوس معروفون في طول الصحراء وعرضها ، بقدرتهم على السير بسرعة مسافات طويلة ، وعلى العيش امداً طويلاً على النزر القليل من الطعام . ولعلنا نذكر ان هيرودس وصفهم بأنهم اسرع « عدائين في العالم » .

وبالاضافة الى البافور والتيبوس ، فهناك قبيلتان اخريان لعلهما من اصل

حبشي ، وهما تقيمان في واحة فزان وأفرادهما سود البشرة ، ويقال انهما تمتان الى اصل سوداني . ومن المعتقد انهم بقايا الاحباش الذين استخدمهم القرامنت في أعمال السخرة في حقولهم وبساتين نخيلهم . وهناك الحراثون ، ويقومون بزراعة بساتين النخيل في الصحراء ، وهم يعتبرون انفسهم من ذرية اولئك العبيد الذين جاءوا من الجنوب بعيد العصور الوسطى . لكن علماء الاجناس البشرية والاجيال الانسانية يشكون في صحة هذا التسلسل . فالحراثون هم في قعر المستوى الطبقي في الواحات وهم احط درجة من العبيد السابقين الذين حررهم الفرنسيون . ويقول ابناء الطوارق ، ان الحراثين كالبغال ، لا جدود لهم . وبشرتهم اقل سمرة دون شك من السود الذين استوردوا من السودان .

ولا تعتبر الفترة القرامانتية بالطبع من حقب ما قبل التاريخ . فحوالي عام ١٧٠٠ قبل الميلاد قام الرعاة « الهيكسوس »، وهم شعب اسيوي، بغزو وادي النيل وسيطروا على مملكة مصر الوسطى . وانقضى نحو من قرن ونصف قبل ان يستعيد المصريون زمام الأمر في بلادهم . فقد جاء غزو « الرعاة » الى مصر بثورة جديدة . اذ جاء « امراء البلاد الجديدة » معهم بالخيول والعربات . ولا يعرف بعد المدى الذي استطاعوا فيه التوغل غرباً باتجاه ليبيا . ولكن الدليل قد قام على أن الليبيين الذين كانوا دائمي الاغارة على حدود مصر الغربية كانوا يستخدمون الخيول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وتذكر اسطورة عن دولة الفراعنة الحديثة ان جنود الفرعون وضعوا ايديهم في معركة دارت عام ١٢٢٩ قبل الميلاد على اربع عشرة عربة فردية العجلات غنموها من زعيم ليبي واولاده .

ويظهر مثل هذا الدليل ، ان الحصان والعربة قد وصلا الى البلاد الواقعة الى الغرب من مصر لا من وادي النيل بل من الشمال . ففي القرون الاخيرة من الالف الثاني قبل الميلاد جاءت موجة من الشعوب التي تسمى بالبحرية مقتحمة حوض البحر الابيض المتوسط ، وقادمة من البحر الاسود . ومن

المحتمل أن يكون هؤلاء الأقوام قد هبطوا في برقة وكانوا مسؤولين عن دفع الليبيين شرقاً ضد مصر . ومن المحتمل أن يكون القرامنت قد شكلوا جزءاً من هذا الغزو . ويوضح هذا الافتراض الملامح البحر – متوسطية في الصخور الصحراوية القرامنيه ، كملابس الرجال والنساء ، وافخاذ سائقي العربات الضيقة واكتافهم العريضة ، وكذلك الجياد وهي في حالة غارة ..

ولعل الجمل ذا السنام الواحد ، هو الظاهرة الرئيسية المهمة في صور الفترة الثانية . واذا ما قورنت هذه الصور بالتحف الفنية للرعاة والصيادين ، فان معظم صور الجمال ، تافهة ولا قيمة لها . لكنها من الناحية الاثرية مهمة للغاية وممتعة .

ولا تعرف المرحلة التي ظهر الجمل فيها لأول مرة في الصحراء . فقد عثر على عظام الجمال بين بقايا العصر الحجري ، ويبدو أن الطبقة الارضية والحيوية التي تبدو فيها بعض صور الجمال تجعلها تمت الى فترة الرعاة او حتى الصيادين . لكن الدليل غير واضح في اية حالة من هاتين الحالتين . ويرى حماة الجمل الافريقي ان من الصعب عليهم أن يشرحوا لم لا توجد اشارات له في الادب . وليس في الكتابات المصرية او التماثيل أي ذكر او اشارة الى الجمل . أما الادعاء بأن الجمل كان ينظر اليه نظرة مقدسة ، فغير مقنع ولا وارد . وحتى هيرودس نفسه الذي كان ولا شك سيسر ابلغ السرور بشرح هذا الحيوان الغريب والحديث عنه لا يذكره ابداً ، ويصدق هذا القول ايضاً على المؤرخين اللاحقين . ويتحدث كل من تيتوس ليفيوس وبوليبيوس عن الحرب بين قرطاجنة وروما بصورة مسهبة ، وتظهر في كتاباتهما الفيلة والجياد ، أما الجمال فلا تظهر ابداً . ولا يتحدث سالوست في تقريره عن الحرب الجوغورثينية في شمال افريقيا بشيء عنها ، بينما لا ينسى أي من المؤلفين الاقدمين الحديث عن الجواد والدور الذي يلعبه في الحرب وفي حياة الصحراء .

ويرد اول ذكر للجمل على التربة الافريقية في الوصف الذي كتب عن حروب قيصر الافريقية . فقد انتصر قيصر في معركة طبسوس عام ٤٦ قبل

الميلاد على جوبا حليف عدوه بومبي . وكان بين الغنائم التي استولى عليها الرومان اثنان وعشرون هجيناً . وأخذ عدد الجمال في شمال افريقيا يرتفع بصورة كبيرة في بضعة القرون التالية . وساهمت مدينة طرابلس في القرن الرابع بعد الميلاد بأربعة آلاف جمل في حملة ضد الاعداء.. .

واعتبر اميل فيليكس غوتييه دخول الجمل الى شمال افريقيا ، نقطة تحول تاريخية . وهو يرى ان اقتحام الشعوب البيضاء للصحراء السوداء لم يتم الا على ظهور الجمال . وقد ثبت منذ ذلك التاريخ ، ان هذه النظرية خاطئة . فقد ادى الحصان قبل الف عام الدور الذي عزاه غوتييه الى الجمل . ولكن الجمل أخذ يحتل بصورة تدريجية مكانة الجواد . ويبدو ان العربة قد توقفت عن الاستعمال قبل ظهور الجمل بمدة طويلة ، ولكن الجواد ظل قيد الاستعمال مدة طويلة . وليس ثمة من دليل على ان راكبي الجمال قد طردوا او اخضعوا مربي الخيول وراكبيها . ولم تظهر اية صورة بين الصور المكتشفة ، تشير الى قتال بين هجّان وفارس . فالجمل اصلح بالطبع للصحراء من الجواد .

وتحمل الصور الصخرية للجمال عادة كتابات منقوشة . وتمت الرموز الى نظام الكتابة الليبية — البربرية المشتقة من الحروف الفينيقية التي كانت مستعملة في البحر الابيض المتوسط عندما كانت قرطاجنة في ذروة قوتها . ولا ريب في ان كتابة الطوارق تقوم دليلاً على ذلك .

ولا ريب في ان التقسيم التاريخي المتسلسل من الصياد الى الراعي فالحصان فالجمل ، تقسيم نسبي ليس إلا . فصور الخيول والعربات اقدم من صور الجمال واحدث عهداً من تلك التي تضم قطعان الماشية . وقد وضع العلماء حدوداً زمنية لهذه الفترات فقدروا أن الصيادين عاشوا بين عام ٥٠٠٠ و ٣٥٠٠ قبل الميلاد والرعاة بين عدم ٣٥٠٠ و ١٠٠٠ ق.م. وفي الالف سنة الاولى التي سبقت الميلاد كانت العربات التي تجرها الخيول تتسابق في الصحراء . أما الجمال فقد بدأت في الظهور مع بداية التاريخ المسيحي . وجاء العرب الذين غزوا الصحراء في القرنين السابع والحادي عشر فأنزلوا بالصور الصخرية

التي كانت تسير في طريق الانحطاط منذ امد ، ضربة قاتلة نهائية .

وليست هناك حقائق موثوقة عن فترتي الصيادين والرعاة . ويرى بعض علماء الآثار وبينهم لهوتي نفسه ، ان اول الصور الصخرية تعود الى عدة ألوف من السنين قبل التاريخ . لكن الحقيقة التي تقررت حتى الآن ، هي ان اقدم هذه الصور لا يعود الى عهد اقدم من اوائل العصر الحجري الأول . وبكلمة اخرى فان اقدم هذه الصور احدث عهداً بعشرة آلاف عام على الاقل من الرسوم في كهف لاسكو » معبد سيستين لفن العصر الجليدي .. »

وقد حسدت ميشيل نورلاند على اكتشافه ، عندما اكتشف صورة رائعة محفورة بصورة عميقة وثابتة في الصخر . كان رسم حيوان ارتفاعه نحو من ياردة وطوله من ذنبه الى ذروة قرنيه القويين المخيفين نحو من ياردتين . والصورة منحوتة على النصف الاسفل من وجه الصخر في وضع مائل صاعد . اما الرجلان الخلفيتان فأشبه ما تكونان بعمودين أما القادمتان فأشبه ما تكونان بقوادم الخنزير .

وكنت قد وصلت في الليلة السابقة قبيل حلول الظلام الى معسكر معدني البلاتين . كان الوادي اليابس مليئاً بالخيام ، ويقع على ارتفاع نحو من ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وهو يقتبس اسمه من جبال الصخر الغرانيتي السوداء التي تحده ، فاسمه واد تيحالوين . ولا تشير اية خريطة من خرائط الهجر العادية ، الى وجود حياة بشرية في هذه المنطقة . ولا يظهر المعسكر إلا في خرائط اركان حرب الجيش وفي مقر دائرة استثمار المعادن في الجزائر ممثلة بعلم اخضر يتحرك جيئة وذهاباً بضعة سنتمترات .

وجاء تورلاند ، احد المستثمرين قبيل الشروق ، فأيقظني من نومي ومضيت معه ونحن نرتعد من البرد مسافةطويلة صاعدين مع الوادي. وأخذت الجبال التي كانت تبدو قبل لحظات معتمة خطرة، تظهر الآن مشرقة حمراء . ومن الغريب ان افراد الطوارق يطلقون على مثل هذا الصباح اسم « فجر الحمام » . وحثني تورلاند على المسير ووصلنا الى وجه الصخر في الوقت المناسب . كانت اولى

اشعة الشمس المشرقة والطالعة من فجوة بين الجبال تنعكس على صورة وحيد القرن .

ودل فحص دقيق للصخرة وجوارها ، على أن الانطباع الأول كان خداعاً الى حد ما . فوحيد القرن يسيطر على جميع ما يحيط به ولكنه ليس بالحيوان الوحيد. فتحت اقدامه حيوان آخر قدّ من الصخر ، هو نسخة طبق الاصل ، ولكنه لا يعادل في حجمه ربع حجم الحيوان الاول . وبين ظهر الحيوان الصغير وعنق الحيوان المارد ، يبدو حيوان ثالث لا يكاد جسده وقوائمه تظهر . أما الرأس فقد نحت ثم مسح ، اذ أن الصخر مسح مسحاً ناعماً . وعلى الرغم من أن هذا الحيوان الثالث لا يكاد يرى لضئالة حجمه ، الا انه ولا شك من وحيد القرن ايضاً .

وتبدو على الصخر خطوط عمودية مشيرة الى كتابات « تفيناغ » من مختلف الاطوال ، وبعضها تصل أطرافها الى الخطوط الخارجية للحيوان . ولكتابة « التفيناغ » التي هي كتابة الطوارق القديمة ، خاصة واحدة ، وهي ان في وسع الانسان ان يقرأها ويكتبها في كل اتجاه سواء اكان من الشمال الى اليمين أو بالعكس ومن الاعلى الى الاسفل وعلى العكس ايضاً . ويمكن قراءتها ايضاً في شكل دائري . ولا ريب في أن الكتابات على هذا الحجر المعين قديمة ومتروكة اذ انها تقع في منتصف الطريق بين الكتابات الاولية والكتابة الهيروغليفية . ولا يمكن ترجمة القسم الاكبر من هذه الكتابات التي تظهر في مختلف الصخور في بلاد الطوارق .

وفي الزاوية الواقعة عند الطرف الشمالي من الصخرة صورة جمل مع كتابات « تيفيناغية » . والصورة رائعة وصغيرة وذات اسلوب خاص بها ، ويقوم السنام كالاهرام فوق سيقان رفيعة وجسم مدور .

وهناك منحوتات اخرى في الضاحية القريبة . وقد حفظت في قطعة صغيرة من صخور الغرانيت صورة حيوان ثان من وحيد القرن ولكنها ليست على جانب كبير من الجمال . وهناك على الحجر صورة حيوان يصعب تمييزه ربما

يكون غزالاً أو ريماً ، فهو منحوت نحتاً خفيفاً لا يكاد يرى ، ولا شك في أنه من نتاج فنان مغمور . وهناك ايضاً عدد من الرموز التي لا يعرف معناها ، كما توجد مجموعة من كتابات « تفيناغ » .

وقد عثر ميشيل تورلاند على هذه المجموعة من المنحوتات عرضاً قبل نحو من اسبوعين عندما كان يقوم برحلة استطلاعية . وشرع منذ ذلك الحين ينفق كل دقيقة فراغ من وقته منقباً في الصخور المجاورة ، دون ان ينجح في مهمته . ولم يكن ثمة أي اثر لأدوات للنحت وإنما بقايا من صناعات الجرار في العصور التي سبقت التاريخ وبعضها مزخرف ، رسمت عليه اشكال أدوات الحفر وبعض الامشاط والمسامير . لكن علماء الآثار لا يهتمون بمثل هذه القطع الصغيرة التي تمتلىء بلاد الهجر بها ، وفي وسع أي انسان يتصف بالصبر والاحتمال ان يجمع منها اطناناً .

وعندما بلغت الشمس سمت السماء ، عدت للتطلع الى وحيد القرن . كانت الصخرة في لون العسل ، وكان في وسعي أن أرى الصخرة الآن في منتهى جمالها . وقد تأكدت الآن انه في البداية ، كانت صورة هذا الحيوان وحده على الصخر ، ثم جاءت الصور التالية في عصور لاحقة ، وبأيد اخرى . وطبقة الخطوط العامة للحيوانين الصغيرين اخف واقل كثافة ، كما أن حفر الخطوط ليس عميقاً . ويبدو ان الكتابات التي ادخلت على الصورة في مرحلة لاحقة ، قد تكون عين الفترة التي رسم فيها الجمل في الطرف الشمالي ، لم تحفر حفراً وانما خرقت خرقاً في الصخر .

وأنا واثق الآن ، انه في الوقت الذي كان فيه وحيد القرن الكبير من رسم فنان عظيم من عهد الرعاة ، فان الحيوانين الاخيرين كانا من رسم فنان مقلد لاحق ، بينما كانت الصور التالية على الصخور المجاورة اقل شأناً وقيمة .

ورأيت قبل الغروب تلك الليلة ، صورة وحيد القرن من زاوية جديدة وعلى ضوء جديد . وكنت قد قضيت طيلة بعد ظهر ذلك اليوم الشديد الحرارة ، حتى كأنه الجحيم ، مع الباحثين عن معهد البلاتين . وعندما هبط المساء ، عدت

الى وحيد القرن لا من الطريق العادي عبر الوادي ، بل من مكان يرتفع ثلاثين ياردة فوق الوادي . ورأيت جبال الغرانيت أمامي حمراء كالذهب . كما رأيت ثلاثاً من الماعز السوداء ، منطاقة ، وشرسة ، تترك ظلالاً مخيفة على الارض المسطحة الجافة تحتها . وهناك قطعة ضيقة من الارض في وسط الوادي ، لا تزال محتفظة ببعض رطوبتها من زخات المطر الاخيرة ، مضيفة بعض الخضرة والجدة على المنطقة . وبدت لي الخيام البرتقالية الصفراء ، والخضراء ، في الوادي تحت نباتات الاكاسيا الملتوية ، في ضوء المساء الواضح ، وكأنها خيام معسكر اصطياف ، لا قاعدة باحثين عن المعادن .

أما وقد رأيت هذا المنظر الرائع أمامي ، فقد ادركت ، كم من المناظر يضيعها الانسان ، اذا اكتفى برؤية وحيد القرن من مكان قريب . وعلى الانسان ان يتطلع اليه من مثل هذا المكان البعيد النائي ليرى مدى الروعة في امتزاج هذا المنظر ، بالمناظر الطبيعية الخلابة .

وهناك في وسط الوادي ، تقوم هضبة صخرية من بين الحصى ، تملأ بقية الوادي . وهذه الهضبة دائرية في شكلها وتحيط بها جلاميد كبيرة . وفي وسطها تبرز الصخرة المنحوتة .

ويذكرني المنظر كله بستون هنج ، على الرغم من ان هذا المكان لا يضم صخوراً مرتبة على شكل فني . وفي المنطقة الأولى ، جيء بالصخور من مسافة مائة وخمسين ميلاً على الأقل ، من جزيرة الصخور في وادي تيحاليوين ، التي تعتبر في حد ذاتها حادثة عارضة من حوادث الطبيعة ، ومثلاً قائماً بذاته على فن عملية التعرية الصخرية . فهذا الباقي ، ما هو الا بقايا الحاجز الغرانيتي الذي أكل منه الوادي بصورة بطيئة ومستمرة . وهناك ثغرة زمانية مهمة بين التمثالين . فالاجزاء القديمة من ستون هينج ، تعود في اصلها الى العصر الحجري المبكر . واذا كانت صورة وحيد القرن تعود الى عهد الرعاة عام ١٨٥٠ قبل الميلاد ، فيجب ان يكون ستون هينج يعود الى قرون بل الى الوف السنين قبل هذا التاريخ . ولكنه يتشابه مع صورة وحيد القرن في شيء واحد ،

وهو ان كلاهما متصل بالشمس . ففي الواحد والعشرين من حزيران ، تقع اول اشعة الشمس على صخرة المذبح ، وفي واد تيحاليوين ، تلمس الاشعة الاولى صورة وحيد القرن في نفس وقت الانقلاب الشتائي .

وعثر في الصحراء ، على علائم اخرى تشير الى عبادة الشمس . وتتحدث يولاند تشودي عن مكان يدعى « تي بجاج » في جبال تاسيلي ، حيث يبرز اثران من اثار الاقدام في الصخور . ويبدو ان هذا المكان ، كان في البداية ، الموضع الذي تقدم فيه الاضاحي . وما زالت قبائل الهجر — الطوارق، تصب الحليب على وجه الصخر ، وتدهنه بالسمن ، وهذا يفسر سبب لمعان الصخر ونعومته . واذا سألت طارقياً ان يشرح لك الطقس ، هز كتفيه دون أن يجيب . فهو طقس معروف منذ عرف التاريخ . وكل ما يعرفونه ان هذا الحجر بعينه يكون اول ما يمسك بأشعة الشمس في الصيف .

ولماذا نحت الصيادون والرعاة من رجال ما قبل التاريخ صورهم في الصخور وقد جرى الحديث عن هذا الموضوع تلك الليلة بين المنقبين عن المعادن في خيمتهم المشتركة . وكان الاتفاق عاماً على ان الفنانين ما كانوا يعملون للاجيال القادمة ، ولا حباً في الفن نفسه . واذا ما استثنينا هذا الاتفاق ، فقد كان هناك خلاف واضح في وجهات النظر .

وقال برنارد غويرانجيه « انهم كانوا يصطادون السحر . أجل مجرد صيد للسحر . فنحن نعرف أن هناك طقوساً للصيد ، كانت صور الحيوانات التي تصاد تلعب دوراً حاسماً . وقد طلب فروبينوس ذات مرة من جماعة من الاقزام ان يقتلوا ظبياً لحملته . وتردد الاقزام في البداية ثم وافقوا شريطة اعطائهم مهلة كافية للقيام ببعض الاستعدادات ، وقبيل فجر اليوم التالي ، حفروا قطعة ارض ، ومهدوها ، وسهلوا أرضها بعناية فائقة . ثم رسموا صورة ظبي على الرمال . وعندما لمست اولى اشعة الشمس صورة الظبي اطلقوا سهماً عليها . وبعد ذلك ، سارعوا للقيام بعملية صيدهم الحقيقية . وعندما عادوا بالظبي القتيل وضعوا شيئاً من شعره ودمه على الصورة القائمة في

الرمال ، ثم رفعوا السهم ومسحوا الصورة . وقد قاموا بالطقس الاخير ، عند شروق الشمس ايضاً . وهذا يحملني على الظن بأن الفنان ، الذي لم يكن يعرف ما يمتاز به من فن ، قد رسم صوره لأنه كان يأمل بأن تضفي عليه الصورة ، قوة سحرية تمكنه من الحيوان الحقيقي . وقد تعني هذه المنحوتات الصخرية ايضاً مكاناً خاصاً ، تقام فيه بعض احتفالات الصيد التقليدية قبل خروج الصيادين الى عملهم الحقيقي . وكان الفنان بمثابة الطبيب الساحر أو كاهن المجتمع الذي يعيش فيه . وكان بطبيعة الحال يخرج معهم الى الصيد ، والا لما استطاع ان ينتج مثل هذه الصور الطبيعية الوثيقة . وكان العامل المهم جداً وراء هذه الصور ، هو اجادة الصيد . فهو والحالة هذه سحر يعالج ايجابياً بسحر مماثل » .

وقال موريس بينيلي .. « انني أوافقك على رأيك ، وان كان بصورة غير مباشرة . فقد أراد رجل ما قبل التاريخ ان يجمع بين يديه عن طريق صوره ما في اللعبة الشرسة من قوة وحيوية . فنحن اليوم نطلق النار على كل ما يستفز خيالنا . فأي شخص منا ، يجد معه المال الكافي يذهب لصيد الافيال . ويستحيل علينا أن نتصور ما كان في الصيد البدائي من صعوبة ، لقد كان بمثابة عملية تجربة للقوة بين الرجل والحيوان ، واني لاتصور ان الانسان كان يغلب على أمره في اكثر الاحيان . ومن المحتمل ان يكون الرسم او النحت مظهراً قوياً خاصاً من مظاهر تكييف الانسان لنفسه عقلياً ليعيش الدور الذي يعتزم تمثيله . وكان الرسام الصياد يجول في محجره حتى يعثر على النقطة الضعيفة فيرسم عليها . ولكنه بطريقة سحرية يحصل على القوة التي يتمتع بها الحيوان .

وقلت لبلدفان .. « ان معظمنا لا يعرف شيئاً عن الصيد لسوء الحظ .. فنحن لسنا بصيادين دائماً بل نحن قتلة . وقد تطورت اسلحتنا تطوراً عكسياً مع اشمئزازنا من استخدامها . فقد مر بالعالم عهد كان فيه الانسان يتقاسم مع الطبيعة نفس المصير . وكان رجل ما قبل التاريخ يعتبر نفسه من ابناء الطبيعة وكان يعتبر أي تدخل من جانبه في شؤونها أمراً يستفز عنده احساس الشعور

بالخطيئة . فالشجرة عندما تقطع ، تهدأ روحها بقربان او ضحية . وكان من النادر ان يقتل حيوان ، دون أن تقدم له القرابين . ولا ريب في أن قصة فروبينوس عن الاقزام ، مثال على التكفير وطلب الندم . فقبل أن تمسح الصورة عن الرمل ، كانوا يقذفون بشعر الظبي وشيء من دمه على الرسم . ولا ريب في أن لمثل هذا العمل ناحية عملية . فعلينا ان لا ننسى أن الصيادين لا يستطيعون ان يعيشوا بدون اللعب . وكانت قضية موت او حياة بالنسبة اليهم ، ان لا تموت هذه اللعبة . وكانت صورهم تمثل الهة الحيوانات . ولهذا فأنا لا أجد صعوبة في أن اصدق ان وحيد القرن ، كان يقوم باداء هذا الدور . وهكذا فنحن نجمع بين ترضية اله الحيوانات وبين السحر الانساني في آن واحد » .

وقال ميشيل تورلاند يقطع علينا حديثنا بصبر فارغ : « ما هذه الأقوال ، سحر الصيد ، والسحر الشافي بالسحر والسحر الانساني ، وفروبينوس .. فلماذا بحق السماء نحاول التوغل عميقاً في البحث ؟ ولماذا لا نقول ان الصياد الاب كان يحاول ان يلقن ولده الشاب دروساً في الرسم ؟ ولماذا لا نفترض أن الصياد الذي رسم صورة وحيد القرن انما كان يفعل ذلك لمجرد اللهو والمزاح ؟ ولتسلية روحه ؟ أنا لا اقول انه كان يريد ان يخلق شيئاً فنياً . فكلنا نرسم احياناً دون ان نفكر باحتذاء حذو بيكاسو . فالحافز على رسم الصور شيء فطري طبيعي . والرسم هو نوع من التعبير الذاتي ، هو شيء من عوض الانسان لذاته ومن هروب الانسان من ذاته . ولم يختلف الوضع اليوم عما كان عليه في الماضي . أما بالنسبة الى رجل ما قبل التاريخ ، فان هذا الحافز في فرض الشخصية على المجتمع الذي يشعر الرجل بعدائه له ، كان أمراً في منتهى الاهمية . ولذا فان تصوير الطبيعة في الرسوم الصخرية ، يعتبر بصورة غير مباشرة شكلاً من اشكال التبرير الذاتي . انه بداية التحرر والانطلاق الذي كنتم تتحدثون عنه قبل قليل . »

وقلت ملاحظاً : « يبدو لي انك تحاول التعمق في البحث » .

فقال تورلاند .. « قد يصح ما تقوله ، ولكنني احصر بحثي في الدوافع النفسية ، التي نعرفها نحن في قرننا هذا . وقد كنا نتحدث وكأن هذه الدوافع التي تعنينا فقط ، هي دوافع الصيادين . واني لاستغرب كيف يمكن لك ان تطبق نظرياتك عن السحر على الرعاة » .

فقال غوارانجيه .. « لا غرابة ان كان للرعاة الكثير من الطقوس والاحتفالات التي لعبت فيها الصور الصخرية دوراً بارزاً ، حتى ولو لم نعرف حقيقة ذلك الدور . فهناك اساطير قديمة عدة تقول ، ان الثور كان في بعض الحقب والأماكن معبوداً لأنه يمثل الثراء . فقد كانت قرونه تمثل القمر النامي ، وكان حليبه يؤخذ رمزاً للخصب . وكثيراً ما عثرنا في القبور السابقة لعهود الاسلام ، وهي من النوع الذي نلقاه اثناء بحثنا عن المعادن ، جماجم بشرية مختلطة جنباً الى جنب بعظام الثيران . وكثيراً ما ترى في الواحات جمجمة ثور قائمة على مداخل البيوت أو على الجدران المحيطة ببساتين النخيل ، والمقصود منها حماية السكان والأهلين الذين يقومون بزراعة النخيل من عين الحسود . ومن المحتمل ان تكون هذه الخرافات التي عاشت هذه الاجيال الطويلة هي آخر ما تبقى من مظاهر عبادة الثيران التي تجمع بين الدين والسحر » .

فقلت معترضاً .. « أنا اعرف أنني قلت هذا من قبل ، ولكننا لا نستطيع ان نجعل من نظرتنا المتحررة تجاه الحيوانات قاعدة عامة . فالماشية في تلك الايام كانت اكثر من مجرد ممون للحم والحليب . وحتى في يومنا هذا نجد بين عشائر البورورو — بيوليه التي تربي الماشية في المراعي الواقعة على بعد ستمائة ميل الى الجنوب من هذا المخيم ، بعض عناصر الغموض القوية في العلاقة بين البشر وحيواناتهم الاليفة . ويقول جان غابوس أن أفراد البيوليه ، يضفون على أطفالهم اسمين ، احدهما الاسم الرسمي ، والآخر اسم احد صغار الحيوانات . وغالباً ما يطلق الاسم الثاني على الطفل منذ ولادته ، ولكنه لا يلقب به وانما يظل اسماً رسمياً لا يرد ذكره على الألسنة » .

وقال تورلاند .. « ولكن البيوليه ، ليسوا هم الرعاة الذين عاشوا قبل

هذه الالوف من السنين ؟

فقلت مجيباً : « لعلهم هم انفسهم . ولعل رعاة ما قبل التاريخ قد ارتحلوا بمواشيهم الى مكان ما . فعندما تحولت الارض الى صحراء انتقلوا الى الجنوب . وقد يكون افراد البيوليه هم من ذرية اولئك الرعاة . فهم مشهورون مثلاً بأنهم اول من ادخل تربية الماشية الى افريقيا الغربية . ولا ريب في انهم يتفوقون في هذه المهنة على غيرهم من الشعوب التي تقيم في السهول . وقد عثر لهوتي على صور بشرية بين منحوتات تاسيلي تعود في تاريخها الى أيام الرعاة ، ولا يختلف الرجال المصورون فيها كثيراً عن أفراد البيوليه » .

وبدأ الزيت في المصابيح التي تضيء الخيمة ينفد ، وتقرر تأجيل الحديث . وليس من الغريب أن يكون هذا النقاش قد اثار عدداً من الاسئلة يفوق عدد الردود التي اجاب بها ، ومضيت اخطو خطوة اخيرة باتجاه وحيد القرن . وكانت الحشرات المضيئة تسطع امامي في ظلمة الدجى . وبدأت حرارة النهار تتسلل من الجبال الى الوادي . وبدا لي القمر البدر وكأنه يعوم في بحر من الحليب . وتطلعت نحو الصخرة العظيمة في تلك السماء الجلية الصافية فرأيتها سوداء صامتة وغامضة . وقررت في نفسي أن الرسالة التي تحملها ستظل دائماً لغزاً من الألغاز .

* * *

ولم أسمع انساناً يطري الملازم الأول مونتاني ، فكلهم يتبرم منه ومن شدة اقباله على الخمر .

ولم اكن قد لقيت هذا الانسان ، وان كانت قد توافرت لدي بعض الدوافع الخاصة التي تحملني على الاعتقاد بأنه قد يكون خيراً من سمعته . كان مونتاني ضابطاً في « قسم الاختصاص الاداري في مركز الزيت في ايجلي . وكان ضباط هذا القسم الذين قابلتهم في رحلتي يمثلون نخبة من القوات العسكرية الفرنسية ، وهم بدون استثناء « رجال خلقوا للصحراء » ، واسعو الثقافة ، مخلصون في

حبهم للصحراء ، وأبعد ما يكونون عن العسكريين الخلص . وقد انشىء هذا القسم بسبب الحرب الجزائرية ليقوموا بأدوار استشارية في الصحراء . وهم يؤلفون قوة الطليعة في الهجوم النفسي المضاد ، ولكنني لم اسمع من احدهم قط كلمة « الدعاية » . وهم في المناطق الزراعية المأهولة يقومون بمختلف أنواع الخدمات ، كتسجيل الاراضي وتوزيعها والمساعدة على زراعتها وحل مشاكل الري والزغاية . وهكذا فان واجبهم ان يحلوا المشاكل الزراعية والبدوية .

وتذكرت قولهم عن هذا الانسان « انه لا يحتمل عندما يسكر » . كانت هذه الملاحظة غير مناسبة مطلقاً . فعندما تذكرت هذه الكلمة كنا قد وصلنا الى مرحلة ارواء غليلنا . وكنا قد بدأنا نشرب النبيذ الاحمر ، بعد أن احتسيا بعض كؤوس اليانسون والنبيذ الابيض ، وكانت الشمبانيا تبرد في وعائها الثلجي بينما يقوم على خدمتنا ، خادم اسود ، ينظف بمنشفته أقداحنا من الغبار الاحمر الذي يهب بصورة مستمرة .

وكانت شركة النقل التجاري تقيم مأدبة عشاء خاصة في الثكنات التي يدعوها الزائرون مجاملة باسم الفندق احتفاء بوصول سيارتي شحن . وتضمنت المأدبة الهليون والدجاج والارز والفريز والبوظة والكعك الممزوج بالشوكولاته والقهوة الممزوجة بالحليب .

وأعترف أن الملازم الاول مونتاني ، الذي وصل متأخراً ، لم يكن كثير الميل الى الكلام . وبالطبع لم يكن أي من الموجودين لينقم عليه ذلك ، لو انه كان دائماً على نفس « الموجة » مع الآخرين . وكان الحديث يتناول سيارات الشحن ، وتكييف الهواء ، والتنافس المتزايد على الطرق في الصحراء . ويبدو أن الملازم لم يكن مهتماً كل الاهتمام بسيارتي « بيرلييت » اللتين وصلتا الى بلدة الزيت . وأخذ يتناول طعامه وهو صامت يفكر . ولربما كان يفكر في الاصداف التي يجمعها والعظام والصور المنحوتة . فقد كان يتحدث عنها باهتمام مشفوع بالحب ، وعيناه تشرقان في وجهه الاسمر الذي لفحته الشمس . وكان يتعمق في حديثه عن هذا الموضوع أمام اناس لا يهتمون به قليلاً او

كثيراً . ولربما كانت هذه هي نقطة الضعف فيه .

وكان مونتاني تواقاً في ذلك الصباح من يوم الاحد ، في اجلي لاطلاعي على كنوزه الفنية . ولكننا عندما غادرنا البلدة لم يكن اتجاهنا الى غور العود الذي يبعد خمسة وعشرين ميلاً عن المدينة ، والذي غدت منحوتاته الصخرية المكان الذي يجتذب الزائرين من رجال الزيت بصورة مستمرة ، وانما اتجهت بنا سيارة الجيب صاعدة الجبال الصخرية القائمة وراء المخيم . وكانت السلسلة الصخرية تتقطع هنا وهناك بلسان طويل من الرمل يهبط وكأنه نهر من الجليد . وصعدنا عبر احدى هذه الألسنة ، صاعدين في الجبال ، وكانت مناظر الصخور الرملية ، التي يبعث كل منها في النفس الكثير من الدهشة ، تشير الى ما تفعله الرياح فيها . وخرجت من السيارة لأفحص صخرتين كانتا قريبتين من بعضهما وكأنهما جدار نفق ضخم . ولا ريب في أن الرياح ظلت الوف السنين تصفر عبر هذا التجويف وكأنها الماء يمر في مجرى ضيق . ورأيت أمامي فجأة عموداً من الصخر ، لا يقل في صقله ونعومته عن كرة بليارد ، وذلك بفضل الرياح والرمال .

ولكننا لم نضع الكثير من وقتنا في مشاهدة حيل الطبيعة وتدليسها . وقال رفيقي ، وكانت له طريقته الخاصة في تمييز طريقه في الصحراء . . بعد هذا المنعطف سنصل الى اولى الرسوم الصخرية . وشعرت باستثارة في النفس . فبالاضافة الى الحقيقة الواقعة وهي ان الملازم مونتاني لم يكن قد عثر على هذه الرسوم الا قبل بضعة اسابيع اثناء جولاته التي يقوم بها وحيداً ، فانني لم اكن قد رأيت في حياتي الا صورة وحيد القرن وحده ، ولم أر اية مجموعة للصور الصخرية . ولهذا فقد احسست بنفس شعور الاثارة الذي يحس به الذي يتطلع الى عرض مسرحي للمرة الأولى .

وهناك فعلاً مجموعتان من الصور تبعد الواحدة منهما عن الاخرى مسافة دقيقتين في السيارة ، ولكنهما متشابهتان فعلاً . فهناك جرف طويل من الصخور ، تلفه الرياح والاجواء ، يقوم عالياً وسط محيط من الرمال . وقد

غطيت جدر هذا الجرف بالصور المنحوتة ، التي تبلغ المئات ، محفورة في الصخر ، دون نظام او ترتيب ، تمثل الثيران بأعداد ضخمة ، والظباء والغزلان والآساد الصغيرة والنعام وأقزام الرجال من ذوي الرؤوس المدورة الذين يصيدون النعام . وهناك صورة فيل او وحيد قرن لم تكمل بعد . وتختلف هذه الصور حجماً وشكلاً وقيمة فنية . ولكن اياً منها لا يصل مرحلة التماثيل . ومعظم الصور المنحوتة من الحجم المتوسط . ولا ارضية لها ، أما ألوانها فتشبه ألوان الصخور . وتبدو هذه الصخور ، وكأنها دفتر « لصور المسوّدات » رسمها عدد من الفنانين الرعاة . ويبدو ان لأحدهم على الأقل ، اسلوباً خاصاً ، فهو يحيل ارجل حيواناته واذنابها الى اعلام تذروها الرياح ، وهي طريقة خاصة لا تخلو من الذوق والاناقة .

وكانت الظاهرة الاساسية التي اثرت عليّ اكثر من غيرها ، هي بقايا صخرة معلقة . فهناك بيوت كهفية ، وكان هذا هو عملها الاساسي ، تقف بصورة مدهشة في طريق الرياح . وقد اثرت الرياح التي تهب غالباً من نفس الاتجاه ، تأثيراً كبيراً ، احدث الاضطراب والفوضى في هذه الصور ، فأزالها ، واحال الصخور المعلقة الى مجرد كتلة من الاحجار ذكرتني فوراً بقوس النصر الروماني في بلدة اورانج في حوض الرون ، حيث اثرت عوامل الرطوبة الناتجة عن الرياح البحرية على القوس بصورة فعالة .

فهل يعقل ان تكون الرياح عندما كانت هذه التجاويف الصخرية مأهولة تهب من اتجاه آخر ؟ أو هل كان أهل العصر الحجري مرغمين على تقبل أي مأوى ، تؤمنه لهم الطبيعة ، مهما كان غير مريح ؟

وبعد أن عينت اتجاه الرياح ، لاحظت ان الجانب الذي يواجه الريح من الصخور لا يضم اية صور للثيران . وقد اقتصرت الصور في هذا الجانب على الغزلان والظباء والنعام ، التي لا تظهر في الجانب المعاكس للريح . ومن الطبيعي أن مثل هذا التخيل لا ينطوي على اهمية خاصة . لكن على أي حال ، ليس هناك ما يدعو الى الافتراض بأن صور كل جانب من الجانبين تمت الى فترة

تاريخية معينة . فالفنان الذي عمل في رسم ارجل مستطيلة لحيواناته ، كان يعمل على الجانبين .

ورأيت على قطعة من الصخر في الموقع الثاني صورة يجب ان تحتل مكانة خاصة في كتب زائري الصخور الصحراوية ، وهي صورة فتاة عارية تمام العراء .

وتركني الملازم مونتاني فترة من الزمن اشبع فضولي بهذه الصورة وشرع يحفر في الرمال على مسافة قريبة من الجرف . وفجأة دعاني اليه . رأيت جمجمة هائلة ، مبيضة اللون ومهترئة . وقضينا نحواً من نصف ساعة نبحث عن العمود الفقري . كان طوله لا يقل عن مائة ياردة .

فقال مونتاني بلا تردد .. انه متحجر حوت من الحيتان . وكان هذا الرأي ، مضحكاً . أحوت في وسط الرمال التي ستصبح بعد ساعتين على درجة من الحرارة بحيث لا يستطيع الانسان لمسها بيديه ؟ ومع ذلك وجدت نفسي قبل مضي طويل وقت اقبل الفكرة .

ففي ملايين القرون من عمر الارض وتاريخها ، غمرت مياه البحار مرات عدة بصورة جزئية او كلية الاراضي الصحراوية . وكانت الصحراء تعتبر مدة طويلة ، قعراً بحرياً جافاً ، وهي نظرية تقوم على اساس الترابط بين رمال الصحاري ورمال الشطئان البحرية . وتعتبر البحيرات المالحة والمستنقعات الصحراوية آخر ما تبقى من مياه البحر التي لم تقم الشمس بعد بتبخيرها . أما عالم الارض المعاصر ، فيضحك اذا ما استمع الى مثل هذه الاساطير التي يسميها « بخرافات العجائز » ، وان كانت قصة « بحر تمبكتو » قد ظلت معروفة وشائعة حتى ثلاثين عاماً خلت .

وكان العالم النباتي اوغست شيفالييه يجوس في عام ١٨٩٩ الربوع المحيطة بتمبكتو ، عندما عثر دهشاً على محارة حلزون في الرمال . وكان لهذه الدهشة ما يبررها ، اذ ان هذا النوع المعين من الحلزون لا يعيش الا في البحار . وقد دهش أهل البلاد بدورهم ، من دهشة العالم الزائر ، فقد عرضوا عليه أماكن

اخرى ، استطاع ان يعثر فيها على هذا النوع من المحار ، ومن اصداف اخرى تمت الى فصائل ثانية من الحيوانات البحرية . وأصدر شيفالييه تقريراً في عام ١٩٠١ عن اكتشافه ، وتوصل الى النتيجة القائلة بأنه في الدور الرباعي الجيولوجي أي قبل نحو من ثمانمائة الف عام كان البحر يصل الى منطقة تمبكتو . ولما كانت هذه المنطقة تبعد الآن نحواً من الف ميل عن ساحل المحيط الاطلنطي فقد اثار نشر هذه النظرية آنذاك الكثير من الاهتمام والاثارة . وقام علماء آخرون ، كانوا يعتبرون شيفالييه دجالاً ، ببحوث واستقصاءات في المنطقة نفسها ، فعثروا على مختلف أنواع المحار ، ولكن كمياتها الغريبة اثارت شكوكهم في أن وجودها ، لا يمت الى الطبيعة بحال من الأحوال .

لكن هذه الشكوك لم تتأيد بصورة نهائية الا في عام ١٩٣٥ ، عندما قام تيودور مونود بجمع ١٠,١٣٣ محارة ، وقام بفحص كل منها على انفراد . وكانت النتيجة ان هذا المحار كان نوعاً من العملة النقدية التي تحملها القوافل من موريتانيا الى تمبكتو . ومن الغريب جداً ، انه لا يبدو عليها أي ظواهر تشير الى التلف ، مما يرمز الى ان تبادلها كان يجري في مجموعات كبيرة . ويبدو أن قيمتها التعاملية كانت منخفضة جداً ، وكانت تنتقل من يد الى يد على ساحل الاطلنطي بكميات كبيرة . وانتهى التعامل بها حوالي نهاية العصور الوسطى ، اذ اصبحت القوافل القادمة من مراكش تتعامل بالاصداف « الكورية » الشبيهة بالصيني ، التي تكثر في المحيط الهندي ، والتي جعل منها التجار البنادقة سلعة من اهم السلع التي يصدرونها . وقد قبلت تمبكتو العملة الجديدة وانضمت الى منطقة « الكوري » . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور النقدي ، ان العملة القديمة دفنت في الرمال اما بصورة عرضية أو بأمر من احد وزراء المالية في المنطقة .

وبعد زوال اسطورة « بحر تمبكتو » ، اختفت جميع الآمال في اثبات بحار العصر الرباعي الجيولوجي في الصحراء . وكانت المرة الاخيرة التي الف فيها البحر الابيض المتوسط وخليج غانه محيطاً واحداً عبر الصحراء ، في العصر

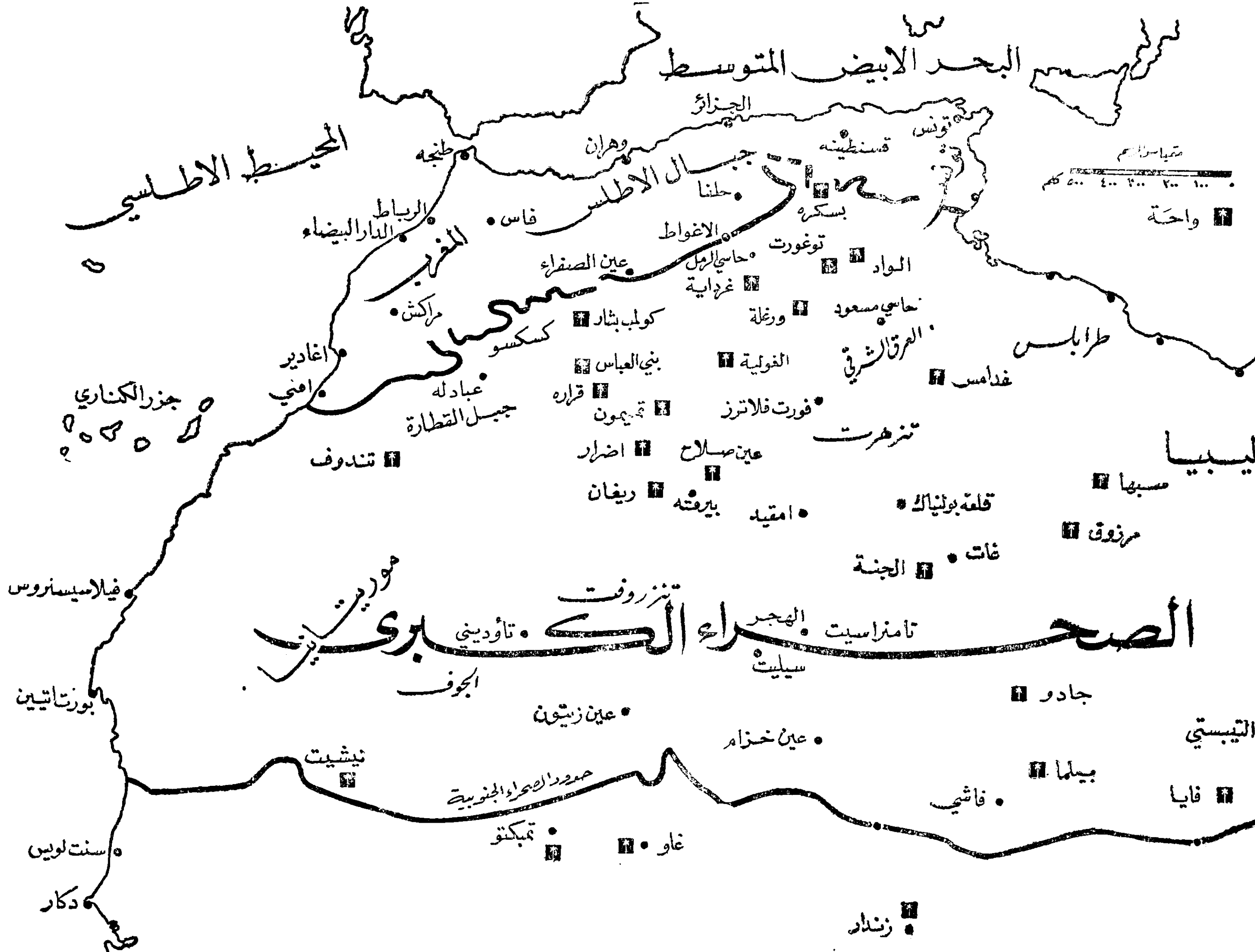
الجيري الأعلى ، قبل نحو من سبعين مليون عام ، عندما كانت أمواج هذا المحيط تغسل أقدام هذه الصخور الفطرية ، القائمة في منطقة الهجر .

ومن المحتمل تبعاً لذلك ، ان يكون حوت الملازم مونتاني ، قد شق طريقه الى الصحراء في عصور ما قبل التاريخ . أما انه يوجد على عتبة انسان العصر الحجري فألعوبة مضحكة من ألاعيب الطبيعة ، بل لعلها نكتة لا تنطوي على أي معنى حقيقي . وقد مات الحوت قبل نحو من ثمانين مليون عام عندما انطلقت شرارة من الدور الظرّاني فأحدثت اول شق في الصخور . وقد بحثنا في المنطقة حول الهيكل العظمي وكشفنا النقاب عن عضلات وأعضاء هائلة ومتحجرة .

وقال الملازم مونتاني .. بنغمة ساخرة ، وان كان منظر التقزز واضحاً في محياه .. « ان هذا المنظر يحملني على اشتهاء طبق من السمك » . وهكذا تحول رجل الصحراء فجأة الى رجل فرنسي من منطقة ميدي ، الذي سال لعابه لمجرد تخيل طبق من الأسماك الشهية .

وعدت الى « الفندق » في ايجلي ، وقد ملأت الخرج بالعظام والاصداف والزعانف . وقد اعجب الآخرون بكنزي ولكن بشيء من الزراية والاقتضاب. وكانت الفرقة الاجنبية قد دعتنا الى حفلة « كوكتيل وشمبانيا » ، مقابل المأدبة الفاخرة التي اقيمت بالأمس .

وقام الضباط بخدمتنا بأحذيتهم البيضاء كالثلج ، وسراويلهم المخططة . وبعد نصف ساعة ، تبدل جو الصحراء تماماً ، فقد هبت ريح ساخنة على المعسكر ، مثيرة زوابع من الرمال ، في دوامات صغيرة ، لا عد لها ولا حصر ، ومالئة الهواء بالغبار . وسرعان ما لف الضباب الاحمر العلم الفرنسي المثلث الالوان ، والمدافع الرشاشة على عرباتها ، والاسلحة الصغيرة على اكتاف الحرس . وكانت العاصفة الرملية اشبه ما تكون بستار أسدلته الطبيعة على ذلك الصباح من أيام الاحاد الذي قضيته مع الملازم مونتاني .


البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
الجزائر
وهران
قسنطينه
تونس
طنجه
جبال الأطلس
حلنا
بسكره
الرباط
الدار البيضاء
فاس
الاغواط
توغورت
الواد
المغرب
عين الصفراء
حاسي الرمل
غرداية
مراكش
كولمب بشار
ورغلة
حاسي مسعود
العرق الشرقي
كسكسو
اغادير
افني
بني العباس
الغولية
طرابلس
غدامس
عبادله
قراره
جزر الكناري
جبل القطارة
تميمون
فورت فلاترز
تنزهرت
تندوف
عين صلاح
اضرار
ليبيا
مسبها
ريغان
بيرفته
امقيد
قلعه بولنياك
مرزوق
غات
الجنة
فيلاسيسنروس
موريتانيا
تنزروفت
الهجر
الصحراء الكبرى
تامنراسيت
تاوديني
سيليت
الجوف
جادو
بورتاتيين
عين زيتون
عين خزام
التيبستي
نيشيت
بيلما
حدود الصحراء الجنوبية
فاشي
فايا
تمبكتو
غاو
سنت لويس
دكار
زندار
مقياس الرسم
واحة

٤

الصحراء الخضراء

كل ما كتب عن الصحراء من اساطير وقصص واكاذيب وحقائق ، مسجل لدى « موسسة البحث الصحراوي » . وعلى الرغم من أنها موسسة للبحث العلمي ، إلا أن مهمتها الأولى ليست البحث بل شيئاً اهم منه . انها ناد خاص لطلاب الصحراء ، يقوم بتنسيق كل بحث علمي يتناول مشاكل الصحراء الكبرى

وتقع المؤسسة في الطبقة الارضية من بناء ضخم من هذه الابنية الكبيرة العظيمة التي يتم بناوها في الجزائر . وهي مرتبطة ارتباطاً واهياً بالجامعة ، وامينها العام ، الاستاذ روبرت كابوت — راي هو في الوقت نفسه المدير العام للدائرة الجغرافية في الجامعة .

وكانت الجولة التي قمت بها في المؤسسة بارشاد الاستاذ كابوت راي ، تجربة عظيمة رائعة . وكانت للاستاذ طريقته الخاصة في اغلاق الأبواب . وعندما كنا نترك كل غرفة من هذه الغرف ، كان يتوقف ثانية بساقه الاصطناعية وهي داخلها ، ثم يستخدم الرمية الاخيرة مرتكزاً على يد الباب ليوازن نفسه في سيره . ولا يهمني اذا اعترفت انني في البداية كنت ارى ان هذه الطريقة

الذكية في التغلب على عاهة من الباهات ، بدت لي مفزعة مرعبة ، ولكنني سرعان ما وجدتني اسائل نفسي ، انه بدونها ، هل كان في وسع الاستاذ كابوت راي ان يحقق هذه الانتصارات العلمية . وكتابه عن الصحراء الكبرى المعروف في جميع انحاء العالم ، لا يعتبر دراسة دقيقة وقيمة لكل ما كتب عن الموضوع في الخارج فحسب بل عرضاً لعدد لا يحصى من التحقيقات والحملات التي قام بها الاستاذ نفسه في الصحراء .

وعلى الرغم من أن لقبه الرسمي هو الأمين العام لمؤسسة الدراسات الصحراوية فان الأستاذ الذي تجاوز الستين من عمره في عام ١٩٥٧ ، هو الملك غير المتوج لجغرافيي الصحراء .

وبدأنا حديثنا بالاشارة الى الزيت والى كنوز البلاتين والتنقيب عن الماس في الهجر . وكان لديَّ شعور طاغ في أن الاستاذ كابوت راي ، كان في هذه المرحلة المعينة من الحديث كيساً ودمثاً . وبالفعل فاننا عندما تحدثنا عن الاحتمالات الصناعية للصحراء ، تسلل نوع من الصلابة الى صوته « فالصحراء المكيفة » . الجديدة ، ليست هي الصحراء التي كشفت له عن الكثير من أسرارها واعاجيبها .

وتبدل موقفه تماماً عندما بدأت اوجه اليه اسئلة عن صحراء ما قبل التاريخ . كانت رطبة ندية ! ففي جبال تاسيلي التي ترتفع اكثر من ستة آلاف قدم فوق سطح البحر ، نقل لهوتي منظر صيد بارز للغاية ، منظر ثلاثة زوارق صغيرة مصنوعة من « بوص » الحلفاء ، تلتف حول ثلاثة جواميس نهرية . ولا يوجد الجاموس النهري اليوم كغيره من الحيوانات الأخرى المرسومة على الصخور ، كالفيل والزرافة ووحيد القرن والظبي ، في الصحراء وانما هناك بعيداً الى الجنوب في البطاح أو في الادغال الاستوائية . وانتقلت قطعان الماشية كذلك الى الجنوب . ويبدو ان الصحراء في العصر الجليدي الذي يمتد من عام ثمانمائة الف قبل الميلاد الى عام عشرة آلاف ، كانت تتمتع بطقس رطب .

ويمثل « تكييف الهواء » والثلاجات غزواً جديداً للصحراء . فالمدن والمنشئات الصناعية هي في طريق البناء الآن . وها هي عمليات استيطان الصحراء

يجري على قدم وساق . لكن الآثار التي تركها انسان ما قبل التاريخ ، تشير بوضوح الى ان الصحراء كانت اكثر اهلاً بالسكان في الماضي ، مما يتوقع أن يقع فيها في المستقبل القريب . فبالاضافة الى الصور الصخرية ، والى العدد الذي لا حصر له من قطع الخزف ، ومن الفؤوس الحجرية ، ورؤوس السهام الصوانية ، ومدقات الاجران ، والاجران نفسها ، والمثاقب والصنانير العظيمة ، والمسابح المصنوعة من أصداف بيض النعام ، وكلها أدوات انتجها انسان عصر المنحوتات الصخرية واستعملها ، فهناك بقايا من ألوف السنين التي سبقت هذا العصر ، والتي قد تمتد مئات الاوف الى العصر الحجري المبكر ، وكلها تشير بصورة مدهشة الى كثافة السكان في الصحراء . فقد عثر على كميات هائلة من « المبارد » والامواس والانصال الحجرية في عدد من الاماكن . ففي قلب تنيزروفت وتينير ، وهما الآن منطقتان صحراويتان تماماً ، كان يعيش صيادو الاسماك وجامعو الاصداف ذات يوم . فقد عثر في هذين المكانين على أدوات حجرية ، وبقايا رماد وعظام جواميس النهر والفيلة والسلاحف والحيوانات الهلامية بالاضافة الى حمولة عدد كبير من الشاحنات من عظام الاسماك .

وعندما كان فنانو ما قبل التاريخ يملأون الكهوف من جنوب فرنسا وشمال اسبانيا بصورهم ومنحوتاتهم ، كانت اوروبا الوسطى ، أو تلك المناطق على الأقل التي لم تكن تغطيها كتل الجليد تعيش تحت رحمة الرياح الثلجية من اسكنديناقيا او جبال الألب . وكانت الخضرة الغالبة على هذه المناطق الصحراوية الجليدية (التندرا) ، تتمثل في حشائش البحر والخلنج ، والطحلب والقصب والحشائش القطنية ، والزنابق الثلجية ، والصفصاف القصير وتوت الغراب والزان القصير . أما الحياة الحيوانية فقد تمثلت في الماموت ، ووحيد القرن ذي الجلد الغليظ ، والثعلب القطبي والغزال القطبي ، وثور المسك ، والدب ، والوعل ، والشاموا ، وفأر الجبل ، والوعل الآسيوي ، وحمار الوحش ، والحصان البري ، والخنزير البري والارنب . وكانت الاشتاء القاسية الطويلة تتلوها اصياف قطبية قصيرة . أما في الربيع والخريف فتهب عواصف عنيفة

تثير سحباً كثيفة من الغبار تحملها من سهول « الستابس » لتقذف بها في اماكن اكثر امناً ، وكثيراً ما تدفن تحتها قطعاناً كبيرة من الحيوانات .

لقد كان عالماً معكوساً ، إذ أن أواسط اوروبا كانت أراضي صحراوية جرداء تغمرها العواصف الرملية بينما كانت الامطار تهطل على الصحراء الكبرى . وهناك نظرية آخذة في الذيوع الآن ، تقول بأن الفترات الممطرة في الصحراء كانت تتفق زمنياً لا مع الفترات الجليدية في اوروبا ، بل مع الفترات الاكثر اعتدالاً عندما كانت الثلوج تذوب في النصف الشمالي من الكرة الارضية

والصحراء الكبرى ليست ارضاً صحراوية موقتة ، أي بعبارة اخرى ، أن جدبها ليس ناجماً عن ظاهرة طبيعية سطحية . وقد يقال أن جبال الاطلس تقوم بدور المظلة ، ولكنها في الحقيقة ليست المسؤولة عن وجود الصحراء ، التي تدين بوضعها الى الطقس قبل كل شيء . ففوق خط الاستواء حيث يتسع مدى اشعة الشمس الى اقصاه ، تتولد تيارات هوائية ضخمة تقوم بتكثيف الرطوبة في السحب الثقيلة وتبعث بها شمالاً لتسقط في المنطقة الواقعة على خط العرض ثلاثين وخمسة وثلاثين . وعندما تحرم هذه السحب من رطوبتها ، وتصبح اكثر جفافاً كلما هبطت الى الارض ، تعود الى سطح الارض ممثلة هواء حاراً كأنه صادر عن فرن شديد الحرارة ، وتنزل على مناطق الضغط الجوي المنخفض على خط الاستواء ممتصة الرطوبة من الارض ومن الجو ، وتاركة اياهما معرضين للشمس اللاهبة .

وقال الاستاذ كابوت راي .. « ان العلاقة كما نراها بين الفترات الماطرة من الصحراء والفترات الجليدية في اوروبا ما تزال بعيدة كل البعد عن الايضاح . وليس من المعقول أن تكون المناطق الشمالية والجنوبية من الصحراء قد مرت في نفس التقلبات الجوية . فرداءة الطقس في جزء من الصحراء ، قد يرافقها تحسن في جزء آخر . وقد تعرض الشمال والجنوب لأوضاع مناخية مختلفة كل الاختلاف . وحتى اليوم لا يزال الشمال منطقة خاضعة لامطار الشتاء ، بينما تسيطر على الجنوب أمطار الرياح الموسمية الصيفية . ومن المهم جداً أن

نتذكر هذه الحقيقة . ولنفترض ان الصحراء تراجعت في الجنوب وان الرياح الموسمية السودانية تقدمت الى الشمال . وهنا يقوم احتمال تقدم الصحراء نحو سفوح جبال الاطلس وحتى الى الهضبة الجزائرية ، والعكس بالعكس . وقد تقدم ليونيل بالوت في مؤتمر دراسات ما قبل التاريخ الذي عقد في زوريخ بنظرية جديدة اثارت الكثير من الاهتمام . فقد افترض ان جبهة الهواء البارد تراجعت في العصور الجليدية ، بينما قامت حركة مماثلة من اتجاه الامطار الموسمية نحو الشمال ، ولما عادت الطبقات الجليدية الى الزيادة بعد تلك الفترة ، رجعت الامطار الموسمية الى الوراء ليستعاض عنها بمزيد من المطر الشتوي في منطقة الصحراء الشمالية .

ومضى الاستاذ يقول .. « ولا ريب في انها نظرية جذابة ، ويشتد الاهتمام بها لأنها توضح اسباب وجود هذه البقايا من مختلف ادوار العصور الحجرية في المنطقة . لكن نظرية بالوت اثارت الكثير من المعارضة لدى علماء الاجرام السماوية . ومن الواضح أن أي جواب شاف لم يعط بعد لا لهذا الموضوع ولا لموضوع مناخ الصحراء في عصور ما قبل التاريخ » .

ولعل اكثر انطباع خلوداً هو الدور الذي لعبه المطر في الصحراء ، والذي يستطيع الانسان ان يصل اليه من الهواء . وفي المساء عندما تستطيل الظلال ، وتغدو الصحراء خريطة مسلية ، يرى الانسان بقايا ما كان في يوم ما ارضاً تسقيها المياه ، ويرى مجاري الجداول والانهار . وهذه الاقنية جافة طيلة أيام السنة ، باستثناء بعض ساعات تنهمر فيها الامطار ، وآنذاك تمتلىء بتيار شديد من الماء الاصفر اللون . ولكن سرعان ، ما يموت هذا التيار ويتبخر ضائعاً بين الشمس والرمل . وهذه السيول القصيرة ، ليست هي التي خلقت هذه الوديان ، وانما استخدمتها ليس الا . ومعظم هذه الوديان هي من مخلفات فترات ما قبل التاريخ الماطره ، عندما كانت الجبال العظيمة القائمة وسط الصحراء ، مصدر انهار عظيمة . وكانت سلسلة جبال الهجر تبعث بمياهها شمالاً وجنوباً . وكان واد غرغر ، الذي تغطيه كثبان الرمال الآن ، ينبع

من جبال الهجر ويصب في بحيرة قرب بسكره .

ومضى الاستاذ كابوت راي يقول .. « وفي هذه المحيطات الرملية التي تكتسحها الأرياح اليوم ، كانت هناك في الماضي مساحات واسعة من المياه تحيط بها كثبان رملية شاسعة . وكثيراً ما تجد في الشقوق والاخاديد التي تفصل بين الكثبان رملاً أسود او أشهب . ويعتمد اللون على ما يمتزج بالرمل من مواد عضوية . فالرمل الملون يضم بقايا نباتية ، ويحتوي على مواد متحللة من جذوع الاشجار وجذورها مع بعض الاصداف المنحلة ، التي تجدها عادةفي المياه الآسنة التي تكثر فيها الخضرة . وكثيراً ما تجد هذا التنوع ايضاً اليوم في بحيرات الماء الحلوة في شمال افريقيا والسودان الفرنسي (مالي حالياً) . ومن الظواهر البارزة التي تراها العين بصورة مألوفة في هذه المناطق قضبان من زجاج الكوارتز ، وتسمى عادة بقضبان البرق ، وقد نتجت عن اصطدام البروق بالرمال . ويبلغ طول بعض هذه القضبان عدة ياردات ويشير الى عواصف ورعود شديدة . ومن المهم انها لا توجد في التلال الرملية الحديثة التكوّن .

وليست ثمة ادلة كثيرة على ان الفترات الممطرة في الصحراء ، كانت متساوية دائماً في رطوبتها ، ولكن مما لا شك فيه أن المطر قد تساقط على أهل العصور الحجرية ، الأولى اكثر من تساقطه على رعاة وصيادي العصر الحجري المتأخر . وكان صيادو الاسماك في العصر الحجري المبكر ، ثابتين ومستوطنين ، بينما اضطر رعاة العصر الحجري المتأخر وصيادوه الى العيش كالبدو الرحل . ويعتبر بعض علماء طبقات الأرض ، الاوضاع الجغرافية للعديد من مجموعات الصور الصخرية كدليل على انه عندما بدأ عهد الرعاة ، كانت هناك طرق واسعة في الصحراء ، لم تعد صالحة لسير الماشية . وقد لا يكون هذا القول بالطبع اكثر من مجرد تخيل أو حدس ، الى أن تتوافر ادلة اخرى في مجموعات جديدة من الرسوم الصخرية ، ولكن في وسعنا ان نقول الكثير تأييداً للنظرية القائلة بأن حشد هذه الرسوم الصخرية في منطقة صغيرة ، كان يدل على وجود

واحة ماقبل التاريخ فيها يقيم فيها . اناس تحيط بهم مساحات شاسعة من الاراضي القاحلة والمعادية . وهذا يوضح تماماً ، لماذا وجدت هناك اساليب مختلفة من الرسم في اماكن متقاربة نسبياً . فبين صور تاسيلي مثلاً ، خلاف في الاسلوب يماثل الخلاف القائم بين تصوير جيوتو وتصوير بيكاسو ، على الرغم من ان الرجلين يمتان الى فترة زمانية واحدة .

ومما يشير ايضاً الى مناخ العصر الحجري ، انه عثر على الكثير من أدوات هذا العصر في اجزاء من الصحراء ، لا تصلح الآن للسكنى ، حتى للقبائل الرحل. ولا تسمى تانيزروفت التي كان يسكنها في وقت من الاوقات الصيادون وجامعو الاصداف ، اليوم بأرض الخوف ، لسبب تافه . وكانت معظم الصور الصخرية من الناحية الاخرى على مقربة من ينبوع او بركة تجتمع فيها مياه الامطار أو مجرى ماء من أي نوع كان . أما الرسوم الموجودة على جدران الأودية العالية فقد كانت تحت مستوى اعلى الفيضانات التي كانت تصل اليها مياه الوديان قبل مئات الالوف من السنين ، وعلى مستوى قليل جداً من حد الفيضان الأعلى الحالي . ومن هذا يبدو ان كمية المياه التي تسيل في هذه الوديان قد انخفضت قليلاً مع مرور الزمن ، والا لما كانت الصور في هذه الحالة الرائعة التي احتفظت فيها بجمالها في وجه عوامل الطبيعة ، القاسية . وهذا يصدق بالطبع على الرسوم اكثر من المنحوتات .

وقلت اسأل الاستاذ كابوت راي... « ولكن ألا تعني هذه الحقيقة ان الصحراء الخضراء التي عاش فيها النحاتون والرسامون كانت سراباً او اسطورة خرافية ، وان الزرافات والفيلة وجواميس الماء وغيرها من الحيوانات لم توجد قط في الصحراء ؟ او لا يحتمل ان يكون راسمو هذه الصور ، صيادين هواة ، جاءوا في تجوالهم من السودان وتوغلوا شمالاً في الصحراء ، ثم رسموا هذه الصور من ذاكرتهم ؟

فقال الاستاذ مؤكداً .. « كلا .. لقد وجدت هذه الحيوانات ، فالصورة كثيرة ، ونابضة بالحياة الى الحد الذي لا يمكن ان تكون قد صورت فيه من

الذاكرة . يضاف الى هذا اننا نعرف ان الكثير من هذه الحيوانات ، كانت لا تزال تعيش في الصحراء في الاوقات التاريخية .. أما بالنسبة الى الصحراء الخضراء .. فأنا اؤكد لك انها كانت موجودة .

وقبل ان نفترق ، اعطاني الاستاذ كابوت راي رسالة تقدمة الى بيير كويزيل.

* * *

ليس الاستاذ بيير كويزيل بالشخصية المؤثرة ، وانما يبدو كممثل صادق لطراز الرجل الموظف . وعندما عثرت اخيراً على غرفته بعد أن تعبت من الطواف في متاهات الاروقة والدهاليز في جامعة الجزائر ، ارتكبت الخطيئة الكبرى اذ حسبته مساعده . وقادني الاستاذ محجماً الى غرفة حقيرة هي مكتبه ، شاعراً بما يحس به كل استاذ عندما يطلب اليه ان يأخذ زائراً غريباً الى مختبر يعرف تماماً انه قديم الطراز متواضع المعدات .

ولكن الظواهر كثيراً ما تخدع . فقد كان مكتبه ابعد ما يكون عن المفهوم المتعارف لمختبر علمي حديث ، بقدر ما هو الاستاذ كويزيل بعيد عن مفاهيم الاساتذة اللامعين ، ولكن اهمية العمل الذي يجري في ذلك المكتب المتواضع تفوق كل تصور . فقد كان الاستاذ كويزيل اكثر العلماء الذين قدموا ادلة واضحة ، على نظرية وجود الصحراء الخضراء . ولم تكن الادلة التي اعتمد عليها مجرد فروض او استنتاجات جريئة ، بل كانت من بقايا الصحراء الخضراء نفسها .

فالخلايا النباتية الذكرية واللقاحات لا ترى عادة بالعين المجردة . وقد يحتاج المرء ليملأ « كشتباناً » منها الى مئات الالوف أو الملايين بله البلايين . ولكن في وسع الانسان ان يميز تحت المجهر لقاح احدى الفصائل النباتية عن فصيلة اخرى . وفي وسع الخبير عن طريق تحليل لقاح فرد ، ان يميز النبات الذي جاء منه هذا اللقاح . واذا ما فحص اللقاح الموجود في العسل مثلاً ، ففي وسعه أن يحدد الازاهير التي استخلص النحل منها هذا اللقاح .

ودراسة اللقاحات بهذا الشكل ، تعود الى نحو من قرن خلا . ولكن استخدام هذه الدراسات في الابحاث العلمية المتعلقة بعصور ما قبل التاريخ لم يبدأ الا في عام ١٨٩٣ على يدي العالم الألماني الدكتور ويبر في بريمن ، الذي ادرك هذه الاحتمالات العظيمة . فالاشجار التي تلقحها الرياح تنتج كميات لا تحد ولا تحصى من اللقاحات التي تنشرها الرياح على مساحات شاسعة من الارض . والمطر الكبريتي مثلاً ، ظاهرة طبيعية مألوفة . وليس هذا المطر ، إلا رياحاً حملت لقاحات امتصتها كمسحوق اصفر من البحيرات والبرك . والشيء الغريب ان هذه البذور الصغيرة تستطيع ان تعيش ألوف السنين ، وحتى ملايين السنين في حالات استثنائية ، وقد اكتشفت أنواع عدة من اللقاح ، في الفحم البني الأول الذي يعود الى العصر الجيولوجي الثالث .

ومثل هذه الاكتشافات بالاضافة الى الاشياء الاخرى كالادوات التي استعملها الانسان وبقايا الرماد وعظام الحيوانات ، وأجزاء الهياكل العظمية الانسانية هي على جانب كبير من الاهمية بالنسبة الى من يدرسون عصور ما قبل التاريخ ، اذ انها تحسر لهم النقاب عن طبيعة النباتات التي كانت موجودة ، ويستطيع عن طريق هذه النباتات تقرير نوع المناخ الذي كان قائماً . ولكن اجناس اللقاح المختلفة ، لا تكتفي بأعطاء صورة عامة عن نباتات ما قبل التاريخ ، بل تكشف عن ثروة وافرة من المعلومات المفصلة . واذا ما جمعت نماذج لقاحية تمثل مختلف العهود في منطقة مكانية واحدة ، فان هذه النماذج تحلل لتعطي صورة كاملة عن الحياة النباتية في تلك المنطقة . ولا ريب في اننا مدينون بما نعرفه عن التاريخ الماضي لغابات اوروبا الشمالية والوسطى الى تحليل مختلف اللقاحات النباتية .

وقال الاستاذ كويزيل موضحاً لي : « حتى عهد قريب ، كان العلماء يحملون آراء تكاد تكون مقررة عن نوع الاجواء التي يستطيع اللقاح الحياة فيها . ولعل من اهم الاشترا طات ، الافتقار الى الاوكسجين . ومن هذا يتبين ان المستنقعات التي تضم المخلفات النباتية ، والبحيرات الآسنة ، هي متاحف

مثالية للقاح . وليس من المستغرب والحالة هذه ان ينحصر تحليل اللقاح في البداية على ما عثر عليه منها في المستنقعات والوحل . ولكن هذه المستودعات الطبيعية غير موجودة في الصحراء . ولهذا لم يدر في خلد علماء الحياة ، ان يحاولوا ان يجعلوا من تحليل اللقاح وسيلة لتقرير نباتات ما قبل التاريخ ومناخ الصحراء . وسرعان ما اكتشف انه في ظروف معينة تستطيع بعض اللقاحات ان تعيش وأن تبقى حتى في الاماكن التي يوجد فيها قليل من الاوكسجين . وهذا يصدق بصورة خاصة على التربة الغنية بالرغام ، او ما يسمونها بالتربة المبيّضة او الرمل النقي » .

ويقوم الاستاذ كويزيل بتحرياته بالتعاون مع ارمان بونز . وقد اخفى في التقرير الذي قدمه الى اكاديمية العلوم جهوده الرائدية بتواضع تحت ستار عبارة « نحن » المجهولة . وحتى طيلة حديثي معه تحاشى الاشارة الى نفسه مخافة ايلام مساعده ، ولكن مما لا ريب فيه ، ان الاستاذ ، هو الدماغ الكبير المفكر وراء هذه العملية .

وقد ذهب في آذار عام ١٩٥٦ الى أواسط الصحراء لتحري الطبقات الغرينية التي تبلغ خمساً تقع الواحدة منها فوق الاخرى . ومن المحتمل أن تكون كل طبقة من هذه الطبقات ممثلة لفترة زمانية مختلفة من الامطار والرطوبة . وكانت الكثافة الكلية في بعض النقاط لا تقل عن مائة ياردة . وكانت الاوضاع في معظم الحالات غير مناسبة للحفاظ على اللقاحات ، ولكنه عثر في القسم الأعلى من طبقة واحدة على منطقة سميكة تضم مسحوقاً اشهب اللون .

وقال الاستاذ ... « وقد فحصنا هذه الطبقة تحت المجهر ، ولم يكن هناك اقل شك ، في انها كانت مستودعاً اصيلاً للمتحجرات . وفي وسعك ان تتخيل حماسنا عندما اكتشفنا هذا المسحوق الاشهب ، اذ أنه سيضم حتماً لقاحات » .

وحصل الاستاذ كويزيل على نماذج من ثلاثة اماكن مختلفة ، أحدها في قلب جبال تيفيديست والثانية عند تين تيسانجيلت على ارتفاع اربعة آلاف قدم والثالثة عند عين عاقر في جبال الهجر بين تيت وتينسو . وقد وجد ان بعض

التربة تضم مخلفات نباتية ، بينما وجدت هناك في مناطق اخرى بقايا ادوات بشرية مكنت الاستاذ كويزيل من ان يحكم بأن الطبقة الارضية تعود الى الفترة الاخيرة من العصر الحجري المبكر .

وقال يحذرني « ولا تنس ان فحص متحجرات اللقاح، لا يمكن ان تعطي نتائج ايجابية ، إلا اذا كانت لدينا قائمة بأصناف لقاحات النباتات الحية ، اذ اننا نستطيع في مثل هذه الحالة وحدها ان نتابع اصول اللقاحات المتحجرة . وجدول اللقاحات بالنسبة لشمال اوروبا ووسطها واسع وشامل . وقد عمل فيه جيل كامل من علماء الحياة الاسكندنافيين والالمان . ولكننا كنا نفتقر الى مثل هذه المعلومات بالنسبة الى نباتات البحر الابيض المتوسط . وكان علينا ان نقوم بجمعها بكل جهد ومشقة قبل ان نستطيع تمييز لقاحات الصحراء » .

وأراني الاستاذ كويزيل بعض اللقاحات وهي تحت المجهر . وكان معظمها دائري الشكل ، ولكن كل لقاح منها يختلف تماماً عن اللقاح الآخر . وكان الاستاذ اشبه ما يكون بالساحر عندما ذكر لي ان احدها يمت الى شجرة صنوبر حلبية وان الثاني يمت الى شجرة بلوط دائمة الخضرة .

وقال لي انه عثر على لقاحات تمت الى عدد كبير من أنواع النباتات وأجناسها وفي مقدمتها السنديان ، والسندروس والعرعر ، والصنوبر الحلبي ، وارز الاطلس ، والحنطة والحور ، والبلوط الدائم الخضرة ، وشجرة القريض ، وشجر الغار والزيزفون ، والطرفاء والعناب ، والياسمين والزيتون .

وقد لا تعني هذه القائمة شيئاً الا اذا أدرك المرء من اين تأتي هذه اللقاحات . انها تأتي من بطن صحراء ، هي اكثر مكان في هذا العالم جفافاً ويبساً .

ومضى الاستاذ كويزيل يقول .. « ومثل هذه الادلة المتوافرة لدينا ، قد تكون ضئيلة بحيث لا تصل بنا الى نتائج بعيدة المدى ، ولكن قد يكون الافتراض عادلاً ان قلنا ، انه في الطبقات الارضية العليا التي تشير الى احدث الفترات الزمنية والعهود ، فأن اشجار السنديان والنباتات المخروطية هي الغالبة . وفي وسعنا من الناحية الاخرى ان نتابع تبدلاً وصفياً مهماً في الصورة العامة ،

فالزيزفون والحور من اشجار الشمال . وليس هناك زيزفون في افريقيا الشمالية كلها الآن ، أما الحور فلا يوجد الا في بعض المناطق الغنية بالمياه في الريف وفي شرق الجزائر . وقد عثرنا على لقاح الزيزفون والحور في الطبقات الخفيضة التي اذا حكمنا عليها من الادوات الحجرية التي تضمها ، ترجع في تاريخها الى فترة تتراوح بين ثمانية آلاف وخمسة عشر الفاً من السنين . وهذا اللقاح مختلط بنباتات البحر الابيض المتوسط والصنوبر الحلبي والبلوط الدائم الخضرة وأفهم من هذا وجود مناخ رطب متقلب . فالاشجار المولعة بالطقس الجاف الدافىء ، كالزيتون والعناب والسنديان ، موجودة فقط في الطبقات الارضية العليا ، التي لا تعود في تاريخها الى اكثر من خمسة آلاف عام » .

فقلت للاستاذ .. هل اكون محقاً ان قلت انك اطلعتني على لقاح الحنطة ؟

— أجل ، ولكن هذه اللقاحات عثر عليها في اكثر طبقتين ارضيتين انخفاضاً . وعلينا ان نتحقق مما اذا كان هذا يعني ان زراعة الحبوب قد اهملت بسبب ما طرأ على الطقس من تردٍ . وكما سبق لي ان قلت ، اننا نفتقر الى الادلة الكافية التي تمكننا من الوصول الى مثل هذه النتائج .

—لقد ذكرت لي خمس طبقات ترابية ، يجب ان تعود كل منها الى عهد خاص من عهود الرطوبة . ولكن مما قلت لي بعد ذلك ، استطيع أن اقول انها تمت جميعها الى فترة زمانية واحدة .

— تماماً . هو كما تقول . انها تمت الى الفترة الممطرة الاخيرة في الصحراء . وكان القصد منها ان تخلق توازناً بين الرطوبة والجفاف . ومن الأمور التي تستلفت النظر أن لقاحات الصنوبر الحلبي وشجرة القريض والبلوط الدائم الخضرة موجودة في جميع المستويات . وتفضل هذه الاشجار طقساً جافاً معتدلاً ، كالطقس الموجود الآن في شمال افريقيا واسبانيا وصقلية . ويبدو ان هذا الطقس ظل مستمراً طيلة العصر الحجري المبكر ، ولم يتطور تطوراً جذرياً نحو الاسوأ الا حوالي سنة الف قبل الميلاد » .

وقد استقبل اخصائيو الصحراء ، نتائج هذا البحث العلمي في اللقاحات

بحماس شديد . ولكن هذه النتائج لم تكن بالنسبة الى الاستاذ كويزيل اكثر من مجرد بداية مشجعة . فقد كرس نفسه وعقله لمتابعة البحث عن الصحراء الخضراء . ولما كان العالم يستمد معلوماته فقط من التطلع اليها ودراستها فان الاستاذ قد أخذ على عاتقه مهمة فحص « الروث » المتحجر ايضاً . وقد عثر على حيوان من حيوانات ما قبل التاريخ التي تقطن الصخور ، ومن ذوات الاظلاف ، حجمه لا يزيد على حجم الارنب ، ولكنه يتصل بالفيل ووحيد القرن ، ويعود عهده الى ألوف السنين . وكان هنري جان هوغوت ، هو الذي عثر على هذه البقايا المتحجرة في صخرة معلقة في قمة جلاميد تاييسا في جبال الهجر على ارتفاع ستة آلاف قدم .

وليس « روث » الطيور البحرية المتحجر بالشيء النادر في جبال الهجر . ولم تكن التجربة التي مرت بي بهذا الصدد ، ممتعة جداً :

بدا لنا ، ونحن نقطع الفيافي في ذلك النهار على ظهور الابل ، ان لا نهاية لهذا الحصى الاسود الذي يشبه الفحم ، وان الهواء سيظل جامداً يقطع الانفاس . كنا في الحق وكأننا نعيش في اتون متقد . وحتى دليلي وهو رجل هادىء صلب من الطوارق ، كان يقود بعيره من شكيمته ، وجد ان الحرارة لا تطاق ، فاحتمى من لظى الارض بأن استقل ظهر هجينه . وبدت لنا قمة الجبل من بعيد في نهاية الافق وقد ظهرت ذات مرة في احد الافلام السينمائية وكأنها قلعة انتينيا ملكة الاطلانتيد . وكنا نعتزم اللجوء من وهج شمس الهاجره الى احد كهوف الجبل . وأخذ رفيقي حنون آغ امان راسا يعني بشؤون الاباعر ، بينما حاولت ان انال قسطاً من الراحة وراء ظلال الصخور . ولم اكترث بالكميات الضخمة من « الروث » المتراكمة بجانبي والتي يعود بعضها الى عهد قديم جداً . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ارى فيها مثل هذا الروث ولكن حنون انكمش على نفسه ، وعلى وجهه تعبير من الفزع الشديد . وعلى الرغم من رجاحة عقله التي اعرفها فيه في الظروف العادية ، فقد رفض في هذه المناسبة الاصغاء الى صوت العقل . ولما كان لا يعرف من الفرنسية الا كلمة

واحدة وهي كلمة « المسيو » ، فقد كان يتحدث بلهجة « التمحاق » وهي لغة الطوارق من أهل الهجر . وكنت اتحدث بالسويسرية – الألمانية . وكنا حتى الآن نتفاهم تفاهماً رائعاً . لكن هذه الكميات من الروث المتحجر ، بدلت تمام التبدل جو التفاهم الودود القائم بيننا . ورفض حنون الاصغاء الى جميع توسلاتي . وسرعان ما رأيته يمتطي صهوة الجمل . ووجدت نفسي مرغماً على ان احزم متاعي ، وان اعود معه بسرعة وكأن اللصوص يطاردوننا . وقد اثارني سلوك حنون الغريب ، ولكن شمس الظهيرة ، التي كانت تحرقنا دون رحمة او اشفاق ، سرعان ما قضت على استغرابي .

وقد ذكرني زرق هذه الطيور التي سبقت التاريخ المتحجر ، بهذا الحادث . فضحك الاستاذ كويزيل وقال : « ان الرد على هذا الاستغراب قائم في اساطير الطوارق وخرافاتهم . فدليلك ينظر الى الروث نظرة جدية على انها بقايا اليشع . ويلعب اليشع وعمه « عماميلين » الذي تنسب اليه جميع الرسوم الصخرية ، دوراً بارزاً في خرافات شعب حنون . وهذا هو سبب خوفه من مجرد فكرة الدخول الى الكهف أو حتى البقاء بجانبه .

ولم يكن الاستاذ كويزيل يفكر بأليشع عندما فحص بذور اللقاحات التي احتفظ بها في متحجرات الروث . وكان كل ما يهمه هو براز الحيوانات نفسها . وقد تمكن من ان يثبت انه بالاضافة الى بعض نباتات الخنشار ، فقد كانت هناك لقاحات من النباتات التالية : نبات الصليب ، والخلنج ، والاعشاب ، وحشائش السماق ، والزيتون والنباتات الخيمية ، وحشيشة القرّيص ، وكبش القرنفل ، والرمرام ، وعين الجمل ، والنباتات الشفراء ، والقصب ، وعصا الراعي ، والصفصاف ، وشجر القيقب ، وزهر العسل ، والزان والحور والفرفور ، والبردي واشجار السرو والعنب والصنوبر .

وأوضح لي الاستاذ كويزيل قائلاً .. « ان هذه القائمة مرتبة بحيث تسجل الوضع النسبي لكل فصيلة في جميع بذور اللقاحات التي تم فحصها . ولكن هنا ايضاً ليس من الممكن بالطبع ان نستخلص وضع كل فئة من الفئات في

الحياة النباتية للمنطقة . فهذا الغرير الصخري (حيوان بين الكلب والسنور) الذي عاش في العصور التي سبقت التاريخ ، لم يكن ليهتم بالاحصاءات النباتية . وكان يأكل كل ما تقع عليه يده وكل ما يستسيغ مذاقه . ومع ذلك فهو من الحيوانات التي تعاونت مع الانسان في ميدان العلم تعاوناً كلياً . ويبدو أن طعامه كان من النباتات التي تعيش في حوض البحر الابيض المتوسط . ويغلب عليها ان تكون من الزعتر ، والسماق والخلنج والزيتون والنباتات الخيمية . ومن الصعب بالطبع ان نميز كل لقاح منفرد وأن نعيده الى فصيلته او نوعه . ولا تغدو الصورة واضحة كل الوضوح الا بالنسبة الى الاشجار والاعشاب . وتضمن الروث اللقاحات التالية : ارز الاطلس ، السنديان ، العنب البحري ، الصنوبر الحلبي ، والقيقب ، والبطم ، والراتينج ، وشجرة الصمغ والعرعر ، والبلوط ، والجوز ، والحور ، والصفصاف والدردار . »

وكان الروث يتضمن كأي شيء آخر ، سبقت له الحياة من قبل ، منبهاً قوياً . فقد كان نسبة عدد الذرات الكربونية الحية الى الميتة ، تتغير عبر الاجيال والقرون بتغير قانون الطبيعة . وفي وسع عالم الذرة الطبيعي اذا ما عرف هذه النسبة وتأكد منها في اية لحظة من اللحظات ، ان يعرف متى توقفت الحياة في هذا الجهاز الموجود تحت الفحص . ولا ريب في ان « الروث » المتحجر ، هو المادة المثالية لهذا الاختبار المسمى باختبار (سي ١٤) . وقد دلل الفحص الكربوني الذي تم ، على ان الحياة كانت موجودة قبل ٤٦٨٠ عاماً مع احتمال الخطأ لمدى ثلاثمائة عام زيادة او نقصاناً . ومن هذا يتضح ان حيواننا المذكور كان يعيش بين عامي ٣٠٢٢ و ٢٤٢٢ قبل الميلاد .

ويسجل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد بدء التاريخ . وكانت مدينة اريحا وهي اقدم مدينة معروفة في الكرة الارضية قد عاش فيها الناس قبل خمسة الاف عام من هذا التاريخ . وكان وادي النيل في هذا العهد على وشك ان يوحد في ظل امبراطورية واحدة . أما في اوروك الدولة المدينية السومرية البارزة في العراق، فقد عرف الناس في هذا التاريخ صناعة الآجر ، وتخمير الجعة ، وعرف اهلها

نظاماً نقدياً اصبح شائعاً مألوفاً . وكن كهنة المعبد ، الذي لا يخدم كمكان للعبادة فحسب ، بل كمحكمة ، وقصر ملكي ، وسوق تجارية ، قد اخترعوا نظاماً للكتابة هو اهم ما اخترعهُ الجنس البشري في هذا العهد . ومن المهم ان هذه الكتابة وتدوين الارقام التي ابتكرت ، لم يكن القصد منها في البداية تمجيد الالهة بل حفظ حقوق الكهنة ضد أي تلاعب عند نقل الحنطة والزيت والتمر والخضار ، والجلود الى المعبد .

ولم يحل عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد حتى كان الاهرام العظيم قد بني في مصر وحتى كان اله الشمس « راع » ، قد احتل مكان الصدارة بين الهة المصريين ، وكان اطباء الفراعنة يضعون اسس شهرة مصر الداوية في عالم الطب . وازدهرت في حوض نهر الاندوس (السند) مدن عامرة . وتمكن ساراغون ملك الاكديين وهو اول امير من امراء ما بين النهرين برز اسمه كفاتح عالمي ، من اخضاع السومريين ، وتبنى لنفسه لقب « ملك القارات الاربع » ، واحتفظ بجيش دائم قوامه ٥٤٠٠ رجل . وظهرت في هذه الفترة اول علائم العجلات .

وهذه هي الاسس التاريخية العامة ، بالنسبة الى تاريخ الصحراء . ففي العهد الذي عاش فيه حيوان الصخر في الصحراء ، كانت الحياة لا تزال في العصر الحجري المبكر ، ولكن الصحراء كانت مخضرة .

وقال الاستاذ كويزيل : « قبل نحو من خمسة آلاف عام ، كانت جبال الهجر مغطاة بالخضرة التي تعيش في حوض البحر الابيض المتوسط . وحتى اشجار الزيزفون والجوز الهندي التي لم تعد معروفة في الشمال الافريقي كانت موجودة في المنطقة . ولاريب في أن اللقاحات التي اكتشفت في مينيه تمت الى نفس التاريخ . ولا ريب ايضاً في أن اشتمالها على أنواع من النبات التي تعيش في الاجواء الحارة يشير الى ارتفاع درجة الحرارة ايضاً . وتقع مينيه على بعد اقل ارتفاعاً بثلاثة آلاف قدم من المكان الذي عثر فيه على الروث المتضمن للقاحات . ولا شك ايضاً في ان نتائج تحقيقاتنا مذهلة ، اذ لأول مرة تتضح لنا مفاهيم جديدة عن مدى سرعة التبدلات المناخية التي ادت الى ظهور الصحراء » .

وقد عثر تحت الصخور على لقاحات تمت الى اشجار العناب المثمرة التي لا تعيش الآن وتزدهر الا في المناطق التي يزيد فيها معدل سقوط الامطار السنوي على اثني عشر انشاً ، كالجزائر في جبال الاطلس المحاذية للساحل ، وفي المناطق الاخرى من جبال الاطلس الصحراوية حيث المناخ مناسب ومعتدل. وهذه الاشجار توجد الآن جنباً الى جنب مع اشجار البلوط الدائمة الخضرة . وتشبه بذور العنّاب التي كشف عنها هوغوت في مينيه الثمار التي تنمو الآن في أطراف الصحراء الشمالية في منطقة الداية الواقعة بين غرداية والاغواط . وهكذا فإن الطقس في الصحراء في العصر الحجري المبكر كان مماثلاً دون ريب للطقس الموجود الآن في منطقة الاطلس الصحراوية .

وذكر الاستاذ كويزيل ، ان من الخطأ ، ان يصور تاريخ الخضرة في الصحراء في تعابير بسيطة . وكانت النباتات الصحراوية تعيش جنباً الى جنب في جبال الهجر وتاسيلي والتيبست مع مختلف أنواع النباتات التي تنمو في الشمال في حوض البحر الابيض المتوسط وفي الجنوب في السودان . وهذه النباتات دليل نباتي على حرب المد والجزر بين الشمال والجنوب . وكانت فترات الامطار الموسمية الاستوائية تحمل النباتات السودانية شمالاً بينما كانت الامطار البحر – متوسطية تحمل نباتات البحر المتوسط جنوباً . وعندما انحسرت هذه الموجات المناخية اخيراً ، لتحل محلها الصحراء ، تركت وراءها في جبال الصحراء ، مخلفات نباتية أخذت تضيع تدريجياً في الصحراء المحيطة بها ، أو ظلت تعيش رغم الاحوال الجوية المعاكسة وجوداً تعساً حتى يومنا هذا . ولا يعتبر مفهوم الهجرات النباتية من الشمال والجنوب شيئاً جديداً ، ولكن الاستاذ كويزيل ، كان اول من حل رموز لغة اللقاحات ، ومن جمع البراهين الثمينة ، عن الاوقات التي قامت فيها الموجات المناخية ومدتها وشدتها وأصلها وسيرها ، وكذلك عن حركات الحياة النباتية في العصر الحجري المبكر .

٥

الماءُ .. العَـدُوّ رقم واحـد

« وفي هذه البلاد الصحراوية الى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية ، لا توجد في تلول المغرب، وذلك ان البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى ، وتطوى جوانبها الى ان يوصل بالحفر الى حجارة صلدة ، فتحت بالمعاول والفؤوس الى ان يرق جرمها ، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء ، فينبعث صاعداً فيفعم البئر ثم يجري على وجه الارض وادياً .

ويزعمون ان الماء ربما اعجل بسرعته عن كل شيء ، وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكوراين وورغلة وريغ .

والعالم ابو العجائب .
والله الخلاق العليم » .

— ابن خلدون —

صحت هاتفاً : هل هي الشمس او هي الرياح ؟
كانت الجرّافات والكاشطات ، تمزق ارض الصحراء ، وتملأ جوها الهادىء الصافي بضوضاء مزعجة تشبه الجحيم . وقد وجهت هذا السؤال الذي اوردته

في مستهل هذا الحديث الى رازيل الشاب الذي كان العمل يدور تحت مراقبته في تعبيد طريق تمتد مائة وخمسين ميلاً بين غرداية وواحة الغولية . أجل وجهت هذا السؤال لأعرف العدو الأول للمواصلات الصحراوية وهل هي شمس الصيف المحرقة التي تحيل سطح الطريق الى قطعة تغلي من الارض أو هل هي الرياح التي تحمل معها الكثبان الرملية فتغطي بها الطرق الصحراوية .

وأشار رازيل الى مجموعة من العمال السود الذين كانوا يحاولون دق انبوبتين ضخمتين في بعضهما من انابيب المجاري . وكان قطر كل من الانبوبين كبيراً بحيث يشبه النفق الذي يحفر تحت الارض . وكان في وسع سيارتنا الجيب ان تمر عبر هذا الانبوب بسهولة .

وهتف رازيل الشاب صارخاً : « ان العدو رقم واحد هو الماء . ففي وسعه ان يمسح الطريق كلها من الوجود اذا لم نتخذ الخطوات اللازمة للحيلولة دون ذلك » .

وعندما هبط دوي الجرّافات والكاشطات والرافعات قليلاً اضاف يقول : « ولعل من مفارقات الجو الصحراوي ، ان الماء الذي لا يقدر احياناً بثمن ، يسبب احياناً اخرى الكثير من الكوارث . »

والماء هو الكلمة الاساسية في لغة الصحراء ، فبدونه لا توجد حياة ، ومع ذلك ، فهو يمكن ان يكون ايضاً تهديداً مميتاً قاتلاً . وكثيراً ما احالت الامطار في الواحات البيوت المبنية من الآجر والطين الى وحل سائل . وكثيراً ما انحلّت اجزاء كبيرة من القرى الصحراوية كما تذوب ألواح الشوكولاته في وهج الشمس . ولهذا فان فرح الأهلين بهبوط الامطار ، يخالطه دائماً قلق زائد على بيوتهم . وعندما زرت ورغلة في عام ١٩٥٨ ، التي تعاني نقصاً في المساكن كما تعاني منه باريس او غيرها من المدن الأوروبية ، وجدت نحواً من (٤٢٧) بيتاً وقد هدمتها الامطار أو خربتها . وعندما وصلت الى الغولية لم اكد اصدق عيني . فهل هو سراب ؟ أو ان أقواس السوق واشجار النخيل والصفصاف وأسوار القلعة العالية تنعكس كلها في بحيرة صغيرة ؟ ولكن شكوكي

سرعان ما زالت عندما رأيت سيارات الجيب التابعة لرجال الفرقة الاجنبية وسيارات شركة الزيت « اللاندروفر » تقوم باداء نوع من رقص الباليه الآلي في مياه هذه البركة غير المتوقعة . ولكن هذه البركة اختفت من الوجود بعد اسبوع مخلفة وراءها اكواماً من الملح . ورأيت بين النتائج البشعة الاخرى ، لهذا الانصباب الفجائي من المطر ، عشرات من الاكواخ المهدمة ، وقد تحولت الى اكوام من « الطوب » ، أو الآجر غير المحروق . وحملني المسيو جاك المدير الاداري العام للمركز الذي اقامته شركة الزيت في الغولية ، في عربته « الترولي » لنجول في الواحة . وتوقف في نقطة لمحت امامها ثلاثة من الحرّاثين السمر الوجوه ، يحفرون اسس احد المنازل ، دون أن يلقوا علينا نظرة واحدة . وقال بلهجة لا تخلو من الاعتزاز :.

« ليس من الصحيح أن أهل هذه المنطقة ينفقون أموالهم التي يجنونها منا على الحلي والزينة . ففي هذه البقعة كان يقوم كوخ احمد . ولكن هذا الكوخ كغيره من الاكواخ ، قد هدمته الامطار . وسيعيد احمد بناءه من جديد . وهو لا يشعر باحساس خاص من الشقاء لأن هذه الكارثة قد حلت به . وهو اولاً وقبل كل شيء تمكن من انقاذ زوجته وما شيته وايصالهما الى مكان امين ، وها ان اعادة بناء بيته تمكنه من استخدام الحجر الرملي . وهذا تحسن في وسعنا نحن واحمد ان نهنيء انفسنا عليه ، لا لأننا قدمنا الى احمد الأموال التي استعان بها في شراء الحجر الرملي الباهظ التكاليف ، بل لاننا قد تمكنا من مساعدته على مقاومة روح القدرية العذبة التي كانت تختلط في دمه منذ ولادته . وهو الآن لا يترك موضوع هدم بيته في كفة القدر بحيث تأتي السحابة التالية فتدفن له ماشيته وأفراد اسرته تحت انقاض كوخه » .

واثر السحب الماطرة في قلب الصحراء اكثر تخريباً منه في الواحات . فقد تنصب احدى القوافل التي لا تتوقع شيئاً خيامها في شعب أو واد ، وسرعان ما يتحول في دقائق معدودة الى سيل عارم . وقد جرفت السيول عام ١٩٥٧ في الساقية الحمراء في موريتانيا اربعة عشر شخصاً .

ولا تعني الحقيقة القائلة بأن عدد من يموتون في الصحراء غرقاً يفوق عدد من يموتون فيها عطشاً ، ان الماء غير نادر فيها . فلا يربو معدل سقوط الامطار السنوي فوق الصحراء التي تبلغ مساحتها مليوناً وثمانمائة الف ميل مربع اكثر من بوصة ونصف البوصة . وفي وسع طبقات الهواء الجاف التي تعلو الصحراء كورق نشاف ، ان تمتص في كل عام بحيرة تزيد في عمقها مئات المرات على عمق هذه الطبقات ، وان تجفف بحراً داخلياً في الصحراء يتراوح عمقه بين الاثني عشر والخمسة عشر قدماً . وقد حاول علماء الارصاد الجوية ان يحللوا هذا الفرق الهائل بين العرض والطلب وهو شرط اساسي من مقومات الصحراء . وقد اعد جان دوبييف مثلاً ، حساباً عن الأيام التي تحتاج اليها الشمس في استهلاك معدل سنوي خاص لسقوط الامطار في منطقة من المناطق . ولكن ليس لمثل هذا الحساب بالطبع اية قيمة عملية ، اذ ان الماء لا يضيع عن طريق التبخر فحسب بل عن طريق امتصاص الرمال له ايضاً دون اختزانه . ومع ذلك فللجدول الذي اعده دوبييف قيمة ايضاً . ففي ورغله حيث يبلغ معدل سقوط الامطار بوصة ونصف البوصة ، تبلغ نسبة التكاثف المحتملة في كل عام عشرة اقدام . ومن هذا يتضح ان قوة التبخر في هذه الواحة تبلغ ثلث البوصة في كل يوم وهذا يعني ان كل ما يترسب من الأمطار في السنة كلها ، يضيع عن طريق التبخر في غضون خمسة أيام .

وقد اعطى دوبييف للغولية نفس الرقم الذي اعطاه لورغلة وهو خمسة . وكلما توغل الانسان في الصحراء ، حيث يقل المطر عادة وترتفع نسبة التكاثف فان هذا الرقم يهبط ايضاً . وفي عين صلاح لا تحتاج الامطار للتبخر الى اكثر من يوم واحد ، أما في عوليف ، فلا تزيد الحاجة الى اكثر من نصف يوم . أما الى الشمال حيث تلتقي الصحراء بأراضي المراعي فيرتفع الرقم الى ٢٨ يوماً ، ثم يأخذ في الارتفاع كلما اتجهنا شمالاً حتى نصل حدود المنطقة الزراعية في الشمال الافريقي ، حيث لا حاجة الى ري اصطناعي ، وهناك يصل الرقم حدود المائة .

ولهذه الأرقام اهميتها في الصفوف الدراسية كما قد تكون اكثر اهمية لمن يرسمون خرائط الطقس والجو مثلاً ، ولكنها لا تفيد مطلقاً الفلاحين الذين يقومون بزراعة أراضيهم . فمثل هؤلاء الفلاحين لا يهتمون بمعدلات الارصاد الجوية بقدر اهتمامهم بما اذا كانت الامطار تهطل في الشتاء أو في الربيع ، وبما اذا كان المطر من النوع الثقيل الذي « يغرز » في التربة الى مسافات عميقة أو من « الزخات » الخفيفة التي لا ترطب الا سطح الارض. وهم يهتمون كذلك بقوة التكاثف في الوقت الذي تهطل فيه الامطار . ففي بعض الاوقات قد تفرغ السحب ما فيها من رطوبة دون ان ينزل المطر ، ذلك لان الهواء الحار فوق الصحراء والمتعطش للرطوبة يقوم بدور المظلة في منع المطر من النزول الى الارض .

ولا تحيط الارقام التي يقدمها علماء الارصاد الجوية بعامل اساسي جداً ، وهو عدم انتظام سقوط الامطار . فقد اثبتت الملاحظة المنظمة التي استغرقت عشر سنوات ان هناك نقطة واحدة في الصحراء ، يبلغ معدل سقوط المطر السنوي فيها بوصتين . وهذا لا يعني بالطبع ، ان السماء لن تمطر في هذه النقطة الا مرة واحدة في هذه السنة او في السنة التي تليها . ففي السنوات العشر التي وضعت تحت المراقبة ، كانت ثلاث منها بدون مطر تماماً ، بينما هبطت اقل نسبة ممكنة في خمس سنوات اخرى . ولم يتعد المطر النازل في هذه السنوات الثمان بوصة واحدة . أما ما تبقى وهو تسع عشرة بوصة فقد هطل في سنتين وفي مناطق محدودة مؤدية الى كوارث .

وسقوط الامطار في الصحراء ، محدود اكثر من اللزوم ومفتقر الى التنظيم في مواعيده ، وهذا ما يجعل من المستحيل على السكان ان يقيموا فيها اقامة دائمة منتظمة . والعدد القليل من السكان الرحل او اشباه الرحل ، بقطعان اباعرهم وماعزهم وغنمهم لا يستطيعون الا أن يكيفوا طرق حياتهم بالنسبة الى الامطار القليلة التي تهبط فيها والاقتصاد في استعمالها ، وبالاستمرار في التنقل من مكان الى آخر نتيجة عدم انتظامها . ولكن من المدهش ، ان الصحراء

ليست محرومة كلية من المياه السطحية الطبيعية ، التي لبعضها صفة الديمومة . واني لأذكر الينابيع الدائمة المهمة في جبال تاسيلي وفي ايملولين في جبال الهجر . وهناك برك من مياه الامطار تجتمع في بطون الوديان في ايملولين ، ذات عمق كبير . وتحول البطون الصخرية بين الارض وبين امتصاص المياه بينما تمنع الجدران العاليه تبخرها بسرعة كبيرة . ولا ريب في ان هذه البرك الكبيرة التي تسمى (السبخة الكبيرة) والتي تفصلها الصخور الى حوضين تعتبر من مباهج الصحراء . فعلى الجدران الصخرية تنعكس ألوان قوس قزح ، بينما تنعكس في المياه الزرقاء العميقة الجبال ، فتراها العين في منظر سحري اخاذ .

وعندما قمت بزيارة ايملولين للمرة الأولى قوبلت بتيار هوائي بارد رطب ، تخيلت نفسي معه لحظة وكأني في شعاب جبال الألب لا في بطن الصحراء الكبرى . ولكن بعضهم قال لي ان هذه البحيرات الجبلية الصغيرة لا تستطيع دائماً الصمود أمام لهيب الصحراء الناري . وكثيراً ما تجف هذه البحيرات بصورة مؤقتة ويمتد جفافها عدة سنوات . ويقوم الاهلون احياناً بتحويل مياه هذه البرك الى اقنية يغطونها ليقللوا من اثر التبخر . ومثل هذه الاقنية عطية من عطايا الله للقوافل التعبة المنهوكة . وقد قضى هنري لهوتي ورفاقه اسابيع طويلة في جبال تاسيلي يتناولون مياههم من بركها للشرب والطبخ . ولكن ما فيها من مياه لا يكفي لأغراض الري ، ولذا فلا توجد الا نادراً اية اراض مزروعة على مقربة من هذه البرك .

ولننتقل الآن الى شآبيب الامطار الطبيعية التي تسقط على الوديان الجافة ؟ ان هذه الشآبيب قد تدوم بضع ساعات او بضعة أيام في السنة ، بينما تظل الوديان في داخلها جافة سنوات عدة . ولكن أليست هناك من طريقة لخزن هذه الشآبيب القصيرة العمر ؟

وقد اقامت قبيلة مزاب ، وهي قبيلة بربرية تعيش في وديان هضبة مزاب ، سدوداً لهذه الغاية ، يرجع تاريخ بعضها الى سبعمائة او ثمانمائة من السنين ، ولكن هذه القبيلة لم تكن تستهدف اقامة الخزانات وانما تحويل مجرى المياه

في الوادي الى كروم النخيل في الواحات ، أما السدود الباقية الواقعة بعد مرور الوادي بالواحة فتستهدف نشر المياه وتوزيعها على المنطقة كلها لملأ الآبار الموجودة فيها . ومن هذا يظهر ان المزابيين جماعة عمل وجد . ولما كانوا يعتمدون على مياه الفيضانات في وديانهم سنة بعد اخرى ، فقد اقاموا ابتكارات اخرى متعددة الاهداف ، منها السدود والاقنية والجسور ووسائل الري البدائية الاخرى .

وتسود بالطبع اوضاع خاصة في أطراف الصحراء الشمالية والجنوبية . ومن المحتمل ان يستفاد في يوم لاحق من نهري شاري ولوغون اللذين يضيعان في مرجل بحيرة شاد عن طريق التبخر من تأمين الري اللازم للطرف الجنوبي من الصحراء . وهناك في منعطف النيجر وفي حوض السنغال الاسفل جداول ونهيرات اخرى يمكن استخدامها في مشاريع الري في الشمال . ولكن اية مشاريع تفصيلية لم تعد بعد لهذه الغايات . وما زال الفلاحون يتطلعون شمالاً في بحثهم عن الماء . ولوديان الطرف الشمالي من الصحراء مزية الانبثاق من جبال الاطلس او سفوح هضابها وهي المسماة « ببيدمونت الصحراء » . وتحت هذه الوديان تقوم الوديان الصحراوية الهائلة بالنسبة الى حجمها الضخم ومدى اتساع مياه السيول والفيضانات فيها . ولا ريب في ان وادي الصورة ، الذي يؤلف القوير جزءاً منه يسجل الرقم القياسي بين هذه الوديان . فهذا الوادي يسحب مرة في كل عشرين سنة سيولاً الى الجنوب مسافات لا تقل عن خمسمائة ميل ، وهي مسافة ظلت على حالها منذ أيام ما قبل التاريخ .

وفي منطقة الاغواط ، حيث يعود الفضل الى سدّي تيدجموت والفتحة ، تترك الفيضانات المألوفة في وادي مزي ، ثروة غنية من الطمي فوق مناطق زراعية واسعة . ويضمن هذان السدان اللذان يتصل بهما خزان كبير ، المياه اللازمة لري نحو من خمسة عشر ألف فدان من الحبوب والكرمة والاشجار المثمرة والبرسيم . وبين المشاريع العديدة التي وضعت لخزن مياه السيول والفيضانات ، لم يتحقق حتى الآن الا مشروع واحد ، وهو خزان فم الخرزة

الى الشرق من بسكره الذي يرتفع مائتي قدم . وقد بني هذا الخزان في مضيق ضيق في وادي الابيود الذي يبدأ من جبال الاوراس . ويؤمن المياه لسيدي عقبه ولأربع واحات صغيرة اخرى . وبين المشاريع الضخمة الاخرى مشروع في القوير حيث يخزن الماء على منحدرات جبال الاطلس العليا في مراكش ثم يستمر في الانسياب طيلة أيام السنة . وهناك سيل دائم من الماء في العبادلة التي يدخل منها الصحراء مدة اثنين وثمانين يوماً في العام . وفي بني عباس التي تبعد مائة ميل الى الجنوب ، يهبط معدل سيلان الماء الى ثلاثة عشر يوماً في السنة . وفي طريق النخيل وسلسلة الواحات الممتدة بين اضرار ورجانة ، لا يصل الماء الى هذه المنطقة من وادي الصورة الا مرة في كل جيل من الاجيال .

ويقضي مشروع القوير ببناء خزانين احدهما في باطن الارض للامساك بالمياه الموجودة في الطبقة السطحية للمساعدة على خلق منطقة صناعية في كولومب بشار الذي سيغدو اكبر المراكز الصناعية في الصحراء ، أما الثاني ففي الوادي على بعد ثلاثين ميلاً الى الشمال من عبادلة ، وهو خزان يضم اكثر من (٢٥٠) ياردة مكعبة من الماء ويؤمن حاجة نحو من (١٥٠٠) واحة جديدة تضم كل واحدة منها نحواً من مائتي عائلة . ويتصور مخططو المشروع ايجاد دلتا داخلية لمنطقة القوير تضم خمسة وسبعين الف فدان من الارض وتكون نسخة مصغرة عن دلتا نهر النيجر بين ناجاسو وتمبكتو. ويبدو هذا المشروع مثيراً كل الاثارة، ولكنه قد يشتمل على بعض النكسات .

وقد قال لي احد الخبراء في الزراعة الاستوائية : « ان هذا المشروع كله ضرب من الجنون » . وكان هذا الخبير يهودياً يذرع الصحراء الكبرى بحثاً عن افكار جديدة لتطبيقها في فلسطين . ومضى هذا الخبير يقول : « ان هذا المكان لا يصلح لاقامة خزان حديث . ويعلم الله اني لا أجهل ما في الخزانات من جمال أو شعر . ولكن الفرنسيين لن يجدوا اكثر من الشعر في هذه المنطقة المعنية بالذات . فسيمتلىء الخزان بالطمي والرواسب الغرينية التي يجرها القوير ، وهي رواسب تحتاج اليها الحقول اكثر من احتياجها الى الماء ، ذلك لأنها المصدر

الرئيسي في خصوبتها . وأرى ان اقامة سلسلة من الخزانات الصغيرة على الطريقة القديمة ستكون اجدى وأنفع . فالخزانات المسّطحة تجمع هذه الرواسب الغرينية وتصبح فيما بعد تربة خصبة . وهنا يمكن تحويل مجرى النهر واقامة سلسلة جديدة من الخزانات الجديدة . ويمكن المضي على هذا النحو حتى يتحول سهل العبادلة الى شيء جديد لا يعرفه اهله » .

ويبدو على كل حال ، ان كميات ضخمة من الماء ستسيل في مجرى القوير قبل ان يبنى سد جرف التربة .

ولا يعتمد زارعو النخيل في الصحراء الا في أحوال نادرة على المياه السطحية . فمنذ اقدم العصور ، كان سكان الواحات يركزون آمالهم على المياه الجوفية . ومنذ بدأ الانسان معركته المرة ضد مناخ الصحراء ، استخدم كل ما لديه من عبقرية لاستغلال موارد المياه الجوفية ، حاصلاً في اغلب الاحايين على نتائج فاشلة مرة . وها هي الوسائل التقليدية اليوم تموت وتختفي .

ولن انسى قط ما حييت منظر الاقنية الفخارية المتهدمة الملأى بالرمال ، ولا منظر ذلك الفلاح الذي جازف بحياته ، فزرع شجرة نخيل كاملة النمو في ارض اعمق من هذه القناة الفخارية بياردة ونصف الياردة .

وهذه الاقنية الفخارية هي ابهاء دوثرويه (جوفيه) ، يبلغ طول بعضها عشرة اميال ، وهي تمتص الرطوبة النادرة من طبقة ثروية ملأى بالماء ، تماماً كما نفعل نحن في اوروبا عندما نسحب الماء من أراضي المستنقعات لتجفيفها . وتؤلف كل قناة فخارية من هذه الأقنية جهازاً قائماً بذاته على سطح الارض ، حيث حفرت الاخاديد بقصد التهوية او دخول الابهاء الارضية . واذا ما شوهدت هذه الحلقة من الانفاق الاسطوانية من الطائرة ، فانها تبدو مثل التلال التي يبنيها حيوان الخلد أو كالكتابات الهيروغليفية الغامضة على الرمال . والوطن الحقيقي لهذه الاقنية الفخارية موجود في تيديكلت وتوات بطريق نخلها وقرارة بواحاتها الحمراء الملتهبة ومدينتها تيميمون ، وكلها تقع عند سفوح هضبة تاديميت . وليس هناك من مكان اصلح مناخاً لأن يخلق صحراء في

قلب الصحراء من هذا المكان ، فرطوبة الهواء فيه معدومة ، وسقوط الامطار نادر أو غير موجود ، وحتى في فصل الامطار الذي يأتي عادة بعد سنوات طويلة من الجفاف الكامل ، فان الوديان تبتل بالماء بضع ساعات ليس إلا . أما درجة الحرارة المألوفة في الصيف فلا تقل عن مائة وعشرين درجة فهرنهايت في الظل . بينما العواصف الرملية والزوابع الترابية شيء عادي وعنيف . وكل انسان مغامر ومجازف ، يجرؤ على المضي الى الصحراء في اشهر الصيف دون ان يزود نفسه بالماء الكافي يموت ميتة شنيعة في غضون ساعات . ومع ذلك ففي هذا المكان بالذات قام ارخبيل من الواحات النضرة الخضراء في بطن الصحراء بفضل الاقنية الفخارية . فهناك في تيديكلت وتوات وقرارة ما يزيد على الف واحة تغطي اكثر من الفي ميل مربع من الارض . ويقدر الماء الذي تدفع به هذه الاقنية بنحو من ستمائة غالون في الثانية ولكن هذا المعدل يختلف باختلاف المناطق نفسها . ففي قرارة هناك نحو من نصف غالون في الثانية وفي توات نحو من غالون وفي تيديكلت نحو من غالون وثلاثة ارباع الغالون . ويزداد هذا البون ظهوراً عندما يقارن المرء بين الاقنية الفردية . وعندما يفكر الانسان بالعمل العظيم الذي استغرقه انشاء هذه الاقنية فان كل هذه الارقام تبدو متواضعة كل التواضع . ولكن المهم ان هذا التموين من المياه ، لا يعتمد على نزوات الطقس وتقلباته ، ويستمر ليلاً ونهاراً ، وسنة بعد سنة . والشيء النافع في هذا النظام ان الماء يسيل من نفسه من الشرفات المنحدرة الى بساتين النخيل . ومثل هذه الحالة ، تبدو بالنسبة لأولئك الذين يكرهون بطبيعتهم العمل الشاق ، خير وسيلة من وسائل الري . ويقول كابوت — راي انه لولا هذا النظام الموفر للجهد والعمل ، فان المزارعين البيض في قرارة ، ما كانوا يستطيعون العيش والبقاء ابداً ، اذ في مثل طقسها المعاكس ، لا يمكن لغير السود ان يقوموا بأية اعمال زراعية .

وقد وجد أهل البلاد التي تكثر فيها الاقنية الفخارية اجرأ الحلول لمشكلة المياه ، بينما وجد أهل السوف الحل الاكثر ابتكاراً . وتقع منطقة السوف

الى الشمال من منطقة الكثبان الرملية التي تمتد من « العرق الشرقي الكبير » ، والتي يبدو ان القضاء قد حكم عليها بأن تظل منطقة صحراوية الى ابد الآبدين ، لولا أن الانسان قد نجح فيها ايضاً في اقامة عدد مدهش من الواحات . وتأسر هذه الواحات الانظار بما لبيوتها من طراز نادر ورائع في فن البناء ، واذا ما رافقت المؤذن في واحة الواد وهي عاصمة السوف وصعدت معه الى المئذنة ، في جامعها الكبير ، فانك ترى امامك منظراً من القباب الشهباء والاقواس الانبوبية . ويتراءى لك وكأن البلدة لا يسكنها الا الباشوات والمرابطون . فالقباب الكبيرة والصغيرة لا توجد عادة الا في المساجد والقصور . ولكن في الواد يعيش الوثنيون والصعاليك في بيوت تعلوها القباب والاقواس . أما البيوت الطينية ذات الشرفات واخشاب النخيل والمنتشرة في انحاء الصحراء ، فهي من مظاهر الترف غير الضرورية . وليس هناك في السوف جص ، ولكن اذا ازحت الطبقة الرملية عثرت تحتها على قشرة غليظة من الجبس المخلوط بالرمل والصالح لعمل الآجر والذي اذا احرق غدا كالاسمنت المسلح .

وتقوم امجاد السوف الخالدة في بساتين نخيلها . واذا ما طرت فوقها فكأنك تطير فوق القمر . فقد حفر أهلها أجراناً من الرمال ، وفي وسعك ان ترى عشرات اشجار النخيل بل مئاتها تنمو في مخاريطها المختلفة الاحجام . وبعض هذه المخاريط شديد العمق الى الحد الذي تكون فيه هامات الاشجار تحت مستوى سطح الارض . وفي جميع هذه الاجران ، هناك ابار تنزح منها المياه التي تسقى منها الخضار ونباتات الطباق . ولا تستخدم هذه المياه في سقاية اشجار النخيل لأن أهل السوف يزرعون اشجارهم في حفر عميقة في الارض حتى أن جذورها تصل الى الماء الموجود في الطبقة الدوثروية . وتشير الحالة الطيبة التي تعيش فيها الاشجار الى وجود نهر جوفي اذ أن المياه الراكدة تقتل الاشجار التي تعيش عليها .

ويعتبر أهل السوف عادة من اذكى القبائل واكثرها مكراً ودهاء . ويقال انهم لا يعرفون السرقة مطلقاً ، اذ ان مهارتهم في اقتفاء اثار اللص ، مهما

ضعفت وسواء اكان انساناً او حيواناً على الرمال ، تجعل من المتعذر عليه الفرار . وقد تكون هذه القصة من بنات الخيال أو من الاساطير ، ولكن التحريات التي قامت بها سلطات الري في الجزائر قد اثبتت انهم اكثر ذكاء وبراعة مما يتصور الانسان . فهم يستخدمون الحواجز الرملية كمقسمات المياه . فهناك عنيتان من الرمل ، متشابهتان في مساميتهما ومتساويتان في شكل حباتهما إلا أنها تختلفان في استجابتهما لسقوط الامطار بالنسبة لرطوبتهما . فالرمل الذي يحتوي على نسبة مائية هي واحد في المائة مثلاً يمتص نفس الكمية من الامطار في خمس دقائق التي تمتصها كمية معادلة لها من الرمل الذي يحتوي على نسبة مائية هي عشرة في المائة في غضون خمس ساعات . وهكذا فان الحواجز الرملية في السوف، تعمل كأقماع ، تتوجه منها مياه الامطار الى بساتين النخيل .

واذا ما قارنا الاقنية الفخارية وبساتين النخيل في السوف ببساتين النخيل في الميزاب ، حيث ظلت الجمال والحمير والبغال تذرعها قروناً عدة لتأخذ منها حاجاتها من المياه تبين لنا ان المقصود من هذه ، المتعة والراحة. وقد ظللت على هذا الرأي الى ان شاهدت اخيراً انبوباً فخارياً وقد جف ماؤه . وطرت بعد ذلك فوق منطقة كشبان عين صلاح حيث ابصرت بالتلال الخلدية التي تحفر فيها هذه الاقنية تمتد واحداً اثر آخر . ورأيت فلاحاً من أهل السوف يحاول اقتلاع شجرة نخيل . كانت شجرة كاملة النمو وقد ربطت بالحبال الى الاشجار المجاورة لها . وقد حفر الفلاح وولده حفرة كبيرة حول جذورها محاولين استخلاص المياه منها ، وكانا ينتظران وصول خمسة رجال من جيرانهما لمساعدتهما في المرحلة الاخيرة من اقتلاع الشجرة ، ولكن الشجرة لم تنتظر فسقطت من نفسها وتطايرت قطعة من جذورها واصابت باطن ساق الصبي بجرح كبير كما كادت الشجرة نفسها ان تسحق الوالد تحت فروعها .

وتقع الواحات التي ترويها مياه الاقنية الفخارية في تجاويف ارضية . ويرتفع مستوى الارض عادة من منبع القناة الدوثروية حتى مصبها ارتفاعاً مفاجئاً

وحاداً . ويتراوح عمق تلال التهوية الخلدية بين الستين قدماً والمائة . وعندما حفرها أصحابها الفلاحون اعتمدوا في حفرها على وسائل بدائية ، استخدموها ايضاً في حفر نفق من قاعدة احدى التلال الخلدية الى قاعدة تل آخر . ولا ريب في أن المئات من الرجال قد ماتوا او دفنوا احياء او اختنقوا أو ماتوا اعياء . ويتطلب بناء قناة فخارية طولها ميلان ونصف الميل وعمقها نحو من اربعين قدماً مع فوهات للتهوية كل عشر ياردات نحواً من ثمانية واربعين الف ساعة من ساعات العمل . وهذا يعني ان مائة وخمسين رجلاً كانوا يعملون سنة كاملة للحصول على بضع قطرات من الماء في كل ثانية .

والحفاظ على هذه الاقنية عمل متعب كتشييدها وبنائها . اذ يتحتم تنظيفها بصورة دائمة ومنظمة . وكثيراً ما تهدد بالانسداد . واذا ما انخفضت نسبة المياه فيها تحتم تمديد الانبوب أو تعميقه او تزويده بأنابيب جانبية . وكلف الحفاظ على انابيب عين صلاح في عام ١٩٤٧ الادارة ما يزيد على ١١٥,١٩١ يوماً من أيام العمل . وكلف مد انبوب اضافي بعد ان جف الماء في احدى هذه الانابيب ما يعادل ١٣,٥٧٤ يوماً من ايام العمل لاستخراج ما لا يزيد على نصف غالون من الماء في الثانية .

ولم يكن في الامكان بناء هذه الانابيب الا عن طريق اعمال السخرة كما هي الحالة في الاهرامات . وقيل « ان عبيد مغاربة الجنات ليسوا اشقياء في حياتهم لانهم لا يكثرون من العمل ، ويتلقون اجوراً مناسبة . ولا ريب في أن احوالهم تفضل أحوال الكثيرين من الفلاحين الاوروبيين . »

وصاحب هذا القول هو رينيه كايلي ، وهو أول اوروبي وصل في العشرين من نيسان عام ١٨٢٧ الى مدينة تمبكتو ، وكان من الذين عانوا مرارة الاصفاد في السجون ، فحق له ان يتحدث عن حياة العبيد .

وبعد تحرير العبيد في الصحراء ، غدت الانابيب الفخارية شيئاً من الأمور التي تمت الى الماضي . فقد غدا العبيد شركاء لساداتهم الاقدمين يعنون بحدائقهم وأشجارهم ويجمعون نخيلهم . ولم تبن منذ عام ١٩٠٠ أية انابيب جديدة ،

وبدأ الاهمال يشوب أمر العناية بالأنابيب السابقة ، وليس الأفتقار منصباً في الوقت الحاضر على الأموال اللازمة بل على الأيدي العاملة ايضاً . وفي تيديكلت وحدها ارتفع عدد الانابيب المهملة من (٥١) في عام ١٩٠٤ الى (٨٦) اليوم.

ولم يؤد تقدم الحضارة الى تهديم الانابيب الفخارية فحسب ، بل الى تهديد واحات السوف ايضاً . فكل شيء هنا يرتكز على الاحواض الصناعية التي يجري تنظيف قعرها باستمرار . ومن الحق ان يقال انه في بعض المناطق ، غطت الرمال بعض بساتين النخيل المهجورة ، وسرعان ما اصبحت الاشجار نفسها تالفة . ولكن أهل السوف ابتكروا طريقة فعّالة في تخفيف حدة الرياح عن طريق اقامة أسوار من أوراق النخيل . ولا ريب في أن هذه الطريقة التي تتبع في معالجة الرياح ، طريقة عملية صحيحة اصبح الفلاحون فيها من الخبراء .

ويتجه قلق أهل السوف الى ناحية اخرى . فمستوى الماء ينخفض دائماً ، وهو يؤلف بالنسبة الى أهل السوف كارثة من الكوارث . اذ ان انخفاض المستوى ثلاثة اقدام ، يعني توقف اشجار النخيل عن حمل الثمار بينما يعني انخفاضها ستة اقدام موت الأشجار نفسها ، ولهذا فحياة السوفي جهاد متواصل مع الارض اذ يواصل « تعميق » أحواض الري في ارضه ، ليعالج قضية انخفاض مستوى المياه .

وأدى تقدم العلم في السنوات الاخيرة ، ومكافحة الاوبئة والامراض ، واتباع الوسائل العلمية في الزراعة الى تضخم السكان بالنسبة الى الاراضي المزروعة . ففي الصحراء يقيم نحو من (٨٧٠) الف انسان يعيشون في نحو نصف مليون فدان من الارض الزراعية . وما واحات الصحراء الا كرؤوس السكر التي تحتشد اليها النمل تمتص منها وتلعق . وقد دللت التجارب على أن تكاثف السكان يؤدي دائماً الى قيام حالات قاسية من استغلال التربة ، وليست الصحراء بالشيء المستثنى .

ولنضرب مثلاً بمنطقة السوف التي تضم نحواً من (١١٥) ميلاً مربعاً من الاراضي الزراعية . ففي عام ١٨٨٧ كان يعيش نحو من (٢١) الفاً من

السكان في هذه المنطقة على ما تنتجه (١٦٠) الف شجرة من اشجار النخيل . وفي عام ١٩٣٠ اصبح عدد السكان ثلاثة اضعاف ما كان عليه ، بينما زاد عدد اشجار النخيل بنسبة الضعفين والنصف . أما الآن فقد بلغ عدد السكان مائة الف وعدد الاشجار اربعمائة وخمسين الفاً .

ولم تتقاعس الطبيعة عن الثأر لنفسها من الاغراق في استغلال المصادر المائية . فمنذ عام ١٩٣٠ أخذ جدول المياه يهبط بصورة مستمرة في المنطقة كلها .

وقال لي احد الفلاحين الذي بدا لي وكأنه يحمل اعباء السنين ان الوضع اذا استمر على هذه الحالة فان السوف ستغدو صحراء في غضون مائة عام . وأضاف بلهجة لا تخلو من مرارة .. « ولكنها على كل حال لن تعدم عدداً من الهجن لركوب السائحين » .

وقبل ان اصل بهذا الفصل الى نهايته ، أود أن استعيد ذكرى شخصية اتصل مصيرها اتصالاً وثيقاً بالسوف . ويبدو ان هذه المنطقة هي التي شعرت فيها اغرب مستكشفة للصحراء ، بأول نداء منها . وتروي الاسطورة قصة السي محمود بعباءته الفضفاضة وكفيته الحريرية البيضاء التي يسندها الى رأسه عقال اسود من وبر الجمال ، وصوته الرفيع . لكن هذه الاسطورة ، كانت في وقت من الاوقات فضيحة من الفضائح ، اذ ان السي محمود لم يكن الا امرأة . وكانت والدة هذه المرأة بارونة من بارونات بلاد البلطيق ، هجرت زوجها الجنرال الروسي ولحقت بوالدها مع أطفالها الثلاثة ، وكان يعيش في المنفى متنقلاً بين ايطاليا وسويسرا .

ولدت ايزابيل ايبرهاردت عام ١٨٧٧ في ميرين على مقربة من جنيف ، حيث يقوم الآن المركز الأوروبي للابحاث الذرية . ويبدو ان اسرتها لم تكن اسرة سعيدة . فقد رأت شقيقة ايزابيل من أمها ان دسائس « عمها » الثورية اكثر مما تطيقه ، ففرت من سويسرا او عادت الى روسيا القيصرية . وانتحر احد اشقائها ، كما انتحر شقيق آخر بعد ان خدم فترة قصيرة في الفرقة الاجنبية الفرنسية . اما الوالد فمات متأثراً من تناوله عدداً كبيراً من الحبوب المنوّمة .

وبعد موت والديها شرعت ايزابيل ايبرهاردت ، التي ورثت ثروة صغيرة ، في رحلاتها في تونس وشرق الجزائر وشمال الصحراء وهي في الثانية والعشرين من عمرها . وكانت ترتحل بمفردها على ظهور الجياد وقد تنكرت في لباس الرجال ، واتخذت لنفسها اسم السي محمود ، العالم التونسي المسلم . ولم يكن هذا مجرد ادعاء ، فقد تعلمت ايزابيل في جنيف العربية بالاضافة الى دراساتها الألمانية والفرنسية والروسية . وكان والدها الذي استهل حياته قسيساً ، قد انتهى كأحد طلاب باكونين وحوارييه ، وكان في مرحلة من حياته قد اعتنق الاسلام وباشر طقوسه . وقد اعتنقت ايزابيل الاسلام في الجزائر . وحتى والدتها المتعجرفة ناتاليا دوروثيا شارلوت فون ايبرهاردت، توفيت في الجزائر كإمرأة مسلمة ، ودفنت في المقبرة الاسلامية في بلدة عنابة ، تحت اسم فاطمة — المنوبية .

وشاهدت ايزابيل ايبرهاردت لأول مرة في عام ١٨٩٩ « مدينة القباب الالف » . وكتبت في يومياتها الفقرة التالية : « وصلت الى الواد حوالي السابعة، فلقيت جنازة على الطريقة الاسلامية . » وبعد سنة ونصف السنة كتبت في يومياتها تقول : « وعندما حملوني على نقالة للمرضى الى المستشفى عبر القرى المحيطة بالواد ، خرج السكان رجالاً ونساءاً الى الشارع واخذوا يصرخون تلك الصرخات التي لا تصدر عنهم عادة الا عند تشييع جنازات الموتى » .

وكانت ايزابيل قد عجزت عن ان تنسى تلك اللمحة الخاطفة التي رأت فيها البلدة في عام ١٨٩٩ فعادت في السنة التالية . وعقدت زواجها على الطريقة الاسلامية على سليمان الاهني وهو عريف من رجال السباهي (الفرسان) ، ثم انضمت الى الطريقة القادرية ، واصيبت في كانون الثاني عام ١٩٠١ بجرح بليغ من احد اتباع الطريقة التيجانية . وقد نجت من الموت لأن الضربة القاتلة هوت على حبل للغسيل كان معلقاً فوق رأسها فخفف من حدة الضربة . وقد حكم على الرجل الذي حاول قتلها والذي لم يستطع تبرير محاولته باكثر من الادعاء بأنه تلقى ايحاء من الله بقتلها ، بالسجن مع الاشغال الشاقة مدة عشرين

عاماً . وقضت السلطات الفرنسية في الجزائر بإبعادها مدى الحياة عن البلاد لأنها غدت شوكة في جانبها تقض عليها مضاجعها . وحرمها هذا الأمر من وطنها الجديد الذي اختارته . وحاولت كثيراً معرفة الاسباب التي ادت الى طردها ولكنها فشلت في ذلك . وناشدت القنصلية الروسية في الجزائر مساعدتها . وقد جاءها الرد على النحو التالي : « لقد كنت ترتدين ملابس شاب عربي ، وهو ما لا يتفق مع كرامة « فتاة » روسية » . وكان استعمال كلمة « فتاة » مقصوداً ، فان السلطات الفرنسية لم تعترف بزواجها الاسلامي من عريف السباهي ، ولكنها لم ترغب في اثارة الموضوع في حينه .

وعمل السي محمود حمالاً في مرسيليا حتى وصل الزوج سليمان . وهناك عقدا زواجاً مدنياً طبقاً للقانون الفرنسي ، وهو ما لم تسمح لهما السلطات بعقده في بلدة الواد . وغدت ايزابيل الآن مواطنة فرنسية ولم تلق صعوبة في العودة الى الجزائر دون اية ضجة . وأخذت تتنقل كالسي محمود مع البدو الرحل في الصحراء ، ممتطية صهوة فرس بيضاء اسمتها « سوف » ، وتنام على الرمال ملتحفة السماء ومفترشة الغبراء ، وتجوب في المساجد والمعابد الاسلامية وتطوف بالاسواق وبقرى الواحات . وكان كل انسان يعرف حقيقة السي محمود ، ولكن اياً من أهل الصحراء لم يرغب في التخلي عنها . وكان يسمح لها ايضاً بالدخول الى المناطق المحرمة على النساء . ولكن الرجال كانوا دائماً يتمسكون باللغة المهذبة المحتشمة في حضرتها .

ولقيت كتاباتها وملاحظاتها عن الحياة الاسلامية تقديراً واسعاً . وكان ليوتي الذي قدر له ان يؤسس مراكش الحديثة وأن يغدو ماريشال فرنسا ، من المعجبين بها . لكن الكثيرين من الناحية الاخرى كانوا يشكون في هذه المرأة الروسية المسلمة ذات الاسم الألماني التي تلبس ملابس الرجال . وكانت تهتم بنشاط معاد لفرنسا ، لا سيما وانها كانت لا تخفي كرهها لبعض مظاهر السياسة الاستعمارية الاوروبية . وسرعان ما اكتسبت شهرة بأنها « كاهنة » جديدة .

وكاهنة ملكة بربرية من أصل يهودي وقد تمكنت من جمع قبائل البربر في الاوراس وحشدتها لمحاربة الفاتحين من قبائل العرب ، فأوقفت زحفهم عند خليج قابس مدة من الزمن ، ولكنهم سرعان ما اكتسحوها هي وقبائلها . ولم يتمكن السحر الذي بعثته في رجالها من اقناعهم باتباع سياسة حرق « الزرع والضرع » في المناطق التي يضطرون الى الجلاء عنها . وانفضت عنها القبائل ، وهزمت في احدى المعارك في أواخر القرن السابع للميلاد وكانت لا تزال تقاتل على رأس جماعة مخلصة لها ، وقتلت في المعركة .

وكانت ايزابيل مثل كاهنة من المحاربات الأمازونيات ، وكانت تحاول ، كما يقول اعداؤها ، تعبئة أهل الصحراء لمقاتلة الغزاة الفرنسيين ، مدفوعة بعامل الحقد الشخصي عليهم للمعاملة السيئة التي لقيتها على أيديهم في الواد .

وكانت هي تنفي عن نفسها تهمة وجود اية مطامع سياسية لها وليس ثمة من شك في أنها على الرغم من أنها ابنة انسان ثوري وفوضوي ، إلا أنها لم تكن من الراغبات في قذف القنابل . وكان الدافع الوحيد لها الرغبة في المغامرة ، وهي رغبة كانت تلظيها افاق الصحراء الشاسعة وتوقدها جولاتها الطويلة وحيدة على ظهر الجواد في بطن الصحراء .

وكانت في عام ١٩٠٤ في بلدة عين الصفراء الواقعة في الطرف الشمالي من الصحراء ، وكانت على موعد مع رجال الصحافة في الجزائر لتحدثهم عن حملة ليوتي على مناطق الحدود المراكشية ـ الجزائرية . وفجأة فاض وادي الصفراء في السابع والعشرين من تشرين الأول وجرف السيل البلدة الصغيرة . وكان السي محمود . الذي وقف على شرفة البيت الذي يحل فيه يتطلع الى الفيضان ، بين الذين جرفهم التيار .

٦

بحر سافورنين

تعتبر « الحديقة الملحقة » في الغولية بمثابة نافذة للعرض ، لكل ما يمكن ان يكون في الصحراء الكبرى من جمال . فهي فردوس حقيقي ، يضم مختلف أنواع الورود والنخيل ، والسرو ، والكينا وكل الاشجار المثمرة من برتقال وليمون ومندلينا وكلمنتينا ، ورمان ومشمش وخوخ . ويسمع الانسان بين اشجار النخيل هديل الحمائم ، كما يشم رائحة البنفسج . وهناك شبكة من الجداول الصغيرة التي تؤلف شريان الحياة لهذه الحديقة النضرة . وبعد شروق الشمس ، وبينما يكون الهواء لا يزال نقياً طرياً ، يرتفع قناع شفاف من الضباب فوق هذه الجداول ، ذلك لأن الماء الارتوازي الذي يرتفع الى السطح بفعل الضغط دافىء ساخن .

وكان في وسعي ان افهم تلك النغمة من الاعتزاز التي سادت حديث الرئيس (الكبتن) باربا عندما حدثني في مكتبه البارد المظلل على مقربة من مدخل الحديقة قائلاً : « ان الغولية ، من خلق فرنسا . فعندما احتللنا الواحة في عام ١٨٩١ ، كانت تضم ٦٤٠٠ شجرة نخيل ، عاشت بقدر استطاعتها على المياه

الموجودة على عمق يتراوح بين ثلاثة أقدام واثني عشر قدماً . وكان في الواحة ايضاً بعض الاقنية الفخارية . ولكن هذه الكمية المحدودة من الماء لم تكن كافية مطلقاً لزيادة اعداد اشجار النخيل . وفي عام ١٨٩٢ عثر مهندسونا على مصادر جديدة للماء على اعماق اكبر ، ومنذ ذلك التاريخ واصلنا البحث . وتضم الغولية الآن عشرين بئراً ارتوازياً تنتج نحواً من سبعة الاف غالون في الدقيقة تكفي لثلاثين الف نسمة ولمائة وخمسة وعشرين الف شجرة نخيل » .

وكان نشاط الحرب الجزائرية قد اتسع حتى وصل الى الغولية . وأعلن باربا حالة الطوارىء في البلدة ، ومنع السكان من الخروج من بيوتهم بين الحادية عشرة ليلاً والخامسة صباحاً. كما منع الاهلين من التجمع في الشوارع وطلب الى الأهلين أن يسيروا وقد ظهرت ايديهم بوضوح .

وشعرت بالرغبة في ان أقول للضابط المسؤول عن الناحيتين المدنية والعسكرية في الواحة والمنطقة المحيطة بها ، ان مشكلة « الاستعمار » لا تنشأ مما حققه المستعمرون لشعوب البلاد المستعمرة ، بل مما لم يحققوه وكان في امكانهم ان يعملوه ، لو كانوا حقاً يريدون مصلحة البلاد وأهلها ، ولكنني ضبطت عواطفي مخافة الاشتباك في نقاش حاد مع الضابط ، قد يساء فهمي فيه تمام الاساءة ، لا سيما وانني اقر بأن الفرنسيين حاولوا القيام ببعض الاصلاح في الصحراء .

فقصة الغولية تتكرر في اماكن عدة . ففي نهاية عام ١٨٥٤ ، استولى الفرنسيون على توغورت وسوف ووادي ريغ ، وهذا الوادي هو الذي يحد سوف ويمتد شمالاً من ورغلة عن طريق توغورت الى مستنقع « ملغيغ » المالح . وفي فترة الامطار يسيل وادي « اغرغر » القادم من الهجر ووادي ميا ، ويصبان سيولهما في وادي « ريغ » الذي ينقلها بدوره الى البحيرات المالحة . ومع انقطاع الامطار ، تجف هذه الوديان شيئاً فشيئاً ، لتمتلىء بعد ذلك بالحصى والحجارة ، وغدا وادي ريغ ، ما هو عليه الآن ، سلسلة من اشجار النخيل ومستنقعات المياه المالحة المنتشرة على كثبان رملية .

ومنطقة وادي « ريغ » مشهورة بتمورها ، ولا ريب في ان محبي التمور

في اوروبا يعرفون هلب تمر « دقلة النور » التي يأكلونها منذ حقب طويلة والتي هي من نتاج هذا الوادي الذي يعتبره الفرنسيون المنطقة الوحيدة المنتجة من الصحراء .

ويرجع الفضل في هذا المركز الانتاجي الطيب الى وجود كميات من المياه العذبة في عدة طبقات جوفية . وكثيراً ما كان الضغط الطبيعي الدوثروي يفجر هذه المياه من وقت الى آخر ويدفع بها الى السطح وكأنها متفجرات بركانية . وقد سمع هيرودوتس بهذه الينابيع الطبيعية المتفجرة ، كما ان مثل هذه الاندفاعات هي التي ادت الى بناء الاقنية الفخارية في كل من القرارة وتوات وتيديكلت . وتقول الاساطير ان عمليات الري قد بدأت في وادي ريغ في عام ١٣٤١ ، ولكن الحقيقة هي أن هذه العمليات قد بدأت قبل ذلك بقرون طويلة .

وكان ابن خلدون الذي ولد في تونس عام ١٣٣٢ ، أول من حدثنا عن الماء . فعندما كان في الرابعة والعشرين من عمره ، خاض مغامرة سياسية نشيطة ، لا يكاد يصدقها العقل ، وتقلبت به الأيام والظروف فأصبح وزيراً ومتآمراً ، نائباً للسلطان وثورياً ورسولاً ، ومخططاً ، وقائداً ، وقاطع طريق ، ومداهناً ، ، قاضياً ، وعالماً ، وخبيراً بالصحراء وسفيراً وخائناً ومزوراً ، ومقرباً الى الملوك ، وتمكن بكل ما للانسان الانتهازي من عبقرية ، من اداء جميع هذه الادوار في جميع الدول الاسلامية التي امتدت من سوريا الى الاندلس . ولعل ما يدهش اكثر من حياته هو ، التي تحدث عنها ، هو التاريخ العظيم الذي وضعه محاولاً فيه ان يشرح الاسباب التي ادت الى فشله في حياته السياسية والذي هو : « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » . وقد اتى له هذا الكتاب العظيم والطموح بالشهرة ، اثناء حياته . ولما كان هذا الكتاب التاريخي الفلسفي قد اشتهر خارج نطاق العالم العربي ، فقد زاد عدد المعجبين بابن خلدون . وقد اطلقت عليه ألقاب شتى منها انه « هيرودوتس العرب » و « والد علم الاجتماع » و « مونتسكيو العرب » و « هيغل شمال افريقيا ، » و « اوزوالد

شبينغلر قبل ٥٥٠ عاماً » . ولا ريب في أن جميع هذه الالقاب تعكس شيئاً من الارتباك الذي تركه تاريخ ابن خلدون في دوائر اوروبا الثقافية .

وهو يروي في ذلك الكتاب الذي يتناول « تاريخ البربر وملوك المسلمين في شمال افريقيا » كيف يقوم الأهلون بحفر بئر ارتوازية بقوله :

« وفي هذه البلاد الصحراوية الى وراء العرق ، غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب ، وذلك ان البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى ، وتطوى جوانبها الى ان يوصل بالحفر الى حجارة صلدة ، فتحت بالمعاول والفؤوس الى ان يرق جرمها ، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء ، فينبعث صاعداً فيفعم البئر ثم يجري على وجه الارض وادياً . ويزعمون ان الماء ربما اعجل بسرعته عن كل شيء . وهذه الغريبة موجودة في توات وتيكورارين وورغلة وريغ والعالم ابو العجائب . والله الخلاق العظيم » .

ويعتقد جميع الخبراء الذين استشرتهم ان وادي ريغ الذي يضم ورغلة ايضاً، اذ تقع في طرفه الجنوبي ، هو المنطقة الوحيدة في الصحراء ، التي كان أهلها يعرفون الآبار الارتوازية ويحفرونها قبل وصول الاوروبيين . ولا ريب في ان ابن خلدون الذي عاش ردحاً طويلاً من الزمن في بسكره ، كان يعرف ينابيع وادي ريغ معرفة شخصية ، بينما لم يكن يعرف آبار توات وتيكوراري (القراره) ، الا على ما يسمعه . ولا ريب في انه ايضاً قد خلط بين اندفاع الماء بصورة طبيعية وبين الآبار الاصطناعية .

وكان الموقف حرجاً في وادي ريغ في منتصف القرن الماضي . فأما ان تكون الآبار الراهنة قد بدأت في الجفاف أو ان جدران هذه الآبار المتهاوية قد بدأت في التجوف . ووجد أهل البلاد انفسهم مضطرين لحفر آبار جديدة في اوضاع اقل صلاحاً من الاوضاع التي كان فيها اجدادهم . ولم تعد الطريقة البسيطة التي شرحها ابن خلدون كافية . وليست هناك سجلات جديدة تتحدث عن زبر الحديد التي تستعمل في تقطيع الصخور ، وانما عن جماعات العمال

الذين يقفون على فوهات الصخور ويحفرون فيها ليجدوا انفسهم فجأة وقد غمرتهم المياه . ولكن اهل البلاد ، كانوا يجدون انفسهم عاجزين في معظم الحالات عن الوصول الى الطبقات المائية . وكان حفر بئر عمقه مائتا قدم يتطلب مجهوداً بشرياً هائلاً . وكانوا يدفعون الحنطة اجراً للعمال ، ولكن كثيراً ما عدل عن الحفر بعد مائة وعشرين او مائة وخمسين قدماً ، عندما تصطدم الفؤوس بالصخور الصلدة ، فتموت اشجار النخيل ويضطر السكان الى الرحيل الى اماكن اخرى .

وعندما جاء الفرنسيون استخدموا أدوات عصرية في الحفر ، بدت امامها أدوات الاهلين السابقة بدائية . وبدلاً من الآبار القديمة المعرضة الى الانهيارات الداخلية لجأوا الى حفر الآبار ذات الانابيب .

وحفر الفرنسيون اول بئر في حزيران عام ١٨٥٦ في تمرنه الى الشمال الشرقي من توغورت . وتدفق نحو من الف غالون من الماء في الدقيقة . وفي السنة التالية جرى الحفر بنجاح مماثل في تملحات الى الجنوب من توغورت ، وفي سيدي رشيد الواقعة الى الشمال ، حيث قضى الجنود الفرنسيون اربعة أيام تحت اشراف المهندسين يعملون في خرق طبقة من الصخر ، كانت قد حالت دون نجاح مشروع سابق . وسرعان ما تدفق الماء بمعدل الف غالون في الدقيقة . وكانت هذه الابار الثلاثة التي يتصاعد الماء فيها في الانابيب . تنتج وحدها من الماء ما يعادل انتاج ثلاثمائة بئر من الآبار العربية القديمة . وسرعان ما انتشرت هذه الانباء بسرعة البرق باتجاه الجنوب .

وكانت المهمة الرئيسية منذ البداية انقاذ اكبر عدد ممكن من واحات الصحراء من الجفاف . وفي منطقة السوف نشط الفرنسيون ايضاً . فقد حفروا بين عامي ١٩١٠ و ١٩٢٠ بعد ان اتضح ان الاقنية الفخارية سائرة في طريق الزوال والخراب ، ما يزيد على الاربعة وعشرين بئراً ارتوازياً في تيديكلت ، ولكن من سوء الحظ انهم لم يعثروا في توات وقرارة على مياه تصعد عن طريق ضغطها الذاتي الى سطح الارض . وهكذا ظلت الاقنية الفخارية تلعب دوراً

بارزاً في هذين المكانين . ومن الغريب ان السلطات الادارية في السوف لم تلاحظ هبوط منسوب المياه في المنطقة الا بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى . وشرعت سلطات المياه تبحث عن مصادر جديدة . واتضح لها بعد حفر خمسة آبار ارتوازية نجحت جميعها غاية النجاح ، ان في منطقة السوف كميات كافية من المياه لري بساتين شاسعة من النخيل . وتعتبر صحراء الجزائر في الحقيقة من اغنى مناطق العالم في المياه الجوفية .

وكنت اسمع في جميع احاديثي مع علماء المياه الجوفية ، كلمة واحدة تتكرر على ألسنتهم باستمرار وهي كلمة « الب » . فكل من يشعر بعدم وجود « الب » في منطقته يؤمن بأن الطبيعة قد تخلت عنه ، وكل من يجدها تحت تصرفه يحميها بحياته . وسمعت هذه الكلمة ايضاً تتردد على السنة اهل القصور من القرويين والفلاحين . فهي تعني لهم اكثر من الزيت . انها تعني الأمل ونهاية سنوات طويلة من القلق ، وبدء عهد جديد من الحدائق النضرة ، واشجار النخيل المثمرة .

فما هي هذه الكلمة السحرية يا ترى ؟ ان كلمة « الب » تعني بالنسبة الى عالم طبقات الارض تعبير « البين نابي » العلمي (Albienne Nappe) ، وهي تعني من ناحية تقنية طبقة ارضية تمت في تاريخها الى التشكيلات الجيرية المتأخرة . وتتألف الالب في الصحراء من طبقة رملية رخوة ومن سلسلة من الاحجار الرملية ذات المسام . وكل هذه المناطق مخلفات تركتها الجداول والانهار قبل نحو من خمسين مليون عام على الاقل . وفي العصر الجيري المبكر ، الذي سبق مرحلة التكوين القارية الحالية ، تغطت هذه الطبقات بطبقة من الثرى الكلسي والصلصال ، خلفها البحر قبل انحساره . وهذا هو التفسير الجيولوجي للبحيرات الصحراوية الجوفية (البين نابي) التي تمتد مسافة ستمائة وخمسين ميلاً الى الجنوب من سفوح جبال الاطلس الجنوبية ويحدها من الغرب وادي الصورة ومن الشرق تونس ومقاطعة فزان الليبية .

وقد اطلق العالم الجيولوجي الفرنسي جوستيه سافورنين على (الالب) ،

اسم أروع اكتشاف مائي في الصحراء . ولما كان قد اسهم اكثر من غيره في اكتشاف هذا البحر المائي ، فقد اطلق عليه العلماء اسم بحر سافورنين . وليس ثمة ما يفوقه حجماً واتساعاً في العالم الا حوض استراليا الارتوازي .

ويغطي بحر سافورنين ارضاً مساحتها نحواً من ربع مليون ميل مربع أي ما يزيد على مساحة فرنسا كلها . وبالطبع لا تستعمل كلمة بحر الا « مجازاً » : فبحر سافورنين ليس امتداداً من الماء وانما هو اسفنجة رملية هائلة يبلغ سمكها في بعض الاماكن ثلاثمائة قدم وفي اماكن اخرى ما يتراوح بين الف وخمسمائة وستة الاف قدم .

ويمتص بحر سافورنين الماء ايضاً من خارج الصحراء . فهو يتغذّى ايضاً على مياه الامطار التي تتساقط على الجناح الصحراوي عند الاطلس . وفي هذا القطاع الشمالي الغربي تمتد الصخور الرملية للالب بشكل عمودي وتعمل كأقنية تسيل فيها المياه نحو الجنوب . وقد يستغرق انتقال الماء في الطبقات الدوثروية جنوباً . مع عدم وجود اية قوة دافعة الا قوة الجاذبية الارضية قروناً عدة . ولعل صاحب فندق « دال بياز » في الغوليه ، لم يكن مبالغاً عندما قدم الي قدحاً من الماء الصافي وهو يقول : « آمل انك ستحبه ، فهو ليس بالماء الذي صنع أمس . ولربما سقط كمطر على جبال الاطلس في عهد شارلمان .. » .

ولم يكن رد فعل حاسة الذوق عندي موجهاً الى عمر الماء الذي دلت البحوث الاخيرة الى انه قد يعود الى بضعة الوف من السنوات قبل شارلمان بل الى ما فيه من محتويات الملح . ولما كان دوران الماء بشكل عادي متعذر في الصحراء ، فان الأملاح تتزايد في التربة ، ولا يخلو ماء الصحراء من بعض المذاق المالح .

ومن القصص الشائعة التي يتناقلها الباحثون عن الزيت في الصحراء ، وكذلك أفراد الهجانه ، قصة موت اندريه دي مينيدورف ونجاة واحد من رفاقه بصورة غريبة . وقد سمعت هذه القصة اكثر من مرة ، وفي كل مرة كنت

استمع الى تفاصيل جديدة ومختلفة وهذا شيء طبيعي ومتوقع بالنسبة الى أية طرفة هي في طريق التحول الى اسطورة .

فقد تقرر في عام ١٩٤١ بصورة عاجلة ، بناء سكة حديدية تقطع الصحراء من البحر الابيض المتوسط الى النيجر . وتقرر وضع ستمائة ميل من الخطوط الحديدية في كل عام . وكان بين علماء طبقات الارض الذين اسرعوا الى الصحراء لدراسة طبيعة الارض التي ستجتازها السكة الحديدية التي لم يكن احد من العلماء يؤمن بصوابها ، شاب في الرابعة والعشرين من عمره ، هو مينيدورف . وقد قام في عام ١٩٤٢ مع اثنين من أهل المنطقة باستكشاف الجهة المسماة بعرق الشيخ . وكان البئر الوحيد في المنطقة الذي يعرفه الدليل قد امتلأ بالرمال . ولما كان الفريق قد وصل آخر حدود الظمأ ، فقد اقبل مينيدورف والدليل على شرب ماء اجاج ، يضم كميات كبيرة من املاح المنغنيز ، عثروا عليه في بركة قريبة . وقد مات الرجلان في نفس الليلة بعد آلام شديدة . أما الرجل الثالث من اعضاء الفريق ، الذي تمكن من مجالدة ظمئه ، والتغلب على الرغبة الملحة في ان يشرب ، فقد ملأ اوعيته بذلك الماء القتال ، ثم ربط نفسه الى سرج هجينه وسمح للبعير بالاتجاه الى الجهة التي يريدها . وكان بين آونة واخرى ، يصب شيئاً من ذلك الماء على رأسه وجسده . وبعد يومين ظهر هجين ابيض يكاد يموت في احدى واحات توات . وعلى سنام ذلك البعير ظهر عمود من الملح كان يبرق في الشمس من مسافة بعيدة . وكانت الحمامات المتكررة من الماء قد غطت « الشغبيّ » بمئات البلورات الملحية التي تمكن الاطباء في المستشفى العسكري من إزالتها . وهكذا عاش هذا البدوي الذي رفض اطفاء ظمئه ليروي قصة رفيقيه .

ولا يعتبر ماء بحر سافورنين مؤذياً للنباتات والحيوانات ، بل انه يصلح ايضاً لشرب البشر منه . ولكنك اذا سمحت لقطرة منه بالتبخر ، عثرت في مكانها على بعض حبات الملح . وقد يكون هذا الماء غير صالح للشرب في المقاييس الاوروبية ولكنه بالنسبة الى الصحراء ، فان الانسان لا يهتم كثيراً

بأي طراز من الماء يشرب ، وماء « الالب » قد يعتبر طيباً بل وممتازاً .
ولعل الفضيلتين الرئيسيتين في بحر سافورنين هما الكم والكيف . وهناك فضيلة ثالثة قد تكون مهمة للغاية وهي ان مخزون الماء يؤلف نهراً هائلاً تغطيه طبقة تحول دون تسرب الماء من الكلس . وعندما يكون هذا الماء تحت سطح « القناة » في الاطلس التي يمر فيها فانه يتمتع بقوة ضغط طبيعية . ويكفي ان يثقب الانسان ثقباً في الطبقة العازلة العلوية ، حتى يحصل على انفجار قوى من الماء الساخن . وبالطبع لا يرتفع الماء المتصاعد الى مسافة عالية جداً فوق سطح البحر ، ولكنه في اماكن معينة قد يرتفع الى مثل هذه المسافات .
وغدت كلمة « الب » بالنسبة الى هذا العصر الذي تمر فيه الصحراء في مرحلة من التطور الاقتصادي ، لا تقل اهمية عن كلمة « الزيت » ، بالنسبة الى ما تنطوي عليه من آمال مشرقة . وقد ظلت هذه الكلمة عدة قرون تلعب دوراً هاماً في وضع المياه بصورة عامة في الصحراء . وكانت الصخور الرملية تشق طريقها الى السطح في الطرف الجنوبي الغربي من الصحراء على حدود هضبة تاديمايت السوداء ، وكان بحر سافورنين يستغل اكمل استغلال طيلة القرون الماضية عن طريق الانابيب الفخارية التي تمتد من تميمون عبر اضرار وريغان الى عين صلاح . وبالطبع لم يكن بناة هذه الانابيب يعرفون شيئاً عن طبقات الارض . ولم يكن صاحب أي بستان نخيل في توات يشك مطلقاً في انه يستمد ماءه من نفس المصدر الذي يستمد منه عدوه الرئيسي في قرارة (قوليمين) على بعد مائة وعشرين ميلاً الى الشمال او صديقه في تيديكلت على بعد مائة وعشرين ميلاً الى الجنوب الغربي . ولم يفكر احد بهذا الارتباط ، الا عندما شرع الفرنسيون في حفر الآبار الارتوازية في نهاية القرن التاسع عشر في كل من الغولية وتيديكلت وفورت فلاترز .
وشرع في الحفر في غردايه في آخر يوم من أيام عام ١٨٩٦ ، وغردايه هي عاصمة المنطقة التي يسكنها المزابيون . وتركز أمل المهندسين في أن يعثروا على نفس الحوض الارتوازي تحت صخور الشبكة القاحلة ، الذي كان يجهز

الغولية بالمياه الغزيرة . وتمكنوا من الوصول الى عمق الف قدم بعد حفر أستمر سبعة وعشرين شهراً بتلك المعدات المتوافرة لهم . وادت هذه النكسة الى وضع حد موقت للآمال في ان تكون شبكة المياه ممتدة باتجاه الشمال .

وكان الاستاذ جوستين سافورنين ، هو الذي قضى على هذه الفترة من الجمود والتوقف ، فمنذ ربيع عام ١٩٢٧ اتخذ لنفسه موقف الناطق الرسمي باسم « الالب » واحتمالاته . وشرع يلح في خطبه ومقالاته ، ومحاضراته ، على نظريته القائلة بأن الطبقة المائية في الغولية . يمكن العثور على امتدادها لا في واحة غرداية الواقعة الى الشمال فحسب بل الى ما وراءها ايضاً شمالاً وشرقاً . واذا كان الحفر في غرداية لم يسفر عن شيء . فالسبب في ذلك لا يعود الى أن الماء غير موجود ، بل لأنه موجود في طبقات اكثر عمقاً . وقد استند سافورنين في نظرياته الجريئة على حجج هيدرولوجية . وكان من الممكن بالنسبة اليه بوصفه عالماً من علماء طبقات الأرض المعترف رسمياً بمكانتهم ان يثبت فرضياته عن طريق التجربه . وقد جرت عمليتا حفر على سبيل الاختبار في توغرت وورغله . وقد توقف الحفر لاسباب فنية على عمق ثلاثة آلاف قدم في المكان الاول ، واكثر من هذا العمق في المكان الثاني . ولكن سافورنين لم ييأس ولم يقنط مطلقاً . وكان من رأيه ان « الالب » او المجرى المائي الجوفي الذي يخرج الى السطح في توات ، والذي يكون على عمق ثلاثمائة قدم في الغوليه ، يجب ان يكون قد غطي في الشمال بطبقات ارضية كثيفة منذ اقدم العصور . وها نحن نعرف اليوم ان سافورنين كان على حق ، وان الطبقة الصخرية التي يدفن تحتها المجرى المائي قد تبلغ في عمقها في بعض المناطق نحواً من ميل .

وتمكن سافورنين في عام ١٩٣٨ ، من روية افتراضه يتحقق في غردايه ، ولكن النهر الجوفي لم يظهر في قوته الا بعد الحرب . ففي اذار عام ١٩٤٦ وصل نحو من ثمانية وعشرين رجلاً الى منخفض في الصحراء اسمه زلفانة.

* * *

والماء هو العدو الأول بالنسبة الى كلود رازيل مهندس الطرق وبانيها . ولكنه من الناحية الثانية الصديق الودود للويس توماسي رئيس الانشاءات في زلفانة والمشرف على مشروع انشائي فريد من نوعه في الصحراء كلها . ففي الاماكن التي كانت حتى عشر سنوات خلت صحاري قاحلة مجدبة ، يقوم لويس بانشاء واحة اصطناعية هي الأولى من نوعها في الصحراء .

وتتوقف سيارات الباص في زلفانه وهي في طريقها من ورغلة الى غردايه . وقد قمت بهذه الرحلة لأول مرة ذات ليلة من ليالي صيف عام ١٩٥٥ . وكان على ظهر سيارة الباص رجل ينفخ في مزماره ، بينما احتلت عنزتان المقعد الخلفي ، وتوقفت السيارة نحواً من عشر دقائق في زلفانة ، واغتنم المسافرون الفرصة ليأخذوا قسطاً من الراحة .

وعندما زرت زلفانة للمرة الثانية في عام ١٩٥٨ قادماً من غرداية ، كانت الطريق مختلفة تمام الاختلاف عن الطريق الوعرة السابقة التي كنا نعرفها . فقد كانت اشبه ما تكون بطاولة « بلياردو » في استوائها . وعندما رأيت الطريق المعبدة التي تلتوي كالثعبان الارقط ، مارة بشبكة حتى زلفانة . رأيتها أحسن طريق في العالم عندما تذكرت الطريق السابقة الملأى بالحفر والأخاديد . وتمضي الطريق في التواءاتها لتصل الى ورغلة التي لا تبعد عن زلفانة اكثر من تسعين ميلاً وعن غردايه اكثر من خمسين .

ولكن لويس توماسي جعل من زلفانه شيئاً يستحق المرء ان يقف فيه . وهو بقبعة أهل الباسك التي يرتديها وبجاكتته الرسمية ، يختلف بعض الشيء عن الرجال الآخرين الذين تلقاهم الآن في الصحراء ، يعملون على قلب حياتها . فهو ليس من طراز الكشاف الذي يظل طفلاً حتى ولو بلغ سن الكهولة فالصحراء تعني حياة جديدة بالنسبة اليه . فقد كان يملك فندقاً لرياضات الشتاء في غرينوبل . ثم فقد ابان الحرب زوجته وطفله ، فخسر بفقدهما كل ما يربطه باوروبا ، واتجه الى الصحراء التي غدت بالنسبة اليه شيئاً يعشقه . وكرس منذ ذلك الحين حياته لمشاريع المياه في الجزائر . وغدا شخصية معروفة في جميع

انحاء البلاد من ساحل البحر المتوسط الى حدود صحراء الأرلجز الجنوبية ، وقد بانت ساقه اليمنى من سيارة الجيب التي يستقلها لانه يعتقد ان التيارات الهوائية نافعة لآلام الروماتيزم التي يعاني منها في ركبته . وجميع العمال يحبونه ، ويقطع بعضهم عدة مئات من الاميال للعمل معه .

وقد وجدته رجلاً كريماً وعادلاً ومضيافاً ولم اختلف معه الا في نقطة واحدة . فهو شغوف بصيد الغزال بسيارته ، وذلك بمطاردة الحيوان التعس دون أن يطلق عليه النار حتى يسقط اعياء .

وقلت له : ولكن هذه الطريقة ممنوعة حتماً .

فرد قائلاً : ولكن رجال الجيش يزاولونها .

وعندما تابعت حديثي قائلاً ، ان العملية في مثل هذه الحالة لا تكون صيداً ، بل قسوة وخروجاً على كل قواعد الرفق بالحيوان ، ضحك قليلاً لسذاجتي وعنادي وان كان توبيخي قد حز في نفسه بعض الشيء .

وقد سمعت من هذا الكورسيكي المولد ، الفصل الأول من تاريخ زلفانة . وكثيراً ما وردت كلمة « الب » على لسانه فكان يرددها بشيء من التلذذ .

لقد قامت السلطات بتنفيذ اقتراح الاستاذ سافورنين ، فحفرت بئراً للماء في غردايه في عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، وتم اختراق الطبقة الصخرية التي تغطي النهر الجوفي (الالب) ، ولكن تحتم على الحفارين أن ينزلوا الى عمق الف ومائتي قدم قبل ان ينبجس الماء بكميات كبيرة مذهلة . لكن البئر لم تكن ناجحة كل النجاح على كل حال ، فقد كانت شديدة الارتفاع ، بحيث تعذر انطلاق الضغط المائي على حريته تماماً ، وتحتم ان ينقل الماء في الخمسين ياردة الاخيرة الى السطح بواسطة المضخات .

وغردايه هي اعلى المدن الخمس في بلاد المزابيين . وتم حفر البئر الثانية في العطوف التي تقع على بعد خمسة اميال في الوادي . وقد تفجر الماء على مسافة الف ومائتي قدم كما هو متوقع ، ولكن قوة الضغط المائية لم تصل به الى السطح اذ نقصت عشر ياردات ، مما جعل استعمال المضخة امراً ضرورياً

لازماً . واستعمال المضخة يزيد في تكاليف الماء بالاضافة الى أن الة الضخ قد تتعطل بسبب كسر طارىء في وقت تشتد فيه الحاجة الى الماء . وفي وسع اهل غرداية وغيرها من بلدان الميزاب ان يحدثوك بقصة رائعة عما وقع لهم في احد فصول الصيف .

واظهرت الحفريات التي جرت في غرداية والعطوف قبل الحرب ، أن على خمس بلدان في قلب بلاد الميزاب ان تدبر امرها بدون الآبار الارتوازية ، وكان هذا بالنسبة الى المزابيين بمثابة التخلي عن حلم طويل طالما تعلقوا به . لكن علماء مناسيب المياه لم يحزنوا لهذه النتيجة ، اذ انهم باتوا يعرفون الآن مستوى مياه النهر الجوفي (الالب) في منطقة الميزاب . وعرفوا ايضاً ان اقصى ما يرتفع اليه الماء في انابيب البئر في المنطقة لا يعدو الفاً وثلاثمائة قدم فوق سطح البحر ، وكان من المعقول ان يفترض الانسان ان الماء سيحطم السطح تحت الضغط الذاتي الموجود فيه .

وعثر على مثل هذه النقطة بعد الحرب على بعد خمسة واربعين ميلاً الى الجنوب الشرقي من غردايه . اما زلفانة فتقع على ارتفاع يقل اربعمائة قدم عن غرداية ، وعلى سفح منخفض ارضي . وعندما وصل ثمانية وعشرون مهندساً وتقنياً وعاملاً الى هناك في اذار عام ١٩٤٦ كانت زلفانة مجرد اسم على الخريطه ، فلا شجرة فيها ولا نبت ولا ضرع .

وكانت عملية الحفر في زلفانة مغامرة خطرة . ويضحك رجال الزيت اليوم عندما يسمعون بهذه العبارة اذ أن موارد لا تعد ولا تحصى تحت تصرفهم . وكلمة « مستحيل » لا توجد في عرفهم « وقواميسهم » . لكن الرجال الذين حفروا بحثاً عن الماء في عام ١٩٤٦ كانوا يعملون والموارد المتوافرة لديهم ضئيلة شحيحة .

وبعد نحو من سنة واحدة من البدء بالاستعدادات شرع في عمليات خرق الصخور في الرابع من آذار عام ١٩٤٧ . وكانوا ينقلون المياه اللازمة للحفارين وللآلات من غرداية بخزاناتٍ تحملها السيارات ، لكن ما يتوافر من الماء لم

يكن يعدو في اكثر الحالات نصف الحاجة اليه . واضطر الفريق الى وقف العمل بين حزيران وتشرين الاول بسبب شدة الحرارة التي لا تطاق . وقام هناك من يقول ، ان العمل كله يجب ان يتوقف نهائياً ، لكنه استؤنف على كل حال في شهر تشرين الاول . ووصلت آلات الحفر الى صخور المجرى المائي (الالب) على عمق الف وثمانمائة قدم . وزاد الحفر في الخامس من شباط عام ١٩٤٨ على الالفي قدم ، دون استعمال الانابيب للحيلولة دون أي انهيار داخلي . وفشلت جميع المحاولات لتغطية جدران البئر بالاسمنت . ونشأت صعوبات في شهري اذار ونيسان ، ولكن العمل استؤنف في نهاية نيسان حتى العاشر من ايار ، عندما تعذر الاستمرار في الحفر ، وكان قد بلغ الى عمق (٣٨٤٠) قدماً . وقرر المهندسون العدول عن البئر نهائياً ، ولكن في التاسع من حزيران عام ١٩٤٨ ، نسي الناس سنتين من القلق والجهد مما يفوق طاقة البشر ، عندما تفجر نهر من الماء من بطن الصحراء التي لم يكن احد قد تصور أو سمع قط بوجود الماء فيها . وارتفعت مياه الينبوع مائتي قدم في الهواء ، مبللة برشاشها جماهير النظارة . وعكست اشعة الشمس شيئاً لم يكن أحد قد رآه من قبل في زلفانة وهو قوس قزح .

وقال توماسي بجد ووقار : « .. ولم يكن الماء بارداً ، بل العكس ، كانت حرارته تبلغ (١٠٢) من الدرجات الفهرنهايتية .

وظللت احتفظ بعد سنوات ثلاث من زيارتي الاولى لزلفانه بصورة فكرية عما يجب أن تكون عليه الواحة الجديدة . ولكنني عندما زرتها اخيراً ، خابت آمالي . فليس ثمة من شيء يثير التقزز في النفس اكثر من رؤية واحة وهي في طريق التكون والخلق . وكان ابرز المظاهر تلك الصفوف الطويلة من قصب السكر المصري التي يبلغ ارتفاعها نحواً من عشرة اقدام ، والتي تستخدم كحواجز تمنع الرياح عن اشجار النخيل الفتيه التي لا يبعث منظرها في النفس أي تأثير . وكانت بعض عروق النخيل ما زالت قائمة في اكوام السماد . دون ان تمتد جذورها في الارض . أما في اماكن اخرى ، فقد حفرت الحفر اللازمة

للاشجار الصغيرة قبل مدة قصيرة . ولم يكن هناك في زلفانه ما يسترعي النظر الا ذلك الماء الحار الذي يسير في اقنية من الاسمنت تسير في خط متواز مع صفوف شجيرات قصب السكر . وهذا الماء اشبه ما يكون بالدم الذي يسري بدون عظام او لحم او عضلات . ولم أجد في الواحة أي اثر لظل رطب من ظلال اشجار النخيل السامقة التي كنت احلم بها .

وكان الحمّام العربي وهو نوع من حمامات البخار ، يتزود بالماء من البئر الارتوازي ، يختلف تمام الاختلاف عن المنظر الساحر الذي رأيته في المنشورات الدعائية . وكان المولد الكهربائي الذي يسير بقوة ضغط الماء المندفع ، متوقفاً عن العمل . وبدا لي ان جميع الموجودين في الواحة غير مهتمين بتوقف الكهرباء . أما بالنسبة الى السكان ، فلم ار الا لفيفاً من الأطفال في ثياب رثه مهلهلة ، على الرغم من ان بعض المسؤولين اكدوا لي ان ثمة مائة وخمسين عائلة تعيش في الواحة ، يعد أفرادها نحواً من خمسمائة انسان . وكان الواقع الوحيد الملحوظ الذي رأيته هو ذلك الحوض الذي يجتمع فيه الماء ليوزع على الواحة كلها .

وأرى لزاماً علي أن أوضح هنا ، أن ليس هناك محل يدعى زلفانة . ولكن هناك زلفانة رقم (١) وزلفانة رقم (٢) . وزلفانة رقم (١) هي القرية الصغيرة التي تحيط بالقلعة القديمة وبالبئر الذي طمر في عام ١٩٤٧ـ ١٩٤٨ . وتتضمن القرية بعض المساكن للمستشارين الزراعيين ومركز اسعاف ، ومشغل اصلاح للسيارات ، ومحطة توليد الكهرباء ، والحمام العربي ، وحانوت بقال وقهوة واحدة فيها مائدة طويلة . وتنتشر على أطراف شوارعها اشجار الطرفاء . أما زلفانة رقم (٢) فهي ثمرة احدث عهداً وتقوم على تلة صغيرة تبعد نحواً من الف وخمسمائة ياردة من القرية الأولى ، وفيها بيت وحيد يقف الى جانب بئر ارتوازي ثان تم حفره في عام ١٩٥٥ . وعندما كنت هناك رأيت نحواً من خمسين عاملاً يشتغلون في مد انابيب الاسمنت . وكان صوت المعاول ، وترجيع الغناء الذي

تتناقل اصداءه الكثبان الرملية ، قد ازالا من نفسي ذلك الاحساس بالوحدة الذي شعرت به من زيارتي لزلفانة الأولى . ومع ذلك فهناك حقيقه واقعة ، وهي أنه على الرغم من تفجر الماء منذ اكثر من عشر سنوات فما زالت زلفانة تشكل واحة في طور جنيني . فلماذا ؟

لم يكن توماسي في وضع طيب يحب فيه ان يتحدث كثيراً . وكان يكثر من اقتباس الامثلة القديمة كقوله « ان روما لم تبن في يوم واحد » . وعندما حل المساء ، ازداد حدة وعصبية ورفض الاجابة على أي سؤال جديد . وكنت اود الانتظار لترقب الغروب في زلفانة . وكنت اود أن اشهد هذا الغروب من موقع قريب من قبر احد المرابطين أو الاولياء ، ولكن توماسي اصر على التبكير في الذهاب .

وقال معتذراً .. « انني أخشى الثوار الجزائريين . وكان هناك حتى عهد قريب عدد كبير من الجنود الفرنسيين ، يحمون معسكراً للعمال ، ولكن المعسكر انتهى ، والحامية سحبت من المكان ، ولم أعد اجرؤ على قضاء ليلة في زلفانة . »

وداعبته فقلت أن الغزال لم يكن اسعد حالاً وهو يطارده ، منه الآن وهو يخشى مطاردة الثائرين . وقد اثارته مداعبتي ففقد أعصابه وظل صامتاً طيلة طريق العودة .

وعندما عدنا الى غردايه رأيت الناس فيها يتجنبون الحديث ايضاً ، ولكنني توصلت الى الحقيقة .

فبعد حفر الآبار في غردايه وما لقيته من نجاح جزئي ، أخذت انظار الخبراء تتجه الى الشمال الغربي نحو منطقة « الريغ » ، التي غدت بتمورها « دقلة النور » من أهم المراكز الاقتصادية في صحراء الجزائر . وكانت الريغ تشكو دائماً من قلة الماء ، فداعبت خيال علماء طبقات الارض فكرة العثور على مستودع المياه في المجرى الجوفي (الالب) أيضاً . ولكن لما كان الجميع يجهلون العمق الذي يجب ان يجري فيه الحفر ، وكل ما يعرفونه ان عليهم ان

يحفروا عميقاً جداً ، حتى ان بعض الخبراء وبينهم سافورنين نفسه ، خشوا ان تكون هناك طبقة مسامية فوق الصخور الرملية التي تغطي المجرى الجوفي ، ولذا قرروا هجر منطقة الريغ والاتجاه الى زلفانة . ولكن الحفر في زلفانة رقم ١ لم يكن الا مجرد عملية تجريبية قصد منها القاء ضوء على موقع المجرى المائي وطريقة تشكيله في الاتجاه العام لمنطقة الريغ .

وقد ادهشهم هذا التفجر المائي الذي وقع في التاسع من حزيران عام ١٩٤٨ تمام الدهشة ، واكد لهم نظريتهم في موضوع منطقة الريغ الى حد لم يكونوا يحلمون به . ولم يكن قد دار بخلدهم ، ان يضعوا خطة لما يجب أن يفعلوه بالماء اذا عثروا على كمية كبيرة منه بطريق الصدفة . وكان جل اهتمامهم منصرفاً الى الطبقات الارضية والتشكيلات الصخرية . وهكذا كانمجرد نجاح تجربتهم مصدر حيرة وارتباك لهم . ولم يكن في وسعهم أن يسمحوا بضياع الف وسبعمائة غالون من الماء في الدقيقة في الرمال ، كما لم يكونوا على استعداد لسد البئر . وهكذا قرر حاكم غرداية الذي تقع زلفانة في منطقته وتحت إشرافه ان يخلق واحة فيها .

وقيل لي أن سلطات الري والزراعة حذرته من تنفيذ هذه الفكرة . وغسل الاخصائيون ايديهم من المشروع . وتمكن بعضهم في السنوات التي تلت من القول للحاكم .. « لقد حذرناك من هذا . ولا ريب في أن خالقي الواحة الجديدة قد غاب عن بالهم عامل او عاملان مهمان . فالتربة في زلفانة صالحة وسهلية ، ولكن اشجار النخيل الصغيرة ، زرعت في منخفض ، على طرف وادي الميزاب ، مما ادى في عام ١٩٥٣ ، الى انجراف معظم هذه الاشجار الصغيرة مع الفيضانات التي كونتها الأمطار .

وكانت هناك مشكلة اخرى ، لم تلق عناية كافية ، وهي مشكلة الماء الزائد . فماذا سيحدث للماء بعد استعماله ؟ لقد كان مستوى الماء عند السطح يرتفع بسرعة ، وكانت جذور اشجار النخيل الفتية ، وهي شديدة الحساسية ، مهددة بالتعفن . وبناء اقنية للمجاري مشروع باهظ التكاليف ، لا سيما وانه سيكون

معرضاً دائماً للعواصف الرملية والفيضانات .

ومن حسن الحظ ، ان علماء طبقات الارض لاحظوا عند بدء عمليات الحفر الأولى ، وجود طبقة ارضية تصلح لخزن المياه وان كانت لا تحتويها مطلقاً . وكانت للمهندسين ذكريات مؤلمة في هذه الطبقة الكلسية ، اذ وجدوا من المتعذر عليهم سد ما فيها من شقوق . لكن هذه الطبقة غدت الآن وسيلة انقاذ الواحة الاصطناعية . فقد حفر فيها بئران للامتصاص ، وغدا الماء المستعمل ينساب اليهما الآن ليرجع تحت الارض .

وهكذا لم تبدأ التجربة في عام ١٩٤٨ بل في عام ١٩٥٨ ، وخلفت زلفانة رقم (٢) ، زلفانة الأولى كمركز للاهتمام . فما زالت زلفانة الاولى مهددة بالفيضانات ، وأملها الوحيد في البقاء الآن أن تكون الاربعة آلاف شجرة التي زرعت فيها بعد الفيضان السابق ، قد غرزت جذورها في الارض الى الحد الذي يمكنها من الصمود أمام أي فيضان جديد .

واذا كانت العقبات الطبيعية هي التي تهدد زلفانة الأولى فان الاخطار التي تهدد زلفانة الثانية من صنع الانسان . وهذه الاخطار ليست زراعية بقدر ما هي اجتماعية . فقد مل بدو المنطقة وهم من الشعانبة من التجوال في السنوات الاخيرة نظراً لانحباس الأمطار وندرة المرعى والماء لهم ولقطعان مواشيهم . وكان المقصود من زلفانة ان تؤمن لهم المأوى . وقد قسمت واحة المستقبل الى قطع صغيرة من الارض لتوزيعها عليهم مع بعض الشروط . فالشعنبي الأب لاربعة أطفال ، والذي خدم في فرقة الهجانة الفرنسية مفضل على أخيه الشعنبي الذي له نفس العدد من الاطفال ، ولكنه لم يخدم في القوات الفرنسية . وهكذا ارتبطت الاعتبارات الاجتماعية بالنظام الروماني القديم من اسكان الجنود المسرحين في الارض . وعلى كل من يتلقى قطعة ارض من السلطات ان يعد بزراعتها وفقاً للتعليمات التي يصدرها اليه الخبير الزراعي ، واذا ما أطاع هذه التعليمات أخذ حصته من الماء . وهكذا تستطيع السلطات عن طريق سيطرتها على الماء أن تفرض الطاعة على اصحاب الأراضي .

ولا قيمة للارض في الصحراء ، اذ أن العرف العربي ينص على ان الارض غير المشجرة تكون مشاعاً وليست ملكاً لاحد . وكل من يستطيع ريها سواء عن طريق حفر بئر أو جر الماء اليها ، يصبح صاحب حق مشروع في تملكها . وفي زلفانة لا مالك للارض او للماء . وسيعوض على مالك الارض في السنوات القليلة القادمة طبقاً لما يبذله من عناية في زراعتها . وعندما تبدأ ارضه في اعطاء المحصول تتوقف المساعدات المالية عنه . وعندما يصبح المحصول كاملاً يشرع الفلاح في سداد الدين الذي اخذه في السنوات الأولى ، في اقساط سنوية تمتد عشرين عاماً . ولا ريب في أن المسؤولين عن هذه السياسة الزراعية واثقون من أن تكاليفهم الانشائية ستغطى بعد سنوات قليلة .

وهناك ارض وماء ونتاج ينمو ، ولكن كل هذه العوامل لا تكفي لاقناع بدوي بالبقاء ، لأنه اصبح مزارعاً ثابتاً بحكم الحاجة . فاذا تحسنت الاوضاع من جديد ، عاد الى حياته البدوية المتنقلة . وفي مطلع عام ١٩٥٨ ، هبطت امطار سخية في الصحراء غطتها بطبقة خضراء يانعة . وفجأة ارتحل بدو زلفانة الذين كانوا يعملون في حقول الحنطة بين عشية وضحاها عن الواحة . فقد نسوا الآن ما رافقهم من خيبة أمل ومرارة في السنوات الماضية ، وعادوا الى حياة التنقل التي يعشقونها والتي لم يتركوها في السنوات الماضية الى حياة الاستقرار الزراعي الا مرغمين .

فهل يأتي اليوم الذي يستطيع فيه لويس توماسي أن يجول في بساتين من النخيل تضم اربعين الف نخلة وتأتي بالظل والخصوبة الى هذه البقعة المهجورة ؟ وهل يصم مئات الشعانبة آذانهم عن نداء الصحراء ، ويستقروا في الارض كمزارعين ثابتين ؟ هذا ما سيقرره الغد (١) .

---

(١) وستقرره ايضاً نتائج ثورة الابطال الجزائريين (المعرب)

٧

شجرة النخيل

حان الوقت لأقدم الى القراء بطلاً من الابطال الرئيسيين في هذا الكتاب ، وهو شجرة النخيل الاصلية :

ويقول أهل الصحراء ، ان شجرة النخيل تحب أن يكون رأسها في النار وقدماها في الماء . وهي شجرة ملحفة في طلباتها ، ولكنها في الوقت نفسه كثيرة الصبر والاحتمال . وهي ليست كما يقال ، شديدة الاتصال بالنار ، فطالما جلست تحتها ارتجف من البرد واحاول عبثاً تدفئة أصابعي المتجمدة في جيبي سروالي ، وتعتبر شجرة النخيل القرطاجنية (فونيكس داكتيلافيرا) ، بين اسرة النخيل اقلها تأثراً بالجو أو الطقس . والصقيع الليلي في منطقة الريغ وهي من اهم المناطق انتاجاً للنخيل في صحراء الجزائر ، أمر شائع ومألوف . وقد خبرت اشجار النخيل في توغورت وبسكرة ، الثلج ايضاً . ولكنها لا يمكن أن تنمو في بعض الاجواء . ففي تامانراسيت عاصمة جبال الهجر ، لا تنمو هذه الشجرة مطلقاً . وعلى الرغم من ان تامانراسيت تقع في الجنوب إلا أنها كثيرة الارتفاع اذ تبلغ اربعة الاف قدم فوق سطح البحر ، وتنخفض فيها

درجة الحرارة في فصل الشتاء الى حد كبير . وعلى المرء ان يبتعد ما لا يقل عن ستين ميلاً عن ساحل الاطلنطي قبل ان تصادفه أول شجرة من اشجار النخيل . فالمناخ في هذه المنطقة الساحلية سيىء وكثير الرطوبة . وعلى الرغم من أن الحرارة في هذه المنطقة صالحة لنمو الشجرة ، إلا أنها تكره الرطوبة ولا سيما إذا كثرت المياه الآسنة في المنطقة . أما اذا كان الماء قليلاً للغاية ، فان الشجرة تتوقف عن الأثمار وتنكمش وتصبح بشعة المنظر . لكنها تظل حية طالما أن جذورها تستطيع امتصاص كمية من الماء . وتنسى شجرة النخيل الاساءة ، فاذا توافر الماء للشجرة بعد إهمالها مدة طويلة ، عادت تحمل ثمارها وكأن شيئاً لم يحدث .

ومن الغريب جداً ان الناس عندما يتحدثون عن النخيل ، يستخدمون عبارات لا تستعمل عادة الا في وصف السلوك الانساني ، ولعل في هذا ما يقوم دليلاً على صلة القربى بين الشجرة والانسان .

ويقول بعضهم ان الله خلق شجرة النخيل من بقايا الصلصال الذي خلق منه آدم . وهناك آخرون يروون قصة اخرى .

فعندما طرد الاله ادم من الجنة ، أمره عن طريق جبريل ، بأن يطهر نفسه ، واطاع آدم أمر ربه ، واغتسل ، وتطهر . وهنا قال له الملاك : « آمن بالله واتكل عليه ، وسيضمن لك عيشك » . وبينما كان الملاك يتحدث ، نبتت شجرة في الارض ، تحمل ورقاً اخضر وثمرة شهية . وسجد آدم ايماناً بعظمة الله عندما رأى هذه المعجزة ، وقال : « لك الحمد يا رب ، على ما اوليتني من نعمة ، ولكن من أين نبتت هذه الشجرة التي تحمل صورة رحمتك ؟ » . فقال له الاله على لسان جبريل : « لقد خلقتك من نفس المادة التي انبت منها هذه الشجرة امام عينيك . وستكون هذه الشجرة مصدر طعامك » .

وشجرة النخيل هي اقرب شيء الى الانسان . وهي بالنسبة الى أهل البادية اكثر من عمة او خالة ، بل وحتى اكثر من أخ او عم أو خال . وهي كالانسان الذي تشبهه منتصبة القامة ، وبينها الذكر والانثى ، ولديها القوة

على الاخصاب .

ولهذه العلاقة مزايا واضحة . فهناك اولاً نبيذ التمر ، الذي يؤخذ من ساقها ثم يخمّر ، وعلى الرغم من أن الشريعة تحرم شرب الخمر ، إلا أن الكثيرين من ابناء الصحراء لا يستطيعون مغالبة ما في هذا العصير من لذة ومتعة لهم .

وفي وسع شجيرات النخيل القريبة من بعضها ان تغدو صديقة . فاذا ماتت احداها ، حزنت الاخرى عليها ، واسترخت أوراقها وتوقفت عن حمل الثمر . ويقول أهل الصحراء ، ان الشجرة الانثى تذبل وتموت ، اذا أصاب عاشقها الذكر . مكروه ، ومهما كانت خصائص التلقيح الاصطناعي ، فان اهل الصحراء يؤمنون انه كلما كانت الشجرة الانثى قريبة من الذكر ، كلما كان نتاجها أحسن واغزر .

وفي وسع شجرة النخيل ان تقيم اوثق الصلات مع الانسان . ويحدثنا الصحراوي الذي درس اساطير النخيل في واحة « ولد جلال » والعادات المتعلقة بها بالكثير من القصص الرائع في هذا الموضوع .

فقد دخل رجل ذات يوم الى بستان نخيل ، وسمع الاشجار تصلي وتدعو الى الله ان يرزق صاحبها . وذهب الرجل فوراً الى صاحب البستان وعرض عليه ابتياعه منه . ورفض صاحب البستان العرض في البداية ولكن لم يسعه إلا القبول في النهاية عندما بلغ العرض سعراً مغرياً للغاية . وعاد المالك الجديد الى البستان لرؤية النخيل ، ولم يكد يدخله ، حتى سمع الاشجار تدعو الله ان يرزق لاصاحبها بل الرجل الذي زرعها . وعاد لتوه الى صاحب البستان الاصلي وحدثه بالمعجزة التي سمعها مرتين ، وطلب اليه ان يستعيد بستانه . وقبل الرجل بالعرض فرحاً وهو يقول : « لو كنت اعرف ان اشجاري تحبني الى هذا الحد ، لما بعتك اياها حتى ولو عرضت علي ثقل كل واحدة منها ذهباً » .

ولما كانت اشجار النخيل تحب اصحابها ، فهي شديدة الحساسية بالنسبة

الى التأنيب والتحذير . وما زال زارعو النخيل في ولد جلال يقومون احياناً بتمثيل المهزلة التالية : اذا توقفت احدى الاشجار عن حمل الثمر ، فإن صاحبها يتسلح بفأس ويذهب مستعداً لقطعها . وقبل ان يبدأ القطع ، يهتف عالياً حتى يسمعه جاره في البستان القريب « ايتها النخلة ، إنك عاقر ، وقد قررت قطعك » . ويهوي بفأسه بضربة خفيفة على جذع الشجرة . وهنا يهتف جاره بصوت عـال : « أيها الرجل الملعون ، ماذا تفعل هناك ؟ دع الشجرة بسلام وامان ، وأنا اضمن لك انها ستحمل الثمر في السنة القادمة . واذا لم اكن صادقاً في قولي ففي وسعك ان تقطعها آنذاك » . ويستمر هذا الحوار مدة من الزمن ، وصاحب النخلة يواصل ضرب الشجرة ضرباً رمزياً ، حتى يستجيب اخيراً لاقوال جاره فيعدل عن قطع الشجرة . ويثق أهل الصحراء ، بأن الشجرة تحمل في السنة التالية نتاجاً رائعاً .

وبالاضافة الى نظرة الاحترام والحب التي يحملها اهل الصحراء لاشجارهم ؛ فقد ابلغني القائد قدور قويدا من أهل ورغله ، بأن هناك قصيدة مديح للنخيل تعدد حسناتها ومنافعها ، وان تلاوة هذه القصيدة تستغرق يوماً وليلة كاملين .

فالجذع يؤمن الخشب والوقود والنسيج للأكياس والحبال ، والسويقات تستعمل في اقامة السياج وبناء سقوف البيوت ، والجزء الاوسط من الورقة تحوكه الأيدي الماهرة، فتصنع منه سلالاً وحقائب ومكانس وحصراً، وصنادل بينما يشرب العصير كشراب حلو لذيذ او يخمر ليصبح نبيذاً . ويؤكل رأس الورقة كنوع من أنواع الملفوف . وهناك اخيراً الثمرة، وهي مَنُّ الصحراء وسلواها . ويضغطها البدوي في جلود الماعز المدبوغة ، التي يكون الشعر قد ازيل منها وخيطت الى بعضها ، فتصبح خبزه اليومي الذي لا غنى له عنه . وتجفف الثمرة احياناً وتطحن فتصبح دقيقاً ، يضاف الى الفطائر الحلوة والمعجنات . ويستخرج العسل او الدبس من مختلف أنواع عصير التمر السكري بينما تكون حبات التمر الطازجة والمجففة الغذاء الرئيسي للمزارعين .

وقد يعتري الزائر الذي ما زال يفكر بصندوق التمر الحلو المذاق والصحي

الاعداد ، الذي تلقاه هدية في عيد الميلاد ، هزة عنيفة اذا ما ذهب الى الصحراء. فنوع « دقلة النور » وهو اجود هذه الأنواع ويصدر الى اوروبا عادة ، يلقي عناية صحية كبيرة في اعداده . ووجدت نفسي اسير بين تلال من الاكياس في سوق التمر في غرداية وهي مليئة بالتمر الذي ظل مكشوفاً للرمال على طول الطرق التي مر بها ، حتى اصبح في وسع الانسان ان يعرف حقيقة حالة ثمارها من مجرد لمسها . وقد غدت الثمار في معظم هذه الاكياس معفنة ، ملأى بالذباب والتراب . وقد اوضح لي احد التجار تجارة التمور فقال انه على الرغم من تعدد أنواعها فانها تمت الى واحد من اصناف ثلاثة ، اللين والمتوسط والجاف . وعلى الرغم من شكري له على معلوماته فقد شعرت بأن معدتي ليست على استعداد لتذوق أي من هذه الأنواع . وبالفعل فقد ذكرني التمر الجاف بطبق من الجراد المشوي كنت قد اكلته في عين صلاح ، بعد ان غسل بشاي النعناع . وعندما انطلقت هذه الذكرى المخيفة في فكري ، رأيت غلاماً يمر في الشارع وهو يحمل طبقاً عليه قدحان مليئان بالشاي الغالي . وبينما كان التاجر يمد يده اليمنى في كيس التمر اللين ، ليستخرج حفنة يقدم لي منها ، اطلقت كلمة اعتذار ، ومضيت عنه مسرعاً .

ولم اذكر حتى الآن شيئاً عن « نواة » التمر . فللنواة ايضاً منافعها . اذ انها تسحق وتضاف الى « النخالة » لتصبح طعاماً للماشية . وتحمّص احياناً وتطحن ، ليستخرج منها شراب يسمى « قهوة التمر » .

ويقال ان هناك نحواً من مائتي نوع من أنواع التمور ، وهي تختلف باختلاف حجمها وشكلها ولونها وصورتها ، وقوة احتمالها ، وما فيها من السكر ، ووقت نضوجها ، وطراوتها ومذاقها واستعمالها . ولبعضها اسماء تتحدث عن نفسها فبعضها يسمى « المز » ويعني « الحلو مع مرارة » وبعضها يسمى « بهجة » يعني المشرق . وغير ذلك من الاسماء التي يستطيع الاهلون ان يتحدثوا عنها قصصاً كاملة تظهر السبب في هذه التسمية .

أما ملكة التمور فهي دقلة النور ، التي يشبه لونها لون العنبر . ويقال ان

احدى زوجات النبي ، وكان اسمها نورا ، كانت تختار مكاناً معيناً تغسل دائماً فيه الثياب ، وقد نبتت في هذا المكان شجرة نخل كبيرة لم يكن قد زرعها أحد وكانت تنتج احسن الثمار . وقد اطلق عليها اسم نور ، ومنذ ذلك اليوم اصبح هذا النوع الفاخر من التمر يدعى دقلة النور .

ولما كانت أنواع التمور لا تتوالد عضوياً ، ولذا فان الفلاح لا يكثر من محصوله عن طريق التطعيم او التلقيح ، وانما عن طريق قطع بعض الجذور التي تسمى « جبارات » وزرعها في اماكن اخرى ، وبذلك يأمن المزارع التعرض لأية اخطار ، اذ انه يضمن الحصول على الثمار من الاشجار الجديدة من نوع ثمار الشجرة القديمة . ويعرف المزارع ايضاً ، عدد الذكور من الاشجار التي يزرعها وعدد الاناث ايضاً . وهو لا يحتاج الا الى عدد محدود من الذكور اذ ان التلقيح صناعي ، ومع انه يستغرق بعض الوقت ويتطلب الكثير من العناية ، الا ان المزارع يستطيع الاحتفاظ بما يتراوح عدده بين ثلاثين شجرة وخمسين من الاناث مقابل شجرة واحدة من الذكور .

ومن الأقوال المأثورة ، ان شجرة النخيل تبدأ في الاثمار ، عندما يستطيع حمار مثقل بالاحمال أن يمر تحتها دون ان يلمس أوراقها . وتبلغ الشجرة هذه المرحلة بعد زرع « الجبارة » بخمس سنوات او ست . أما اذا كان المزارع عاقلاً ، فانه يتريث مدة أطول ، تكبر فيها اشجاره ويشتد عودها ، قبل ان يسمح لها بالاثمار . على اية حال لا تشرع الشجرة باعطاء حمل كامل من الثمار الا بعد ان يصبح عمرها عشرين عاماً ، ثم تستمر في ذلك مدة لا تقل عن خمسين او ستين سنة ، ثم تبدأ الثمار في التأخر ، حجماً وشكلاً ومذاقاً ، ولكن الشجرة قد تستمر في الاثمار حتى بعد ان يتجاوز عمرها القرن .

وقد غدت شجرة النخيل كالجمل تماماً موضع الاحترام ، ومدار الكثير من الاساطير والقصص . ولكن في السنوات الاخيرة ، اثار الجمل وشجرة النخيل الكثير من اهتمام العلماء .

* * *

كانت الرحلة غريبة ، والحصى يتطاير من تحت سيارة « اللاند روفر » التي نستقلها ونحن نعبر بلاد الشبكة . وهي تشمل منطقة الميزاب بما فيها من وديان جافة واقنية تتعرج في هضبة تعتبر من اكثر المناطق خطورة في الصحراء وابعدها عن تقبل الانسان .

وقد لا يكون الخطر كبيراً اذا امطرت السماء ، كما حدث في مستهل عام ١٩٥٨ . وفي هذه الأرض التي تبدو وكأنها خالية من كل حياة ، كانت هناك ملايين البذور نائمة تنتظر لمسة الماء السحرية . وسرعان ما تحولت ارض الشبكة الى شريط من الألوان الخضراء تنتشر فيها الازاهير القرمزية والحمراء والبنفسجية والبيضاء عالية مرتفعة .

وكنت اقوم بهذه الرحلة بدعوة من ميشيل بولاي ، الخبير الزراعي الى قرارة ، فسألني عن رأيي في زلفانة ولم اخف عنه بالطبع ما اصابني من خيبة أمل.

وضحك بولاي وقال .. « شفق باهت ، اليس كذلك ! وحتى بعد عشرين عاماً اذا سارت الأمور سيراً حسناً ، واصبحت زلفانة واحة وطيدة الاركان والدعائم ، فإنك لن تجد فيها ما تريده ، اذ ان الصورة الفكرية لبستان النخيل التي كونتها لنفسك تصبح عنيفة قديمة » .

وكانت النقطة التي اشار اليها بولاي مهمة ، فليس المهم ان تستخدم وسائل الحفر الحديثة ، وان تجهز سكان الصحراء بحاجتهم الى الماء ، وانما المهم ان يتعلم هؤلاء السكان على استخدام الماء بطريقة اقتصادية مجدية . وليس من الاقتصاد في شيء ان تحشد مائتي شجرة من النخيل في فدانين ونصف الفدان . فاذا زرعت مائة وعشرين شجرة تبعد الواحدة منها عن الأخرى تسع ياردات في نفس هذه المنطقة ، فإنك تحصل على نتاج أحسن .

ومضى بولاي يقول : « ان هدفنا النهائي هو تعصير بساتين النخيل القديمة الطراز كلها . وعن طريق تزويد منتظم بالمياه . فان انتاج التمور في الصحراء ، يمكن ان يزيد زيادة مهمة . وبالاضافة الى ان النظام المكشوف الواضح من الزراعة يعني الاقلال من العمل ، فان محطة البحوث الزراعية في منطقة الريغ

تقوم الآن بابحاث في التربة والوسائل التي تكفل تحسين انتاج التمور . وقد تم اكتشاف اداة لرش اللقاح مثلاً تختصر الوقت في عملية التلقيح ، كما توفر في اللقاحات اللازمة . ولا ريب في ان التوفير في الاشجار الذكرية وحدها يؤمن ثمن آلة الرش . أما في البساتين القديمة فليس ثمة مجال لاستعمال المرش » .

ويحتاج بستان مساحته فدانان ونصف الفدان يستعمل الاساليب الحديثة في الزراعة الى نحو من اثني عشر غالوناً من الماء في الدقيقة . وهذا يعني تزويد كل شجرة بستة غالونات في الساعة . وهذه الارقام بالطبع تسير طبقاً للاوضاع المحلية . وتكون شجرة النخيل في الصيف اكثر عطشاً منها في الشتاء . وعندما يضع الانسان مخططاً لبستان نخيل ، فمن العبث ان يحاول وضع مخطط لاستهلاك الماء وفقاً لمعدل سنوي ، اذ يعتمد حجم البستان على كمية الاستهلاك القصوى في الصيف وعلى مقادير الماء المتوافرة . ولا يمكن توفير الماء الفائض في الشتاء لاستعماله في الصيف . والاجراء المألوف هو استخدامه لزراعة الحبوب الشتوية والخضار . اذ ان اكثر سكان الصحراء تخشناً لا يستطيعون العيش على التمر وحده .

ومضى بولاي يقول : « وعليك ان لا تتصور ان الاثني عشر غالوناً من الماء في الدقيقة التي تستهلك في مزرعة عصرية ، تذهب الى جذور الاشجار . فأكثر من خمسيها يجف . ويتسرب في الارض ، وليست هناك من طريقة للحيلولة دون ذلك. ولكن هذه الكميات من الماء، التي تبدو وكأنها ضائعة، مهمة للغاية اذ انها تنقذ الارض من ملوحتها . »

والرمل والملح هما العدوان الرئيسيان لزارعي النخيل . والبساتين المهملة . سرعان ما تغمرها كثبان الرمال أو يقتلها الملح . ومع ذلك يميل المرء الى ان ينسى ان الأملاح التي تذوب في الماء يمكن ان تكون نافعة للبستاني . والرمل الماحل يعتبر في الصحراء تربة طيبة ، لا لأنه ينطوي على مواد غذائية او باكتيريا ، بل لما فيه من خصائص ميكانيكية ، فهل يستطيع ان يغيث اشجار النخيل ؟ هذا هو السؤال المهم . ولعل اهميته تزداد عندما نعرف ما تعاني منه

الصحراء من افتقار مزمن الى السماد الطبيعي . ولذا فقد يصبح لروث الحيوانات وبراز الانسان قيمة ثمينة للغاية في بعض المناطق الصحراوية . أما السماد الصناعي فاغلى قيمة مما تحتمله جيوب زارعي التمور العاديين . وفي بعض المناطق تزدهر اشجار النخيل دون حاجة الى سماد . وكنت دائماً اظهر دهشتي مما يحل محل هذه المركبات العضوية التي يحتاج اليها النبات والتي تفتقر اليها التربة .

وقال بولاي : « والماء في كثير من اجزاء الزراعة الصحراوية لشجر النخيل هو المادة الغذائية الرئيسية . وقد لا تحتاج الشجرة الى تربة مطلقاً لأن الماء يوفر لها الغذاء اللازم . وما زالت تحرياتنا في هذا الصدد في مستهل عهدها ، ولكن خبراء البحث في محطة التجارب الزراعية في الريغ ، قد اصيبوا بدهشة بالغة عندما حاولوا ان يتحروا ما تحتاج إليه الشجرة من سماد لتعطي اكثر الثمر واجوده . وكان الرد على سؤالهم انها لا تحتاج الى أي شيء . فالسماد على نوعيه الطبيعي والاصطناعي اسفر عن تخفيض كميات النتاج لا زيادتها ، وهذا يعني أن الشجرة تحصل على كل ما تحتاج اليه من تغذية من الماء . »

وكنت ارقب رفيقي وهو يتحدث وقد سادت لهجته موجة من الحماس والاندفاع ، وهو يسرد على مسامعي تفاصيل السماد الطبيعي والاصطناعي ، وسرعان ما وضعته في فكري بين تلك الفئة المختارة من الرجال الذين قد يخسرون في حربهم مع الصحراء معركة رئيسية في البداية ولكنهم ينتصرون في النهاية لأنهم يحبون الصحراء التي يحاربونها .

وها نحن في قرارة ! فقد وصلنا الى طرف وادي زغرير ، حيث امكننا أن نرى الأسوار وابراج المراقبة في القلعة . وكانت بساتين النخيل تؤلف مجموعة من الاشجار الخضراء التي عفرتها الرمال ، والتي تبدو شاحبة في شمس الظهيرة اذا ما قورنت باللون البني الذي يغمر جوانب النهر الذي يخرج من القرية وكأنه ذيل نجم مذنب . وتتعلق القرية بتل مخروطي الشكل ينتهي في مئذنة ترتفع فوق مسجد، هي نموذج للمآذن في بلاد الميزاب التي تتجه نحو السماء.

والمزابيون من البربر ، وهم مجموعة من المتناقضات . فهم يعيشون في بلاد

الشبكة الصخرية حيث الشمس لا رحمة لها ولا هوادة ، ومع ذلك فهم يحملون طابع المسجونين الذين عاشوا عشرين سنة في زنزانات مظلمة حقيرة ، لا ضوء فيها ولا هواء . وتضفي لحاهم السود والاوشحة الحريرية البيضاء التي يلفونها حول «كفياتهم» ، شيئاً من المنظر الذي يخفي ما هم فيه من حالة صحية سيئة . وتعرف بلادهم الميزاب ، بأنها صحراء في بطن الصحراء . ومع ذلك فالمعروف عن المزابيين انهم من اهل الثراء . فهم معروفون بأنهم من تجار الملابس والتوابل لا في شمال افريقيا فحسب بل في فرنسا ايضاً ، وان كانت شهرتهم تبرز بصورة خاصة في شمال الجزائر . وهم لا يتمتعون بسمعة طيبة في الصحراء . فالشعانبة يعتبرونهم من الانتهازيين ومن الجبناء ، والمداهنين ، ولكن هذا الحكم القاسي يستند قبل كل شيء الى نظرة الاحتقار التقليدية التي يحملها أهل الوبر لأهل المدر ، والى حسد الفقير للغني . ولكن هذا ليس بالايضاح الكامل للقضية . فتاريخ المزابيين حافل بالصلابة والشجاعة والاخلاص المطلق لمعتقداتهم الدينية . وقد تعلموا في المائة سنة الاخيرة ، اشياء كثيرة ، فبعضهم يتحدث الفرنسية بطلاقة . وفي هذه الفترة يدرس عدد من ابنائهم الطب والعلوم التقنيّة في جامعة جنيف وغيرها من الجامعات . وزعماؤهم يحملون ارفع الأوسمة الفرنسية ، ومع ذلك ، فقد احتفظوا بتقاليدهم وعاداتهم بعيدة عن كل تأثير اجنبي . وعندما تصل قوات الثورة الجزائرية الى منطقتهم ، يفقد الفرنسيون ثقتهم فيهم .

وقد قال لي ضابط فرنسي : «ان المزابيين من اصدقائنا ، لأنهم افادوا منا ، ولكنهم سيكونون حتماً من اسوأ التجار ، اذا لم تكن علاقاتهم على احسن ما يرام برجال الثورة . وهم يدفعون لنا الضرائب ، ولكنهم في الوقت نفسه يساعدون الثورة الجزائرية ، ولربما كانت مساعداتهم اكثر مما يطلب اليهم» .

ويبلغ عدد المزابيين نحواً من ثلاثين الفاً . وهم من المسلمين المتطهرين الذين يعيشون في الصحراء. فهم يحرمون التدخين ، كما يحرمون الموسيقى ، ومساجدهم عارية عن كل شيء ، ولا يعترفون الا بالقرآن الكريم ، أما التقاليد الاسلامية

الاخرى والشروح فلا يعترفون بها ، وهم يطبقون احكام القرآن تماماً في طرق حياتهم ، فيرفضون زيارة الاضرحة والطرق الصوفية وغير الصوفية ، ولهم فئة يحترمونها هي الفئة المختارة من علمائهم . أما المسلم العادي فينظر اليهم بعين الشك ، إذ انهم يمتون الى فريق الاباضية ، الذين يعتبرون من الخوارج.

وقد انتقل مذهب الاباضية الى الشمال الافريقي في القرن التاسع ، واعتنقه كثير من قبائل البربر ، وظل مزدهراً في « تيارات » في جبال الاطلس ، وهي عاصمة دولة الاباضية الى أن احرقها الفاطميون في عام ٩٠٩ . وقد فرّ الاباضيون من المذبحة الى الصحراء بقيادة آخر ائمتهم حيث اقاموا دولة لهم في سيدراته الى الجنوب من ورغلة ، ونمت مدينتهم الجديدة وازدهرت ، ولكنها غدت مهددة من جديد فبنوا في عام ١٠١١ ميلادية بلدة جديدة هي « اليوف » في بلاد الشبكة القاحلة . وعندما هاجم الغزاة سيدراته ، كان معظم المزابيين قد ارتحلوا الى الجنوب حيث اقاموا دولة بني مزاب .

وهناك الآن خمس بلدان في المنطقة الصخرية والجبلية الواقعة في حوض وادي الميزاب وهي ، العطوف وبونورا وبن ايسفوين وميليكه وغرداية . ولا تبعد غرداية وهي آخر المدن عن العطوف وهي اقدمها اكثر من خمسة اميال . وقد جعلت اهمية غرداية الاقتصادية بسكانها الذين يبلغون ستة عشر الفاً ، هذه المدينة اهم بلدانها الخمس ، أما بن ايسفوين فهي العاصمة الروحية اذ ان جميع اهلها من المزابيين ، والتدخين فيها ممنوع والبلدة محاطة بسور تغلق أبوابه عندما يجن الظلام . وهي بالاضافة الى انها المدينة المقدسة مركز ثرائهم ، ومستودع خزائنهم .

وبلدان المزابيين كقطع الكعك المثلجة ببيوتها المخروطية الشكل التي ترتفع ابراجها بشكل يشبه المساجد والمنائر . وتتعرج الشوارع وتتلوى صاعدة الى الجبل ، وهي مغطاة في احيان كثيرة حتى لكأنها تشبه الانفاق . والمسجد هو المحور الروحي والعمراني للبلدة ، واذا ما تطلع الانسان من سقف المسجد ، رأى ابنية المدينة تنساب تحته وكأنها وشاح الهي . وتختلط البيوت البيضاء

بالمساكن الزرقاء والخضراء .

والمزابيون من اقدر الناس على الاستيطان . والخمول الذي يسود معظم البيض من سكان الصحراء ليس من شيمهم ولا من خصالهم . ولاريب في أن اقامة واحات ومدن في قلب الصحراء ، يحسدهم عليها جميع سكان الصحراء الآخرين ، تتطلب الكثير من النشاط والعمل الزائد . وكان عليهم ان يحفروا نحواً من اربعين باردة في ارض صخرية صلبة ، قبل ان يصلوا الى مجرى الماء في وادي الميزاب . وسرعان ما حفروا نحواً من ثلاثة آلاف بئر لري نحو من مائتي الف شجرة من النخيل . وتطورت الأمور معهم فأصبحوا تجاراً ناجحين ليتمكنوا من اطعام انفسهم . ولا ريب في انهم اتصفوا بالشجاعة والثقة بالنفس ، حتى انهم عرضوا مجتمعهم المنعزل بعاداته الغريبة وتقاليده ومعتقداته الى التيارات الخارجية المعادية لهم ، دون ان يخشوا خطر هذه التيارات وتدميرها لهم . وقد نجح المزابيون ، فأظهروا للعالم ما يتمتعون به من نظام وانضباط .

وبينما يهاجر الرجال ، مرة على الأقل ، فان النسوة ممنوعات من الخروج من بلاد المزاب ، وحتى من البلدة التي يعشن فيها . ويستعمل الرجال عادة في أحاديثهم اللغة العربية اما معظم النساء فلا يفهمن إلا اللهجة البربرية ، وهي لغة المزابيين الاصلية . وهن ايضاً المستودعات الامينة لتقاليد المزابيين وثقافتهم ولذا تطبق عليهن البيوت وكأنهن الدجاجات التي تضع بيوضاً من الذهب . ولا يغادرن هذه البيوت مع اطفالهن الا عندما يشتد قيظ الصيف فيرتحلن الى منازلهن الصيفية في بساتين النخيل ، ولكن اقسى الاحتياطات تتخذ للحيلولة دون أي اتصال لهن بالغرباء . وهناك حالة واحدة ، يسمح لهن فيها بالخروج من هذه العزلة الناسكة ، وهي عندما يفيض وادي الميزاب ، وهذا امر لا يقع الا مرة كل سبع سنوات ، فآنذاك تخرج النسوة مع اطفالهن لرؤية الفيضان المؤثر ، ذلك لأن تدفق المياه ، هي الطريقة التي يختارها الله ، ليحدث اطفاله الذين يحبهم وليقول لهم انه لم ينس تكريسهم انفسهم لشرائعه وتعاليمه .

وقامت فئة تقدمية اخيراً بالإعراب عن فكرة يعارضها بحرارة جماعة المحافظين ، وهي انه في أحوال استثنائية قد يسمح للرجل بأخذ زوجته معه الى الخارج . وبالفعل فقد تمكن ثلاثة من المزابيين المتحررين من تهريب نسائهم معهم الى الخارج ، مما اثار دهشة التقدميين والمحافظين على حد سواء .

ولا ريب في أن مواقع هذه المدن ، بأسوارها وفرجاتها ، وأبوابها المحصنة ومساجدها التي يمكن تحويلها في حالات الطوارىء من اماكن للعبادة الى قلاع محصنة ، تتحدث بنفسها عن قصة هذه المدن . فقد بنيت هذه المدن في الماضي كملاجىء تحمي المزابيين من غارات البدو ولا سيما من الشعانبة وغيرهم من القبائل المعادية الاخرى . وتاريخ بلاد مزاب حافل بقصص المنازعات الداخلية بينهم حتى أن بعض المدن كانت تلجأ الى الاستعانة بالقبائل المجاورة في خصوماتها مع المدن المزابية الاخرى. ولعل «البريّان» وقرارة هما البلدتان المزابيتان الوحيدتان اللتان لا تقعان في وادي الميزاب ، وقد اقيمتا في القرن السابع عشر على ايدي سكان غرداية الذين كانوا قد اشتبكوا في نزاع مع اخوانهم من ابناء طائفتهم .

وقرارة التي يطلق عليها اسم قوليمين ، هي ثاني بلدان المزابيين اذ يبلغ عدد سكانها تسعة آلاف معظمهم من المزابيين وبينهم اقلية من العرب . أما الاقلية اليهودية التي كانت موجودة هناك . فقد انكمش عددها في الآونة الاخيرة . ويعيش في بلاد المزاب منذ قرون عدة نحو من الف يهودي ، يعتبرهم المزابيون بعيدين عن الطهارة . وقد هاجرت معظم العائلات اليهودية في السنوات الاخيرة ولم تبق فيها الا عائلة واحدة .

وكان الملازم راغوزين ، في انتظارنا في قرارة ، وتبدو على وجهه سيماء الحزن . وقد انطلقنا فور وصولنا الى البئر الارتوازي الذي يقع في الطرف الثاني من الوادي . ياله من منظر رائع ! انه كالرشاش الساخن الهائل ، ففي كل دقيقة ينصب نحو من (٣٥٠٠) غالون من الماء الساخن الذي لا تقل درجة حرارته عن المائة فهرنهايت . ويحاط حوض جمع المياه بسياج من الاسلاك الشائكة لمنع الحيوانات من الوصول الى الماء .

وتنحدر الهضبة انحداراً شديداً من هذا الجانب من وادي زكري . والطبيعة الغالبة ليست الاحجار الكلسية ، كما هي الحالة في المناطق الاخرى من بلاد المزاب ، بل الاحجار الرملية البنية اللون التي تشبه الحجر النوبي المشهور الذي عثر عليه في اعالي النيل . ويبدو البئر هنا تحت حماية احد الأولياء ، اذ ان ضريحه يقوم على طرف الهاوية .

وقد بدأت عمليات الحفر لأول مرة في الثامن من آذار عام ١٩٤٩ تحت أقدام الضريح . ووصل الحفر الى عمق (٢١٠٠) قدم الى سطح المجرى المائي ، ثم استمر الحفر الى عمق (٣٨٠٠) قدم ، حيث كانت لا تزال توجد هناك طبقة من الصخور الرملية ذات المسام . وكانت الغاية ان يمضي الحفر عبر المجرى المائي ، ولكن الافتقار الى المعدات جعل الحفر مستحيلاً .

فلماذا وقع الاختيار على قرارة لتكون محطاً للمحاولة الثانية للوصول الى بحر سافورنين ؟ لاشك في ان السبب هو افتقارها الشديد الى الماء . وكان السكان يعتمدون كلية على المياه السطحية التي تجري في وادي الزغرير . وتمكنوا عن طريق اقامة خزان من تخزين المياه الفائضة ، ولكن لم تكن هناك طريقة للتعويض على ما في انسياب الماء من عدم نظام . وكانت ثمة حقيقة ثانية وهي ان المزابيين كانوا قد ملوا من الحفر الذي وقع في زلفانة . وقد طلبوا ان يحفر لهم بئر خاص بهم ، ولكن الادارة الحقت زلفانة سياسياً واجتماعياً بولاية متليلي ، وهي « قصور » الشعانبة . وقد سخط المزابيون اشد السخط لأن اعداءهم الرئيسيين الشعانبة ، قد اتيح لهم ان يكون لهم اول بئر ارتوازي في بلاد الميزاب . وهكذا غدت قرارة المكان الوحيد الذي كان لا بد ان يحفر فيه بئر ارتوازي ثان .

وسيذكر أهل قرارة ، الى امد بعيد عام ١٩٥٠ . ففي السابع عشر من تشرين الأول ، بدأ البئر في العمل ، ولم تمض اسابيع حتى كان وادي الزغرير قد امتلأ بمياه الفيضان مما جعل من قرارة بندقية الصحراء . وقد عرض علي الملازم راغوزين بعض الصور التي اخذت في نهاية عام ١٩٥٠ ، عندما كانت

بساتين النخيل مغطاة بالمياه الى ارتفاع خمسة اقدام او ستة ، وبات من الضروري جمع ثمار النخيل في « قفاف » عملت من سعف النخيل .

واغتنم المزابيون فرصة هذا الفائض غير المتوقع من الماء ، ليمارسوا نوعاً من الاستغلال عن طريق التشهير . فقد رفضوا اخذ الماء من البئر الارتوازي بالسعر الذي حددته الادارة ، قائلين ان الضرائب المفروضة على بيوتهم وماشيتهم واشجار نخيلهم كافية ثمناً للماء الذي يحصلون عليه . وكانت الادارة بدورها تريد ان تغطي النفقات التي تكلفتها في الحفر . وكان المزابيون في وضع المساوم القوي ، لأنهم كانوا يعرفون بفضل خبرتهم ان مياه الفيضان وحدها كافية ، لاعطاء موسم طيب في السنتين او حتى في السنوات الثلاث القادمة .

وغضبت السلطات للعبة التي لعبتها الطبيعة معها ، فأوقفت تزويد المياه . واستمرت الحرب الباردة اربع سنوات ، ولم تحل سنة ١٩٥٤ حتى كان المزابيون قد ضعفوا . فقد اصبحت بساتينهم مهددة بالجفاف من جديد . واجرت السلطات بعض التخفيض في الاسعار ، وسويت المسألة بشكل موافق للفريقين .

وقد حرر بئر قرارة الارتوازي المنطقة من ديكتاتورية الطقس ، ومكن الأهلين من الاستعاضة عن اسلوب قديم من اساليب الري بأسلوب جديد اقل تعباً وتكاليف ، ومن ادخال اصلاحات زراعية واسعة النطاق كان من المنتظر ادخالها منذ امد بعيد . ولبست بساتين النخيل في قرارة ، التي كانت تضم اربعين الف شجرة نحو ربعها لا يثمر ، حلة جديدة . وأخذت الاشجار الفائضة في الاماكن المكتظة تختفي ، وشرع الأهلون في الاكثار من زراعة (دقلة النور) وهو اجود انواع التمور ، بعد ان كانت هذه المنطقة لا تعرفه من قبل . واشترك مستهلكو المياه في نحو من اربع وعشرين جمعية تعاونية غدت مسؤولة عن توزيع المياه بصورة عادلة في مختلف المناطق .

وبينما كنا نتجول في انحاء بساتين النخيل كنا نتعثر بالانابيب المصنوعة من الاسمنت او المطاط ، وعلى الرغم من ان هذه الانابيب افقدت البساتين بعض مناظرها الطبيعية الرومانطيقية الجميلة الا أنها دلت على ان الأهلين شرعوا ،

بحافز من انفسهم يقبلون على وسائل الزراعة والري الحديثة التي تقلل من خسائرهم عن طريق الامتصاص والتبخر .

وسرعان ما أخذ البحث يدور عن الاراضي البكر ايضاً ، وتقرر اقامة قطاع للاصلاح الزراعي الى الجنوب من قرارة لاجراء التجارب على طرق جديدة في زراعة النخيل . ولم يكن الملازم راغوزين متحمساً لهذا المشروع الذي استثار من جديد الحزازات القديمة بين المزابيين والشعانبة . ويقوم القطاع في منخفض يسمى هناك (دايا) . وهذه المنخفضات مليئة بالتربة الغرينية لجمع المياه في حالة سقوط الأمطار أو الفيضانات ، وكانت دائماً مسرحاً لألاعيب زراعية يولدها الحظ . ويبذر البدو بذار الحنطة والشوفان في هذه المنخفضات ثم يعودون اليها بعد اربعة اشهر او خمسة . فاذا حقق الماء ما ينتظرونه منه ، ظهر نتاج يعادل عشرة اضعاف او عشرين ضعفاً للبذار الذي نثروه . أما اذا لم ينجح الموسم في ذلك العام وضاع البذار ، فانهم يعيدون الكرة في العام التالي . وقد طالب الشعانبة بأرض القطاع الزراعي مستندين الى هذا الاسلوب التقليدي في الزراعة ، ولكن المزابيين طالبوا بها ايضاً على اعتبار انها جزء من أراضيهم .

وقد جف معظم الابار القديمة ، وما تبقى منها يستخدم في تزويد الاهلين بمياه الشرب ، ذلك لأن الأهلين يعتقدون ان هذه المياه اصلح من مياه المجرى الجوفي (الالب) للشرب . وعلى الرغم من ان الملازم راغوزين يعتبر هذا تحاملاً لا مبرر له ، الا انه لا يستطيع ان ينكر انه بينما لا يتعدى عمر الماء في وادي زغرير بضع سنوات ، فان المياه الارتوازية سقطت على شكل امطار قبل عدة قرون .

وغدا الماء في قرارة موضوعاً للرخاء الاقتصادي . فالالف لتر منه لا يتعدى ثمنها ثلاثة فرنكات . ولما كان المزابيون من خيرة التجار واكثرهم حذقاً ومهارة ، فإنهم شرعوا فوراً في اعداد حساباتهم ، وهنا تبينت لهم حقائق اقتصادية نافعة ، فأخذوا يفكرون في استثمار أموالهم في بلدانهم وبساتينهم بدلاً من استثمارها في الشمال كما كان شأنهم في الماضي ، ذلك لأنهم احسوا

بما تنطوي عليه الصحراء من امكانات اقتصادية مقبلة . وسرعان ما اخذت تظهر دور جديدة مبنيّة من الحجارة الرملية في ضواحي بلدانهم ، كما ارتفع سعر الاراضي ارتفاعاً ملحوظاً . وبينما كان سعر المتر المربع من الارض لا يكلف اكثر من بضعة بنسات قبل عدة سنوات ، أصبح الآن يكلف ثلاثة جنيهات او اربعة . ويحاول اهل قرارة استخدام الماء سواء اسقط عليهم من السماء مدراراً ، او تفجرت عنه الارض في آبارها الارتوازية باقصى ما يمكن من التوفير . وهم يبتاعون الآن انابيب غالية الثمن . وقد ادركوا بغريزتهم التجارية ما للصحراء من مستقبل في عالم التطور الصناعي ، فشرعوا يزرعون بساتين واسعة تضم مختلف أنواع الفاكهة من مشمش وبرتقال وحمضيات اخرى وتين وزيتون ، كما ان مناطق فسيحة من الارض تزرع الآن بأنواع الخضار .

وعندما تحدثت بكل هذا الى الملازم راغوزين ، قال ان الصحراء تضم اكثر من سر .. فأهل قرارة ، تصوروا ان بامكانهم احتكار جميع تجارة الصحراء في الخضار والثمار ، وهم يستوردون الآن اجود الأنواع من الشمال ، ويحاولون زراعتها طبقاً للاوضاع المحلية الراهنة عندهم . ولا ريب في ان هدفهم من هذا الاحتكار في انتاج الثمار والفواكه واضح ، وفي منتهى المكر والمهارة وبعد النظر ، ذلك لان مدينة نفطية مهمة كحاسي مسعود مثلاً ، ستصبح سوقاً عظيمة لمنتجاتهم .

وكنت اعتزم وأنا في طريق العودة ، ان اسأل ميشيل بولاي اسئلة اخرى عن النخيل والماء والواحات ، ولكننا شغلنا عن ذلك بمسائل اخرى مهمة كل الاهمية . فقد اخذنا نتوقف في الصحراء لقطف الازاهير وبعض النباتات الصحراوية كأنف الثور ، والكمأة التي كانت تبلغ في كبر حباتها حبات « البطاطا » . وكانت لهذه الثروة غير المنتظرة من الخضار ناحيتها المهمة المتعلقة بطهي الطعام . وفي كل مساء ، عندما يكتظ السوق في غردايه بالناس ، كنت أسمع أصوات الباعة من البدو ، تملأ السوق مناديه « طرفس » « طرفس » ،

وهم يعنون بها الكمأة الصحراوية اللذيذة المذاق . وكانوا يطلبون عشرة شلنات مقابل الرطل الواحد ، ثم سرعان ما يهبط الثمن الى حدود ستة بنسات . وقد وجد البدو منافسين اشداء لهم في جمع الكمأة . بين رجال حامية غردايه الذين جعلوا منها هوايتهم .

* * *

وتعتبر ورغله المكان الأول الذي يؤمه ويجب ان يدرسه كل من يتوق الى دراسة شؤون الصحراء . وقد قمت بزيارتها اول مرة في أواسط فصل الصيف قبل عدة سنوات ، وفي ظروف لم اكن انا الذي اخترتها او قررتها . فقد كنت في طائرة ، واحاطت بنا زوبعة رملية ، اضطرت الطائرة بسببها الى الهبوط . ولن انسى ما حييت تلك الحرارة الهائلة ، ولا تلك القفزات الهائلة من الرمال التي تحركها الرياح ، فتملأ الهواء بعشرات الآلاف من البلورات الرملية اللامعة ، ولا تلك الأشعة الشمسية التي تؤذي عين الانسان ولا تلك الحمائم التي شوتها الشمس الاستوائية المجنونة ، ولا البلدة وقد تجمعت حول سوقها ، او الحي الاوروبي الفسيح . وقد بدا كبقايا معرض استعماري . وادركت آنذاك ، ان الحياة حتى في الواحات على الرغم مما فيها من شقاء وتعاسة تكتسب رونقاً خاصاً ، عندما يرى الانسان في محتواها ، الصحراء الصفراء القاحلة ، وهي تقف وراءها جامدة وقورة ، شاحبة .

وتقع ورغلة في حوض من أحواض وادي « ميا » ذي الحفر والاخاديد . وتمتلىء الاجزاء العميقة من هذا المنخفض بمياه البحيرات المالحة ، التي تبلغ مساحة أكبرها نحواً من ميل مربع ونصف الميل ، من المياه الآسنة الراكدة . وعندما رأيتها في شتاء عام ١٩٥٨ ، رأيت الأهلين ، وقد كاد وهج الشمس يعمي عيونهم ينتزعون عنها قشرتها الملحية السميكة .

ويوجد في ورغلة وفي الواحات الصغيرة القريبة منها ما ينوف على نحو مليون من اشجار النخيل . ولو وضعنا هذه الاشجار في خط واحد ، تفصل

بين الواحدة والاخرى منهما عشر ياردات ، لامتد هذا الخط ربع محيط الكرة الارضية . ولكن ثمارها ليست من النوع البارز ولا الغزيز . اذ إن اكثر من نصف الاشجار يعتمد على المنسوب الأعلى للمياه الذي تستطيع جذورها الوصول اليه بالكاد . وفي سني الخير ، عندما يرتفع منسوب المياه ، ويبدي المزارعون نشاطاً في تسميد اشجارهم ، فان كل شجرة من هذه الاشجار تعطي نتاجاً يتراوح بين خمسة ارطال وعشرة من التمر . أما في السنين العجاف ، فان هذه الأشجار لا تنتج شيئاً . وفي الحق ، فان ربع هذه الاشجار فقط ، يتلقى كميات كافية من الماء لانتاج ثمار طيبة منظمة تتراوح بين العشرة ارطال والعشرين رطلاً لكل شجرة .

وتبدو الصحراء للوهلة الأولى منطلقة من حدود الزمان ، بحراً متجمداً من الكثبان الرملية ، وقد اضحت اشجار نخيلها وحميرها وجمالها ، كما في أيام التوراة اسيرة صراع جبار لا يرحم مع الماء . لكن هذه الصورة زائفة . وعلى الرغم من عدم وجود تاريخ مسجل ، الا ان أهل الصحراء يحملون ذكريات طويلة .

وتعاني ورغلة ، وهي الواحة الكبرى في الصحراء من مرض « الظمأ الذي لا يروى » وهو مرض لا تمكن معالجته إلا بعد تحليله وتشخيصه تشخيصاً صحيحاً وسليماً . وقد تمكن لابلي بعد تحقيقات واسعة النطاق اجراها مع الفلاحين من إصدار نشرة اسماها « الواحة الضالّة » .

وتبدأ دراسته في عين الصفا وهي بئر تفجر ماؤها فجأة في الصحراء ، مولداً نهيراً ينساب باتجاه الشمال . ويروي الرواة العرب ، قصصاً رائعة عن هذه البئر . التي ظل اسمها معروفاً حتى اليوم في طول الصحراء وعرضها . ولم يستطع أي من علماء طبقات الارض ان يرى مكان هذا البئر ، الذي نبع على بعد ثمانية اميال الى الجنوب من ورغلة ، وان كانوا يعرفون المصدر الذي يغذيه بالماء « فمستودع » ورغله الذي يمت جيولوجياً الى وادي ريغ ، يضم عدة طبقات ارضية ، تنساب فيها المياه الجوفية . فهناك مثلاً طبقة رملية تعود

الى العصر الجيولوجي الاوسط ، وطبقة من العصر الثاني ، وتحتهما طبقة من الجير . ومستويا المياه في المنطقة ارتوازيان ، وعلى رأي الخبراء ، متصلان ببعضهما .

وقام رجال من السود من السودان ، بزراعة اول بساتين النخيل على بعد عشرين ميلاً الى الشمال من البئر . أما الواحة الأولى وهي عفران ، فيعود عهدها الى عصر الرومان على أقل تقدير . وجاء فاتح قوي في القرن السابع او الثامن للميلاد ، فأجبر أهل عفران الذين لا يتجاوز عددهم الثلاثين او الاربعين على الارتحال شمالاً مع النهر ، الى المكان الذي تقوم فيه ورغلة الآن بين عفران وعين الصفا ، فاقاموا مستعمرة محصنة او « قصراً » لها بساتين واسعة اطلقوا عليها اسم « ورغلان » . وقد تمت الهجرة في القرن العاشر عندما جاء الاباضيون الذين اصبحوا يدعون الآن بالمزابيين ، بعد ان طردوا من «تيارات» الى الصحراء ، حيث اقاموا حول البئر نفسها واسسوا بلدتهم سيدراته .

وبرز اسم سيدراته في الانباء في أواخر القرن الماضي ، فقد أراد هارولد تاري ، ان يعيد اليها امجادها القديمة في عهد الاباضيين . وكان هذا الرجل مستودعاً نابضاً من الحيوية ، وان كان متعلقاً بالمشاريع الخيالية ، اذ كان عضواً في لجنة سكة حديد عبر الصحراء ، وكان يأمل في ان يرفع بيوت سيدراته من الرمال ليجعلها صالحة للسكنى من جديد .

وقرر ان تظهر «بومبي» الصحراء ، في روعة جديدة ، وتمكن من ان يحصل على مبالغ من الحكومة لتحقيق مشروعه ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى كان حلم تاري قد اختفى ، وطوي في زوايا النسيان .

وطارت عالمة طبقات الارض السويسرية مرغريت فان بيرشيم في عام ١٩٥٠ فوق سيدراته . وظهرت تحتها على الارض خطوط بلدة طولها ميل واحد وعرضها نصف ميل ، تتراءى واضحة تحت الكثبان الرملية ، بما فيها من أسوار وقلاع محصنة ومساكن وشوارع ، وسدود تحيط ببساتين النخيل وشبكة من القنوات التي يمكن للنظر ان يتابعها كشرايين متواصلة الى ورغله

والى ما ورائها . وعلى ضوء هذا المنظر الموحي بالأمل شرعت مرغريت في حفرياتها في عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ فكشفت عن عدد من البيوت ، وعن بعض الزخارف التي تمت الى عصور تاريخية ، وعثرت على ادلة ناطقة تشير الى نظام الري الذي كان متبعاً في سيدراته .

ويبدو ان الاباضيين في سيدراته لم يستطيعوا تدبير امورهم بمياه البئر وحدها ، فحفروا بعد وصولهم الى المنطقة اخاديد اصطناعية لاستخراج الماء من طبقة الرمل الجيولوجية الوسطى . ويقول الراوي « ان مراجل المياه التي تفجرت بقوة خارقة من الآبار التي تم حفرها على ايدي اللاجئين سرعان ما أحالت الصحراء الى ارض يانعة الخضرة » .

ولا يدري أحد السبب في هجرة الاباضيين في مطلع القرن الحادي عشر من سيدراته الى بلاد المزاب. ومن المحتمل ان تكون كثبان الرمال المتنقلة قد هددت البلدة ، او ان قسماً كبيراً من أهلها ، قد ماتوا متأثرين بالملاريا . وكانت ورغلة حتى سنوات قليلة خلت ، بوءرة مزعجة للحميات . وهناك احتمال آخر ، بأن تكون المياه قد بدأت في الجفاف ، مما اضطر اهلها المزابيين الى الرحيل عنها والاقامة في اماكن اخرى كعفران وورغلة حيث يوجد الماء . وعلى هذا فقد قام اهل ورغلان يؤيدهم احد السلاطين ، بالزحف على سيدراته ، حيث اخرجوا منها من تبقى من أهلها الاباضيين ونهبوا البلدة وسلبوها كل ما فيها .

وعندما زرت سيدراته ، كانت الرمال قد عادت فطمرت كل ما كشفت عنه مرغريت من معالم البلدة القديمة في حفرياتها قبل بضع سنوات . ولكن ما زال عدد من المزابيين يفدون كل سنة في نهاية نيسان الى سدراته ، قاطعين كثبان الرمال على ظهور حميرهم أو مشياً على الاقدام ، ليركعوا في البقعة التي يدفن فيها مسجد سدراته الكبير . وينتهي الحج الى المسجد ، بصلاة يقيمونها على ضريح الامام موسى الذي قادهم الى الصحراء .

وتمضي القصة فتقول ان فاتح سيدراته استدعى خزنة الآبار (الرتاسيين)

من ورغلة وامرهم ، بتنظيف البئر الاصلي . وقد اخذت هذه المهنة في الاندثار اليوم لان الطريقة القديمة في نزح الآبار لم تعد مستعملة . وكان هؤلاء الرتاسيون يتولون بناء الآبار الارتوازية في وادي الريغ وورغلة ، وفي نزحها وتنظيفها مرة كل بضع سنوات . وقد شرحت سابقاً الاخطار التي يتعرض لها الحفارون في حفر الآبار . فكثيرون منهم كانوا يغرقون اثناء تفجر الماء بصورة مفاجئة . ولم يكن نزح البئر وتنظيفه اقل خطورة . فعمق البئر لا يعدو مائة او مائة وخمسين قدماً ، بينما لا يعدو قطره عشرة اقدام أو خمسة عشر قدماً . ولا يستطيع الرجل ان يبقى في قعر البئر اكثر من خمس دقائق يملأ ابانها « سطله » بالرمل والطين والحصى . ثم يعود الرجل الى سطح الارض وهو يكاد يختنق من التعب . وكان يقوم بهذه المغامرة مع الحياة ست مرات او ثمان على اكثر تقدير في اليوم . وكان عدد نازحي الآبار الذين يموتون من الاختناق او الغرق او التعب كبيراً . وكان الاهلون ينظرون الى رجال هذه الحرفة بعين الاعجاب والاحترام والخوف الممزوج بالخرافات . وكاعتراف بما في مهنتهم من مخاطر ، كانوا دائماً يعفون من الضرائب .

وحاول النازحون تنفيذ أوامر السلطات والهبوط الى قعر البئر الذي كان يتفجر منه الماء عبر الطبقة الجيرية . وقد اضطروا الى العودة اكثر من مرة بسبب ضغط الماء الشديد . ولكن السلطان كان متصلباً في رأيه ولم يكن من السهل اقناعه بالعدول عن خطته . فابتهل الى السبعة البارزين من اولياء الله المرابطين في المنطقة ان يستخدموا قواهم الغيبية في تخفيف قوة الماء مدة تمكن النازحين من اكمال عملهم . وقد تمكن الاولياء من تخفيض كمية الماء ولكنهم لم يستطيعوا بعد الانتهاء من العمل ان يعيدوا الماء الى ما كان عليه . وغضب السلطان عليهم فأمر بقطع رؤوسهم .

وتشرح هذه القصة ، اكثر ما في العصر من مشاكل ملحة ، وهي مشكلة الآبار التي تجف . ووصلت حركة الهجرة بعد وصول الاحتلال الفرنسي الى ورغلة ، في تتبعها للماء ، صعداً وهبوطاً مع الجدول ، الى ادنى نقطة فيه ، قرب

شط الملح . وقام الخبراء بمساعدة الفلاحين بتطوير ما تبقى من هذه الاراضي .

وقمت بجولة في شط الملح مع فرنسيس ساغنس ، رئيس مهندسي مجلس المياه الجزائرية في ورغلة . وكانت أسنان مروحة الرياح تخفق ، ويتساقط رذاذ خفيف من المطر . ولم تكن هناك اية نسمة من الهواء ، ووقفت نصلات الطاحونة المائية الميكانيكية بلا حراك على طرق المستنقع المالح . وكان وجه ماء الشط شاحباً ومغبراً ، كالحالة النفسية التي كان يعيشها رفيقي .

واوضح لي ساغنس المحاولات التي تبذل لتجنب القيام بعمل عنيف لحل مشكلة ورغلة ، عن طريق سد آبارها القديمة مرة واحدة ، والاستعاضة عنها ، ولو جزئياً ، بمواسير عصرية . ففي الآبار القديمة تتكون الجدران من جذوع النخيل . ولذا فقبل ان يصل الماء الى السطح يكون جزء كبير منه قد ضاع عن طريق الامتصاص والترشيح . أما في الآبار العصرية من الناحية الاخرى ، فليس ثمة من ضياع للماء لأنه يجري في انابيب .

وما زالت هذه الخطوات في طريق التنفيذ . ففي كل عام تغلق خمسة آبار او ستة . ولكن جميع الخبراء يرون في هذه الاجراءات عوامل مخففة اكثر منها علاجاً دائماً .

وكانت هناك ثلاث طرق ، لجعل هذا العلاج مؤثراً ، وأول هذه الطرق ، تجفيف الشط نفسه ، وهي عملية غير ثابتة وكثيرة التكاليف ، وقد تطيل عمر المريض ولكنها لا تنقذ حياته . وقد يؤدي تجفيف الشط طبعاً الى الوصول الى طبقة ارضية جديدة ولكنها ستجف ايضاً في فترة قصيرة نسبياً .

وكان الاحتمال الثاني في استعمال آلات الضخ لسحب الماء من الطبقة الجيولوجية الوسطى ، وهي طبقة لم تعد تستطيع الوصول بفضل ضغطها التلقائي الى اقدم بساتين النخيل واعلاها . ولكن التكاليف في هذه العملية ستكون باهظة ايضاً .

أما الاحتمال الثالث فهو البحث عن مياه ارتوازية في مستويات اكثر انخفاضاً يكون لها ضغطها التلقائي المرتفع . ولا تنفع الطبقة العليا من الماء الجوفي في الري

مطلقاً فهي تبلغ في سمكها على مقربة من الشط ست بوصات ، بينما تبلغ في مناطق اخرى من الواحة ياردتين او ثلاث ياردات ، ويحتوي الماء الذي يتبخر من الشط من خمسة عشر غراماً الى عشرين غراماً من الملح في اللتر الواحد ، وهي كمية لا تستطيع حتّى اشجار النخيل المتعودة على الملوحة احتمالها. وقد افادت طبقة الرمال الجيولوجية المتوسطة ، التي تبلغ في عمقها نحواً من مائة الى ثلاثمائة قدم ، كمستودع لورغلة . ولو هبطنا في الارض مسافة اربعمائة وخمسين قدماً اخرى عبر الطبقة الجيرية المثلثة ، التي حفر فيها بئران في زلفانة ، لوصلنا الى المنطقة التي كانت تعود اليها المياه المستعملة .

وقرر الخبراء ان يلجأوا الى الاحتمال الثالث، ولكن البئر التي حفروها في الطبقة الجيرية المثلثة وصلت الى نتائج غير مشجعة. فقد انتجت مائة الدقيقة وهي كمية غير كافية . ولم يبق امامهم الا ان يحاولوا التعمق في الالب (المجرى المائي) في بحر سافورنين .

وبدأ الحفر في نيسان عام ١٩٥٦ ، وفي اول تشرين الثاني وصل الحفارون الى الطبقة العليا من الالب ، واخترقوا صخورها الرملية الى عمق ٦٧٥٠ قدماً ، وسيطرت موجة طاغية من الحماس على ورغلة كلها في الخامس من كانون الاول . فقد بدأت اولى الآبار التي تم حفرها من المجرى المائي الجوفي (الالب) تعمل عملها ، وأخذت تنتج ٣٤٠٠ غالون في الدقيقة ، وهي كمية لا تكفي للخمسمائة فدان من الارض المزروعة في الوقت الحاضر فحسب بل لخمسمائة فدان يمكن استصلاحها للزراعة . وكان ضغط الماء من القوة بحيث يمكن استخدامه في اية منطقة في ورغله حتى وعلى الاطراف المرتفعة من المنخفض.

وقال فرنسيس ساغنس وهو يرى نظرة الدهشة في عيني : « ان لدينا الآن فائضاً من الماء . أما على صعيد الطلب، فليس لدينا الكثير حتى الآن . وعلينا ان نحفر بئراً جديدة بالفعل . أما الآن فلا نستطيع ان نفعل هذا . أما ورغلة فلا تستطيع في واقعها ان تستهلك كل هذه الكمية من الماء . وعليك ان تتذكر ان اول بئر حفرت من المجرى المائي الجوفي تنتج من الماء ما يعادل انتاج عدة

مئات من الآبار القديمة . وعندما يستنفد الماء اهدافه ، فانه يسيل الى الشط . ولما كان ما يصل الى الشط من الماء ليس كثيراً ، فان التبخر وحده كان كافياً لاستنزاف مائه . ولكن زيادة ما يصل اليه من الماء قد رفع مستواه الى الحد الذي اصبح يهدد مساحات من الارض تتراوح بين الخمسمائة والسبعمائة فدان . وقد استخدمت مضخة آلية لدفع الماء الزائد الى المنخفض الواقع الى الشمال من ورغلة ولكن ما تدفعه لا يعتبر كافياً لازالة الخطر كلياً . وعلينا اما ان نجد منفذاً اصطناعياً للشط ، وهذا ممكن من الناحية الفنية ولكنه باهظ التكاليف ، أو ان علينا ان نتخلى عن بساتين النخيل المهددة » .

ومن المحتمل تبني الحل البديل الثاني ، وهذا يعني ان ورغلة الواحة الجوّالة ، ستنتقل من مكانها من جديد ، وهذه المرة باتجاه الارض المرتفعة .

* * *

وكنت كلما رأيت الماء يندفع من هذه الآبار الارتوازية القوية قاطعاً مسافة آلاف الاقدام من باطن الارض تذكرت ما حدثني به الاستاذ كويزيل ذات مرة عن الصحراء الخضراء . فهل من الممكن ان تعود الصحراء الى الاخضرار من جديد ، باخراج هذه المياه الدوثروية من بحر سافورنين ؟ وقد وجهت هذا السؤال الى توماسي بولاي ، والى راغوزين ، وساغيس وغيرهم فردوا جميعاً بالسلب .

وعندما قمت بجولتي الأولى في الصحراء كان الناس يتحدثون بكثير من الثقة عن «الشط الشرقي» . وكان هذا الشط من اكثر المشاريع طموحاً ، التي فكر بها علماء القوى المائية . ولم يحل عام ١٩٥٨ ، حتى كان مجرد الحديث عن هذا الشط خرافة من الخرافات .

يقع الشط الشرقي وهو مستنقع مالح يبلغ طوله مائة ميل وعرضه بين الثمانية اميال والاثني عشر ميلاً ، في الهضبة الجزائرية على ارتفاع نحو من ثلاثة آلاف قدم بين جبال الاطلس الساحلية وجبال الاطلس الصحراوية .

وعلى طرف هذا المستنقع هناك نحو من ثمانية عشر بئراً ارتوازياً ، مياهها اما عذبة حلوة او فيها بعض الاملاح مما يشير الى غزارة في المياه الجوفية . وقد طلع مارسيل غوتييه وهو مهندس بارز في مجلس مياه الجزائر بنظرية تقول ، ان الشط يقع في قلب مستودع كبير أو خزان طبيعي يكون فيه الماء تحت ضغط مرتفع ، يبدو جلياً من قوة اندفاعه من الآبار الارتوازية . ولكن لما كانت الطبقة التي تحفظ الماء ليست من النوع الذي لا ينفذ الماء منه ، فانه يترشح الى السطح ويتبخر . وبكلمة ادق ، فان المستنقع المالح يقوم بدور الاسفنجة الارتوازية . ولعل من الافكار المغرية ان تحفر آبار كافية في هذا المستودع وان تستخرج منه مياه تكفي لتخفيف الضغط داخل الحوض ، مما يضعف قوة التبخر وفي الامكان الوصول الى توازن بين المياه التي تخرج من الحوض وبين تلك التي تترشح منه .

وكان هذا هو هدف المشروع المائي . وتقرر ان يحول الماء عبر جبال الاطلس الساحلية الى السهل ، لتوليد الكهرباء ، وتأمين الري . وخيل للبعض ان في الامكان قيام صناعات جديدة ، ومناطق فسيحة مروية ، من مجرد وقف التبخر الطبيعي في الهضبة العالية عند الشط الشرقي ، ولكن غوتييه وزملاءه كانوا لحسن الحظ اكثر واقعية . فقد اقاموا محطة للبحث العلمي في « عين السخنة » قرب الشط ، حيث حفر اكبر الآبار الارتوازية . وقاموا بقياس التبخر وسقوط الأمطار كما حفروا اكثر من مائة ثقب جيولوجي . ولكنهم قاموا فوق ذلك بضخ المياه . وكان افتراضهم ان كمية المياه المنزوحة اذا كانت اقل من المياه التي تصب في الشط ، فان مستوى المياه الجوفية سيهبط ، وسينزل الضغط ، وسيمكن الوصول الى نقطة جديدة من التوازن في احدى المراحل . واخذت خمس مضخات تعمل سنة كاملة ليلاً نهاراً من شباط عام ١٩٥٦ حتى كانون الثاني عام ١٩٥٧ ، رافعة ثمانمائة غالون من الماء في الثانية ، ومع ذلك لم تظهر اية اشارة الى احتمال قيام توازن بين الماء الخارج والماء الداخل . وادرك الخبراء تدريجياً ان الماء الذي ينزح ، كان اكثر من اللزوم . وظلت المضخات

تعمل سنة أخرى ولكن على نطاق اضيق . ومع ذلك ظل مستوى الماء الجوفي يهبط وان كان باستمرار . وتوقفت المضخات عن العمل في كانون الثاني عام ١٩٥٨ . وعدل عن مشروع ري السهل الساحلي بهدوء . واظهرت التجارب ان في الامكان تحويل نحو من ٤٥٠ غالوناً من الماء في الثانية من الحوض . وهذه الكمية كبيرة من الماء ولكنها ليست كبيرة الى الحد الذي يبرر القيام بمشروع يكلف ملايين عدة من الجنيهات .

وطرب بدو الهضبة وفلاحوها لهذه النكسة التي اصابت المشروع . ففي الوقت الذي كان الفخّ فيه مستمراً ، جفت آبارهم ، وكانوا يرون ان نجاح المشروع سيقضي على كل امل لهم في ارواء ماشيتهم وحقولهم . وقد ادى فشل التجربة الى بقاء العلماء والتقنيين مشغولين في محاولة ابتكار شيء جديد ، لا سيما وان تجربة عين السخنة قد كلفت ما يتراوح بين ثلاثة آلاف واربعة آلاف مليون فرنك .

ولا يعيش علماء طبقات الارض والقوى المائية في الصحراء على الخيال . فهم يعتبرون الخطط الرامية الى تحويل الصحراء ثانية الى جنة خضراء عن طريق المياه الجوفية ، مضيعةً للوقت . وهم يحاولون ان يحلوا مشاكل اكثر إلحاحاً وضرورة .

وقال لي احدهم : « اننا لا نروم ان نعيش على رساميلنا ، بل نؤثر العيش على ما نجنيه من فوائد من هذه الرساميل » .

ويعني قوله هذا عدم السماح بسحب مياه اخرى من مستودع النهر الجوفي (الالب) اكثر مما يصب فيه من مياه جبال الاطلس .

وهذا الخزان في الحقيقة ضخم للغاية . وقد قدر سافورنين انه يضم اربعمائة بليون قدم مكعب من الماء . ولو ظل نهر الراين يصب باستمرار في خزان مائة وتسعين سنة لملأ خزاناً كهذا الخزان . واذا كان الخبراء يعارضون في سحب المياه من هذا الخزان ، فان معارضتهم ليست ناشئة عن خشيتهم من نضوبه في حياتهم ، بل لانهم يعرفون أن اقل انخفاض في ضغط الماء في مثل هذا

الخزان الجوفي كاف لجفاف جميع الآبار . ولم يقرر الخبراء بعد كمية الفائدة السنوية التي يمكن ان تجنى من هذا الرأسمال . وما زالت أمامهم مهمة اعداد الموازنة العامة له . فلا يعرف بعد مثلاً اذا كانت مياه الأمطار تتسرب ايضاً عبر كثبان العرق الغربي الكبير ، الى المجرى الجوفي ، كما لا يعرف بعد اذا كان بحر سافورنين يفقد بعض مائه في الصحراء عن طريق التبخر . ومن المحتمل ان يكون متصلاً ، ولا سيما من ناحية الشرق في جنوب تونس وليبيا ، بمجار مائية اخرى تقع تحت ضغط اقل . لكن السؤال الذي ما زال قائماً وينتظر الرد ، هو ما اذا كانت مياه (الالب) تتسرب الى الشط الواقع في جنوب تونس وتتبخر هناك .

وقدر سافورنين المياه التي يتمون بها النهر الجوفي بثلاثمائة وخمسين ملياراً من الاقدام المكعبة ، بينما ينظر علماء طبقات الارض الآخرون من ذوي الشأن اليوم الى هذه الاحصاءات نظرة اكثر تحفظاً » ، وهم يعتقدون ان اكثر ما يمكن اخذه من الماء منه لا يعدو ستة آلاف غالون في الثانية ، وهي كمية ضئيلة اذا ما قيست بالمقاييس الاوروبية ، اذ أن نهر الراين مثلاً في ايميريخ ، ينساب بمعدل نصف مليون غالون في الثانية . ولكن هذه الكمية كبيرة بمقاييس الصحراء . وبعد ان تستوفي الاقنية الفخارية والآبار والثقوب الاخرى احتياجاتها يظل هناك ما يتراوح بين اربعة آلاف وخمسة آلاف غالون من الماء في الثانية وهي كمية تكفي لري ثلاثة ملايين او اربعة ملايين شجرة جديدة من التمر . مما يزيد في قوة الانتاج السنوية للتمور في الصحراء الجزائرية من مائة الف الى نحو من مائتي الف طن .

وعندما ذكرت اسم سافورنين في الخيمة المكيفة الهواء التي تستخدم كمطعم في احد معسكرات الزيت الصحراوية تفجرت النعوت تنهال عليه من امثال « دجال » و « نصاب » و « تافه » ، وكلها يغدقها هذا النفر القليل من رواد الحياة الصناعية الحديثة في الصحراء . وكان ما ينكرونه عليه ، انه وهو الثمرة الناضجة في « كلية العلوم » و « كلية التعدين » ، قد سمح لنفسه بأن يغرق في

ديون كثيرة ، وان يحمل الخزانة استثمارات سيئة بلغت الملايين . وتعرض مهندسو مجلس المياه الجزائري ايضاً كسافورنين الى موجة قوية من النقد العنيف : وقد وصفهم عالم جيولوجي في طبقات الارض بالبلداء ، بينما وصفهم زميل له فرنسي بأنهم « اغبياء » . وموقف رجال الزيت هذا معروف وواضح ، فهم دائماً العليمون ببواطن الأمور وبكل شيء . وقد قاموا منذ مجيئهم باصلاح الكثير من النظريات الخاطئة التي كانت سائدة منذ عهد بعيد ، لا تجد من يتحداها ، كما ملأوا الكثير من « الفراغات » في الخرائط الجيولوجية بالمعلومات والارقام الدقيقة والموثوقة . ولا يرجع السبب في هذا الى انهم يفضلون زملاءهم في معرفتهم بطبقات الارض ، بل الى انهم يملكون الوسائل والمعدات التقنية اللازمة التي لم يكن يملكها الآخرون .

وقال احد علماء الماء عن رجال الزيت : « انهم قصار النظر ، وميالون الى التبذير » ، فعبر بذلك عن نفس الشعور من الامتهان والازدراء الذي يصدر عن الأولين تجاهه وتجاه زملائه . وبالفعل فان رواد الصناعة في الصحراء ، لا يحسون بشيء من المسؤولية في استعمال الماء ، بحيث يقف شعر رؤوس الخبراء انزعاجاً منهم . فبين غرداية والغولية ، حفر صانعو الطرق وبناتها المجرى المائي الجوفي في خمس نقاط مختلفة ، وبينما كانوا يصلحون الطريق بين حاسي مسعود وفورت فلاترز ، حصلوا من احدى شركات الزيت على احد آبار البترول الاختبارية ، التي لم تؤد الى ظهور البترول ، ولكن في الوسع تحويلها الى بئر ارتوازي .

وهذه هي المشكلة الرئيسية التي يعانيها مجلس المياه في الجزائر ، اذ كثيراً ما يضطر الحفارون اثناء تنقيبهم عن الزيت الى خرق المجرى المائي الجوفي : وكل ثقب من هذه الثقوب التي لا تنتج الزيت ، يصبح مصدراً ممكناً للماء ، ويغدو الاغراء باستعمال هذه الآبار لتزويد المخيمات ومناطق الزيت في الصحراء بالماء شيئاً ضخماً . وقد وقع هذا بالفعل في حاسي مسعود . فمدينة الزيت تأخذ اكثر من الفي غالون من الماء في الدقيقة من المجرى المائي الجوفي .

ويقول خبراء الماء « ان رجال الزيت يضحكون منا على هذا الشحّ الذي نبديه في استهلاك الماء . فهم لا يميزون بين الزيت والماء . وتستغل حقول الزيت تمام الاستغلال ، وعندما تستخلص اخر قطرة من الزيت يغلق الحقل ويقفل البئر . أما نحن ، فمضطرون من الناحية الاخرى الى عدم التبذير ، والالتزام بأن نعيش من فائدة ما نملكه من الماء دون ان نمس موجوداتنا او رأسمالنا » .

لكن خبير المياه لا يكون منصفاً مع رجل الزيت ، عندما يحكم عليه بأنه يتلف رساميل المياه الثمينة . فورغلة مثلاً ، ما كان بإمكانها ان تحصل على البئر الذي تحقق لها من المجرى الجوفي ، لو لم يقم رجال الزيت في عام ١٩٥٣ بالحفر بحثاً عن الزيت على بعد ثلاثين ميلاً الى الجنوب منها ، مما مكّن خبراء الماء من معرفة مكانه بدقة وطبيعة الطبقات الارضية في المنطقة . ولو لم يتدخل رجال الزيت ايضاً ، لانتظرت منطقة الريغ مدة طويلة قبل ان تتمكن من الحصول على مياه « الالب » .

وقد خبرت منطقة الريغ سلسلة رائعة من عمليات الانقاذ . ففي عام ١٨٥٦ ، وقبل ان يبدأ الفرنسيون حفرهم ، كان هناك نحو من ثلاثمائة بئر تروي (٣٦٠) الف شجرة من اشجار النخيل . وبلغ عدد الآبار في عام ١٩٢٤ الفاً وثلاثة وثلاثين بئراً تروي (١,٦١٠,٠٠٠) شجرة . وتم في نفس السنة حفر بئر جديدة في « مراير » انتجت (٨٥٠٠) غالون من الماء في الدقيقة . ولم يحل عام ١٩٣٠ حتى كانت المنطقة كلها تنتج (٧٥) الف غالون في الدقيقة .

وكانت منطقة الريغ تعتبر منذ مطلع حقبة العشرين ، « ايلدورادو » الصحراء أي ارض الثروة ، فكل ما يحتاجه الانسان ليصبح ثرياً بين عشية وضحاها ، هو ان يحفر بئراً ، وان يزرع النخيل . ووصل الى المنطقة المغامرون والباحثون عن الثراء والرأسماليون ، ليستغلوا موارد المياه فيها . ولكن النتيجة كانت الافلاس للجميع . فقد كان الطلب على الماء اكثر من المعقول . ولم تعد الآبار الجديدة تؤدي الى اضافة مياه جديدة الى مجموع الكميات الناتجة ، وانما كانت تسلب الماء من الموارد الاخرى . وادى حفر بئر سيدي رشيد الى خراب واحة

غمرة ، ثم سرعان ما ضاعت المياه من سيدي رشيد لتأخذها « تاميرنه » ، التي بدورها ذهبت ضحية لمزارع جديدة على طول الوادي . وكما حدث في ورغله، أخذت بساتين النخيل في وادي ريغ تهاجر من مواقعها ، متجهة الى الشمال . وحاولت السلطات وقف هذه الحركة بمنع حفر آبار جديدة ، ولكن اجراءها جاء متأخراً . فالمضخات كانت قد وصلت ، وتوزيع المياه اصبح دقيقاً ، ولكن الطلب ظل متفوقاً على العرض .

ولم يبق امام منطقة الريغ الا أمل واحد وهو الحصول على الماء من المجرى الجوفي (الالب) . واعتقد سافورنين أن هناك طبقة من الصخور الرملية تحت وادي الريغ وان الوصول الى المجرى مستحيل فيها ، ولكن غيره من علماء طبقات الارض كانوا اكثر تفاؤلاً . ولم يستطع مجلس مياه الجزائر بموارده المالية المحدودة ان يجازف بعملية حفر عميقة . وبدلاً من الحفر ، حصل المجلس في تملحات الى الجنوب من توغورت ، على بئر للزيت ، ثبت عدم نجاحه ، وأخذ يحيله الى بئر ارتوازي . وفي تملحات يقع المجرى المائي على عمق ستة آلاف قدم ، ويتفجر الماء بقوة هائلة تدفع بعمود من الماء الى ارتفاع الف قدم . وتمكن مجلس مياه الجزائر ، عن طريق المعلومات التي جمعها من بئر اخرى للزيت ، ان يحفر بئراً له في سيدي خالد في الطرف الشمالي من منطقة الريغ ، وان يقوم بعمليات حفر اخرى في محور شمالي — جنوبي ، يمتد في سيدي خالد الى تملحات . وليست قصة انقاذ واحات الريغ هي الاخيرة في فصل النجاح في بحر سافورنين .

ومن المألوف الشائع ان الزيت والسياسة أمران متشابكان ومترابطان . أما في الصحراء ، فان الماء لا يفترق ايضاً عن السياسة . وعدت أراجع التقارير السابقة منذ عام ١٨٥٠ ، التي كان فيها خبراء الماء يصفون فيها اعمالهم في منطقة الريغ ، ورأيت انهم كانوا يوزعون الآبار وكأنها جوائز ثمينة . فقد منح الفرنسيون البئر الثاني الذي حفروه في الصحراء مثلاً ، الى سيدي محمد العابدين الحاج علي رئيس احدى الطرق الدينية . وكان هذا العالم الديني القوي يعيش في واحة

تيماسين ، في صومعة تدعى تملحات . واذا كان المهندسون قد اختاروا الحفر في مكان قريب ، فان اختيارهم لم يكن ناشئاً عن اعتبارات تمت الى طبقات الارض . ويقول احد هذه التقارير التي قرأتها : « لقد اوضح لنا سيدي محمد ايضاحاً جلياً ، بأن عواطفه معنا . ونفوذ هذا الرجل الصالح يمتد الى الطوارق ، والى ما وراء الطوارق حتى السودان . ومن الضروري لنجاح خططنا في المستقبل ان يزداد هذا الشيخ اقتراباً منا وتأييداً للقضية الفرنسية . ومن الصعب ان نقدر تمام التقدير ، مدى قوة هذا الرجل ، ولكن في وسعنا القول انها تعادل السلطات التي كانت للاساقفة في عهد الامبراطورية الرومانية المقدسة » .

ودفعت سياسة فرنسا المائية حصص ارباحها . فإن « بحر ما تحت الارض » لم يفشل قط في ان يحدث ما يطلب اليه من تأثير ، عندما كان المهندسون الفرنسيون يناشدونه ان يدفع ببعض مائه الى سطح الارض . وكان أهل المناطق ، يطلقون على هذه الآبار اسماء « كبئر السلام وبئر الاصدقاء ، وبئر الحمد ، وبئر السعادة ، وبئر الرجال العقلاء » وما شابهها من اسماء . واذا ما تذكرنا القول العربي المأثور : « قبّل اليد التي لا تستطيع قطعها » ، تغدو هذه الشعارات ولا معنى لها يحمل طابع الجد ، ولكن كان في وسع الضباط الفرنسيين ان يقولوا انهم بعد حفر الآبار الاولى اصبح في وسعهم ، ان يجوبوا بحرية في مناطق واسعة من الصحراء ، كانت معروفة بكثرة اضطرابها وتعكر صفو الامن فيها . ولعل من الحقائق التاريخية ايضاً ، ان الجنرال لابيرين ، تمكن في مطلع القرن الحالي ، من تجنيد ثلاثة الوية من الهجانة ، من رجال قبيلة الشعانبة ، للعمل على استتباب الأمن في الصحراء . وكان بدو الشعانبة يجعلون من ورغله وواحات الريغ قواعد لهم ، مستمدين السلطة الادبية من الفرنسيين ، ومنتفعين من المياه والمنافع الاقتصادية التي يغدقها عليهم الفرنسيون .

وما زالت المياه والسياسات تترابط حتى الآن . فقد تركت الحرب الجزائرية آثاراً مباشرة في مشاريع المياه الصحراوية التي توقفت منذ نشوب الحرب ولاسيما على حدود تونس وليبيا والمغرب .

وادت الحرب الجزائرية ايضاً الى آثار نفسية في الصحراء . وعلى الرغم من أن الفرنسيين لا يعترفون بذلك جهاراً ، إلا انهم احياناً يعترفون لانفسهم بأنهم قد يخسرون الصحراء . ولم يعد في مكنة الفرنسيين استخدام الماء في رشوة الأهلين كما كانوا يفعلون في الماضي .

وهناك ايضاً مبررات اقتصادية تدعو الى الحيطة والحذر في استخراج المياه واستعمالها . وقد سبق لي أن بينت ان هناك في المجرى الجوفي كميات كافية من المياه ، يمكن استخراجها لمضاعفة الانتاج الحالي ، ومضاعفة عددأشجار النخيل المزروعة . ولكن هذه الحقيقة لا تصدق الا على الورق ليس إلا . فالماء في الحقيقة ليس مجرد مشكلة جيولوجية وعلمية ، وانما هو قضية تتعلق بالمال ، وهو أمر يهمل عادة ، ولا يقلق الباحث عن الزيت . فهو يحتاج الى الكثير من الماء ، ولكن اذا لم يجده في متناول يديه ، فإنه يبحث عنه في السيارات التي تحمله أو في مستودعات الطرق بعد أن يضخ من أعماق هائلة ، أو تحمله الأنابيب مسافات طويلة . ويصدق هذا القول ايضاً على أي مشروع صناعي آخر في الصحراء . وهذا شيء مستحدث كلياً في الصحراء ، ولم يسبق لها أن سمعت به . فحتى عهد قريب كان الناس لا يقيمون أو يعملون الا في المناطق التي يتوافر فيها الماء . وهذا يصدق على زارع النخيل . فالماء بالنسبة الى الاهداف الزراعية شرط اقتصادي . اذا لم يكن الحفر العميق ضرورياً واذا كان الماء يرتفع تحت ضغطه الخاص به . ويجعل الضخ تكاليف الماء شيئاً غير مقبول . ففي قرارة حيث الماء ارتوازي ، تكون تكاليف الري أقل من ثلث تكاليفه في غرداية حيث الضخ يجري باستمرار . وبساتين النخيل في وادي الميزاب ، التي تستخدم الماء من تسعة آبار ارتوازية، تلجأ « الى الفن بقصد الفن » . وعندما ابديت هذه الملاحظة الى ميشيل بولاي ، قال : « ان المزابيين الذين يأخذون الماء بمعدل عشرة فرنكات للمتر المكعب الواحد ، يحتفظون بأشجار النخيل لما تضفيه عليهم من ظلال ، ومن طقس بارد في الصيف ، لا بقصد التمور التي يأكلونها منها » .

أما في الواحات الاخرى ، حيث يعيش الأهلون على نتاج بساتين النخيل ، فان الأعماق ، التي تعمل عندها المضخات والتي تتوقف عندها عن أن تكون مسألة اقتصادية ، هي التي تقرر سعر القوة الانتاجية وسعر تسويق التمور نفسها . وقبل عشرين عاماً في توغورت ، كان هذا العمق ستة عشر قدماً ، أما الآن فقد غدا اقل من ذلك ، ذلك لأن القوة والتمور غدتا اغلى سعراً. وهذا يعني انه عندما نضطر الى ضخ الماء ، فان زراعة التمور لا تظل شيئاً مربحاً . فالحفر الى اعماق كبيرة شيء مدمر . وقد بلغ العمق في اعمق بئر حفر في الصحراء الجزائرية في سيدي خالد الى الجنوب الغربي من بسكرة ، ٨٥٠٠ قدم ، ولعل هذه البئر في الحقيقة ، هي الاعمق من نوعها في العالم . وتستطيع هذه البئر من عمق يتراوح بين ٦٣٠٠ و ٦٩٠٠ قدم أن تنتج ١٥٠٠ غالون في الدقيقة . وتكلف هذا البئر ، اكثر مما يمكن كسبه من التمور ومن الخضار التي ترويها . وفي نفس الوقت فان الأجور العالية التي يحصل عليها الأهلون من معسكرات الزيت وحقوله ، ومن شق الطرق ، قد خلق ازمة مستعصية في زراعة التمور . وغدا وضع العمل في الصحراء حاداً يتطلب العلاج ، اذ ان الشركات العاملة في الصحراء ، تتنافس على الحصول على الايدي العاملة . فلماذا يظل الفلاح الأجير يعمل في بساتين النخيل مقابل بضعة فرنكات في اليوم ، بينما يستطيع ان يكسب سبعة اضعاف هذا المبلغ على الأقل ، مع المأوى والمطعم مع الباحثين عن الزيت ؟ وقد غدا الكثير من بساتين النخيل متجاوزاً سن الانتاج ، وبدأ أهلها في اهمالها لتصبح فريسة هينة للأملاح والرمال .

وقال لي الرئيس (الكبتن) باربا المسؤول عن الحديقة الملحقة بالغولية والملأى بأريج الزهور واطيب الثمار ، والحزن يبين في كلماته... « سيأتي اليوم الذي يجد فيه الشبان ان من الصعب عليهم تسلق اشجار النخيل وقطف التمور . والاسوأ من هذا ، ان الانسان لا يستطيع ان يستنكر عليهم ذلك ، فثمة فائدة اكبر تجنى من تسلق رافعات آلات الزيت » .

٨

تامنراسيت

اذا وقفت أمام السهم الأبيض المشير الى اليسار ، وجدت عليه ما يلي : عراق ٤٣٠ ك.م ، عين صلاح ٧١٠ ك.م ، الغولية ١١١٠ ك.م ، ورغلة ١٤٤٠ ك.م ، غرداية ١٤٣٠ ، الجزائر ٢٠٦٠ ك.م ، سيليت ١٥٠ ك.م ، تيساليت ٦٦٠ ك.م . تين زواتين ٥٣٠ ك.م ، غاو ١١٨٠ ك.م . وإذا تطلعت الى السهم المتجه الى اليمين قرأت عليه ما يلي : عين خزام ٤١٠ ك.م ، عين عبانفاريت ٦٩٠ ك.م ، اغاديس ٩٨٠ ك.م ، زيندر ١٥٤٠ ك.م ، كانو ١٨٠٠ ك.م ، بحيرة تشاد ٢١٢٠ ك.م ، دوسو ٢٣٠٠ ك.م ، نيامي ٢٥٠٠ ك.م ، فورت لامي ٢٦٨٠ ك.م .

وتقوم هذه اللوحة مع سهميها ، على حائط مبني من الطين وقد رسمت عليه خطوط افقية بالفرشاة على الطريقة السودانية المألوفة . وعلى الطرف الثاني من الطريق تقوم شجرة خضراء شاحبة من الطرفاء ، تلقي بظل ضعيف في الساعات المتأخرة من بعد الظهيرة . ويمر هجان الف الهرولة على الهجين ، راكباً

حماراً يكاد ينام على ظهره ، فترى تلك البشرة السمراء التي عرف بها أهل قبيلة الحراثنه ، ولكنك قد تخطىء التقدير فيه ، فلعله عبد عتقه سيده موْخراً ، أو سلالة طارقية احبت عربياً فانجبت منه هذا الغلام . وغطاء رأسه قد يكون ابيض او اسود ، اما عباءته الفضفاضة فبيضاء او صفراء او خضراء او حمراء . وقد تكون احياناً زرقاء ، فيضيع الغريب عن الصحراء ، بين هذا العبد ، وسيده الطارقي السابق الى ان يظهر الاخير فتزول الحيرة .

ويخطو الطارقي طويلاً ، منتصب القامة ، يضرب رمال الارض بنعليه . ولقد اوقف سيارته ، وهي البعير المهري حتماً ، خارج القرية ، ثم اخفى سراويله الواسعة تحت ملابسه الفضفاضة التي تضفي عليه هيئة كلها وقار وجلال وهو يرتدي فوق عباءته القطنية البيضاء (الغندورة) ، عباءة أخرى ذات لون ازرق ، يلقي بها على كتفيه ، لتكشف عن الثوب الابيض الآسر للنظر . أما الذراعان فعاريتان ، والحلية الوحيدة ، خاتم من احجار الزمرد ، يصلح عند اللزوم كسلاح في اليد . وطول كل من العباءتين تسع ياردات من القماش ، ويسميها الطوارقي « ايريسوي » أما « طاق المشط » أو اللثام ، فيغطي الرقبة ، والذقن والفم والانف والجبهة ، ويعقد وراء الرأس بصورة فنيّة على شكل خوذة . وتبدو العينان وقد اكتحلتا قويتين نافذتين وكأنهما تتطلعان من وراء قناع حديدي . وتقول الاساطير ان القصد من اللثام الحيلولة بين الروح وبين الهروب من الانف او الفم ، وبين الارواح الشريرة وبين الدخول الى الجسم عن طريق المنافذ المكشوفة . ولعل من حسن الحظ ، ان « طاق المشط » تحمي الانف والفم من الغبار ، والجلد من انعكاسات الشمس او شعاعها ، والشفتين من التشقق . ويرتدي الطارقي لثامه حتّى في خيمته او فراشه ، كما يحافظ عليه عندما يأكل او يشرب ، واذا أحس باضطراره الى رفعه ، فانه يشعر بارتباك زائد وهو يقوم بذلك .

وهناك أنواع عدة من « الالثمة » . فالطارق الذي يعتز بمظهره يستخدم قطعة من القماش الازرق عرضها تسع بوصات وطولها ثلاث ياردات ونصف ،

تبرق تماماً كما تلمع الناحية الثانية من ورقة « الكاربون » . وعندما تغسل هذه القطعة تفقد بريقها فوراً ، ولهذا فان الطوارقي ، فارس الصحراء الذي احاق به الفقر ، اخذ يبحث عن قماش ارخص ليرتديه ، وان كان يتميز بالألوان البراقة ايضاً . وتتأرجح على صدره محفظة سوداء ، مزدانة بخيطان ملونة ، تضم أوراقه وهويته ، وبعض النقود والطباق الذي يمضغه ، والكحل ، واشكالاً اخرى لا توجد عادة الا في جيب صبي في الحادية عشرة من عمره . وفي داخل هذه المحفظة جيوب صغيرة من الجلد يحمل فيها أوراقاً صغيرة مطوية ، وقد كتبت عليها آيات من القرآن الكريم تقيه من الأمراض والكوارث والأرواح الشريرة وهكذا يغدو الطارقي الكامل بمحفظته الجلدية وزخارفه ، مثل عمود الطوطم المتحرك ، الذي كانت القبيلة تتخذه شعاراً لها .

وكان المحارب الطوارقي الجدير بهذا الاسم يحمل في الماضي درعاً مستطيلاً ابيض مصنوعاً من جلد الظبي الاسود ، وخنجراً مثبتاً برباط جلدي الى ذراعه اليسرى ، ورمحاً انيقاً وسيفاً طويلاً يدعى « تقوبه » . ولم يبق اليوم من هذه الاسلحة كلها الا السيف ، وفي وسع الانسان ان يرى هذه السيوف كل يوم أحد بعد الظهر في مطار تامنراسيت وقد لفت في أوراقها ، وربطت بعناية في خيوطها يحرسها اصحابها الجدد . وفي الجزائر ، حيث قبل نصف قرن من الزمن ، كان مجرد ذكر اسم الرجال الملثمين الزرق من طوارق الهجر كافياً لبعث الرعب ، لا يبدي الناس اليوم اية دهشة عندما يرون علماء طبقات الارض ، وصغار الضباط ، والباحثين عن الزيت والسائحين ، وهم يصعدون الى طائرات شركة الطيران الفرنسية يحملون سيوف الطوارق .

وتقع تامنراسيت في قلب الصحراء ، وهي مركز بلاد الهجر . ولا يزيد عدد سكان البلاد على العشرة آلاف نسمة بينما تبلغ مساحتها مائة الف ميل مربع أي اكثر من مساحة انكلترا .

وتصل بعد ظهر كل يوم أحد طائرة (دي. سي. ٤) الى مطار تامنراسيت ، ويكون في استقبالها الرئيس بريت ، المسؤول الاداري عن منطقة الهجر ،

ليرحب بزبائنه الذين لا يعدون أن يكونوا اعضاء في لجنة الطاقة الذرية أو منقبين عن المعادن من رجال « مكتب البحث عن المعادن الجزائرية » أو سواحاً من « نادي فرنسا السياحي » . الذين جاءوا لقضاء اسبوع في الهجر . ويستطيع الانسان ان يرى على وجه الضابط الفرنسي القصير البدين وهو يتفحص وجوه الوافدين مختلف التعبيرات العاطفية . والمكان الوحيد الذي رأت السلطات الفرنسية ضرورة للتأشير على جوازات السفر في الصحراء الفرنسية هوتامنراسيت مع انه اقل الاماكن ضرورة لذلك .

ولا يشعر الوافد حديثاً الى « تام » بأنه زائر مرغوب فيه . فالمكان الذي سيحل فيه بعيد عن الفخامة . ولا ريب في ان « فندق امينوكال » الذي يشبه في صرامته الدير ، قد غدا امتيازاً مشاعاً للنمل الابيض الذي يبتلع كل شيء غير مصنوع من الحديد . وعلى ذلك فقد وجدت من الصعب علي ان افهم هذا السيل الجارف من التذمر والشكاوى يتدفق من فم صاحبة الفندق ، فيقض على ضيوفها مضاجعهم اثناء قيلولتهم . وارى لزاماً علي ان اذكر حادثة وقعت ، ففي أمسية يوم من أيام الآحاد وكان الفندق يعج بضوضاء الوافدين الجدد ، وهمهمة النزلاء السابقين ، ظهرت احدى البغايا ، بجد ووقار ، وكأنها رسولة رسمية موفدة من نقابتها ، واخذت تنتقل من مائدة الى مائدة تحيي الرجال الذين يتناولون عشاءهم ، ولم تستثن من مصافحتها النسوة ايضاً .

وليس ثمة الكثير مما يثير شكاوى السائحين في الهجر . فهنالك طريق معبدة رائعة ، تمر عبر مضائق الجبال ، وبين الجلاميد السامقة والجبال الشاهقة التي وضعت على كل منها لوحتها التي تدل عليها ، مما يوفر على السائح حمل خريطته حتى تصل الطريق الى سفح « عساكريم » . ومن هنا يسير السائح في طريق لا تصلح إلا لسير الماعز ، فيصل الى شرفة جبال الهجر ، وهي الصومعة التي عاش فيها الاب دي فوكو . وهي في الوقت نفسه الرسم الارضي الذي يلذ للسائحين رؤياه ، لاسيما وقد عرف عنهم الرغبة في التمتع بكل قمة ومرتفع .

وترتفع في الهجر القاعدة البلورية التي تكون في اماكن اخرى من الصحراء

على عمق الوف او حتى عشرات الوف الأقدام ، تحت طبقات من الصخر ، الى سطح الارض . وإذا أردنا التعبير بكلمات بسيطة قلنا ان مسيّف الهجر ، مخزن ارضي ضحل ومدور من الغرانيت والصوان . ومع انها تختلف في بعض اجزائها في تشكيلاتها الا أنها لا يمكن ان تقارن بجبال الالب . وفي قمة المخزن او القبو وحده التي يدعوها الطوارق « اتاكور » ويدعوها العرب « كوديا » ، تبدو الهجر على شكل السلسلة الجبلية . وكان هذا المكان في الاصل ، كما كان أي مكان آخر في الهجر هضبة مرتفعة تعلو ٦٥٠٠ قدم عن سطح البحر ، وسرعان ما أحالها العمل البركاني الى غابة من الصخور . وتغطي كميات هائلة من الحمم البركانية (اللافا)، صخور الغرانيت الى ارتفاع سبع طبقات او عشر تبلغ في سمكها ستمائة او سبعمائة قدم . ومن الحمم البركانية ، ترتفع الى عشرة آلاف قدم أبر ومنائر من الصخور والجدران الصخرية التي ابلتها وعرتها عوامل الطقس فاحالتها الى اشكال لا يمكن للعقل ان يتصورها . وفي منطقة « عساكريم » وحدها التي تمتد خمسة وعشرين ميلاً طولاً ، وعشرين ميلاً عرضاً ، هناك ثلاثمائة مجموعة على الاقل من هذه المجاميع الغريبة معظمها من صخر الفونوليت وهو صخر بركاني تجزأ الى مناشير طويلة .

وكان الكثيرون من علماء طبقات الارض يعتقدون ان هذه « الابر » الصخرية الغريبة هي كل ما بقي من المخروطات البركانية بعد مئات الالوف من سنوات التعرية . وكانت مستودعات الحمم البركانية تعتبر ثمرة التفجرات البركانية . ولكن على ضوء التحريات العميقة عدل عن هذه النظرية . فالابر الفونوليتية احدث عهداً من الحمم البركانية ، وهذه الحمم ليست من الفونوليت بل من البازولت . وهكذا يجب التخلي عن اية فكرة بوجود علاقة بين الطرفين . ويعتقد علماء البراكين اليوم ان الابر اخترقت مستودعات البازولت ، بعد أن تصلبت ، تماماً كما تندفع منظفة الاسنان من انبوبة ، او نبتة « فطر » من طريق صلبة . ولكن ما لا يزال مجهولاً حتى الآن هو اهل هذه الجداول البازولتية التي كونت هذه الرواسب الهائلة . فهل جاءت من براكين كبركان

فيزوف ، اختفت دون ان تترك اثراً . وما زال عالم طبقات الارض حائراً ، ذلك لأن سيول البازولت وصلت في اماكن عدة الى اعلى الاماكن في المنطقة كلها . ويعتقد البعض ان تشكيل الاقبية البلورية ، نجم اصلاً عن عمل بركاني عميق لم يجد متنفساً له الى سطح الارض .

وهناك نظرية اخرى يجب تعديلها . فمسيّف الهجر ، يبدو في اماكن عدة كامتداد فسيح من اكوام الحجارة . وقد حفرت وديان عميقة واخاديد في قلب الحمم البركانية والغرانيت ، ويذعن صخر « الجنيس » في بعض المناطق للمعول كأي صخر عادي ، كما تندفع وجوه الصخور في مراحل عدة من التآكل ، وكأنها أكوام كبيرة من الحجارة . وكل هذا يرمز الى عمليات كبيرة من التآكل . فهناك التناثر ، والتفسخ العام ، اللذان يحدثهما التبدل السريع في الطقس وفي درجة الحرارة بين الليل والنهار على الصخور التي لا تحميها النباتات ، وهناك الاخاديد العميقة التي تحدثها كتل الغرانيت الهائلة ، عندما تتساقط الامطار الباردة على الصخور الحارة فتفتتها ، وهناك العواصف الرملية التي تسفح الجدران الصخرية وتشق طريقها الى كل ثقب وزاوية ، كما ان هناك ايضاً عوامل التآكل الكيمائية التي يكثر اساتذة الجغرافيا من التحدث عنها الى طلابهم عندما يشرحون لهم العوامل التي تعمل في الصحراء . ومع ذلك فقد اثبت علماء طبقات الارض في السنوات الاخيرة ان هذه الصورة التي ترسمها الكتب المدرسية للصحراء ، ليست الا سراباً . وقد توقفت عوامل التآكل في جبال الهجر قبل ألوف السنين . وينفي عالم طبقات الارض المعروف مارك كوتي ايضاً أن تكون هناك عناصر مكوّنة في الصحراء مطلقاً . وكل ما للصحراء من دور هو أن تحفظ شكل الارض كما ورثته منذ اجيال طويلة . ويعتقد علماء طبقات الارض ايضاً ان منطقة جبال الهجر حديثة العهد للغاية . ولكن ما دامت الصحراء محتفظة بمناخها الراهن ، فإنها لن تتقدم في السن . وهكذا فان الهجر تملك سر الشباب الدائم .

وإذا ما تطلع الانسان من قمة عساكريم التي ترتفع تسعة ، آلاف قدم ، يبدو

له منظر « الكدية » الفوضوي وقد جاء مصداقاً لنظرية علماء طبقات الارض . ويبدو هذا العالم من الجبال ، وقد تناثر في فصل من اكثر الفصول إثارة في تاريخه .

وتعني « عساكريم » بلغة الطوارق « النهاية » ، فهي نهاية العالم . وقد كتب الاب فوكو : « انني وحيد هنا تماماً على قمة جبل يعلو كل الجبال .. والمنظر رائع ، اذ يطل على مسيّف الهجر كله ، الذي يمتد في الشمال حتّى الجنوب مختفياً وراء آفاق الصحراء البعيدة . ويرى الانسان في المقدمة اغرب منظر من قمم الجبال ، والذرى ، والصخور المستقيمة الارتفاع بشكل لا يكاد يتصوره عقل » .

ولد الفيكونت شارل دي فوكو دى بونت بريان في ستراسبورغ في عام ١٨٥٨ ، وابدى منذ حداثة عهده رغبة في التعطل وحياة البطالة . وكان في حدود الاغراق الجسماني ، يطبق شعار العائلة القائل بعدم العودة الى الوراء ابداً ، وهو شعار طبقه في اخريات ايامه بالنسبة الى حياته الروحية . وبلغت حياة التهتك والمرح والتبذير عنده حداً حمل عائلته على التفكير باسناد اموره الى حراسة احد الاوصياء ، ولكنه حتى في شبابه ، لم يكن في وسع احد ان يصفه بأنه متهتك وخليع ككازانوفا . وعندما كانت العائلة تدرس خير الطرق لاقناعه بالكف عن حياة اللهو والمجون ، بدأ في عام ١٨٨٣ ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، بزيارة لمراكش ، وهي مغامرة خطرة اتمها بنجاح عظيم . وفي هذه الرحلة الاستكشافية التي تنكر فيها بملابس حاخام يهودي ، ولد الناسك القديس شارل دي فوكو لأول مرة . وانضم الى الاخوة الدينية المعروفة « باللاترابية » ، ثم سرعان ما تخلى ليعمل كخادم في احد اديرة الناصرة في فلسطين ، وهناك اقسم اليمين ، وعاد ليبني لنفسه صومعة في بني العباس في الجزائر ، آملاً في ان يتمكن منها من الدخول الى مراكش . ولكن مشروعه فشل وعندما تمكن الفرنسيون من اخضاع طوارق الهجر ، سارع الاب فوكو ، لوضع خدماته تحت تصرف الطوارق .

وعاش فوكو منذ عام ١٩٠٥ في تامنراسيت . وفي تموز ١٩١١ ، انتقل الى صومعته على جبال عساكريم ، حيث يتعبد الى الله في وحدته ويعمل في اعداد معجمه عن لغة الطوارق . وقضى في هذه الهضبة المرتفعة التي تنتشر فيها الحجارة الخضراء ، حياة من السرية والعزلة الخالصة . وكان مأواه بدائياً يتعرض للرياح القاسية والليالي الباردة المتجمدة ، ولم يكن يستطيع العثور على احتياجاته من الماء والحطب والغذاء إلا بشق الانفس . وكان يقضي الشهور الطويلة ، لا يجد طعاماً طازجاً يأكله ، وانما يعيش على القهوة والسكر والدقيق والتمر . وعلى الرغم من انه وصل مرحلة الاجهاد منذ عام ١٩٠٨ عندما كاد يموت جوعاً ليساعد اصدقاءه الطوارق ، الا انه آثر البقاء في ذلك المكان الذي يجد فيه الامن والهدوء والعزلة ، وهي عناصر مهمة كل الاهمية لعمله . ولكن سكرتير « امين عقل » الطوارق ، او زعيمها المنتخب ، الذي قضى مع الراهب وقتاً في صومعته يعينه في عمله ، وجد ان اوضاعه الحياتية لا تطاق ، فحثه على الانتقال من مكانه . وفي منتصف كانون الأول عام ١٩١١ ، عاد الى مناخ تامنراسيت ، الاكثر اعتدالاً .

وفي مستهل القرن كانت تامنراسيت تتألف من نحو اثني عشر كوخاً مسقوفة بالاغصان ، ومن بعض الاجمات المتفرقة على مسافة ميلين يمتدان على طول حوض وادي تامنراسيت الجاف . أما الآن ففي وسع السيدة ان تجد أحسن وآخر « موضات » الشعر في صالون « ميمي » ، كما ان الرئيس بريت ، قد فرض على السيارات سرعة لا تعدو العشرين كيلومتراً في الساعة . وهناك الوف اشجار الايثل والطرفاء ، التي تعشش فيها طيور البنغال المغردة التي تهاجر بريشها الاحمر قادمة من السودان ، لتنعم بهذا الطقس الذي يوجد في هذا المكان المرتفع ، فتتوالد وتتكاثر بسرعة مخيفة .

وتعتز تامنراسيت بشارعها الواسع « البوليفار » ، وبمحطتها الكهربائية الصغيرة ، التي تتوقف عن العمل في العاشرة والنصف من كل مساء فيضبط الناس ساعاتهم عليها ، وبدائرة بريدها الفخمة التي تحيط بها الاعمدة مرتفعة

فوق الدرج الذي يقف عليه الأهلون والاوربيون صباح كل يوم اثنين يلتهمون بعيونهم الرسائل التي حملتها اليهم طائرة اليوم السابق ، وبمرصد « جول — كارد » ، الذي يستطيع تسجيل أية تفجيرات للقنابل الهيدروجينية ، اكثر من أي مرصد آخر بالنظر الى عدم وجود اهتزازات ارضية تحت تامنراسيت نفسها ، وبالحديقة الملحقة ، المشهورة بما فيها من أثمار ونباتات منتقاة ، وبيناء الادارة فيها ومدرستها ومستشفاها ، وبداراتها الحمراء على الطراز الهجري الذي يجمع بين فن الاكروبول وطريقة السودان وهو الطراز الذي اختاره اول الموظفين الاداريين من « تام » ، وبالحي الجديد الانيق من البيوت المبنية من الحجر الابيض ، وقد علتها ازهار الاقحوان المشعة .

ومع ذلك فقد ظل برج الاب دي فوكو المربع ، والمبني من الطوب الاحمر ، والذي يحيط به خندق ، وممشى على الجدار الذي تخترقه ثقوب عدة لفوهات البنادق ، هو القلب الروحي للبلدة . ويقوم هذا البرج فوق السور على المدخل الرئيسي للبلدة ، الذي هو اقرب الى أبواب الشباك ، منه الى أبواب المدن ، ويبرز عليه صليب بسيط من الخشب ، والى جانبه هيكل خشبي ثبت على فجوة قذيفة .

وعندما أقام الاب دي فوكو صومعته في عام ١٩٠٥ على الضفة اليسرى من وادي تامنراسيت ، كان دافعه الأوحد ، ان يكسب ثقة الطوارق . ولم يكن ليرضى بأن يعرف لغتهم معرفة عارضة عملية ، بل أراد ان يحس بها وان يتعود على تقدير ما فيها من اناقة ودقة . وقد قال هو عن نفسه ما ورد على لسان احد الرسل في الاناجيل : « لقد اصبحت مثل اليهودي لليهود لاكسب اليهود الى جانبي... وغدوت قاطع طريق على قطاع الطرق لاكسب قاطعي الطرق .. واضحيت كل شيء لكل انسان ، لانقذ البعض على الاقل » . ولم يمض طويل وقت حتى اطمأن اليه الرجال الزرق الملثمون . وغدا فوكو مستشارهم ، فهو الذي يحل لهم مشاكلهم عندما تنشب الخلافات بينهم ، وهو الذي يحكم بينهم ، ويحكم بين الطوارق وبين الادارة التي كانت قاسية احياناً

في تصرفاتها واساليبها . ولم يكن فوكو صديقاً فحسب للجنرال لابيرين وغيره من الضباط الفرنسيين ، بل كان الصديق المخلص ايضاً لموسى آغ اماستاني : رئيس الطوارق الاعلى ، وصديق ابنة عمه داسين ، وهي شاعرة جميلة مشهورة وقد فتحت هذه المرأة الذكية المثقفة للاب فوكو ، كنوزاً ثمينة من الاساطير والخرافات والاشعار والقصص . ولكن الناسك كان ايضاً على استعداد دائماً لتلبية طلبات الناس العاديين من الحراثين الكادحين . ولقد قالت سيدة انقذ فوكو اطفالها الخمسة من الموت جوعاً في مجاعة عام ١٩٠٧ – ١٩٠٨ : للجنرال لابيرين ، أن من المحزن أن يذهب مثل هذا الرجل الفاضل الى جهنم عندما يموت ، لأنه لم يعتنق الاسلام . وقد اعترفت بأنها والكثيرات من صديقاتها كن يبتهلن الى الله في كل يوم ، ان يهدي عيون هذا الناسك الى الاسلام.

وكانت طرابلس في عام ١٩١٦ في حالة غليان . فقد تحالف السنوسي مع دول الحلف المركزي وهاجم الاراضي التي يحتلها الفرنسيون في شمال افريقيا ، فاستولى على الجنة ، واقنع فريقاً من الطوارق بالثورة . أما موسى ، زعيم طوارق الهجر ، فقد اعلن ولاءه المستمر للفرنسيين . وأقام الاب دي فوكو برجاً على الضفة اليمنى من الواد ، لا ليقي نفسه فيه ، بل ليقي (الحرّاثين) العزل ، لا ضد اتباع موسى بل ضد غزو محتمل قد يقوم به الثائرون على امتداد المنطقة كلها الى تامنراسيت . وكان في اليوم الأول من كانون الأول في عام ١٩١٦ وحيداً في البرج . وسمع فجأة صوت احد الحراثين وكان يعرفه من صوته وكثيراً ما ساعده وعني به في مرضه يدعوه قائلاً : لقد جاء بريدك .. ففتح باب البرج ، وسرعان ما احاط به الثائرون من الطوارق من منطقة الجنة ، واوثقوا قيده ، وقام ثلاثون طارقياً بنهب البرج ، كما ذبحوا هجّانين جاءا لا يعرفان شيئاً عما وقع ، لحمل بريده الصادر . وعهد الى صبي في الخامسة عشرة من عمره بحماية السجين ، الذي غلبه الفزع فاطلق النار على رأس الرجل المقيدّ ، ودخلت الرصاصة في جدار القلعة فاستقرت فيه .

وعندما سمع محمد ، المسلم المؤمن بالنبأ بعد اسابيع كتب الى شقيقة الاب

يقول : ارجو ان تنقلي تحياتي الى بناتك ، والى زوجك والى اصدقائك ، وان تقولي لهم جميعاً ان شارل الناسك . لم يمت في سبيلكم وحدكم ، وانما مات في سبيلنا جميعاً . واني لارجو الله له الرحمة ، وابتهل اليه ان يجمعنا في جنان النعيم » .

وتقوم الآن طائرة الهليوكبتر « الفارفة » ، بانزال علماء طبقات الأرض على قمة الصخور ، حيث يوالون دراساتهم العلمية . وتقوم السيارات الفخمة التابعة للجنة الطاقة الذرية اثناء سيرها في شوارع البلدة ، بنشر الرمال عالياً في كل مكان . ومع ذلك ، فما زال ذلك الغموض يلف جبال الهجر التي استطاع الاب شارل وحده ان ينطقها .

وهناك ديران في تامنراسيت ، يحتل احدهما الاخوان اليسوعيون وتحتل الثاني اخوات يسوع ، وهما يحملان نفس المثل التي رفع شارل دي فوكو لواءها . وتعيش الراهبات حياة متقشفة يشاطرن فيها البدو في « الكُدية » طراز معيشتهم . وتقوم الراهبات بملابسهن الزرقاء ، بعمل كل ما يمكنهن عمله ، لمساعدة الطوارق الذين غدوا الآن اشبه ما يكونون بالمتسولين ويعيش الرهبان اليسوعيون نفس حياة الفقر والتعاسة . ولعل الاخ كارلو المحامي السابق في ميلان والاخ جان – ماري الضابط البحري الفرنسي السابق ، هما مثلان بارزان لهؤلاء الرجال الذين يعيشون على اللبن والتمر والذرة . ووجوه الرهبان ملثمة ايضاً وجلودهم مصبوغة بسمرة الشمس الحارقة ، ولكن حتى هؤلاء الرهبان والراهبات تأثروا ايضاً بتصنيع الصحراء .

فقد اقيمت محطة للارصاد الجوية منذ آذار عام ١٩٥٥ فوق جبل عساكريم قرب صومعة الراهب ، وفي عام ١٩٥٩ ، اقيمت على الجبل ايضاً محطة للرادار . ويقوم احد الرهبان او الراهبات بحراسة الاجهزة في هذا المكان النائي في قمة الجبل . واستعانت جمعية دراسة مشاكل الامطار الصناعية في الصحراء ، التي ملأت الهجر في عام ١٩٥٧ بسلسلة من مقاييس الامطار ومقاييس الرطوبة واتجاه الرياح وسرعتها ، بالرهبان في اعمالها . وتحول خلفاء دي فوكو الى

علماء رحّل بالارصاد الجوية . ففي كل شهر ، يقوم عدد منهم بالسير على نفس الطريق لقطع نحو من الف ومائتي ميل من الاراضي التي لا طرقات فيها او التي تضم طرقات صعبة لتسجيل الأرقام في محطات الملاحظة الخمس .

ويشكو السائحون من أن هذه الأدوات تدنس عزلة الرجل المقدس ، اما علماء الارصاد الجوية فلا يجدون صعوبة في مواجهة هذا النقد . ولقد كان الاب دي فوكو نفسه هو الذي الحّ على وجوب ملاحظة المناخ بشكل منظم في الهجر وتسجيل هذه الملاحظة ، ولقد قام هو بشيء من ذلك اثناء عزلته على جبل عساكريم . وكانت اولى ارقام الارصاد الجوية التي جمعت من جبال الهجر عن سقوط الامطار ، هي تلك التي جمعها احد النساك الذي كان في الوقت نفسه من العلماء .

لكن الهجوم على الزيت ، في كل مكان في الصحراء ، لا يترك مجالاً للغيبيات او للمتصوفين . ففي الشمال ، حيث تقوم رافعات الزيت ، ينظر الى المتصوفين على أنهم من الحمقى ، أما في تامنراسيت ، حيث تجعل الصخور البلورية التنقيب امراً مستحيلاً ، فينظر اليهم على أنهم بعيدون عن الحقيقة والواقع ، أو انهم من الشواذ في طباعهم .

وبين هؤلاء المتصوفين اسباني يدعى فيرناند كلودين ، كان فيما مضى ضابطاً في المدفعية الاسبانية ، وهو الآن في اواخر العقد الثامن من عمره . وعلى الرغم من انه صديق شخصي لفرنسا ، الا أنه ظل مخلصاً للقسم الذي اتسمه للجمهورية الاسبانية . وقد فقد ولدين في حرب بلاده الاهلية واحدهما كان برتبة رئيس في القوة الجوية اما الثاني فضابط بحار . ثم انتقل الى فرنسا حيث عاش فيها لاجئاً سياسياً ، ولكنه بعد ان قرأ ما كتبه دي فوكو عن رحلاته ، استهوته تامنراسيت ، فقرر الارتحال اليها ، واقتفاء آثار الرجل الزاهد . وليست لهذا المتصوف الآن الا رغبة واحدة ، وهي ان يقضي السنوات الاخيرة من حياته في تامنراسيت . وهو يدرس الصغار العربية ، ويعمل في الحديقة العامة ، ويساعد الرهبان اليسوعيين والراهبات ، ويقدم معونته الى كل من

يحتاج اليها .

أما اكثر الشخصيات المرتبطة بتامنراسيت جاذبية فهي الطبيبة الانكليزية الدكتورة فرنسيس ويكفيلد ، التي سمعت الكثيرين يصفونها بأنها « لورنس الصحراء » ، وبدا لي من مقابلتي الأولى لها ، ان هذه المقارنة مع لورنس ، على الرغم من انها لا تحمل محمل الجد مطلقاً الا أنها معدومة تماماً ، بالنسبة الى هذه المرأة الصغيرة ، المرتبكة الهندام ، التي استقبلتني في كوخها الصغير الحقير ، انها في نحو الثمانين من عمرها وقد انتشر شعرها الاشيب فوق رأسها ، وليس فيها ما يشبه في قليل او كثير « ملك الصحراء العزبية غير المتوج » .

تمت فرنسيس ويكفيلد الى عائلة محترمة جداً في الريف الانكليزي . ويمثل ابن اخيها السير ويفل ويكفيلد حزب المحافظين في مجلس العموم . ولكنها منذ نعومة اظفارها كانت تبدي روحاً ثائرة ، وكانت تسر سروراً ايجابياً بافزاع اصدقائها واقاربها . وقد قررت مثلاً ان تدرس الطب مع ان دراسته في عهدها كانت امراً شاقاً بالنسبة الى فتاة ، وتخرجت من جامعة ادنبره . ثم مضت فاتخذت خطوة اخرى اكثر جرأة اذ تطوعت في الخدمة الطبية العسكرية في الحرب الكونية الاولى . وتمكنت بعد واسطات عدة من الالتحاق ببعثة طبية في بلاد العرب . ثم سافرت الى القاهرة فام درمان فالبصرة والهند وقضت اربعة أيام في الجزيرة العربية . وارتحلت بعد ذلك الى فلسطين حيث حسنت معلوماتها في اللغة العربية ، وتعلمت العبرية ، وشرعت تدرس الفلسفة الاسلامية بعد ان اتقنت لهجات عدة . وهي تظهر امتعاضاً ظاهراً من الحديث عن تلك الفترة في حياتها . ولا ريب في انها رأت آنذاك المستقبل الذي ينتظرها ، وهو سنوات طوال من التضحية والتخلي عن كل شيء .

وتبين لي بعد سلسلة من الاحاديث مع السيدة العجوز انني كنت مخطئاً في رأيي الأول فيها . فهذه المرأة البعيدة عن المظاهر ، التي تزود « التايمس » اللندنية بمقالاتها ورسائلها ، لا تفترق كثيراً عن لورنس لا بفضيلة حياتها المبكرة بل بتعشقها للصحراء وزهدها ، اذ أن الصحراء ، وهي مهد الديانات

كلها قد اجتذبتها بسحرها واسرارها . ولم تعد قادرة على الارتحال الى مضارب الطوارق النائية في الجبال ، ولكن البريق يندفع من عينيها ، عندما تشرح لك السفرات الطويلة التي قامت بها على ظهور الابل ، واجتماعاتها بالرجال الملثمين في قلب الصحراء . وتحس بالحب الشديد يكاد يتدفق منها وهي تمسك بكتبها ومخطوطاتها تزيح عنها الرمال التي تسربت من الصحراء عبر الشقوق والثقوب في مسكنها البدائي الوضيع .

ولم تكن فرنسيس ويكفيلد في أي يوم مضى من حياتها الطويلة سيدة محافظة وهي ما زالت تفخر بأنها نالت في عام ١٩٠٥ بطولة الغطس في انكلترا . فهي من اسرة شغوفة بالرياضة . وقد اشترك احد اخوتها في حملة افريست في عام ١٩٢٢ ، وكان ابن اخيها مدة طويلة من الزمن رئيس فريق « الرجبي » في انكلترا . وكانت هي بدورها حتى تجاوزت الخمسين من عمرها ، تشعر بلذة فائقة عندما تقفز من صهوة هجينها وهو يركض مهرولاً .

وكانت علاقتها الأولى بالطوارق علاقة الطبيب بمرضاه ، ولكن هدفها النهائي الذي نذرت نفسها له ، هو أن تترجم التوراة الى لغة طوارق الهجر – التمحاق – وهي اللهجة البربرية الوحيدة ، ذات الحروف الهجائية المكتوبة « التفيناغ » . وقد طبعت عدة كتب من العهد القديم من ترجمتها حتى الآن ، لكن القسم الاكبر منه لا يزال مخطوطاً في درج منضدة صغيرة في صومعتها ، تطلق عليها اسم المكتبة ، وهي تذكر بالطبع تلك الجدران الزاخرة بصفوف الكتب في بيت الاسرة الذي قضت فيه طفولتها . وقد صرفت عشرين عاماً من عمرها تعمل في هذا الواجب الذي كرست نفسها له . والذي يبدو للآخرين وكأنه الضرب في الطواحين الهوائية . اذ ان عدد الناس الذين يتحدثون بالتمحاق او يفهمونها آخذ في التناقص . ويعيش الطوارق تحت ضغط مستمر ومتواصل من العرب . أما عدد اولئك الذين يقرأون التفيناغ فأقل حتماً من الذين يتكلمون التمحاق ، ذلك لأنها لا تدرس في أي من المدارس . ويمكن عد أفراد الطوارق الذين قد تستهويهم قراءة التوراة بلغتهم على اصابع اليدين . ولكن مما يعزي

فرنسيس ويكفيلد هو معرفتها بأن حسنات هذا المشروع او سيئاته لا يمكن ان يحكم عليها بالارقام .

وعندما سافرت اول مرة الى تامنراسيت ، قال بعض اصدقائها : إنها نزوة عابرة ، وستعود عما قريب .. ولكنها لم تعد ابداً . وها قد مضى عليها في قلب الصحراء اكثر من ربع قرن دون ان تأخذ اجازة يوم واحد كما يفعل الاوروبيون عادة . ويصفونها في تام بأنها امرأة « متقلبة المزاج » . ويرى فيها الفرنسيون من مدنيين وعسكريين بأنها « امرأة انكليزية مجنونة » ، ولا يولونها ثقتهم ، ذلك لأن الآنسة ويكفيلد ، لا تعلق كبير اهمية على قيام علاقات بينها وبين وجهاء الجالية الفرنسية في البلدة . أما الطوارق وعبيدهم السود فيعاملونها معاملة هي مزيج من الاعجاب والخوف ، وهذا ما يكفيها .

٩

موعد على مدار السرطان

كان اغرب موعد في حياتي كلها ، وكان منسجماً مع هذه الجبال الغريبة الشكل في الهجر . وكان كل ما قاله لي بيرنار غويرانجيه احد علماء طبقات الارض من اعضاء مكتب البحث عن المعادن في الجزائر ، على اذاعة الموجة القصيرة ... « سنلتقي يوم الاثنين ظهراً على مدار السرطان » .

وحصلت على مكان للركوب ، في سيارة شاحنة متجهة الى الشمال . وبعد ان اجتزنا نصف الطريق ، اخذت تظهر حقول خضراء من الحنطة النابته ، وقد احيطت بجدران ترابية قصيرة ، وباكوام من الأشواك لتحول دون وصول الماعز والابل الى هذه الحقول . وكنا نعرف اننا نقترب من قرية (طيط) ، وهي كتلة من الاكواخ المبنية من الاغصان والبيوت الحجرية المشيدة داخل الارض حتى انها ترتفع من وسطها فوق سطح الارض . ولا ريب في ان « حرّيم » تؤلف واحة نموذجية لا اشجار فيها من واحات الهجر .

وتعتبر الهجر بالنسبة الى الخرائط التي تشير الى سقوط الأمطار في الصحراء ،

من المناطق التي يرمز اليها بانها من ذوات الأمطار العالية نسبياً . وكانت في عصور ما قبل التاريخ خط تقسيم المياه الذي تمتد منه الوديان العظيمة متجهة شمالاً وجنوباً . وما زالت حتى اليوم خط الحدود الفاصل بين منطقة الأمطار الشمالية الشتائية ومنطقة الامطار الاستوائية الصيفية . وتفيد الهجر احياناً من الامطار الشتائية والصيفية . واذا ما استثنينا الحقيقة الواقعة وهي ان قمم جبال الهجر التي ترتفع عشرة آلاف قدم ، تحصل من الامطار لاسباب طبيعية مجردة على كميات اكبر من تلك التي تحصل عليها الصحراء التي تحيط بالمسيّف المركزي في الصحراء ، فان كمية المياه في الهجر ، غير ثابتة ومستقرة . وليست هناك في المنطقة تجمعات مائية جوفية كبحر سافورنين يمكن ان يسحب منها ما تحتاج اليه المنطقة وانما هناك مياه الامطار التي تتسرب الى الوديان . وتتقطر مجاري المياه الى الوديان على اعماق تتراوح بين العشر بوصات والخمسين قدماً ، الى أن تصطدم « بحدوة » او « مهماز » من الصخور ، يقوم بدور السد . مما يخلق واحة صغيرة تتوافر فيها زراعة محدودة .

ويستمد الماء في المنطقة اما من الآبار أو من « الفواخير » التي لا تشبه فواخير تيديكلت وقرارة وتوات . وفواخير الهجر اقنية عادية مفتوحة الى السماء ، مع ان بعضها يسيل تحت الارض وله فتحات للتهوية . ويبنيها الحراثون في الرمال وفي الطبقة الغرينية التي تخلفها الفيضانات ، ولذا فهي ليست طويلة ولا عميقة مثل الفواخير التقليدية . وقد يؤدي انحباس الأمطار الطويل الى جفافها بينما تؤدي مياه الفيضان الى امتلائها بالوحل او الى تخريبها . ومن الناحية الأخرى يستحيل بناء اشياء اكثر ثباتاً اذ ان الاسمنت في تامنراسيت يكلف سبع مرات اكثر من سعره في الجزائر .

والوضع في تامنراسيت دقيق للغاية . فجميع المياه اللازمة للزراعة ولري الحدائق والاعمال المنزلية تستمد من اربع فواخير وبئرين ركبت عليهما المضخات . وادت ازمة المياه الى فرض حد على عدد السكان في المنطقة والعدد الحالي الذي يبلغ الفي شخص هو اقصى ما يمكن استيعابه ، والا غدا الجميع

في خطر . أما اشجار الطرفاء وهي اشجار لا تحتاج الى ري ، فتستقي الماء عن طريق جذورها العميقة من المياه الجوفية .

ويزرع الأهلون في الواحات الصغيرة الواقعة على أطراف الوديان في الشتاء الحنطة والشعير ، بينما يزرعون في الصيف في مناطق محدودة جداً بسبب ازمة المياه الذرة البيضاء ، والذرة الصفراء والبندورة . وليست هناك الا بعض الحدائق الدائمة في الهجر ، أما الفلاحون فمعظمهم من البدو الرحل . ويستطيع الانسان ان يرى في جميع الوديان بيوتاً مهجورة وقطعاً من الارض المفلوحة التي هجرها اصحابها الفلاحون . ومن المحتمل ان يكونوا قد هجروها بسبب انهيار جهاز الري عندهم ، أو بسبب موت احد الناس في المنطقة ، ذلك لأن الحراثين الذين يؤمنون بالخرافات يعتبرون الموت دليلاً على موسم حصاد سيء . وهناك احتمال اخر ، وهو ان تكون « الفاخورة » قد جفت . أما التفسير الاقرب الى العقل ، فهو ان الارض أمحلت بعد حصادين ، ذلك لان الرمل الذي تذروه الرياح على أطراف الوادي ، حيث ينثر البذار ، لا يحتوي على المواد العضوية اللازمة للانبات . وتحتاج الارض الى عشر سنوات على الاقل لاستعادة قوتها الانباتية . وانذاك قد يعود الحراثون الى ارضهم . وتقع مثل هذه الحركات الهجروية داخل الواحات نفسها اذ ينتقل الفلاحون مسافات تتراوح بين خمسة اميال وعشرين ميلاً مع الجدول صعوداً وهبوطاً . وهناك على أطراف « الكديه » التي تقوم بدور برج الماء بالنسبة الى الوديان ، نحو من الف ومائتي فدان من أراضي الحنطة التي تنتج نحواً من مائتي طن في السنة .

ولم تتح لي الفرصة لادرس عن مقربه هذا « اليانصيب » الزراعي ، الذي يعني فيه المحل ، الموت جوعاً ، فقد رفض السائق الوقوف في « طيط » ، ومد رأسه من نافذة السيارة المهشمة ، وصاح بأعلى صوته : « كوتينيست الاسود » .

وتذكرت « طيط » وكوتينيست الاسود . فلهذه التلة الصغيرة بالقبور المتفرقة فيها والتي تحترق في اشعة الشمس ذكريات عند الفرنسيين . أما

الطوارق ، فيستديرون برؤوسهم عندما يمرون بهذا المكان .

ولنعد الآن .. الى القصة . كان هنري دوفيريير مكتشف الصحراء ، قد اضفى على رجال الهجر الملثمين ، اللقب الرومانطيقي « فرسان الصحراء النبلاء » . ولكن عندما اباد الطوارق حملة العقيد فلاترز في عام ١٨٨١ ، كانت الانباء بمثابة صاعقة اصابت الفرنسيين . وتذكر الفرنسيون انذاك ان طوارق الهجر كانوا في القرن الرابع عشر ، وهو عصر القوافل الذهبي ، يترصدون القوافل وينهبونها ، ولذا فقد اصبحوا الآن في رأيهم «قطاع طرق» لا « فرساناً نبلاء » . وأخذ الرأي العام الفرنسي ، الذي يخشى على سمعة جنوده ، يعارض بشدة في اية مغامرات عسكرية جديدة في قلب الصحراء ، مخافة ان يحل بها ما حل بحملة العقيد فلاترز . ولم يرض هذا الرأي العام باحتلال عين صلاح وتيديكلت في عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٠ الا كشيء واقع ، وبعد كثير من التذمر . لكن الجيش على كل حال ، ظل يعمل اولاً ويبلغ نتائج اعماله ثانياً وفيما بعد . ولم يكن هناك مناص من ذلك ، فايفاد رسول من عين صلاح الى الجزائر كان يستغرق شهراً كاملاً في الذهاب والاياب .

وفي عام ١٩٠٢ ، قاد بابا آغ تمقلست ، وهو من زعماء الطوارق حملة غزو دخل بها تيديكلت حيث أمر بجلد فاطمة شقيقة محمد بن مصيص من أهل البلدة علناً امام الناس . وكان الطوارق يحتقرون ابن مصيص ، فهو من أب بدوي وأم طارقية ، لما يبديه للفرنسيين من ولاء وصداقة كبيرين . ولم يستطع الرئيس كوفيت قائد حامية عين صلاح ان يسكت على ما وقع لابن مصيص ، اذ اعتبر الحادث اهانة لفرنسا في شخص احد اصدقائها ، ولكنه لم يكن يتوقع ان يلقى تأييداً من رؤسائه في الجزائر وباريس اذا غامر بالقلة الموجودة لديه من القوات النظامية في خصام قبلي . ولهذا فقد اتبع طريقة سبق لها ان نجحت في عين صلاح ، عندما تسترّت الحملة الفرنسية بستار علماء الآثار . وهكذا فقد قام بحملة ثأرية ، وتمكن نائب كوفيت الملازم كوتينيست من حشد مائة وثلاثين شخصاً من القبيلة التي اهينت ، ووزع عليهم السلاح

الفرنسي وقادهم في حملة طارد بها بابا فقطع الف ميل في سبعة اسابيع .. وفي السابع من ايار عام ١٩٠٢ التقى الفريقان في طيط . ثلاثمائة طوارقي يحملون الدروع والرماح والسيوف والخناجر وبعض المسدسات وبنادق « الزناد » ، يواجهون سبعين بندقية حديثة من طراز « ليبل » يحملها رجال كويتنيست . ودامت المعركة عدة ساعات وسرعان ما انتقلت الى قتال بالايدي والسلاح الابيض . ولكن النتيجة كانت حاسمة ، فعند الغسق فرّ الطوارق وقد سيطر عليهم الاضطراب تاركين مائة من قتلاهم . أما رجال كويتنيست فلم يخسروا الا ثلاثة قتلى وعشرة جرحى . وتمكن الفرنسيون منذ تلك اللحظة ودون ان يطلقوا رصاصة واحدة من السيطرة على وسط الصحراء . ولم يكن انتصار كويتنيست على ثلاثمائة من محاربي الصحراء المسلحين باسلحة القرون الوسطى بل على اسطورة الطوارق . وقد وافق الطوارق انفسهم الذين كانوا يعتقدون بأنهم لا يغلبون على التفاوض والاستسلام .

وتتقاطع طريق الهجر مع مدار السرطان على بعد ثلاثين ميلاً الى الشمال من « طيط » . واقيمت علامة طريق على شكل الصليب تشير الى النقطة التي لا تصل الشمس في شمالها قط الى سمتها . ووقفت انتظر هنا ، وقد غدوت ابيض ككيس من الدقيق من الرمال التي انتشرت على ملابسي طيلة الطريق . وانتظرت ساعة وساعتين وثلاث ساعات وهي اكثر ساعات النهار حرارة . وشعرت بقلق متزايد عندما تذكرت ما قيل من ان بعض الماجنين قد نقلوا اللافتة مسافة عدة اميال من مكانها الاصلي . ولكن لماذا القلق ؟ فغويرانجيه سيبحث عن اللافتة نفسها لا عن مدار السرطان . وعندما وصل اخيراً يستقل سيارة ، وهو يتدفق بالاعتذارات عن تأخره بسبب ما لحق بدولاب سيارته من عطب ، شعرت بشيء من الراحة ، في ان هذه الساعات الثلاثة من اللهب المحرق قد مرت اخيراً ككابوس مخيف .

وبيرنار غويرانجيه هو رئيس جماعة من الباحثين عن البلاتين في الصخور الخضراء . ويقوم هو ورجاله بتمشيط الصخور الملتوية التي تمتد داخل الغرانيت

الأسود ، بحثاً عن البلاتين . وهو كمن يلقي بشبكة غير منظورة على الارض العراء ، فيجمع رجماً هنا ورجماً هناك ، يرسم عليها بعض الحروف والارقام البيضاء . وتمثل هذه الرجوم الحجرية أطراف شبكة غويرانجيه ، التي يأخذ من كل ناحية من نواحيها نموذجاً أو « عينة » . ويضع هذه العينات في اكياس قماشية يغلقها بعناية ويضم الواحد منها ستة أرطال ونصف الرطل من الحجارة ، ثم يبعث بها بالطائرة الى الجزائر حيث يجري فحصها . واذا وجد ان احدى هذه العينات تضم كمية اكبر من المعتاد من البلاتين ، يبرق المسؤولون عن المشروع في الجزائر الى الهجر ، حيث يجري فحص المناطق التي اخذت منها هذه العينة فحصاً دقيقاً ، وهنا تضيق الشبكة شيئاً فشيئاً .

وقد اكتشفت بهذه الطريقة في مستهل عام ١٩٥٨ منطقتان على مقربة من « تبغين » ، لا تبعد الواحدة منهما عن الاخرى اكثر من بضع مئات من الياردات ، وقد وجد فيهما ان الطن الواحد من الصخر ، يحتوي على ما يتراوح بين ٢٣٠ و ٣٩٧ قمحة من البلاتين ، وذلك على سطح الارض على الأقل . وشرع في اولى هاتين المنطقتين بعد ذلك ، في سبرغور العمق الذي يوجد فيه العرق البلاتيني . وحفرت اخاديد في الصخور واخذت عينات تبعد طبقة الواحدة منها عن الاخرى ثلاثة اقدام او اربعة . وعندما وصل الحفر الى عمق خمسة وعشرين قدماً غزر الماء في الصخر ، مما ارغم المعدنين على استعمال آلة للحفر .

وبدا لي غويرانجيه كثير الحماس بالنسبة لتبغين . واشار الى مخزونات البلاتين فيها فقال انها « الموجودات الحقيقية الوحيدة التي تمكنا حتى الآن من العثور عليها من الهجر » . ومضى يحدد حديثه بصورة اكثر دقة ويقول : « ولندرس الآن وضع المخيم رقم (١) ، حيث نعمل في الوقت الحاضر . اننا نعمل في وجه صخري تبلغ مساحته خمسة وعشرين فداناً تقريباً ، وقد وجدنا ان محتوياته من البلاتين تبلغ نحواً من (٢٨٠) قمحة في الطن الواحد . واذا ما تحفظنا كل التحفظ في تقديراتنا ، قلنا ان هذه النسبة ستستمر حتى عمق ثلاثين قدماً . ومن المحتمل ان تستمر حتى عمق ثلاثمائة قدم ايضاً ، ولكن

لنقل انها ثلاثون . فهذا يعني انتاج ما لا يقل عن مليوني طن . واذا ما أخذنا سعر السوق العالمي اليوم للبلاتين قلنا ان هذا الانتاج يبلغ ثلاثين مليار فرانك من منجم واحد ليس الا » .

فقلت اسأله : ولكن الا يؤدي وقوع تبغين في بطن الصحراء الى ارباك حساباتكم ؟

– لا ، هناك كميات كافية من المعادن في هذه الصخور تغطي نفقات فتح منجم في قلب الصحراء .

– ولكن وما رأيك بنفقات النقل ؟

– في وسعنا التغلب على هذه النفقات باستخراج البلاتين من موضعه .

– ولكن الا تحتاج مثل هذه العملية من التركيز الى كميات كبيرة من الماء ؟

– في وسعنا ان نستخدم الهواء المضغوط ايضاً . ولكن الافضل ان نستعمل الماء وأنا اوافقك على ذلك . وللحصول على عشرين او ثلاثين رطلاً مركزاً من البلاتين من كل طن واحد ، نحتاج الى نحو مائتي غالون الى اربعمائة غالون من الماء . ونحن نملك الماء في تبغين اما في سيليت فالماء موجود حتماً ، وهي لا تبعد الا ميلين ليس إلا . ولعل المشكلة الحقيقية تقع في المعدن الخام نفسه . فالصخور تحتوي على البلاتين النقي ممزوجة مع معدني الاريديوم والبلاديوم ، وهذا المزيج من الجمال . بحيث يصعب الفصل بين هذه المعادن الممزوجة . ولما كانت قمحات البلاتين لا تتجاوز في حجمها عشر المليمتر ، فمن الواجب سحق الصخور التي تحيط بها الى ان تصبح مسحوقاً ناعماً ، وهي عملية سهلة وممكنة في مختبر ، ولكنها تخلق مشاكل تقنية خطيرة من الناحية الصناعية ... »

وعندما غادرنا مخيم غويرانجيه المنتقل في وادي « تيهاليوين » الى تبيغين ، تذكر ان يحمل معه زجاجة من « اليانسون » من مخزن مشروباته الروحية لايزيدور راسبيل رئيس فريق المنقبين الذين يتولون استخراج المعدن .

ومن الصعب على الانسان ان يتصور رجلين يختلفان كل الاختلاف كهذين

الرجلين غويرانجيه وراسبيل . ولعل الشيء الوحيد الذي يشتركان فيه هو الاوضاع التي يعيشان فيها . وتنبح بنات آوى حول خيام هؤلاء الناس التي تشبه الزجاجات الخضراء . ولعل الثلاجات واجهزة تكييف الهواء هي من الاشياء والمتع التي يسمعون بها في الرسائل التي تردهم من زملائهم السابقين الذين يعملون حالياً مع شركات الزيت . ولا يصل موزع البريد اليهم في مخيماتهم النائية الا مرتين في الشهر على اكثر تقدير . ويعتمد حصولهم على اللحوم الطازجة على ما يصيدونه ، من صيد طيب أو سيء ، كما ان قصص الصيد تزودهم بالقصص التي يروونها . وتتحدث احدى هذه القصص عن الكبش البري ، الذي بوغت بصدى الطلقة الأولى في المضيق الصحراوي الذي كان فيه ، فهاجم الصياد وحمله على الفرار امامه قبل ان يتمكن من اطلاق النار ثانية .

ويحمل غويرانجيه وراسبيل ايضاً نفس الفكرة السيئة عن مكتب الصناعات الافريقية الذي يتحمل ربع المسؤولية المالية في مشاريع مكتب البحوث المعدنية في الجزائر . وهما يريان ان المكتب لعب « لعبة قذرة » في حرمان علماء طبقات الارض التابعين لمكتب البحوث من كميات المنغنيز التي عثر عليها في « قويطرة » ومن الحديد الخام في تندوف ، حرماناً تاماً . وتعود الخلافات بين المكتبين الى اسباب عدة اهمها ما يشعر به الرجل الذي يقوم بالعمل من مرارة خفية تجاه الرجل الذي يدفع المال، وكذلك ما يحس به الفرنسيون في الجزائر من شكوك متأصلة في « مؤسسات » باريس التي يحتمل ان تخونهم بالنسبة الى علاقاتها الدولية ، والطبيعة الثائرة التي يحس بها الشباب — ومعظم رجال مكتب البحوث من الشباب — تجاه النصائح الابوية التي تأتيهم من الوطن ، وكذلك من السخط المفهوم على القرارات التي يتخذها مكتب الصناعات الافريقية والتي لها احياناً ما يبررها ، ولكنها تنفذ بشكل يفتقر الى الكياسة . ويقف مكتب البحوث في مواجهة مكتب الصناعات ، في ايمانه وحماسه بأن الصحراء يمكن ان تصبح غنية وخصبة بدافع الحوافز الفردية ، بينما يؤمن

المكتب الثاني بأن مثل هذه الأعمال لا يمكن ان تتحقق الا على ايدي الجماعات الاقتصادية الكبيرة وعلى نطاق عال من الاختصاص العلمي .

وباستثناء هذه الطريقة من الحياة التي يعيشانها ، وهذا الاحساس بالمرارة تجاه مكتب الصناعات فان غويرانجيه وراسبيل ، لا يشتركان في أي شيء آخر ، فغويرانجيه ، يرى في الحياة القاسية والخشنة التي يحياها ، مصدر متعة وراحة . فهو انسان مثالي ، يتمتع في نفس الوقت باحساس خافت من العاطفية . فهو يحسد ضابط الجيش الذي يقضي جماع وقته في الصحراء ، مرافقاً فرقته الصحراوية ، وكأنه بدوي بين رفاقه البدو يعيشون في الجحور ولا يأكلون الا التمر والشاي وحفنات عرضية من الجراد . وهو يألم لان الرجال الملثمين في الهجر ، لا يحملونه ولا يستطيعون ان يحملوه هو ورفاقه على محمل الجد . ويعيش المنقبون عن المعادن في الصحراء في خيام من الشعر ، ولكنهم عندما يطلع الصباح ، يمضون في سيارات اللاندروفر الى خيمة المطعم لتناول فطورهم وللابراق الى زوجاتهم في باريس عن موعد عودتهم المرتقبة الى الوطن في اجازة ويعرف غويرانجيه انه قد حكم عليه بأن يظل انساناً غريباً في الصحراء ، وهذه المعرفة تبعث في نفسه الشقاء .

أما راسبيل فيرى في مثل هذه الافكار هذراً وكلاماً فارغاً ، فهو لا يكترث اقبل به الطوارق او لم يقبلوا . وقد قبل هذا المنصب في الصحراء « ليصبح ثرياً ليلهو ويلعب » . وهو يعد « النقانق » اللذيذه من لحم الغزال ، ويبهرها ، وكأن الشيطان كان مرابطاً في كمه . وهو لا يكترث بلبن الابل ، ويفضل عليه « اليانسون » الذي يشبه الحليب ، والذي يصبه في حلقه كشراب مقبل وبين الوجبات ايضاً .

ويود غويرانجيه ان يتقبل تحدي الصحراء للانسان ، ويشعر بالتعاسة اذا لم يستطع ذلك . أما اذا كان راسبيل يشعر بشيء من الشقاء فلانه بعيد عن المقهى الذي تعود ارتياده في باريس ، حيث كان يتناول ظهر كل يوم قدح البيرنو .

ولقد كان حقاً عالماً غريباً هو الذي جمع بين هذين الرجلين للعمل معا

في بعث الصحراء ، ويشبه في غرابته تلك الجبال التي يرى فيها الطوارق انها مخلوقات من الجنسين لها عاداتها الاجتماعية الخاصة . وتروى الاساطير أن جبلاً ذكراً هو « الامان » قد وقع يوماً في حب جبل انثى ذات سحر عميم ، هي « طرارات » . ولكن هذه كانت قد اعطيت لجار لها هو جبل « امجر » الذي يجمعها اليه الآن فعلاً هضبة عالية . وتقاتل الجبلان في سبيل الحصول على طرارات الجميله . وتمكن رمح « الامان » من اختراق جنب « امجر » محدثاً فيه جرحاً ناغراً لم يشف منه قط ، وسال منه مجرى لن يجف ابداً . واصيب « الامان » بجرح بالغ ايضاً وفقد احدى ذراعيه . وما زال الطوارق يشيرون الى ذراع الامان الواحدة الى الزائرين الغرباء . ومن الحق ان الامان ، قد ارتحل، ولكنه لم يرتحل خجلاً وعاراً . فالمبارزة التعسة لم تطفىء ما يحس به من لوعة الحب وآلامه ، ولم يمض طويل وقت ، حتى شرع في مغازلة تاهات الجميلة ، ولكنها كانت ايضاً مشغولة عنه بجبل مجاور خطبت اليه . وكانت التجربة قد جعلت منه جبلاً اكثر حكمة ، فلم يغامر في تحدي منافسه الجديد . واكتفى بان يرتحل ثانية ذات ليلة رصعت سماؤها بالنجوم ، وحل أخيراً على مقربة من الشيئين اللذين اولاهما حبه وتقديسه ، واكتفى بان يتطلع اليهما بشوق ولهفة . وتضيف الاسطورة ان في وسع الانسان ان يرى مكان « الامان » الاصلي وهو فوهة بركانية هائلة ومدورة الى الغرب من وادي « الامان » ، وهو منخفض يرى كلود بلا تغويرلون الذي جعل هوايته جمع القصص الشعبي عند الطوارق ، انه ظل لغزاً مغلقاً حتى على علماء طبقات الارض .

ولتبغين ايضاً هيئة فيها الكثير من السر والغموض . فقد تحولت نحو عشرة آلاف شجرة من اشجار النخيل بين تبغين وسيليت الى أجمة لا يمكن للانسان ان يدخلها . وهذه الواحة هي احدى الواحات القليلة من اشجار النخيل في منطقة الهجر ، ولا يذكر الهجر اصولها او تاريخها . وحاولت السلطات الفرنسية انقاذها واقناع الاهلين بالعناية بها ، ولكن المحاولة ذهبت ادراج الرياح . فالارض وجميع الاشجار ملك لأمين العقل أو الرئيس المنتخب . ولكن امين

العقل ، لا يهتم باشجار النخيل ، لأنه يرى فيها فخاً ، يحاول تحويل اتباعه الى فلاحين . وينتشر فوق منجم البلاتين عدد كبير من القبور الحجرية ذات اشكال غريبة فبعضها لا يرتفع اكثر من شبر فوق سطح الارض ، وبعضها على شكل اسطوانة قطرها ثلاث ياردات وبعضها على شكل « حز » برتقاله ، كما ان بعضها على شكل زوج من « البوصلات » لكل منها قدمان طول الواحدة منهما عشرون ياردة ، ويمتد بينهما حجر مسطح على طول ثلاثين ياردة من الشمال الى الجنوب ، وفي وسطه « نقرة » غير مفتوحه مثل « خرم » الابرة . ويعزو الطوارق هذه القبور وما شابهها من القبور المماثلة في الصحراء الوسطى الى مردة اسطوريين يعتقدون انهم عاشوا في الصحراء قبلهم . وعلى الرغم من الحفريات التي قام بها غوتييه ومولود ، الا ان الخبراء ما زالوا حائرين امام هذه التماثيل ، فالقبور تمثل اضرحة تعود الى ما قبل الاسلام وتشير الى نظام متطور في اللحد والدفن . والاكثر من هذا اننا لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الناس . فقد حافظت القبور على سرها .

وتقف ثلاثة ابنية كاكواخ الاسكيمو (اغلو) ، فوق التل في المنطقة . انها مبنية من الحجارة المنحوته وقد وثقت ببعضها بالطين وتشبه الى حد كبير عند الفحص خلايا النحل . وأحد هذه الابنية خال ، اما الآخران فمغلقان . انها تبدو كمخازن الذرة ، التي بنتها في الظاهر احدى القوافل المسافرة من السودان نحو الشمال . ولا يعرف انسان متى يعود اصحاب هذه الحبوب لاخذها ، ولكنهم عندما يعودون سيجدون انها لم تمس ، فقانون الصحراء غير المكتوب ، يجعل الجياع من الغزاة لا يقتربون منها ، ولكن هل يسري هذا القانون على الجياع من جماعة ايزيدور راسبيل من الباحثين عن البلاتين . لا احد يدري . فاصداء تفجيراتهم تتردد فوق الصخور الملتوية والواحة المهجورة ووادي تبغين الجاف الذي احرقه الشمس ، وكأنها مدافع تحيي ظهور عصر جديد .

* * *

أما مسيّف تاهالرا ، فاذا ما قورن بالارض المالحة في جبل « اتاكور » ، فهو مؤلف بصورة رئيسية من البازولت . وهو مثل بارز على الصورة العقلية التي يحملها الانسان العادي عندما يسمع بكلمة البركانية . ففي سلسلة جبليه تمتد ستين ميلاً طولاً وبين الخمسة اميال والخمسة عشر ميلاً عرضاً ، لا تقل عدد هذه البراكين الحديثة عن ستمائة بركان . ولعل بعضها لم يتخذ صورة البركان الحي الا بضع ساعات أو بضعة أيام على اكثر تقدير . وتتخذ براكين تاهالرا ، شكل المسارح الرومانية القديمة ، وقد تمكنت الحمم في كل حالة من الحالات من اختراق جدار الفوهة البركانية .

ورأيت في تاهالرا ، دوامات صغيرة تلف وتدور وكأنها الاعيب الأطفال التي يلعبون بها . وكانت الجبال سوداء قاتمة ، ولصخور البازولت فوق الهضبة العالية بريق شرير ، وفوق رأسنا سماء الظهيرة تتأجج بيضاء من شدة الوهج . وكانت الانابيب الرملية والمغطاة بالتراب تدور وتلف بصورة مستمرة في الهضبة وقام جان تيبولت ، بطلب مني ، بجولة في السيارة حتى وصلنا مباشرة الى طريق واجهنا فيها احد هذه الجيوب الهوائية . وكانت النتيجة ان طارت نظاراتنا وقبعاتنا وخرائطنا واوراقنا وكل شيء لم يكن مثبتاً تماماً معنا . ولم يدهشني بعد ما رأيت هذه الدوامه ، ان اسمع ان الطوارق الذين يؤمنون بالخرافات يعتقدون بوجود الأرواح في هذه الاعمدة الدوّارة من الرمال ويسمونها « بكل السوف » التي تشعل الحرائق ، وتردد الصدى ، وتثير الفيضانات وتنزل الصخور المتهاوية من قمم الجبال . ويروون في جبال الهجر وخيامها قصة يتناقلونها همساً عن الدوامات الهوائية ، فيقولون ان امرأة طارقية ، كانت تجمع الحطب ذات يوم ، عندما بدأت دوّامة . تعمل عملها على مقربة منها . وأخذت الزوبعة تشتد حاملة معها الكثير من التراب والرمال . وعندما وصل العمود الهوائي الى ارتفاع معين ، اخذ يتحرك بسرعة على الارض . وسرت المرأة من المنظر ، فهتفت معربة عن سعادتها تقول « يوريو » . واقترب العمود الهوائي منها وقدم اليها جائزة ثمينة ، اذ كان في طريقه لحضور حفلة

زفاف احد الارواح . وبعد مدة قابلت المرأة في نفس المكان والزمان دوامة هوائية اخرى متحركة . وتذكرت تجربتها السعيدة السابقة فحيتها بانشراح . وهنا غضبت «كل السوف» وعاقبتها عقاباً شديداً ، فقد اختارت الوقت الخاطىء للاعراب عن سعادتها ، اذ كانت الروح في طريقها لحضور مأتم احد الأرواح .

وكان جان تيبو ، الذي طفت معه جميع بلاد «الأرواح» ، المنقب البارز عن الالماس بين رجال مكتب البحوث المعدنية في الجزائر ..

وقال لي تيبو : لقد لعب الجن دائماً معنا الاعيب قذرة ، لا هنا فحسب بل في الجزائر ايضاً . ففي صيف عام ١٩٥٤ ، وكانت العينات التي جمعت في الشتاء السابق قد اجتازت الفحص في مختبرنا المركزي ، عثرنا على قطعة من الماس من النوع النقي جداً يبلغ وزنها قيراطين . وقد نسي احد الموظفين النافذة مفتوحة لسوء الحظ . وهبت عاصفة فطارت جميع العلامات المميزة التي كانت منتشرة على المائدة ، حيث كانت كل عينة قد صنفت ورتبت . وكان من الصعب العثور على المكان الذي جاءت منه هذه الماسة المعينة وقد يكون المكان منطقة واحدة من مجموع ست عشرة منطقة عمل فيها جاك رانول . وخيل الى احد الموظفين بانه تذكر بان العينة التي تضمنت القطعة قد جاءت من عين زيز ، ولكن عندما ذرعت المنطقة شبراً شبراً في الشتاء التالي لم يعثر على شيء » .

ولم يستأنف التنقيب عن الماس الا في عام ١٩٥٧ — ١٩٥٨ . وقد اقيم مركز التنقيب الرئيسي في سيليت على بعد ساعة مشياً من تبيغين . وتلعب سيليت دوراً في الاسطورة التي تتحدث عن اصل قبيلة الطوارق . ففي هذا المكان بالذات وقفت «تي — نون حنات» وخادمتها تاكاما ، وهما من النساء المتدينات من احدى قبائل البربر في مراكش ، وهما في طريقهما الى الجنوب . وتقول القصة التي سمعها شارل دي فوكو من مصادره الطارقية ان «تي — نون حنات» هي مؤسسة الطبقة العليا من الطوارق ، وان اتباعهم جاءوا من ذرية تاكاما . ولكن المنقبين عن الماس ، في اختيارهم لسيليت كمركز عملهم ، لم يكونوا

متأثرين بعلم الانساب والاجيال ، وانما كانت هناك اسباب جيولوجية قاهرة ، وبينها الحقيقة الواقعة ، وهي ان احدى العينات الست عشرة التي حصلوا عليها جاءت من منطقة تيبيغين .

وقد عثر على ثماني ماسات جديدة حتى الآن في سيليت ، سبع منها من النوع الازرق الصغير وواحدة من النوع الاسود من وزن (٠,١) قيراط . ويعتقد علماء مركز البحوث المعدنية في الجزائر ، دون ان يحاولوا المبالغة بتقدير اهمية هذه الموجودات ، ان هذه الماسات الثماني على الرغم من صغرها وعدم اهميتها في حد ذاتها ، تقدم دليلاً كافياً على وجوب استمرار البحث العلمي المنظم في هذه المنطقة بالذات . فالمعدن الاساسي في هذه الماسات يوجد حتماً في « عروق البازلت » في تاهالرا ، وفي المداخن البركانية التي تعرت بفضل عوامل التعرية .

ويعمل رجال تيبو في أطراف الانهار الجافة التي تمتد من تاهالرا . وبين كل فترة مسافية واخرى تمتد ميلاً احياناً يرفعون نحواً من خمسة وثلاثين قدماً مكعباً من الحصى والرمال التي جرفتها السيول . ويجري فوراً فحص الحصى التي يتجاوز قطرها بوصة واحدة ، أما البقية فتنظف ، وتوضع في منخل آلي ، تنحل فيه حتى تزول عنها القشرة اليابسة ، لتصبح جاهزة للارسال الى المختبر المركزي لمكتب البحوث المعدنية في الجزائر .

ولا يتوقع تيبو العثور على كنز من الاحجار الكريمة . فالوديان هي ليست ذلك النوع من مجاري الانهار التي توجد فيها الماسات التي تكونت طبيعياً وكل ما يأمل في العثور عليه ، عرق من الماس ، وكل ما اقتربوا من هذا العرق ، كلما بدأت الماسات الفردية تظهر في الرواسب الغرينية . وبعد ذلك يتحتم التأكد مما اذا كان هذا العرق جديراً بالاستغلال والاستثمار .

وتيبو رجل واقعي كل الواقعية ، ولا يكثر من الحديث عن نفسه . وكان اقل اندفاعاً من زملائه في مهاجمة مكتب الصناعات الافريقية ، على الرغم من ان هذا المكتب ، رفض تمويل مكتب للبحوث العلمية في الجزائر لتحقيق حلمه

في اكتشاف حقل للألماس في الهجر ، وعلى الرغم من أن رجاله في باريس قد اخذوا يسخرون من أن مائتي مليون فرانك ، ثمن باهظ للغاية ، يدفع في سبيل الحصول على ثمانية احجار مجموع زنتها اقل من نصف قيراط ، حتى ولو كانت من الماس الصافي . وهو لا يحس بتفاؤل عميم بالنسبة الى نجاح مشاريع التنقيب ، ولكنه تواق الى متابعة هذا الأثر حتى نهايته ، حتى ولو قاده التنقيب بعد سنوات عدة الى العثور على مجموعة من الاحجار الصغيرة المجهريـة (الميكروسكوبيه) . وهذا هو السبب الذي يحمله على استنكار موقف مكتب الصناعات الافريقية في قبضه يده عن الانفاق والتمويل . ويروي تيبو قصة روسية يكثر من ترديدها ، وهي تتناول عالمة روسية في طبقات الارض ، اكتشفت في عام ١٩٤٨ ، عرقاً ماسياً في صحراء سيبيريا بين نهري لينا وجنيسي وسرعان ما اوفدت الحكومة السوفياتية التي كانت أبان الحرب الكونية الماضية مضطرة الى شراء الكثير من احتياجاتها الماسية من السوق السوداء وباسعارها العالية عدداً كبيراً بل مئات من المنقبين الى المنطقة . ومنذ ذلك الحين لا يعثر المنقبون إلا على رواسب جديدة من التربة التي تحمل الماس دون أن يعثروا على عروق تستحق الاستغلال .

١٠

افتح يا سمسم !!

غدا صندوق للصحراء الرملي المغلق اشبه ما يكون بمنجم الذهب . وكانت الدعاية التي يقصد منها اجتذاب الرساميل الفرنسية الصغيرة الى حقل الاستغلال في الصحراء ، قد جعلت منها شيئاً يشبه الكنز المعروف « بافتح يا سمسم » ؛ فلا بدع والحالة هذه اذا كانت المجلة الاسبوعية الانتقادية « البطة المقيدة » — لي كانار اينشينيه — قد كتبت بلهجة ساخرة في نهاية عام ١٩٥٨ تقول : « كانت العبارة السحرية في عام ١٩١٩ « ان الألمان سيدفعون » ، وقد غدت الآن ، « أن الصحراء ستدفع » . ويحس رجل الشارع العادي في باريس ، بشعور مزيج من الاجلال والاحترام بثروة الصحراء تنبع من بين اصابعه في سلسلة متصلة من اللآلىء التي تشمل النفط والغاز الطبيعي والحديد والنحاس والمنغنيز والنيكل والحرير الصخري (الاسبستوس) والفحم والملح والولفرام ، والصفيح والزنك والكولبايت ، والطنطالوم والبلاتين والماس والزرلونيوم والتيتانيوم والثوريوم والاورانيوم . ولهذه الكلمات كلها ، رنة موسيقية في اذنيه ، وهو يخلط بين علم طبقات الارض والاقتصاد ، فيرى الحقائق في الآمال ، ويتغاضى عن الحقيقة القائلة بأن نفقات الاستنباط قد تكون احياناً

بالغة الى الحد الذي لا يمكن المستخرجات من المنافسة في الأسواق العالمية ، كما يقلل من اهمية العائق غير المحدود الذي تحمله ثروة الصحراء معها ، وهي المساحات الشاسعة من الفيافي القفر والخالية من كل حياة .

وقد تؤدي المسافات الشاسعة التي يجب قطعها قبل الوصول الى اقرب ميناء او الى اقرب منطقة صناعية تصلح للتسويق . والاحتياجات الضرورية الى الماء لعمليات التعدين والتكرير ، وجمع العمال اللازمين المتعودين على الطقس ، واستيراد الخبراء الاوروبيين الى زيادات كبيرة في نفقات الانتاج ، بحيث تضحي الكثير من الرواسب المعدنية الخام على الرغم من غناها في المقاييس الاوروبية ، غير جديرة بالاستثمار بالنسبة الى اوضاع التسويق العالمية الحالية . والرواسب الكبيرة التي تستحق التسويق تحتاج الى استثمارات ضخمة في الرساميل التي لا يمكن توافرها بسهولة . وهنا تقوم القاعدة القائلة ... ما هو غني في الصحراء ، لا يمكن أن يكون غنياً الى حد كاف . والثروة الطبيعية في الصحراء هي احسن الثروات .

واذا ما نحينا الحديث عن النفط والغاز الطبيعي جانباً في الوقت الحاضر ، فهناك عدد من الكلمات التي سنسمعها في كل مناقشة في السنوات القليلة القادمة عن مستقبل الصحراء . انها تمثل كشفاً بموارد الصحراء المعدنية التي إما أن تكون قد اكتشفت حتى الآن او خطط لاستغلالها في المستقبل القريب .

هناك قلعة غورو في موريتانيا كما يسميها الفرنسيون او «كدية الجل» كما يسميها العرب ، وهي سلسلة مثلثة وبارزة من التلال تمتد خمسة عشر ميلاً طولاً ، وترتفع فجأة من السهل الى علو يتراوح بين تسعمائة قدم والف ومائتي قدم ، وهي تضم كميات ضخمة من برادة الحديد الخام . وكان البكري ، الجغرافي العربي المشهور ، قد اشار في عام ١٠٦٧ ميلادية الى « جبل الحديد » في كدية الجل . اما الجنرال غورو ، الذي كان اول اوروبي وصل الى المنطقة في عام ١٩٠٩ ، فلم يشر الى هذه الحقيقة لا في قليل ولا في كثير . وجاء الطيارون فيما بعد ، الذين يقطعون الأجواء بين مراكش وداكار يؤكدون

ان بوصلاتهم الممغنطة كانت تهتز اهتزازاً عنيفاً عندما تصل فوق هذه الجبال . أما مكتشفو «الصخر الحديدي» الحقيقيون فقد كانوا الجنود الذين بنوا في عام ١٩٣٤ برجاً من كتل الصخر الحديدي في قلعة غورو ، لحراسة الحدود بين موريتانيا والصحراء الاسبانية . ولا ريب في أن ثقل هذه الاحجار كان مصدر دهشة مزعجة لهم . ولفت نظر علماء طبقات الارض الفرنسيين ومهندسي المناجم الى هذه الحقيقة في عام ١٩٣٤ ، لكن عمليات التنقيب المنظمة من فردية وعامة لم تبدأ الا بعد الحرب الكونية الثانية . وقد حددت خمس مناطق للاستثمار تضم مخزونات لا تقل عن مائة مليون طن ، ونسبة الحديد فيها ٦٣,٨ في المائة . ويمكن استخدام نصف الحديد الخام المستخرج من قلعة غورو في صناعة الفولاذ . ومن الممكن استخراج ما لا يقل عن اربعين مليون طن من الحديد بطريق استخراج الحديد الزهر من السطح دون أي تنقيب . ومن الناحية الأخرى فان مشروع قلعة غورو سيعمل تحت عائقين اساسيين اولهما البعد عن الساحل . اذ إن شاطىء الاطلنطي يبعد نحواً من مائتي ميل وثانيهما عدم توافر المياه المحلية . ويمكن تذليل الصعوبة الأولى بصورة خاصة عن طريق استثمارات ضخمة ليبلغ الانتاج ما يتراوح بين اربعة ملايين وستة ملايين من الاطنان لتغطية النفقات .

و « غار جبيلات » في الصحراء الجزائرية هي اهم مصادر الحديد في الصحراء كلها وهي تشتمل على خيط طويل يمتد في جرف منحدر . ويشبه الحديد الخام في غار جبيلات من ناحية تركيبه الحديد الموجود في لكسمبورغ ، مع زيادة في نسبة الحديد ايضاً . وهناك نحو من اربعة آلاف مليون طن من الحديد الخام في المنطقة بينها اربعمائة مليون على الأقل تضم نسبة من الحديد لا تقل عن ٥٧,٧ في المائة . واكبر مصادر المياه في المنطقة هي بئر « عونية الغرا » التي لا يكفي ناتجها لمشاريع التعدين ، ولكن علماء طبقات الارض واثقون كل الثقة من إمكان استنباط مياه ارتوازية في كميات صناعية كافية . أما العائق الوحيد هنا فهو النقل . فغار جبيلات تقع على بعد خمسة وثمانين ميلاً

الى الجنوب الشرقي من واحة تندوف النائية المنعزلة ، التي تبعد بدورها نحواً من مائتي ميل عن كولمب بشار وثلاثمائة ميل عن ساحل الاطلنطي . ويتطلب الشروع في منجم للحديد في المنطقة سكة حديدية طولها لا يقل عن ثلاثمائة ميل مع عدد من الانفاق وتسهيلات الموانيء على الساحل المراكشي .

ويختلف حديد غار جبيلات عن حديد قلعة غورو في أنه يضم الفوسفور ، ولذا لا يمكن في الاوضاع الراهنة علاجه إلا بطريقة توماس ، وهي حقيقة تقلل الى حد كبير من احتمالات تسويقه . ويقول الخبراء في صناعة الحديد والفولاذ في الوقت الحاضر أن السوق العالمية لا تستطيع امتصاص اكثر من عشرة ملايين طن اخرى من هذا النوع من المعدن الخام .

وقد قمت في الجزائر بزيارة الرجل الذي اكتشف غار جبيلات ، والذي يعمل الآن في مجلس مياه الجزائر . كان بيير غيفان واحداً من فريق من علماء طبقات الارض بينهم ايضاً مينيدورن ، اوفدته جمعية « البحر المتوسط — النيجر » في عام ١٩٤١ لرسم خريطة جيولوجية للصحراء . وكان الألمان الذين يحتلون فرنسا آنذاك ، قد استهواهم المشروع القديم الذي لم يتحقق بعد لاقامة سكة حديدية عبر الصحراء ، ولذا فقد سر هؤلاء العلماء الفرنسيون الخمسة عندما تمكنوا من الاختفاء في الصحراء لاسيما وأن اختفاءهم كان بموافقة العدو . وكانت الخرائط الجيولوجية في ذلك الحين ترسم طوبوغرافية ايضاً ، لاسيما وأن الارض لم تكن قد استكشفت بعد .

وارتحل العلماء الخمسة على اقدامهم وعلى ظهور الإبل يحمل الواحد منهم ساعته في يد والبوصلة في اليد الاخرى . وكان غيفان قد اختار المنطقة الغربية من الصحراء ، مسرحاً لعمله ، وقد لاحظ عندما وصل المنطقة المحيطة بـ « غار جبيلات » أن البوصلة لم تعد صالحة للعمل . ولم يعر غيفان هذه الملاحظة كبير اهتمام . فمن كان في ذلك الحين يهتم بوجود الحديد في الصحراء ! وعاد في شتاء عام ١٩٤٦ — ١٩٤٧ الى نفس المنطقة وقرر ثانية أن الحديد الموجود في الصخور لا يكوّن عرضاً اقتصادياً . وعندما زار الصحراء مرة اخرى في عام

١٩٥٢ موفداً من المؤتمر الجيولوجي العالمي ، اشرقت في ذهنه فكرة ان الكميات الموجودة في قلعة غورو قد تكون جديرة بدرس ادق . وتمكن في تشرين الثاني وكانون الأول من عام ١٩٥٢ من القاء نظرة اخرى على غار جبيلات . وبعث برسالة في التاسع من كانون الثاني عام ١٩٥٣ الى مدير مكتب البحوث العلمية للجزائر ، يبلغه فيه اكتشافه . وشرع المكتب فوراً في عملية بحث منظمة ليصبح بعد قليل فريسة خديعة قام بها شريكه مكتب الصناعات الافريقية الذي قرر أن مثل هذا المشروع اكبر من أن تتحمله موارد الجزائر المالية المحدوده ، وانه يجب منذ البداية أن يعهد بتخطيطه الى اساس اوروبي . ولم يكن من السهل حتى من الناحية الدولية القيام بهذا المشروع اذ ان المغرب تطالب بالقسم الغربي من الصحراء الذي يضم غار جبيلات . وعلى الرغم من ان مخزونات الحديد في المنطقة تعتبر واحدة من اغنى خمسة او ستة مخزونات في العالم الا ان مكتشفه غيفان لم يحصل من المشروع الاعلى الشهرة والصيت . ويقول ضاحكاً وقد بان الإعياء على محياه... « ريشة من الحديد في قبعتي العلمية ، وقد احصل في يوم ما على ميدالية ، وهذا كل شيء » .

وهناك رابيتان تقعان الى الغرب من مركز اكجوجت في موريتانيا ، تضمان مخزونات النحاس الوحيدة في الصحراء . وقد اكتشفهما عالم طبقات الارض بلانشوت في عام ١٩٤٦ ، ثم قامت الحكومة الفرنسية على نفقتها بفحص ما فيهما من محتويات النحاس ، وقدر الفاحصون ان هناك نحواً من ثمانية عشر مليون طن من المعدن الخام تضم نسبة ١,٥ في المائة من النحاس وتسعة ملايين طن تضم نسبة تتراوح بين اثنين ونصف في المائة . وتأسست في عام ١٩٥٣ شركة تعدين النحاس في موريتانيا ، وقد شرعت منذ ذلك التاريخ في تشغيل منجمين على سبيل الاختبار . ويقوم هذان المنجمان بانتاج كميات يجري نقلها لسيارات الشحن الى نواق الشط (نواكشوت) عاصمة موريتانيا الجديدة والى بورت اتيين (انواء الذيب) . وستمضي جميع المنتجات في النهاية الى الميناء الاخير . وقد تم تأمين المياه اللازمة وتقدر بأكثر من مليون غالون في اليوم ،

عن طريق المجاري المائية الجوفية . ويحتوي كل طن من المعدن الخام البكر على كمية تتراوح بين غرام واحد وثلاثة غرامات من الذهب وكمية تتراوح بين ثلاثين وخمسة وخمسين بالمائة من الحديد . وفي وسع اكجوجت ان تنتج في الشكل المركز ، خمسة وعشرين الف طن من النحاس و ٣٫٣٠٠ ليبرة من الذهب وثلاثمائة الف طن من المغنطيط ، ومن مخزونات تقع الى الجنوب مليون طن من الحديد الخام . ولكن ليس في الإمكان استغلال المغنطيط والحديد الخام إلا اذا اقيم خط حديدي بين اكجوجت والبحر . ويجري الآن درس إمكان تمديد خط فرعي من السكة الحديدية المعتزم انشاؤها بين قلعة غورو وبورت اتيين . وتقدر التكاليف المجملة بنحو من عشرين مليون جنيه لهذا المشروع .

ونأتي الآن الى قطارة في الصحراء الجزائرية . فقد اكتشف عالم من علماء طبقات الارض من رجال مكتب البحوث المعدنية الجزائرية في عام ١٩٣٥ ، كان يقوم بمسح البلاد بطائرته الهليكوبتر ، مخزونات مهمة في جبل قطارة الواقع على بعد مئة ميل الى الجنوب من كولمب بشار . وقد اشارت الدلائل الى وجود نحو من تسعمائة الف طن من المعدن الخام يؤلف المنغنيز منها خمسة واربعين بالمائة . وهناك ايضاً اربعمائة وخمسون الف طن اخرى تحتوي على خمسة واربعين بالمائة من المنغنيز ، ولكنها تضم ايضاً نحواً من خمسة في المائة من الخارصين ، وهي مادة يصعب فصلها او عزلها . وقد انتقل البحث في هذه المنطقة الى هيئة جديدة تسمى « شركة معادن قطارة » ولكن الشركة اضطرت الى وقف عملياتها بسبب الاوضاع السياسية والعسكرية الراهنة .

وننتقل بعد ذلك الى « عثير » في صحراء النيجر . فقد اكتشف موريس روليه في أيار عام ١٩٤٥ حجر الصفيح في جبال عثير التي تبعد خمسة واربعين ميلاً الى الشمال الشرقي من اغاديس . وبعد سنة عثر نفس العالم الجيولوجي على حجر الصفيح ومعدن الولفرام على بعد ستين ميلاً الى الشمال الشرقي من اغاديس . وحصلت شركة داهومي — النيجر المعدنية ، على امتياز التنقيب وحقوق استخراج هذه المعادن في المنطقة . وسرعان ما حصلت شركة اخرى

سمت نفسها شركة عثير المعدنية على امتياز آخر . وهناك كميات كافية من المعادن في الخامات الموجودة بحيث تجعل الاستغلال المتعب والباهظ التكاليف شيئاً مجدياً . ويمكن تركيز المواد الخام في المنطقة ثم تنقل بسيارات الشحن عن طريق اغاديس الى كانو في النيجر ، ومن هناك تنقل بالقطار الى لاغوس ومنها بالبحر الى ليفربول . وهكذا تترك هذه المعادن الصحراء من طريقها الخلفي . وقد اجرى بعض الفرنسيين حساباتهم فرأوا ان نقلها حتى بالطائرات الى تامنراسيت فالجزائر أمر ممكن . وقد عثر على كميات كافية من الماء الآجاج في المنطقة بينما ينقل ماء الشرب في سيارات شاحنة للمائة والخمسين شخصاً من اهلها والاوروبيين الثلاثة الذين يشرفون على العمل . ويجري انتاج حجر الصفيح غير المركز في الوقت الحاضر بمعدل مائة طن في العام وينتظر ان يتضاعف هذا الرقم . اما انتاج الولفرام فقد كان بمعدل طن واحد في عام ١٩٥١ .

ونصل الآن الى كنادسة في صحراء الجزائر . فمنذ عام ١٩٠٧ ، عثر على عروق الفحم الحجري على مقربة من كولمب بشار ، وكان مكتشفها هو فلاماند الذي عثر على الصور الصخرية والذي احتل عين صلاح رغماً عنه . ولكن أحداً لم يصدق في حينه التقارير التي قدمها ، كما لم يرغب في تصديقها . ولما حلت الحرب الكونية الأولى ، قام الماني من اهل الروهر من رجال الفرقة الاجنبية وضابط فيتنامي اسمه الرئيس (الكبتن) كاو فان ، بالاكتشاف الثاني ، في كنادسة . وبدأت سكك حديد الجزائر في استخراج الفحم في عام ١٩١٧ . وتمكن علماء طبقات الأرض منذ عام ١٩٤٧ من العثور على حقلين جديدين في (كسي كسو) و (ميزاريف) ، وقد رفعا كمية الانتاج في منطقة كولمب بشار الى مائة مليون طن . وبلغ مجموع الانتاج السنوي « لمناجم فحم جنوب وهران » التي تديرها الدولة نحواً من ثلاثمائة وخمسين الف طن ، وهو رقم له اهميته الخاصة بالنسبة لدافع الضرائب ذلك لأن سعر فحم كنادسة على الساحل الشمالي للجزائر ، يزيد بسبب تكاليف شحنه خمسين في المائة على سعر فحم الروهر . وتتلقى مناجم الفحم في الصحراء ، مساعدة سنوية من الدولة

تقدر بألف مليون فرانك ، ذلك لأنها تشغل ما يزيد على ٢٥٠٠ شخص من البدو الرحل السابقين . ولكن اكتشاف الغاز الطبيعي في شمال الصحراء ، سيعني في النهاية وعلى المدى الطويل اغلاق مناجم الفحم في الصحراء .

وكان الملح هو المعدن الوحيد الذي ظل الأهلون يستخرجونه منذ آلاف السنين . والقيمة الاجمالية لانتاج الملح السنوي خفيضة اذا قورنت بالدور الهام الذي تلعبه قوافل الملح وتجارته حتى يومنا هذا في حياة العدد الكبير من القبائل البدوية . وليس بين جميع مخزونات الملح في الصحراء ماله قيمة اقتصادية كعرض تجاري ، إلا الملح الموجود في كولومب بشار .

وقد تكون هذه القائمة التي سردناها مؤثرة او غير مؤثرة ، فذلك يتوقف على ما كان يتوقعه القاريء ، ولكنها على كل حال لم تكمل بعد .

ومعظم المنظمات التي تقوم بالتنقيب عن المعادن تمولها الدولة وفي مقدمتها « مكتب الاستثمار في افريقيا » و « مكتب البحوث الجيولوجية والمعدنية » و «مكتب المعادن في فرنسا وعبر البحار » . وقد تأسس المكتب الاول في عام ١٩٥٢ لتشجيع التخطيط الصناعي في افريقيا على نطاق واسع ولا سيما في منطقة الصحراء . ومنذ ذلك الحين أخذ هذا المكتب يمثل دور العم الغني من الخارج ، الذي يبذل النصائح ، وينسق ويحفز ، ويبدي اهتمامه بالمشاريع الجديدة او بالمشاريع القائمة التي تسير وفق اهداف هذا المكتب . ولما كان التخطيط على نطاق واسع لا يمكن ان يتحقق الا اذا ثبت ان الدخل سيعادل الانفاق ، فإن هذا المكتب قد اصبح مهتماً بصورة عامة في اعمال التنقيب وفي المراحل الأولى من عمليات التعدين .

وتأسس مكتب المعادن في فرنسا وعبر البحار في عام ١٩٤٨ ليتولى اعمال التنقيب الفرنسية في الصحراء . وكان التوغل في الصحراء وتنظيمها يثمران في النتيجة عملية توزيع الأسهم ، لكن علماء هذا المكتب كانوا اكثر تأثراً بالاعتبارات الفطرية منهم بكميات العجز أو النقص التي بدت مؤخراً في الحرب الماضية . فقد تقرر ان تصبح الجزائر مكتفية ذاتياً بالمعادن الثمينة . والتنقيب

عن المعادن قضية حظ لا اكثر ولا اقل ، ولكن المكتب المذكور تسلح باحصاءات مطمئنة تبيّن ان كل الف كيلو متر مربع من الارض ، دون اكتراث بالاعتبارات الجيولوجية او التقنيّة ، يجب ان تحتوي على ما يتراوح بين خمسة حقول وخمسة وعشرين حقلاً من المعدن الخام ، تقدر قيمة انتاجها بما يتراوح بين ستة ملايين جنيه في السنة ومائتي مليون جنيه . وقد اختار المكتب ارضاً مساحتها مليون كيلومتر مربع من الأراضي البكر ، بدت له وفقاً للأدلة الجيولوجية مواتية للتنقيب عن المعادن النادرة . ويقع اكثر من نصف هذه الارض في منطقة الهجر البلورية وفي طبقة الصخور الرملية في جبال تاسيلي التي تتداخل معها . وهكذا غدت الهجر وتاسيلي المنطقتين الاساسيتين اللتين يبحث المكتب فيهما عن المعادن .

ولما كان ثمة تشابه جيولوجي بين الهجر وبين جبال عئير في النيجر ، فقد تركزت آمال المكتب في حملته الأولى على العثور على الصفيح والولفرام في الهجر . وقد عثر على بعض آثار للمعدنين ، ولكن هذه الآثار لم تكن تستحق البحث . وكان المنقبون قد تعلموا من الصحراء درساً قيماً ، وهو أن أية مغامرة ناجحة لا يمكن القيام بها في قلب الصحراء إلا بعد تأمين ثلاثة اشياء وهي التصوير الجوي اولاً ، وشبكة اذاعية تعمل في اتجاهين ثانياً وطائرات الهيلوكبتر ثالثاً .

وشن هجوم كبير في عام ١٩٥٣ — ١٩٥٤ وبشكل منظم على منطقتي الهجر وتاسيلي . وكان المنقبون في غضون ذلك قد جهزوا انفسهم بآلات الراديو ؛ وتعرفوا على سيارة الجيولوجي وهي «الهيلوكبتر ». والأهم من هذا كله، أنهم اصبحوا الآن يعرفون الميدان الذي سيعملون فيه وذلك بفضل التصوير الجوي الذي زودهم لا بالخرائط فحسب بل بالرسوم الجيولوجية المصورة ايضاً . وانتهى البحث في مستهل عام ١٩٦٠ في اكثر من تسعة اعشار الهجر وتاسيلي . وبالطبع لم يكن التنقيب مقتصراً على هذه الأجزاء من الصحراء فحسب . فقد قامت عدة مكاتب اخرى كونت بينها اتحاداً بالبحث في جبال تيبيستي واينيدي . وقام مكتب الاستثمار في افريقيا ، بالتنقيب في منطقة اضرار بحثاً عن النحاس

والزنك . وقام نفس المكتب في نهاية عام ١٩٥٨ بالتنقيب في سهل يطي الى الجنوب من غار جبيلات وفي جبال اقلاب الى الشرق من يطي .

وماذا كانت نتائج كل هذا التنقيب ؟ لقد تحدث الي مهندس تعدين امريكي حول مشروع واسع النطاق فذكر احتمال انشاء خط انابيب يمتد الفاً ومائتي ميل ، يصل جبال الصحراء الوسطى بساحل البحر الابيض المتوسط ، على ان تمر في هذه الانابيب المعادن الخام بعد تحطيمها وغسلها بمياه البحر ، ليجري ضخها وحملها الى الارصفة الواقعة في الشمال .

ولكن هذا المشروع لم يتحقق بعد ، وقد لا يتحقق ابداً . وقد عثر في جبال تيبيستي واينيدي على الرصاص والولفرام والصفيح وبعض المواد الاشعاعية الاخرى ، وعثر في « اضرار ايفوراس » في الجنوب على النحاس والزنك والرصاص والنيكل والكروم ، وفي يطيّ وإقلاب على الذهب والفضة والمديبدينوم والنحاس والرصاص والمواد الاشعاعية ، وفي الهجر وتاسيلي على النيكل والصفيح والكوبلت والنحاس والاورانيوم والثوريوم والزنك والرصاص والذهب والبلاتين والولفرام والماس والاسبست . لكن اياً من هذه المعادن لا يوجد حتى الآن بكميات تجارية . وكان مكتب البحوث الجيولوجية والمعدنية في مستهل عام ١٩٦٠ كثير التفاؤل ، بصدد مخزون من الاورانيوم اكتشف في ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ، على بعد مائة ميل الى الجنوب من سيليت ومخزونين مهمين من الولفرام عثر عليهما في تشرين الثاني عام ١٩٥٩ ، على بعد مائة وخمسين ميلاً الى الجنوب من تامنراسيت . ولكن ما اكثر الاحلام التي ضاعت في الصحراء ! ! فقد حل الاتحاد الذي اسس للتنقيب في تاسيلي — اينيدي بعد سنة من انشائه بسبب فداحة تكاليف التنقيب والافتقار الى النتائج الملموسة . وتوقف مكتب المعادن في فرنسا وعبر البحار عن البحث عن الماس في عام ١٩٥٩ .

ولم يكن الخطأ دائماً من عمل الصحراء . ففي كانون الثاني عام ١٩٥٩ اعتقل المهندس المسؤول عن دائرة التصوير الطيفي في المختبر المركزي للمكتب الفرنسي

لمبالغته بصورة منظمة ومستمرة في تقدير محتويات البلاتين في نماذج الصخور المرسلة من الهجر . فهناك بلاتين في تبيغين ، ولكن كمياته محدودة بحيث لا تستحق الاستخراج . وتعود بي الذاكرة دائماً الى بيرنار غويرانجيه والى صوته المتدفق بالحماس عندما كان يصف مخزونات البلاتين في تبيغين بأنها « الاكتشافات الملموسة الوحيدة التي حققناها حتى الآن في منطقة الهجر » .

١١

الذهب الأسود

كانت انبوبة البندقية الرشاشة الصغيرة تحتك بركبتي حتى لتكاد تدميها ، وكانت البندقية ، في كل مرة تمر السيارة فوق حفرة في الطريق ، تكاد تقفز من بين ساقي ، وتسقط على ارض السيارة . وقد اختفت الشمس وراء كثبان الرمل ، كالبيضة الكبيرة « المقلية » . وكانت اضواء السيارة الكاشفة كثيراً ما تسقط على يربوع في الطريق . فتذهله بنورها الساطع ، ويتوقف عاجزاً عن الحراك ، يتطلع الينا . وقد ضللنا طريقنا عدة مرات . وكان السائق مصطفى ، يسير بمنتهى السرعة ، وعندما كانت تتراءى لنا اضواء على جانب الطريق ، كان مصطفى يخفف من مير السيارة قليلاً ، وقد سيطر عليه توتر عصبي ، ويتطلع الي ، ليتأكد من ان يدي على زناد البندقية . وتكشف لنا الضوء هذه المرة عن سيارة شاحنة ذات ست عجلات ، وقد جلس رجلان حول نار اشعلاها يأكلان علبة من السردين . وأحس مصطفى ببعض الهدوء ، عندما حيانا الرجلان وقالا انهما يتوقعان العون من قلعة فلاترز في غضون الأربع والعشرين ساعة

القادمة . وكنت اعرف ان مصطفى كان يشتم الرمال ، ويشتمني لأنني اتيت به في الليل الى هذا المحيط الرملي الواسع من العرق الشرقي الكبير .

وقد بدأت هذه الرحلة الشاقة في نهاية يوم رائع قضيناه في كثبان العرق ، حيث يتراءى المنظر المألوف من ذلك الخط الطويل من الكثبان التي يتلو احدها الآخر ، لتؤلف سلسلة متلاحقة من التلال الرملية ، التي لا يرتفع الواحد منها اكثر من الف قدم والتي لا تستطيع السيارات تسلقها . وتفقد التلال شكلها عند الظهيرة ، ولكن عندما تميل الشمس نحو الأصيل تبدو واقفة في جمالها الكلاسيكي الرائع ، وكأنها نصال شماشير فارسية . ولا اعرف منظراً آخر في العالم ، يجمع مثل هذا المنظر بين الحرية والنظام . فقد انتشرت بلايين لا عد لها ولا حصر من حبات الرمل فوق المنخفضات العظيمة وقد حملتها الرياح المتقلبة ، فكونت طبقات روعيت فيها الدقة الحسابية . ويستعمل الأهلون عشرين كلمة مختلفة على الأقل لوصف اشكال الكثبان . وهناك طرقات بين التلال الرملية ، تخلو تماماً ، وهذا وجه الغرابة . من الرمل ، ويطلقون عليها سم « غاسي » . وقد تضيق الغاسي احياناً فلا يتجاوز اتساعها عرض طريق عادية ، وقد تتسع حيناً آخر فتمتد عشرة اميال او خمسة عشر او خمسة وعشرين . وفي وسع سيارتي جيب ان تمرا « بغاسٍ » واحد ، دون ان ترى احداهما الأخرى . ولم يستطع علماء طبقات الارض ان يشرحوا حتى الآن كيفية ظهور هذه « الغسيان » ، وان كانوا مسرورين طبعاً من استخدامها ، كطرق يسيرون فيها ، فتوفر عليهم مشقة صعود التلال الرملية . وبعضها شديد النعومة ، حتى انه يشبه ارض « الباركيه » . وقد قاد لي فيفيس السيارة مثلاً في احدها بأقصى السرعة دون ان يرفع قدمه عن محرك الوقود .

وفيفيس مهندس كهربائي هولندي ، يتولى قيادة فريق يقوم بقياس الحركات الاهتزازية في الارض . وعندما وصلنا الى الموقع الذي يعمل فيه ، تبين لي لماذا يستخدم فيفيس جهازاً جديداً ، انتجته شركة شل في الولايات المتحدة ، ووضع الآن موضع الاختبار في الصحراء .

ولا يطلب من الانسان ان يكون خبيراً ليعرف ان الخلجات الارضية الاصطناعية تستخدم الآن في كل مكان في العالم للتنقيب عن الزيت . فالموجات الصوتية تتسرب الى باطن الأرض ، ولكن السرعة التي ينتقل فيها الصوت تختلف باختلاف أنواع الصخور التي يمر بها . وتقوم الطبقات الجيولوجية إما بعكس الموجات او تحطيمها . والطريقة التي شاع استعمالها اليوم ، في التنقيب الاهتزازي ، هي الطريقة العاكسة ، وهي تقضي بأن تسجل مقاييس الاهتزاز رجع الصوت على طبقتين جيولوجيتين . وتكون النتيجة رسماً اهتزازياً ، يؤمن للخبراء معلومات قيمة عن موقع كل طبقة وعمقها . ويتابع سير هذه الطبقة في رسم مستمر ، او رسم جانبي .

وكانت المتفجرات « الديناميت » حتى عهد قريب الوسيلة المستعملة في خلق هذه الاهتزازات الارضية اللازمة . اما فيفيس ، فقد لجأ الى طريقة جديدة بدلاً من التفجير ، يستخدم فيها سيارة شاحنة ضخمة ، رفع فوقها شيئاً يشبه المقصلة . ويضغط فيفيس على زر فيهوى عيار زنته طن واحد مسافة عشرة أقدام على الارض . ويكرر هذه العملية كل عشر ياردات نحواً من اربع وستين مرة . وبالطبع لا يكون الصوت داخل الأرض قوياً كصوت التفجير ، ولكن هذه الطريقة برهنت على نجاحها في الاماكن التي لا تصل فيها الطريقة السابقة الى أية نتائج ملموسة .

وفي حالة التفجير بالديناميت تسجل مقاييس الهزات الصدى ، ثم يحوله الخبراء الى تيارات كهربائية ينقلونها الى المختبر حيث تجري تصفيتها ، ومزجها وتفخيمها ثم نقلها على شريط . أما بالنسبة الى طريقة إلقاء الثقل فيمكن التلاعب بالاشارات الوافدة واقتباس موجاتها ، وخزنها وإضافتها الى بعضها بصورة ماكرة ، حتى يمكن بعد القاء الثقل اربعاً وستين مرة ، الحصول على الرسم النهائي خالياً من التشويش أو من الأصوات غير المرغوب فيها .

وعندما تحولت كثبان الرمل على طرفي « الغامي » الى اللون الاحمر ، في ساعات بعد الظهيرة المتأخرة ، أمر فيفيس رجاله بانزال المعدات . وتركنا

سيارة الشحن ، مع الثقل والمختبر المتنقل دون اية حراسة في الصحراء . وفزع الألمانيان من جنود الفرقة الاجنبية السابقين اللذين اوفدا الى البعثة ليقوما بدور الحراسة ، من هذا الوضع الذي يخلو من كل مسؤولية . وعاد العمال الى المعسكر ، بينما اخذني فيفيس معه لأجرب الرياضة التي غدت مألوفة لدى رجال الزيت ، وهي رياضة القفز فوق الرمال . فبعد ان يجمع الانسان سرعة كافية في سيارة جيب او « لاندروفر » ، تصعد به السيارة بقوة اندفاعها كثيباً رملياً وتأخذ في القفز أو الرقص فوق قمته باتجاه المجهول . وليست هذه الرياضة بالشيء الأمين بالنسبة الى مبتدىء . فقد يخرج منها مهشم العظام ، إن لم نقل محطم السيارة ، ولكن اشد ما يتعرض له من مخاطر ، هو احتمال الغرق . ففي الطرف من الكثيب الذي يتجه مع الريح ، وعند سفح تل رملي منحدر ، قد يعثر القائم بهذه الرياضة على حوض خادع من الرمل . وكثيراً ما ضاعت إبل براكبيها وسيارات بسائقيها في هذه الأحواض الخادعة ، واختفت عن الانظار دون ان تترك اثراً يدل عليها .

واكتفى فيفيس بدورات قصيرة وبعض القفزات المعتدلة ، وذلك بسبب الافتقار الى الوقت لا الى الحماس . واصر على ان اتناول الطعام معهم في المخيم . وعندما اعترضت بأن من الخير لي ، ان امضي في سيارتي مع مصطفى ، اغراني بوجبة من السلطعون البحري (اللوبستر) وجدت من الصعب مقاومة اغرائها . وعدت معه الى المخيم وجلست معه حتى قبيل المغيب وقد اغرقت قدمي في الرمل الساخن اتناول وجبة لا تتوافر الا في الفنادق الكبيرة . ولكن مصطفى ظل قلقاً ، فهو لا يطيب له ان نقوم برحلتنا في الليل .

وكان قد رمز الى مخيم فيفيس في الخريطة التي اعدتها لي شركة البترول الجزائري (C.P.A) للقيام بجولتي في مراكز الزيت الصحراوية بعلامة « اهتزازي — ٣ » . وكان مصطفى يستهدف تلك الليلة الوصول الى « اهتزازي — ٢ » التي تقع على بعد مائة وعشرين ميلاً على اطراف الكثبان الرملية .

ووصلنا الى المخيم الجديد حوالي الحادية عشرة مساء . كان منظره اشبه ما

يكون بالاشباح . فقد تأرجحت بين الخيام المصابيح الكهربائية ، وقد لعبت بها رياح الليل الباردة . وسمعت دوي محرك « ديزل » ينبعث من الظلمة المحيطة . ووصلنا دون ان يشعر بنا احد ، فقد كان رجال المخيم يعقدون مجلساً حربياً في الخيمة الرئيسية التي سادها جو متوتر لا يشوبه الفزع على كل حال ، فقد اختفى صاروخ « موقت » من المخيم .

وقال احدهم : « ان لدينا ثمانية اطنان من المتفجرات في المخيم . واختفاء صاروخ موقت ، قد يؤدي الى نتائج غير سارة ابداً » .

وانتقد الدكتور بيير كريتاز ، العالم الجيولوجي السويسري من اعضاء الفريق ، الافتقار بصورة عامة الى ترتيبات الأمن ولا سيما بالنسبة الى المتفجرات . وقام رئيس قسم الأمن يدافع عن نفسه . واحتد وطيس النقاش ، واخيراً راهن كريتاز على صندوقين من الشمبانيا ، بأن في وسعه ان يسرق صاروخاً موقتاً من المخازن دون ان يحس به احد . ولم استطع ان اصدق اذنيّ . رهان على صندوقين من الشمبانيا ! ولكن يبدو ان أياً من الموجودين لم يستغرب هذا الرهان . وقد قبل على انه شيء عادي ، وكأن الشمبانيا تشرب هنا في هذه البقعة النائية التي تبعد ستمائة ميل عن الحضارة الانسانية كشيء عادي .

وما زلت اذكر الليلة التالية بوضوح مؤلم . فقد حلمت انني قفزت من فراشي في المخيم راكضاً على الارض الرملية الصفراء كالزعفران ، فرأيت الحباب يتصاعد من أقداح الشمبانيا وقد حملها رجال الثورة الجزائرية وهم يشربون نخب مصطفى الذي كان مشغولاً بتفجير ثمانية اطنان من المتفجرات . وكنت ارتعد من الخوف عندما افقت من نومي لأجد أن كريتاز كان يهزني .

وأخذني المسؤول عن المتفجرات وهو هولندي معه الى ارض التفجير . كان الطقس لا يزال بارداً كالثلج عندما شرعنا في سيرنا قبيل الشروق ، إذ كان علينا ان نقطع نحواً من خمسة وسبعين ميلاً قبل ان نصل . وكان رفيقي وهو شاب رياضي ، قد اضطر في اليوم الفائت الى العودة الى المخيم لبضع

دقائق ، وهذا عني انه قطع نحواً من ثلاثمائة ميل في يوم واحد ، من طرقات « العرق » الرملية . وقد تقرر تقصير هذه الرحلة على كل حال ، إذ بات من المقرر نقل المخيم في الاسبوع التالي ، وكان من المحتم ان يتم هذا الانتقال من قبل لولا ازمة المياه . وحتى في الوقت الحاضر ، فإن الماء يجب ان ينقل مسافة مائة وعشرين كيلومتراً من قلعة فلاترز بالشاحنات ناقلات الماء ، بمعدل سبعمائة الى الف ومائتي غالون من الماء يومياً لمائة من الأهلين واربعين اوروبياً . وعندما انتقل المخيم من مكانه ، غدا ابعد عن قلعة فلاترز واصبح ثمن الماء الذي يقدم مجاناً في القلعة اغلى من الشمبانيا عندما يصل الى المعسكر .

وحدثت رفيقي عن الوجبة التي اكلتها مع مواطنه فيفيس فصفر بفمه ، وذكر ان فريق فيفي يلقى معاملة خاصة ، وهو ما يثير حسد الآخرين وغيرتهم . ومع ذلك فإن الذين يقومون بالتفجير يقولون انهم لا يرغبون في تبديل مراكزهم وقال احدهم متحدياً : « ان هؤلاء الامراء بلعبهم الالكترونية لا يحققون الكثير ، فهم لا يستطيعون ان يكملوا العمل في اكثر من نصف ميل في اليوم ، ومع ذلك فهم يشعرون بالاعتزاز مما حققوه . أما نحن فنقطع اكثر من مائة وخمسين ميلاً كل شهر » .

وبالطبع لا تقلق الشركة من هذا التنافس . فالمنافسة شيء طيب ، ويعمل مفجرو الديناميت باستمرار على تحسين وسائلهم ليتفوقوا على الفريق الآخر الذي يلقي بالاثقال . وقد جربوا متفجرات اصغر حجماً ، وليقللوا من الذبذبة ، استعاضوا عن المتفجرة الواحدة بعدد من المتفجرات الأصغر حجاً . وقال رفيقي معتزاً انه يستطيع دائماً تحدي فيفيس بأربعين متفجرة يبلغ مجموع زنتها خمسين رطلاً من « الديناميت » .

ويستخدم رجال الزيت في الصحراء كلمة خاصة للتشكيلات الجيولوجية ذات الاهمية الخاصة بالنسبة الى الحافرين للزيت . انهم يسمونها « حبات البطاطا » .

وقال رفيقي : « ما زال العثور على الزيت معجزة ، وان كانت هذه

المعجزة اكثر تكرراً اليوم مما مضى ، وهذا كل شيء » .

ويجهز المنقبون عن الزيت في الصحراء دائماً بأحدث المعدات ، وهذا حق ، اذ ان فرص العثور على الزيت وهي ضئيلة في كل مكان ، تكون اكثر ضئالة في الصحراء .

وفي الصحراء الكبرى غامر المنقبون عن الزيت بالبحث عنه في بطن الصحراء ففي حقول الزيت السعودية لم يبعد التنقيب اكثر من ثلاثين ميلاً عن الساحل ، أما في صحراء الجزائر فهم يعملون على بعد ستمائة ميل من الساحل . وقد يبدو في هذا القول شيء من المغامرة ، ولكن التنقيب عن الزيت في الصحراء لا يعتبر مغامرة ابداً . وكل ما يتطلبه ، التنظيم الكامل . فالصحراء تملي شروطاً قاسية . فهي تفتقر الى اكثر انظمة المواصلات بدائية . وقد اضطرت « شركة البترول الجزائري » ، لكي تعمل في منطقة امتيازها ، ان تمد ما لا يقل عن الف ومائتي ميل من الطرق الجديدة وان تصلح ما يزيد على الف وخمسمائة ميل من الطرق القديمة . وقد يذهل الوافد حديثاً من رؤية المطارات الستة والثلاثين التي انشأتها الشركة ، ولكن تكاليف هذه المطارات كلها ، لا تعادل شيئاً إذا ما قورنت بفتح الطرق في هذه البلاد الوعرة . وقد تربو تكاليف انشاء المطار في الصحراء ، على ثمن طائرة متواضعة . وقد غدا الآن عددها في الصحراء اكثر وفرة من عدد واحاتها .

وتكاليف النقل في الصحراء باهظة للغاية . والمواد الغذائية غالية جداً ولكنها ليست المشكلة الوحيدة في حياة المنقبين عن الزيت . ففي الإمكان العثور على بعض ارطال منها هنا او هناك . ولكن المشكلة الرئيسية هي في نقل الروافع ، وآلات ضخ الوحل . واميال القضبان الفولاذية والأنابيب ، و « عجينه » التثبيت في البناء ، ومولدات القوة الكهربائية . وابتلعت عملية الحفر العميق في جبل « برقه » الواقع الى الجنوب الغربي من عين صلاح ما يزيد على (١٣١) مليون فرنك من تأمين المواصلات وحدها . ويرفع الافتقار الى الماء التكاليف ايضاً . فكل ثقب يحفر ينمي الظمأ الى الماء . واضطرت شركة التنقيب عن

بترول الصحراء واستثماره (كريبس) ، الى انفاق اربعة عشر مليوناً ونصف المليون من الفرنكات لاطفاء الظمأ الى الماء في برقه . وهناك عامل آخر ، وهو تكاليف اليد العاملة التي ارتفعت ارتفاعاً هائلاً . واضطرت هذه الشركة نفسها الى ان تدفع لإجرة العامل في ايجلي مثلاً ، ما يحصل عليه اكثر المهندسين خبرة من اجر في اوروبا الغربية .

ويجب ان لا يعجب الانسان إذا كانت « حبات البطاطا » تكلف مثل هذا الثمن الغالي في الصحراء . وبالطبع لا تكون « حبة البطاطا » مضمونة ومكفولة. فالحفر وحده هو الذي يستطيع أن يحكم إن كان بالامكان العثور على الزيت او لا . وكلما كان الحفر اكثر نفقة ، كلما كان من المهم استخدام كل وسيلة ممكنة لجمع المعلومات عن التركيب الطبقي لباطن الارض ، وعن تحديد الأماكن التي يؤمل بالعثور فيها على الزيت إن تم الحفر فيها .

ويقوم العالم بالجغرافية الطبيعية بدور الرائد او الكشاف لمهندس الحفر . وهناك من الناحية النظرية نوع من التصاعد في اساليب علماء الجغرافية الطبيعية في التنقيب عن الزيت . فهناك اولاً الطريقة الاهتزازية ، وهي أكثرها تكاليف ، وهي غالباً ما تأتي في النهاية بعد استنفاد الغايات من الطرق الأخرى ، وهي تكمل الصورة التي تم الحصول عليها من قياس ميدان الجاذبية عن طريق اضافة عدد من المبتكرات الجديدة . أما من الناحية العملية . فإن اختيار هذه الطريقة او تلك يتوقف على طبيعة الارض . ففي الشمال حيث غدا النطاق الارضي القائم بين خطي الاغواط وحاسي مسعود المتوازيين ذا اهمية خاصة بالنسبة الى المنقبين عن الزيت ، لم تسفر قياسات الجاذبية عن اية نتائج ملموسة . وفشلت ايضاً الطريقة العاكسة للتفجيرات الاهتزازية . ولكن هذه الطريقة التي لا تعتبر شائعة الاستعمال كقاعدة ، هي التي أدت الى اكتشاف مخزونات الزيت في حاسي الرمل وحاسي مسعود وهما الإسمان اللذان يتوقف عليهما مستقبل الصناعة في الجزائر ، كما يتوقف أمل فرنسا في ان تصبح كافية نفسها في الزيت . واخذت القياسات الجغرافية ــ الممغنطة من الهواء وهي تشبه تلك التي طورها

الامريكيون في نهاية الحرب الكونية الماضية لإكتشاف غواصات العدو وذلك بعد وقت طويل من اكتشاف الغاز الطبيعي في حاسي الرمل والزيت في حاسي مسعود . وفي عام ١٩٥٨ ، قامت الطائرات وهي تحمل محاريف (آلات لقياس الانحراف المغناطيسي) تشبه الطرابيد ، تحلق فوق الساحل الشمالي لتجمع معلومات جديدة تضاف تفاصيلها الى الخرائط الدوثروية .

وكان الوضع في المناطق الجنوبية ، من الحوض الذي يحتمل ان يكون محتوياً على الزيت بين جبال الاطلس وجبال الهجر ، مختلفاً تمام الاختلاف . فالتركيب الذي يضم الزيت في ايجلي يمكن ان يرى بعين عالم طبقات الارض المجردة دون حاجة الى « نظارات » من التي يستخدمها علماء الجغرافية الطبيعية . وقد استخدمت طريقة شلومبرغر في حقول الزيت في ايجلي ، وهي تستمد معلوماتها وافتراضاتها من ردود الفعل المختلفة الناتجة عن انواع الصخور للتيارات الكهربائية التي تمر فيها .

وكان العمال في ميدان التفجير في العرق الشرقي الكبير ينتظرون وصول رفيقي بفارغ الصبر . وقد امتلأت الفسحات القائمة بين الكثبان بالسيارات ، وقد هبط منها رجالها يخطون باقدامهم على رمال الصحراء التي اصابتها برودة الصباح . وكان المنظر الشامل هو تلك الملابس التي يرتديها الجميع ، وقد غطتها الزيوت والشحوم . ولم يكن الانسان ليصدق حتى عهد قريب ان هذه المناطق ، لم يكن ليطرقها إلا البدو من راكبي الإبل ، وليس لهم من دليل فيها إلا الشمس والنجوم . ووقف احدهم في مقدمة سيارة المختبر ، وأخذ يلوّح بعلم احمر . وعلى مسافة قريبة ، وتحت قمة الكثبان الرملية ، كان هناك نحو اربعين ينبوعاً من الغبار يتصاعد في السماء الشاحبة الزرقاء . وكان ثمة الف وخمسمائة وستة وثلاثون مقياساً للرجات تسجل الارتجافات والهزات وتنقلها الى المختبر . وكانت سحابة من التراب الأبيض لا تزال تحلق في الهواء عندما شرعت الشاحنات وسيارات توليد القوة و « اللاندروفر » في سيرها . وانقضى نحو من عشرين دقيقة قبل ان يتمكن العمال من جمع نصف هذه المقاييس ونقلها لتصبها على

بعد ميل واحد . وقام المفجرّون بتوزيع المتفجرات . ولم يكونوا يكترثون بحفر الثقوب لوضع المتفجرات فيها بل كانوا يصفون حزمها على الارض ، وسرعان ما يدوي هدير كالرعد من المتفجرات ، وتعاود القافلة سيرها الى مكان آخر .

والوقت ثمين جداً في الصحراء الحديثة الثراء ، بل لعله أثمن من اللزوم . والشركة التي تحصل على حقوق استثمار الغاز الطبيعي (الهيدرو كاربون) ، يجب ان تلتزم بإنفاق لا تقل حدود مستوياته الخفيضة عن البلايين لا الملايين . ومدة الامتياز خمس سنوات ، لا يجدد إلا نصف مساحته بعد انتهائها ، وهكذا تنتهي مدة الامتياز كلها بعد خمسة عشر عاماً . وعندما تنتهي مدة الامتياز يجب تسليم المنطقة المعنية ، مع كل ما جمع عنها من معلومات جيولوجية وطوبوغرافية وجغرافية طبيعية . وهذا هو السبب الذي يجعل المنقبين عن الزيت في الصحراء يسابقون الزمن دائماً ، وهو عين السبب الذي يجعل الجو يغدو متأزماً متوتراً في مركز كل شركة زيت عندما يقترب موعد الامتياز من نهايته . وعلى خريطة رجل البترول الملونة ، حيث تبدو الشركات صاحبات الامتياز وهي تتصارع في سبيل الحصول على الذهب الأسود ، يقف الرجل المسؤول عن عمليات التنقيب يدق رأسه ، محاولاً ان يقرر أي نصف من منطقة الامتياز يجب ان يتخلى عنه وأي نصف يجب أن يحتفظ به .

وقد بدأ البحث عن الزيت في الصحراء بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية . وتأسست في عام ١٩٤٦ « الشركة الوطنية للتنقيب عن بترول الجزائر واستثماره » (ريبال) . وكانت امام علماء طبقات الارض العاملين مع هذه الشركة والذين سرعان ما انضم اليهم علماء « مكتب الابحاث البترولية » وعلماء « الشركة الفرنسية للبترول » ، عدة اسئلة اولية يتحتم عليهم ان يجيبوا عليها . فهل هناك اية فائدة في البحث عن الغاز الطبيعي في الصحراء ؟ وأي النقاط هي اكثر احتمالاً في العثور على الزيت فيها ؟ لقد كانت الصحراء كالأميرة النائمة تنتظر من يوقظها من سباتها الطويل ، ولكن هذا العالم الجيولوجي الذي عاد محملاً بأكياس الأحجار ، لم يكن الأمير الذي تنتظره منذ أمد طويل . وقامت فرق

الجغرافيين الطبيعيين في عام ١٩٤٨ باول قياسات الجاذبية . ولكن عمليات التنقيب ظلت على نطاق متواضع جداً .

وجاءت نقطة التحول في عام ١٩٥١ مع أول هزة اصطناعية . ففي عام ١٩٥٢ قامت الشركة الوطنية والشركة الفرنسية معاً مع فرعهما الجزائري « الشركة الفرنسية للبترول الجزائري » بالحصول على امتياز في الساحل الشمالي . وكانت الطبقة الارضية التي يفترض انها تحتوي على الزيت في هذه المنطقة قد غطتها طبقات ارضية احدث عهداً . ولكن الشركات التي اختارت الشمال ، كانت تقيم حساباتها في الظاهر على اساس ان التكاليف الاضافية لأعمال التنقيب الجغرافي الطبيعي واعمال الحفر ، سيعوض عليها بهذا القرب من الشاطىء . وفي الثلاثين من تشرين الأول ، أي بعد اربعة عشر يوماً من الحصول على الامتياز ، شرعت الشركة الوطنية (ريبال) بأول عملية حفر عميقة في الصحراء . وظهرت في الميدان في عام ١٩٥٣ شركتان جديدتان اولاهما شركة البترول الجزائري (سيبا) وقد اشتركت معها شركة شل الهولندية الملكية وشركة (كريبس) ، وقد تمثلت فيها شركة شل ايضاً على نطاق واسع ، وحصلتا على حقوق الامتياز ، الاولى في وسط الصحراء والثانية في جنوبها ، وذلك الى الجنوب من المنخفض العظيم الذي يمتد من سفوح الاطلس الجنوبية الى جبال الهجر ، ومن تنزروفت الى طرابلس . وكانت كريبس البادئة في عمليات الحفر . وفي آذار عام ١٩٥٤ ، اكتشف مخزون الغاز الطبيعي في بيرقة بصورة مفاجئة ، حتى ان المشرفين على عملية الحفر ، وجدوا ان الغاز المنطلق من الارض قد غلبهم على أمرهم وفي عام ١٩٥٦ تم اكتشاف حقول الزيت في ايجيلي وتيغونيتورين وحاسي مسعود ومخزون الغاز الطبيعي في حاسي الرمل .

وسيطرت حمّى الزيت على الصحراء . وفي عام ١٩٥٧ انضمت شركة خامسة جديدة هي شركة التنقيب عن النفط (سيب) ، الى الشركات الأربع الكبرى الأولى ، وشهدت نهاية العام نفسه ، وضعاً جديداً بالنسبة الى الشركات

التي كانت بادئة في الدخول الى سباق الزيت في الصحراء ، لأنها اضطرت الى التنازل عن نصف مناطق امتيازها بموجب القانون . وكانت لاكتشافات عام ١٩٥٦ ، قيمة دعائية ضخمة . فسرعان ما ظهر صف طويل ، من الشركات المتقدمة بطلب الامتيازات . وبالاضافة الى الشركات الفرنسية الخالصة ، ظهرت خمس شركات امريكية وهي (سينيز ميرفيس ، فيليبس ، فرانكو - ويو مينغ ، سينكلير ، بان امريكان) ، وشركة كندية - امريكية هي (كانيديان دلهي) ، وشركة يابانية امريكية هي (نيومونت مانينغ) وشركة ايطالية هي (اوسونيا مانييراريا) وشركة الزيت البريطانية وكلها مشتركة مع رأس المال الفرنسي او المشاريع الفرنسية . واتسع الاهتمام بالزيت الصحراوي على الرغم من الحرب الجزائرية . ولكن انقضى عامان على اكتشافات ايجيلي وحاسي مسعود ، قبل ان تقرر فرنسا الشروط التي ستمنح بها الامتيازات ، وقبل ان تحدد الضرائب التي ستستوفيها . وصدر اخيراً قانون بترول الصحراء في تشرين الثاني عام ١٩٥٨ ، فجاء بالايضاحات المنتظرة ، ومهد الطريق لزيادة اسهام الرساميل الاجنبية عن طريق تحديد حقوق شركات الزيت في الصحراء والتزاماتها . وتمنح الامتيازات المعدنية لمدة خمسة عشر عاماً ، ويسمح للشركات صاحبة الامتياز ، بان تستخلص الزيت بنفسها وان تكرره وان تصرّفه في الأسواق ، ولكنها تشجع في الوقت نفسه عن طريق تسهيلات خاصة في الضرائب لتقوم باستثمارات طويلة الأجل . وعلى الشركات ان تقتسم ارباحها من بيع الزيت الخام مع الدولة على اساس المناصفة . وهذا يعني ان فرنسا قد تبنت نفس النظام السائد في الشرق الاوسط ، على الرغم من أن هذا النظام قد ارتبط هناك ، بالحقبة الاستعمارية وأصبح معرضاً للهجوم والحملات وقد اعادت فنزويلا مؤخراً النظر في الحصة التي كانت تتلقاها من زيتها لكن فرنسا على أي حال لن تتمكن من اعادة النظر في هذه الاتفاقات المعقودة قبل انقضاء مدتها وهي خمسة وعشرون عاماً . وسمح في شهر كانون الأول عام ١٩٥٨ لشركة « ستاندارد اويل اوف نيوجيرسي » الامريكية بالدخول والاشتراك . وبعد ثماني سنوات من اول تفجير اهتزازي في الصحراء ، بدأ

أول مشروع ضخم للزيت في الصحراء يعطى ثماره وخيراته . ورحب الفرنسيون ايضاً ، باقتحام شركة المانية اسمها « وينترشيل » الميدان في الصحراء وبقرارها البدء بالتنقيب عن الزيت فيها في عام ١٩٦٠ . وبدأت فرنسا تركز اهتمامها على أن تكون الصحراء ميدان توسع اوروبا الغربية الاقتصادي في المستقبل .

• • •

هتف المذيع في مطار « البيت الابيض » في الجزائر... « من فضلكم... اصغوا جميعاً .. على المسافرين بطائرة الشركة الفرنسية (اير فرانس) رقم ١٨٠ الى (او. ام واحد) والى (ام. دي. واحد) ان يخرجوا من الباب رقم ٢ .. هذا هو النداء الأخير الى المسافرين بطائرات (ايروتيك » الى (كي١٥) ؛ ارجو أن تستقلوا الطائرة فوراً . .. اكرر .. النداء الأخير . المسافرون بطائرة الشركة الجزائرية الى (اش. آر. واحد) .. يطلب اليهم ان يقدموا متاعهم الى التفتيش الجمركي .. »

وتبدو هذه الحروف الغريبة والارقام بالنسبة الى المسافر الوافد حديثاً الى الجزائر اشبه ما تكون بالاحاجي .. وتحلق الطائرات متجهة الى اماكن لا اسماء لها ولا تمثل اكثر من رموز على خريطة الصحراء . ونقاط الماء التي كانت حتى وقت قريب لا يعرفها إلا رجال القوافل وبدو الصحراء ، اصبحت اسماؤها تذاع الآن مع اسماء باريس ولندن وروما . ويحتشد بين المسافرين العاديين دائماً جمع غفير من رجال الزيت ، الرجال الذين يغيّرون وجه الصحراء . ويرتدي بعضهم ملابس العمل ، دون رباط عنق ، وقد حملوا في ايديهم حقائب منتفخة . وهم يبدون صغار السن الى حد كبير عندما يستلقون في المقاعد الجلدية ، او يجلسون الى أرائك البار. انهم رواد الصحراء الحديثة الثراء.

وتبدأ الطائرة بعد طيران يستغرق ساعتين او ثلاث ساعات او اربع في الاستعداد للهبوط . وتظهر عن بعد رافعة النفط ، وقد ارتفعت بهامتها الى السماء . وتخطط الحجارة البيضاء المدرج الذي تهبط فيه الطائرات . وتنتشر

طرق رملية تظهر فيها آثار العجلات ممتدة الى الصحراء التي لا نهاية لها . وتقف ثلاث شاحنات وسيارة جيب على مقربة من ارض الهبوط في زوايا غريبة ، ويركض مسافر متأخر ، أراد ان يحتسي قهوته السوداء قبل السفر ، قادماً من الرافعة وقد ارتفعت حول سيارته سحابة قاتمة من الغبار ، بينما يكون الطيار قد بدأ يستعد للاقلاع .

وعندما نزل فويليمين ، لندبرغ الصحراء ، اول مرة في مناقه ، اصابت الدهشة الأهلين الذين لم يكونوا قد شهدوا طائرة في حياتهم ، من « هذا الشيء الغريب الذي يطير ، والذي يهبط ويظهر منه رجلان فرنسيان » . ولكن هذا الشيء الطائر اصبح الآن يحمل عشرات الرجال الذين يذهبون الى اجازاتهم ، ويأتي بالثلاجات الفخمة ، والشاحنات المولدة للقوة الكهربائية والبيوت الجاهزة والانابيب الفولاذية وحتى طائرات الهليوكبتر . ويخرج من بطن هذه الطائرات وهي من طراز (دي. سي. ٣) . والتي تصل مرة في الأسبوع الى هذه المخيمات النائية ، اشياء اكثر غرابة من الفرنسيين . كحامض الكربونيك والثلج ، وصناديق الويسكي ، وعلب « الأرض شوكي » ، والبرتقال اليوسفي ، والتفاح ، والحمضيات على أنواعها ، واللحم ، والملفوف الطازج ، والأشرطة السينمائية ، وبالطبع الرسائل البريدية ايضاً .

* * *

ويقع مركز (إم. كي. واحد)، وهو من مراكز شركة البترول الجزائري (سيبا) على بعد خمسة وسبعين ميلاً جواً الى الشمال الغربي من قلعة فلاترز في العرق الشرقي الكبير . ولا يظهر من المركز من مسافات بعيدة إلا برج الحفر . ويقوم المخيم على الارض العراء على بعد مائتي ياردة تقريباً . وقال روبرت بيشو ، المسؤول عن المعسكر ، ان اقامته على هذه المسافة البعيدة ناجمة عن الرغبة في الخلاص من صوت آلة الحفر الجهنمي . ومع ذلك فإن سكان المعسكر ينامون على صوته في الليل ، ويفيقون عليه عند الصباح . واذا

حدث وتوقفت آلة الديزل التي تتولى الحفر فجأة ، خيم صمت يصم الآذان على الصحراء ، ويرى مهندس الحفر ان هذا الصمت نذير شؤم ، فقد يعني خراب الآلة ، او تعرض الحفار لكابوس او جفاف الوحل .

ومع ان رافعة البئر تقف وحدها كبرج كنيسة وحيدة ترتفع في طرف العالم ، إلا ان السطح الدوار الذي يبقي على الحفارة دائرة في جوف الارض هو نقطة الارتكاز الحقيقية في هذا المجتمع الصغير . ويستمر العمل يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة في ايام العطل والآحاد وفي الصيف والشتاء بمعدل ثلاث نوبات في اليوم ، تعمل النوبة الواحدة منها ثماني ساعات . ويظل المهندس المسؤول عن الحفر يلقي عين العناية والاهتمام على الوحل الذي ينزلونه في تجويف البئر ، بينما يقوم مراقب « النوبة » بمراقبة « الابر » المهتزة على قرص الجهاز . وليس ثمة من رجل حول الرافعة لا يستمع باستمرار الى خفقات الآله ، والى نهداتها العميقة التي تصدر عنها وهي تشق طريقها عبر الصخور .

ويحدث احياناً ، عندما تجهز الحافرة بفولاذ خاص ، ان يصبح هذا الفولاذ الحافر فدماً ، فيتوقف عن شق الصخور الصلدة . وهنا تبدأ عملية غريبة ، انها عملية التفكيك . ويتحتم إخراج خيط الأنابيب التي ربطت اليها الحافرة التي غدت منهوكة ومتعبة . وتقوم الروافع المركبة في البرج ، بإخراج هذه الانابيب وسحبها . ولو لم تكن الرافعة العالية منصوبة على فوهة البئر ، لتحتم « حل » سلسلة طويلة من الانابيب الفولاذية واحداً إثر آخر ، ولكن وجود الرافعة ، يجعل من الممكن سحب عدد من هذه الانابيب مرة واحدة ، وتكديسها في مجموعات . ومن الملذ مشاهدة هذه العملية التي يحتاج فيها الى القوة والى الايقاع . فهي تمضي في طريقها على صوت هدير آلات الديزل ، وقرقعة الخطاف الذي تدور فيه الانابيب . ويقف رجل في قمة الرافعة الهائلة وكأنه أحد « بهلوانية » السيرك . ويوازن نفسه على منصة ضيقة ، فيرفد الانابيب الى بعضها شاداً إياها الى بعضها وكأنها إبر خياطة ضخمة في قمة البرج .

وقادني بيشو الى مكان العمليات في الرافعة . كانت عملية الفك قد انتهت

قبل قليل ، وقد رفع النصل الفولاذي المثلوم . وكان النصل من النوع الدوار وله ثلاثة اسنان دوارة حادة . وقام جيولوجي المعسكر بفحص اجزاء الصخر التي كانت لا تزال متعلقة بأسنان الحافرة . وبدا عليه انه لا يشعر بأي مرح أو سعادة . واصدر أمره بأن يتحول الحفر الى طريقة الحفر اللولبي ، وهي تختلف عن الطريقة العادية التي تسحق الصخور ، في انها تقتطع اسطوانة من الصخر ثم تحطمها وتدفع بها الى الخارج . وهنا يحصل الجيولوجي على قطعة كاملة من الصخر . وعندما تم اعداد الآلة الاسطوانية التي تتولى الحفر ، برأسها الماسي البراق ، بدأت العملية وهبطت انبوبة الحفر ، كما اخرجت قطعة قطعة . وكان الحفر قد بلغ الى عمق اربعة الاف قدم ، ومن المنتظر ان يصل في غضون ثلاثة اشهر الى عمق سبعة آلاف قدم ، يأمل بعدها علماء طبقات الارض في ان يعثروا على الزيت. والى ان يتحقق هذا ، فلا يحتمل وقوع أي شيء ، يربك الحياة العادية الرتيبة في المعسكر .

ولعل الزوابع الرملية التي تشق طريقها عبر النظارات الملونة فتؤذي الأعين ، وتتسرب الى الأفواه والأنوف والآذان ، والشرائح التي يأكلها الرجال هي من هذه الأمور الرتيبه لاسيما عندما تغطي المعسكر كله بوشاح بني كثيف . وهناك ايضاً العواصف الكهربائية والمغناطيسية الغريبة التي تحطم الأعصاب وتخلق نوعاً من الجنون يعرف في المناطق الاستوائية . وهناك الهواء الجاف الذي يمتص الرطوبة من الاجسام ، وكأنه افعى سامة . وهناك بالاضافة الى كل هذه الأمور الرقص العاري في كل يوم . فالرجال الذين يتولون النوبة الصباحية المبكرة ، يبدون كالمومياء . فليس في وسعهم ان يضعوا على اجسادهم الكثير من الملابس الثقيلة يحشون فيها بذلاتهم الحاكية الملوثة بالوحول . فهم يعرفون بحكم اختبارهم ان الصحراء باردة ولا سيما في الشتاء . ويقول العرب عنها انها « بلاد باردة تشرق الشمس فيها بشكل حار للغاية » . ومع تقدم ساعات الصباح ، يأخذ العمال في القاء ملابسهم عنهم قطعة قطعة ، الى ان يظهروا اخيراً بسراويلهم القصيرة ، يعرضون اجسامهم الرياضية التي تبدو عضلاتهم بارزة

فيها ، وقد لوحتها الشمس ، وقد وضعوا في ايديهم قفازات مطاطيه . وهناك كل ما يدعوهم الى ارتداء هذه القفازات ، ذلك لأن المعاذن تصبح حارة جداً من الشمس التي تثير القروح والبثور .

وهل في الأمكان عمل أي شيء لتغدو الحياة في الصحراء مقبولة على الرغم من الشمس والهواء الجاف والعواصف الرملية ؟ ان رد شركات الزيت على هذا السؤال بسيط للغاية ، وهو تأمين الراحة للموظفين . فالشبان الأصحاء ، الذين يستطيعون ان يأخذوا حمّاماً في اية ساعة يختارونها ، والذين يعاملون كالامراء ، فيعيشون في اكواخ مؤثثة على احسن طراز ومكيفة الهواء ، والذين يستطيعون الذهاب في اجازة الى اوطانهم مرة كل بضعة اسابيع ، هم على استعداد تام للعمل في « نوبة » تستغرق ثماني ساعات في اليوم في الصحراء .

وعرفت عن طريق الصدفة ان شركات الزيت في مراحلها الأولى ، لم تكن على ثقة تامة بأن الراحة ، ستبرهن على أنها السلاح السري الذي يمكن به التغلب على الصحراء . وكانت شركة البترول الجزائري (سيبا) مصممة في البداية على اغلاق عدد من محطات التنقيب كل عام طيلة اشهر الصيف ، عندما تبلغ درجة الحرارة حداً لا يطاق . ولكنها وجدت نفسها في غير حاجة الى تنفيذ هذا القرار لدهشتها ، لسبب واحد ، وهو ان الشركة عندما تتحدث عن الراحة لموظفيها ، تعني فعلاً شيئاً اسمه الراحة .

وهذه الراحة مضمونة للموظفين بلا مقابل تقريباً . ومع ان نسبة قليلة من رواتب عمال الحفر تخصم مقابل وسائل الراحة هذه ، الا أنها نسبة رمزية لا اكثر ولا اقل ، بالاضافة الى ان علماء طبقات الارض (الجيولوجيين) ، وعلماء تخطيط الارض (الطوبوغرافيين) ، وعلماء الجغرافية الطبيعية (الجيوفيزيقيين) ، والذين يتعرضون الى أقصى درجات الحرارة والبرودة في خيامهم الاستوائية ، مستثنون من مثل هذه التخفيضات .

وتشبه الوجبات التي تقدم في هذه المخيمات ، تلك التي تقدمها مطاعم الدرجة الأولى . وعندما زار الجنرال ديغول ، وكان لا يزال مواطناً عادياً ،

لأول مرة محطات الحفر في جنوب الجزائر قدمت له وجبة من سمك السلمون ، والمحار (اويسترز) ، والسلطعون البحري (لوبستر) الذي اصطيد قبل يوم واحد ، وطيور الحجل . أما وجبات عمال الحفر ، فاختيارية ، وفي وسع العامل ان ينتقي ما يريد .

وسمعت عرضاً حديثاً هاتفياً في مكتب مدير شركة التموين العامة في الجزائر ، واعتقد ان هذا الحديث ، يتحدث عن نفسه :

« ثلاثون اوروبياً ؟ حقاً انه لحظ طيب . فلدينا زبون مماثل وعنده مثل هذا العدد من الموظفين تقريباً .. ونحن نمون له في كل اسبوع بطريق الجو : ٦,٥ ليبرات من لحم الخنزير الطازج و ٩٠ ليبرة من لحم البقر و ٥٢ ليبرة من لحم الضأن و ٥٢ ليبرة من الخنزير المقدد وست ليبرات من كبدة العجل و ٥٢ ليبرة من السمك و ٢٥ ليبرة من الدجاج . طبعاً كلها من اجود الاصناف بالاضافة الى ٢٥ ليبرة من الارانب وست ليبرات من النقانق (السجق) . وهذا يعني مائة وليبره من أجود اللحوم للشخص الواحد في كل اسبوع .. » (الليبرة ٤٢٥ غراماً ، أي أقل من نصف كيلوغرام بقليل) .

ومضى المدير يعدد قائمته التي لا تنتهي فذكر البيض وثمانية أنواع من الجبن وثلاثة عشر نوعاً من الخضار ، وسبعة أنواع من الفواكه والزبدة ، والمشهيات . وهناك تموينات شهرية من المواد الغذائية المعلبة التي تحملها السيارات . وشعرت وأنا اسمع كل هذا الحديث وكأنني اشهد عملية الجرد السنوي في مجموعة من مخازن البقالة . فلا شيء ، قد فات المسؤولين ، مما قد يثير شهية الانسان . أما قائمة المأكولات للعمال من أهل البلاد ، فأقل بالطبع من هذه القائمة ، ذلك لأنهم يفضلون اكلاتهم التقليدية المعروفة ، التي ترتكز على لحم الضأن في الشحنات الأسبوعية وعلى الدقيق والكسكس والشاي الاخضر في التموينات الشهرية .

وبعثت شركة التموين العام التي اكتشفت لنفسها هذا المنجم الذهبي في الصحراء ، ما قيمته مليوني فرانك من مسحوق بيض السمك « بات دي فوا »

الى الصحراء كهدية في عيد الميلاد ، بينما يعيش التبوسي في جبال تيبيستي في الصحراء مدة ثلاثة أيام على حبة من التمر ، يأكل قشرتها في اليوم الاول ولبابها في اليوم الثاني ويسحق نواتها في اليوم الثالث . ولاريب في ان هذا القول قد يلقي بعض الاهمية على ما في التمر من قيمة غذائية ، ولكن هذا ليس كل شيء . وقد كتب رحالة انكليزي في القرن التاسع عشر يقول : « عندما يسافر التيبي ، يأخذ معه ملء كيس من جلد الماعز من الخبز ، وحفنات من التمر المجفف . وعندما يفرغ ما حمله معه من زاد ، يصوم ثلاثة أيام ، ثم يشد حزامه الى وسطه ويمضي في طريقه ، ويعيش في اليوم الرابع على جرعات الماء ، فاذا لم يجد في اليوم الخامس شيئاً يأكله ، أخذ يحس بالقلق احساساً شديداً .

واذا قارنا ما يأكله رجال الزيت مع ما يأكله التبيون ، بدا لنا ان رجال الزيت هم مزيج من المردة والعمالقة الذين لا يشبعون . فبالنسبة الى العامل الصناعي في الصحراء يعتبر اقصى ما يمكن من المتع والراحة . اقل ما يمكن تقديمه من الاشياء الضرورية .

وبين الاسماء المختصرة التي تكرر ترددها في الصحراء في الآونة الاخيرة اسم (بروهوزا PROHUZA)، ويعني هذا الاسم « مركز الدراسات والمعلومات للمشاكل الانسانية في المناطق القاحلة». وقد قام مكتب الصناعات الافريقية بتأسيس هذا المركز الدراسي في عام ١٩٥٦ ليتولى دراسة المشاكل الانسانية ولا سيما مشاكل العمال في المناطق القاحلة . ويطلق خبراء هذا المركز على انفسهم اسم علماء الصحراء « ايريمولوجيين » إذ أن هذا العلم يتعلق بالدراسات الصحراوية . ويعمل هؤلاء العلماء بالاشتراك مع مختبر علم وظائف الاعضاء التطبيقي في ستراسبورغ ، ويعتمدون في دراساتهم على التجارب التي تحققت في الحرب الاخيرة وبعدها في المناطق شبه الصحراوية في الولايات المتحدة الامريكية . وقد اقام المركز محطة خاصة له في الصحراء في غار جبيلات ، حيث يقوم العلماء بدراسات طموحة خاصة بهم . وكل هدفهم اقناع الدوائر المسؤولة ، بان العنصر الانساني يجب ان يعطي الألوية على العنصر التقني ،

لا بالعكس . واذا كان لهؤلاء العلماء من شعار ، فهو الكلمات التي سطرها اسلاف الطوارق على جدار يحيط بأحد وديان ما قبل التاريخ ، وهذا نصها : « ان من يضع رأسه في كيس نخالة ، تأكله الحمير » .

ويعتبر الدكتور كلود فيفان الممثل المتجول للمكتب في الصحراء . وقد كانت له تجارب طويلة وواسعة في المناطق الاستوائية والصحراء . وقد قضى ثماني سنوات في الكونغو وتشاد والنيجر كطبيب متنقل وكرئيس لحملة مكافحة السل . وهو يعرف في محطات الحفر في الصحراء بأنه « طبيب الصحراء » . وقد عهدت اليه شركات الزيت بادارة جميع الخدمات الصحية في الصحراء . ولذا فهو يطلب الى الواجب دائماً . واذا وقع حادث او اصيب شخص بمرض خطير في احدى محطات الحفر ، فانه يستشار بطريق اللاسلكي فوراً . وهناك محطة التقاط خاصة في الجزائر تعمل ليلاً ونهاراً وتتولى التقاط الرسائل القادمة على موجة خاصة ، للخدمات الصحية الصحراوية . ويقوم مرة في الشهر بجولة في الصحراء كلها ، منتقلاً بالطائرة من واحة الى واحة ومن معسكر الى معسكر . ويمضي اليه الشبان العاملون في الصحراء ، مرة في العام للفحص الطبي الكامل .

وقد تمكن الدكتور فيفان من الوصول الى نتيجة علمية ، وهي انه بعد سنتين او ثلاث سنوات من العمل في الصحراء ، يتعرض كل من يعمل فيها « للاعياء الصحراوي » الذي يصفه بأنه طراز من « الحساسية الصحراوية » . والقيام بعمل شاق في بطن الصحراء يخالف جميع قوانين الطبيعة . وتكون درجة حرارة المريض الداخلية ٩٨,٤ ، أما درجة حرارة الجلد فتقل بضع درجات عن ذلك . وتعتمد قدرته على العمل في الصحراء في الصيف على تمكنه من الحفاظ على درجة حرارة جسمه في مستوى عادي . وتحدث حرارة الجسم في الدرجة الأولى من العمليات الهضمية . فالجسم الانساني يولد حتى وهو في فترة النوم خمسة وسبعين وحدة حرارية (كالورياً) في الساعة . والعمل اليدوي الشاق يرفع هذه الكميات الى اربعمائة وحدة . يضاف الى هذا ان الجسم الانساني يمتص ايضاً الحرارة من الخارج ، من حرارة الشمس المباشرة

او غير المباشرة (وبصورة مستقلة تمام الاستقلال عن درجة حرارة الهواء) ، وفي حالات معينة في الهواء ايضاً . ويمكن التخلص من الحرارة الزائدة في مناخ معتدل بطريقة سهلة ، اذ تقوم الارض او يقوم الهواء بامتصاصها . واذا ما سخن جسم الانسان الى الحد الذي لا تعود فيه الحرارة تنطلق منه بصورة كافية ، فان الجهاز البشري يملك نظاماً خاصاً لتكييف الهواء ، يسارع الى العمل تلقائياً ، إذ تقوم مليون غدة بامتصاص الماء الذي يبرد عندما يتبخر . ويعود الدم الذي نقل الحرارة الاضافية الى الجلد ، بالعودة الى الجسم بدرجة حرارة مخفضة .

وفي اشهر الصيف في الصحراء ، عندما ترتفع درجة الحرارة الى اكثر من مائة وعشرين درجة في الظل ، يصبح جهاز التكييف الخاص في الجسم ، عاملاً تحت ضغط كامل . والتبخر بمعدل بنتين من العرق في الساعة ليس بالأمر غير المألوف (البنت الواحد هو ثمن الغالون) . وقام الدكتور فيفان ذات يوم من الأيام التي لا رياح فيها من شهر آب ، بوزن ما يخسره عامل الحفر من وزنه بطريق العرق ، بدأت نوبة العامل في الساعة السابعة صباحاً وكانت درجة الحرارة ٩٣,٢ فهرنهايت مع نفس النسبة المئوية من الرطوبة ، وانتهت النوبة في الثالثة بعد الظهر ، وكانت الحرارة قد ارتفعت الى ١٢٥,٦ درجة فهرنهايت في الظل كما هبطت نسبة الرطوبة الى ٣١ في المائة . وعندما عاد العامل الى المخيم كان وزنه قد خف ثماني عشرة ليبرة في ذلك اليوم . وبالطبع ، كان هذا مجرد تجربة لا تخلو من الخطر . فليس في استطاعة انسان في الصحراء ان يخسر بطريق العرق اكثر من اثني عشر في المائة من وزنه . وبالاضافة الى هذا فهناك خطر الانفجار في الانسجة من جراء اشتداد الحرارة مما يعني في لغة الأمراض الشائعة « ضربة حرارة » . ولا يخسر عامل الحفر في الظروف العادية الكثير من وزنه . فالظمأ يعمل للعامل كالضوء الاحمر ، الذي ينذر صاحب السيارة بأن الوقود يكاد ينفد من سيارته . والغرفة الموجودة في برج الحفر تشبه المكان الذي يبيع كافة المشروبات الخفيفة ، ولكن الفرق انها هنا تقدم بلا ثمن ، وتشمل المياه المعدنية وعصائر الفواكه . ولكن لا يكفي ان يروي الانسان عطشه ، فقد

اثبت البحث العلمي ان جهاز الامان الطبيعي لا يعمل بسهولة ويسر في الصحراء. فإطفاء الظمأ يعوض على الجسم نصف ما فقده فقط من الماء بالعرق . ويصبح هذا الوضع خطراً بصورة خاصة في لحظات الجفاف ، عندما لا تظهر حبات العرق على جلد الناس . فالهواء يمتص الماء من المسام بسرعة بحيث لا يتوافر له الوقت للتبخر . ولا يعود جهاز الانذار الطبيعي الى العمل إلا عندما يركن الجسم الى الراحة ، او يتناول المرء وجبات طعامه .

ومن الحق أن يقال ان راكب البعير يستطيع الاكتفاء عدة أيام بخمسة أو ستة غالونات من الماء . ولكن هذا لا يعني قط انه قد اكتشف طريقة اكثر تأثيراً في ذرف الفائض من الماء بطريقة العرق . وانما يعني انه يبذل عناية فائقة في الحفاظ على الحرارة الزائدة ، منخفضة الى اقصى حد ممكن . انه يقضي اكثر ساعات النهار حرارة في الظل ، ويتجنب القيام باية تمارين لا لزوم لها ، ويحافظ على بقاء جسمه كله مغطى. والعمل بالعراء في الشمس، كما يفعل اكثر عمال الزيت ، اذ يبقون اجسادهم عارية حتى الحصر ، خطأ كبير ، اذ ان هذه التعرية تلقى على الجسد جهداً خاصاً . وفي الوسع توليد نحو من ألف سعر حراري (كالوري) في الساعة ، بينما لا يؤدي تبخر (بنتين) من العرق الى اطلاق اكثر من ستمائة سعر .

وقال لي الدكتور فيفان وكنا في مخيم (مقراتا) .. « اتعرف انه عندما مد الخط الحديدي بين الكونغو والمحيط ، كلف وضع كل قضيب حديدي ، روحاً بشرية . ومن حسن الحظ ان الكوارث التي من هذا النوع ، قد غدت امراً من أمور الماضي وهناك تقنيون ، يعتقدون ايضاً ان اية مشكلة من مشاكل البيئة يمكن حلها عن طريق انفاق الطاقات . أما انا فلا ارى هذا الرأي ابداً . فبعد فترة معينة يظهر مرضاي من المصابين « بالاجهاد الصحراوي » ، علائم بدنية وعقلية ، مما يوحي بأن تكييف الهواء والوجبات المترفة ، لا تعوض الجسم الانساني في حد ذاتها ، على نقله من بيئته الاصلية الى بيئة عنيفة كالجو الصحراوي . وليس في الوسع خداع الصحراء بمثل هذه السهولة . واذا اردنا

ان نحقق شيئاً عظيماً بالفعل في الصحراء ، فعلينا ان نتعلم اكثر واكثر عن الانسان وعن سلوكه بالنسبة الى بيئته . ونحن نعرف اليوم عن علم الصخور (البطروغرافية) في المجرى المائي الجوفي (الالب) ، اكثر مما نعرف عن العوامل البدنية والعقلية ، والروحية التي تقرر سعادة العامل الانساني في الصحراء .

وعاد الدكتور فيفان وزملاؤه في مكتب الدراسات الانسانية في الصحراء (بروهوزا) ، الى الاهتمام بعدد كبير من المشاكل الفردية . فما هو طراز البيت المثالي في الصحراء ؟ وما هي اجود أنواع مشاريع تكييف الهواء ؟ وما هي الأطعمة الأساسية التي يجب ان يتقيد بها الطباخ في الصحراء ؟ أو ليس من الافضل الاستغناء عن بعض الاطباق المجلبة للعطش والتي تثير الحرارة في الصيف ؟ وهل من الواجب اضافة كميات من الفيتامين ؟ وهل من الخير ان يتناول الانسان حبات ملح يستعيض بها عن كميات الملح التي يفقدها بالتبخر ؟ وما هي افضل الملابس واغطية الرأس للاستعمال في الصحراء ؟ وهل تصلح نوبة الثماني ساعات المستوردة في اجواء اكثر اعتدالاً ، للاوضاع الخاصة هنا ؟ ويشك الدكتور فيفان في هذه الصلاحية . فهو يرى ان الجسم يستطيع ان يفرز بنتين من العرق في الساعة مدة ثماني ساعات ، تغدو بعدها الغدد العرقية متعبة منهوكة . ومن المحتمل ان تصل الى رقم أعلى في فترات قصيرة ، ولكن الجسم لا يستطيع في مثل هذه الحالة احتمال هذا الرقم لمدة النوبة كلها . ولهذا ففترة الثماني ساعات في رأيه طويلة جداً ، اذ انها تتضمن فترات قصيرة من المجهود الهائل .

وهل فترات الاجازة القصيرة والمتكررة التي يقضيها الموظفون في الجزائر او فرنسا ضرورية لراحة الجسم ؟ ففيفيس وكريتاز مثلاً اللذان يتوقف عملهما في الصحراء منذ أواسط حزيران حتى ايلول من كل عام ، يطيران الى الجزائر مرة كل ستة اسابيع لقضاء ثمانية أيام فيها ، ويطير بيشو مرة في كل شهر ، ثم يأخذون جميعاً اجازة سنوية طويلة أو اجازة كل سنتين . ومعظم الحجج التي تستعمل في الدفاع عن هذا النظام نفسية . وثمانون في المائة من رجال

الزيت متزوجون ولهم عائلاتهم في الجزائر او في فرنسا . ويعتقد الدكتور فيفان ان من الأفضل ان يأخذ الانسان اجازات طويلة على فترات طويلة ، لأن الجسم الانساني يحتاج الى اسبوع على الأقل ليكيف نفسه على المناخ الشمالي الرطب . ولعل اجازة ثمانين يوماً من الناحية النفسية ، اجهاد اكثر منها تسرية وترويح عن النفس .

ويظل هناك سؤال آخر ، وهو ما هي العوامل التي يجب ان يأخذها المرء بعين الاعتبار عند اختيار الاشخاص للعمل في الصحراء . ان العمل في حفر الآبار شديد الخطورة ، ولا يعدوه في كثرة الحوادث إلا التعدين وقطع الاحجار. ومن المهم جداً في الاجواء المعادية ، اختيار الرجل الصالح للعمل الذي يناسبه . فالمناسبة التامة شيء جوهري للغاية . ويؤثر المدير المسؤول عن التوظيف الرجل الذي تستهويه الأجور المغرية ، على ذلك الذي جاء مدفوعاً بخيالاته في العظمة وبيأسه في الحب . ومع ذلك فليس جميع الشبان من محبي المادة ومن الخشني البنيان ، يستطيعون احتمال حرارة الصحراء دائماً . فالرجل الرقيق النحيف اكثر قدرة على احتمال الحرارة من الرجل الضخم ، الكبير الجسم . ولكن ثمة عوامل اخرى مساعدة ، وهي طراز التركيب البدني ، والعنصر ، والعمر ، والأساس العائلي وما شابه ذلك . ويحاول مكتب الدراسات الانسانية (بروهوزا) البحث في هذا الميدان البكر ، أملاً منه في ان يقوم اختيار الأشخاص على اسس اكثر علمية .

ووجد الدكتور فيفان نفسه مضطراً الى توسيع حقل دراساته لتشمل اسئلة اكثر اتصالاً بحياة الانسان . ويبدو ان سلوك « رهبان الصحراء » عند عودتهم في اجازاتهم الى الوطن يولد « عقدة صحراوية » في نفوس زوجاتهن ، مما يؤدي كثيراً الى ان يدير الازواج ظهورهم الى فراديس الحمقى في الصحراء ، والى الأجور والرواتب المغرية فيقدموا استقالاتهم .

وقضيت ليلة نموذجية في « مقراته » . ففي المطعم ، كان عامل السينما ، يعد شريطه في الآلة التي أزال منها الغبار . وفي « البار » كان عدد من رجال

النوبة السابقة ، يحاولون تهدئة زميل لهم ، اكثر من ري ظمأه بشرب الجعة . وكانت جماعة اخرى قد عادت لتوها من لعبة « الفوليبول » . وكان الطباخ يسب مساعده لأنه قذف بصندوق من المياه المعدنية في المطبخ . وكان ماء الحفر ينقل بشاحنات الماء من احد آبار البدو ، ولكنه كان شديد الملوحة بحيث لا يصلح للطعام ، او للشرب او للحلاقة . ولهذا فقد كانوا يستعملون لهذه الغايات المياه المعدنية المستوردة من فرنسا .

واشتعلت الأضواء في الرافعة ، محيلة إياها ، الى منارة صحراوية ، وهو اجراء لا يستمر في العمل دائماً . وكثيراً ما سمعت قصة ذلك العامل في محطة اخرى للحفر ، الذي وقع فريسة زوبعة رملية بين المخيم والرافعة التي كان ضوؤها خافتاً . وبعد ساعات عدة ، عثر على الرجل التعس ميتاً على بعد خمسة اميال من المخيم .

وكسائح لا عمل لي ، كنت تواقاً لرؤية المعسكر ، وهو يضاء . وفي طريقي اوقفني احد الحرس ، وكان علي ان انتظر ، حتى يمكن العثور على من يرافقني . وظهر اخيراً شخص سويسري ، كان يضع النعال في قدميه ويرتدي ملابس ملونة . وكان هذا الشاب جندياً سابقاً في الفرقة الاجنبية وقد تطوع في الجيش الخاص الصغير الذي انشأته شركة البترول الجزائري (سيبا) كغيرها من شركات الزيت لحماية موظفيها منذ وقع حادث تيميمون .

فقد وقع في تشرين الثاني عام ١٩٥٧ تمرد في فرقة الهجانة ، وغادر المتمردون المعسكر ، للانضمام الى جيش التحرير الجزائري ، وليصبحوا رمزاً على قدرة هذا الجيش على نقل الحرب الى الصحراء . وقد هاجم رجال الجيش فريقاً من المساحين في تيميمون وقتلوا ثمانية من موظفي شركة البترول الجزائري . وجاءت الأنباء كالصاعقة. وقررت الشركة ، موقتاً وقف جميع عملياتها في المنطقة الغربية . وقام العقيد بيغيار من فرقة المظليين بالتنقيب في الواحات ، وفي كل مكان يصلح للاختباء في الصحراء ، ولكن دون جدوى ، بينما شرعت شركات الزيت في تنظيم قوات الأمن الخاصة بها . وظل موظفو

الشركات غير مسلحين ، مخافة استفزاز رجال جيش التحرير على مهاجمتهم . وفي « مقراته » نقل المخيم الى مقربة من الرافعة ، واقيم سياج من الأسلاك المكهربة وجدار من الطوب حول المخيم والرافعة ، كما عهد الى فصيل مؤلف من عشرة رجال من الحرس بحماية مدخل المخيم . وعندما قمت بزيارة مقراته ، كانت هذه الاجراءات قد غدت روتينية رتيبة . ولم يكن أحد من الناس ليحس بأي قلق ، فقد انقضت عدة شهور منذ وقع حادث تيميمون، يضاف الى هذا ان الافتقار الى الماء في هذا الجزء من الصحراء يجعل العمليات الحربية امر مستحيلاً . ولم يكن حتى في وسع القوافل البعيدة ان تثير أي قلق . وقد أثارت بعض الآثار الحديثة التي خلفتها قافلة من الجمال ، يبدو انها مرت بهدوء دون أن يراها أحد اثناء الليل ، الكثير من التكهنات ، ولكن سرعان ما نسيت ايضاً . ولم يكن احد ينظر الى قوة الأمن نظرة جدية . ولقد قال لي احد عمال الحفر وهو يهز كتفيه ، وقد لاحت في عينيه نظرة الاستخفاف وهو يتطلع الى الأسلاك المكهربة ، والى خيام الحرس (البريتوري) ، « ان غرفة الخزين الباردة والكبيرة قرب المطبخ ، وجهاز الراديو الصالح للاستقبال والارسال ، اكثر اهمية لبقائنا وحياتنا من هذه الدزينة من رجال الحرس .

وعدت من مسيرتي لأجد روبير بيشو في غرفة اللاسلكي . وكانت جدران الغرفة مغطاة بصور العرايا ، وبدا لي ان من الغرابة بمكان عظيم ان يحاط الانسان في الصحراء بمثل هذه الصور ، وسمعت بيشو يقول على الهاتف ، وقد فرغ صبره ... « الحب » .. انه يطلب شريطاً سينمائياً جديداً .

* * *

كانت الرحلة اشبه ما تكون بسفرة تحت وابل من نيران المدافع وقذائفها ، وكانت أسراب الجراد تندفع فتضرب برؤوسها زجاج سيارة «الستيشن» التي كنا نستقلها . وتوقفت ماسحة الزجاج عن الحركة لكثرة ما تراكم على الزجاج من جراد ميت . وكان السائق يتوقف بين الفينة والأخرى ، ليزيح

عن الزجاج ما تراكم عليه ، واخذ يحول بينه وبين الرؤية . وكان ضباب الجراد يتكاثر علينا كلما مررنا « بدايا » ، وهي المنخفض الأخضر المليء بالعشب الشتوي والبرسيم وأشجار الفستق الاطلسي . وحاولنا التخفيف من سرعتنا ولكن دون جدوى . فقد كان الهواء مليئاً بالجراد المنتحر .

ووصلنا اخيراً الى (تي. آي. واحد) ، وهي اول محطة المانية للحفر في الصحراء .

وكان الفرنسيون قد بدأوا بالاهتمام بالتنقيب عن الزيت في بلادهم وفيما وراء البحار في عام ١٩٤٥ ، ولكن الاهتمام وحده لم يكن كافياً . وكان لابد من خلق صناعات جديدة ، ومن اعداد برامج طموحة للتدريب ، للتقنيين والعمال الفنيين . وقد دهش الخبراء الأجانب من السرعة البالغة التي تمكن فيها الفرنسيون من السيطرة على المشاكل التقنيه التي تتطلب الاختصاص العالي في التنقيب . ولكن فرنسا قللت من اهمية المغامرات التي ستجد نفسها مضطرة الى الدخول فيها . فسرعان ما تبينت النواقص ولاسيما في محرك التنقيب واعني به معدات الحفر ، والعمال الفنيين المسؤولين عنه . وقرر الجيش الفرنسي ان علماء طبقات الارض ، المطلوبين للخدمة العسكرية ، يجب ان يتوفروا كمدنيين لشركات الزيت إذا طلبتهم للعمل معها في الصحراء ، وان عمال الحفر المستعدين للعمل في الجزائر أو في الصحراء ، يجب ان تخفض مدة خدمتهم العسكرية الى خمس المدة المقررة . وأدى هذا الافتقار بصورة رئيسية الى ان الشركات التي تملك حقوق التنقيب وامتيازاته اخذت ، تتعاقد مع شركات اخرى لتتولى العمل بالنيابة عنها بطريق التعاقد . وتم الارتباط في عام ١٩٦٠ مع اربع مؤسسات مختصة بأعمال الجغرافية الطبيعية بهذه الطريقة وكانت ثلاث من هذه المؤسسات ذات رأسمال امريكي . ولم يكن بين حقول الحفر التي تعد ستة واربعين في جميع انحاء الصحراء إلا أحد عشر حقلاً تعمل فيها الشركات صاحبة الامتياز نفسها ، أما الحقول الباقية فتتولاها شركات تعهدات ، بعضها يمثل مصالح المانية والبعض الآخر يمثل مصالح ايطالية .

وعثرت الشركة الوطنية (ريبال) في تشرين الثاني عام ١٩٥٦ على مخزون من الغاز الطبيعي على عمق (٧٢٠٠) قدم في حاسي الرمل , وقد انتجت كل من البئرين الأولتين (اش. آي. واحد) و (اش. آي. ٢) ، واللتين تبعد الواحدة منهما عن الأخرى عشرة اميال ، اثناء التجارب خمسة وثلاثين مليون قدم مكعب من الغاز . ولهذا تعتبر هاتان البئران من اغنى آبار الغاز الطبيعي في العالم . والميثان المستخرج رطب ، وهو يضم مائة وخمسين غراماً من الغازولين وثمانين غراماً من البوتان والبروبان في كل متر مكعب . وقد قدر الخبراء بعد ثماني عمليات حفر ناجحة في مطلع عام ١٩٦٠ المخزونات الاحتياطية الثابتة بثمانمائة مليار متر مكعب . وهذه الكمية تقدر من ناحية الطاقة الحرارية بأكثر من بليون طن من الفحم . (تقدر كميات الفحم الاحتياطيه في حوض الروهر بخمسة وستين بليون طن) .

ويتوقع ان يلعب الغاز الطبيعي في حاسي الرمل ، دوراً مهماً في التطور الصناعي في الجزائر . ومع ذلك فإن الشركة الوطنية (ريبال) تؤثر عصفوراً في اليد على عشرة على الشجرة ، وهي لهذا تفضل ان يكون لديها حقل متواضع من الزيت على أن يكون لها هذا المخزون الهائل من الميثان (غاز المستنقعات) . وقد شرعت الشركة في عمليات حفر جديدة وهي تأمل في أن يكون هذا الغاز الذي عثرت عليه ، طبقة تغطي الطبقة الغنية بالزيت . وكانت البئر (تي. آي. واحد) ، اولى الابار التي حفرتها .

ولعل اهم مظهر من مظاهر هذه البئر هو رافعتها . لقد كانت الأولى من نوعها في كل افريقيا . فهي تقوم على رجلين من النوع الذي يدعى بصاري « غاليفر » بدلاً من طراز برج ايفل التقليدي ذي الاربع قوائم . وفي وسع هذه الرافعة ان تحفر الى عمق اثني عشر الف قدم . وعلى الرغم من انها تزن (٢٧٠) طناً الا أن هذا المارد الألماني سهل على التركيب بصورة لا تكاد تصدق

ووصلت الى (تي. آر. ١) فوجدت الجميع في حالة من الهياج والحماس . كان الطين ينضح ويتسرب . وكان حفارو الشركة الوطنية قد حذروا زملاءهم

الألمان ، من ان هذا قد يقع بعد عمق معين. وقد وقع بالفعل اسوأ مما كان متوقعاً . ولعل اهم شيء بالنسبة الى الرجل العادي هي الرافعة والمثقب وقد يمضي دون أن يسأل سؤالاً واحداً عن اكثر النواحي اهمية علمية في عملية الحفر وهي عملية التشحيم والتندية .

ويجري اعداد سائل التشحيم او التندية ، الذي يطلق عليه الانكليز والامريكان والفرنسيون اسم « الطين » او « الوحل » في حفرة على مقربة من البرج . ويتأرجح الخرطوم الأسود الذي يشبه الثعبان ، والذي يحمل « الوحل » عن طريق الفخ الى الانبوب الفارغ فوق رؤوس عمال الحفر . وفي نهاية انبوب الحفر ، يحشر « الوحل » عبر ثقوب في المثقب ، ويرتفع بين جدار ثقب الحفر والانبوب الى السطح ، حيث يجري تنظيفه ونقله من جديد الى حوض الخلط .

و « الطين » هو دم الحياة بالنسبة لعملية الحفر . فهو يقوم بسلسلة من الوظائف . فهو أولاً « يزدرد » قطع الصخر من ثقب الحفر ، ويستطيع العالم الجيولوجي عن طريق فحصها الحصول على معلومات قيمة عن الطبقات الصخرية التي يجري الحفر فيها . وهو « يدهن » الاجزاء المتحركة من آلة الحفر ، ويحافظ على رطوبتها ، كما يشكل قشرة واقية على جدران الثقب ، والأهم من ذلك كله ، ان ثقله يحول دون تفجر غير منتظر من الزيت او الغاز او الماء .

وليس ثمة من شراب كوكتيل ، يجري اعداده بعناية اكثر من « طين » الحفر . ففيه يدخل مزيج من الخبرة العلمية وسرعة الادراك القائمين على اساس التجارب الطويلة . والعنصر الاساسي هو الماء . ويستهلك الحفر العميق عشرة آلاف غالون في اليوم وهي كمية تكفي لري فدانين ونصف الفدان من بساتين النخيل للمدة نفسها . ولكن الماء وحده أخف من ان يمنع الخسوف أو الانهيار أو من أن يخفض ضغط الغاز العالي او الزيت او الماء الجوفي . وعن طريق مزجه بالصلصال ، يتحقق الثقل اللازم . ثم باضافة مواد أخرى من السوائل الثقيلة ، يمكن العثور على خليط جديد يزن ضعفي الماء . ومع الصلصال

هناك مادة اخرى تضاف الى المزيج ، وهي تقرر درجة السيلان ومعدله . ويتوقع المشرف على الحفر ان يصبح « الوحل » اقل كثافة مع تبدل الضغط ، وان يشتد كثافة الى ان يصبح كالزيج عندما تتوقف المضخات عن العمل . وبهذه الطريقة اذا توقف سيلان الوحل ، فان قطع الصخر التي يحتويها تمنع الوحل من ان يغرق وان يغلق ثقب الحفر .

ولا يتعدى ما ذكرته حتى الآن « وصفة » ما يستعمل في عملية المزج . أما اختيار المحتويات المستعملة في المزيج فيعتمد على الاوضاع الجيولوجية المعينة التي يعمل فيها الحفر . واذا ما استثنينا ذلك ، فان كل اخصائي في الوحل يعد التركيب الذي يراه .

ووضع التطور الجديد في اساليب الحفر الفنية ، واجبات جديدة على عاتق الوحل . انه هو الذي يحرك قطعة الحفر . وفي الوسع ان نقوم بالحفر بمجرد تعليق قطعة ثقيلة من الفولاذ بسلك وان نخفضه ونرفعه بصورة موزونة . ويبدو ان الصينيين قد استخدموا هذا النوع من الحفر قبل الفي عام ، وكانت اولى عمليات الحفر المنظمة بحثاً عن الزيت قبل مائة عام تسير بهذه الطريقة . ولا يزال البعض يستخدم هذا الأسلوب حتى اليوم في بعض الاحيان ، اذ ان له مزايا كبيرة في الطبقات الصخرية الصلدة التي لا تمتد الى اعماق بعيدة . ولكن منذ نهاية القرن بدأ استخدام اسلوب الدوران في عمليات الحفر العميق ، وقد حفرت معظم آبار الزيت العميقة في العالم بهذه الطريقة . ومنذ امد قصير ، وبعد ان كادت تنضب مخزونات الزيت القريبة من السطح ، وغدا من الضروري النزول الى اعماق اكثر ، والى حفر اكثر انفاقاً ، أخذت عيوب الطريقة الدورانية ، التي كانت واضحة منذ البداية تصبح مشكلة عملية .

وتعتبر الطريقة الدورانية من الناحية التقنية ، مزيجاً من الاعجاز وعدم الخيال . ولا يعتبر توسيع آلة الحفر الى مساحات ضخمة ، شيئاً يمت الى الخيال ، ولكنه يعمل بطريقة عجيبة . وكان اعمق بئر تم حفره في تكساس قد بلغ خمسة اميال في عمقه . ولا شك في ان أنابيب الحفر ، كانت ستنهار تحت ضغط

وزنها ، لو لم تكن اقوى من الفولاذ العادي بمائة ضعف على الأقل .

وعيوب الحفر بالطريقة الدورانية واضحة . فلا يمكن دائماً استخراج حافرة اذا « ثلم » حدها وتبديلها بسهولة . فهذا الاستبدال يتطلب إخراج جميع الانابيب وفكها عن بعضها ، وهذه عملية مضيعة للوقت بالاضافة الى ما تتطلبه من تكاليف باهظة وما تفرضه على عمال الحفر من اعباء مجهدة ، وليس من المستغرب ان يجري استبدال جهاز الحفر مائة مرة على الاقل في عملية حفر عميقة .

ولكن للطريقة الدورانية ايضاً ، عيب آخر اكثر خطورة . فأكثر من تسعين في المائة من القوة تستخدم في انزال آلة الحفر . وتحتك الانابيب المرنة مع أطراف البئر وللتغلب على تأثير الاحتكاك ، يكون الحفارون في حاجة الى الكثير من القوة . والحل واضح كل الوضوح . فالقوة الدافعة يجب ان تنقل الى قعر البئر . وكان الروس ، هم اول من قام بالتجارب في هذا الميدان . والوحل الذي يدفع بالمضخات الى الاسفل يحرك اسطوانة الحفر . ويجري الحفر في الاتحاد السوفياتي بمعدل اربع من مجموع خمس عمليات من هذا النوع أو الطراز . ويطلق الحفارون الامريكيون على هذا الاختراع اسم « الثورة الروسية » ويضع التقنيون السوفيات الخطط لحفر بئر عمقه عشرة اميال ، بينما يفكر الامريكيون بالقيام بعملية حفر في عوامة طائفة فوق الماء تخترق قشرة الارض في بعض النقاط تحت البحر ، حيث لا تبلغ كثافة القشرة اكثر من ثلاثة اميال ؛ وتمكنهم هذه الطريقة من معرفة اسرار الغطاء الارضي . ويختلف الخبراء فيما إذا كانت تجارب من هذا النوع مقبولة مالياً عن طريق حافرة إسطوانية .

ولنعد الآن الى الوحل ، فاذا اخترقت القطعة الحافرة طبقة صخرية ملأى بالشقوق والاخاديد والجيوب ، فان الوحل قد « ينز » الى الارض ويتسرب ؛ وهذا قد يكون كثير التكاليف وخطراً في آن واحد . وهناك طريقة بسيطة لمنع التسرب . وهي ان ننزع قطعة من انبوبة الحفر على عمق مناسب . لكن الحافر لا يلجأ الى هذا العمل الا كاجراء اخير ، ولا سيما عندما لا يكون الثقب

عميقاً للغاية كما هي الحالة في (تي. آي. واحد) . فكلما طالت انبوبة الحفر ، فان الثقب الذي يبلغ قطره عند الفوهة ثمانية عشر انشاً ، يصبح اصغر فاصغر ، ومن المرغوب فيه ان يكون هناك اقصى انحراف ممكن ، عندما تدخل انبوبة الحفر الطبقة الحاملة للزيت . ولهذا تبذل المحاولات لاغلاق الشقوق .

وبالاضافة الى الصلصال والمواد المعدنية التي تستعمل في اعداد الوحل ، فهناك كميات ضخمة من الاسمنت يجري استيرادها الى الصحراء ، لا لتستخدم في البناء بل في جعل الوحل اكثر تماسكاً وأقل استعداداً للتسرب والانسياب . والاسمنت في حد ذاته شيء نادر الوجود . وتستخدم احياناً في اعداد مزيج اوراق السيلوفان ، وكتل القطن وبذرته ، وقشر الجوز ، والاسفنج ، والياف قصب السكر ، ونشارة الخشب والريش والقش والنخالة ، وبعض المعادن والمواد الكيمائية لسد الشقوق ، واحياناً تستعمل لفافات الاطعمة وشرائح الخبز واكياس الاسمنت في الحالات الطارئة .

وكان جو محطة (تي. آر. واحد) طيلة ذلك اليوم شديد التوتر والتأزم . واضاءت الأنوار الكاشفة المخيم والبيد القريبة . وتبدل الخفير القائم على حراسة الباب الخارجي للمخيم الذي اغلق منذ مغيب الشمس . ولكن افكار عمال النوبات الليلية لم تكن متجهة الى القلق من هجوم يشنه المحاربون الجزائريون ، وانما كانوا يفكرون بالتقرير الاذاعي الذي يجب ان يرسل الى الجزائر إلا اذا تبدلت الاوضاع . وبذل الجميع كل ما لديهم من طاقة . وأخذت الاشباح التي يغطيها دقيق الاسمنت تقفز في الصحراء المتجمدة البرودة ، وعندما بدأت أنوار النجوم تسطع ثانية في السماء ، أحس الحفارون بشيء من الانفراج . لقد اتموا العمل ، واغلقوا التسرب الذي وقع . ولم يمض طويل وقت حتى كانت الحافرة تنقر الصخر من جديد ، وحتى كان « الوحل » الذي يشبه الشوكولاته يتصاعد من جديد من الثقب حاملاً فتات الصخر وقطعه .

* * *

من السهل جداً أن تعود بنا الذاكرة الى صور الماضي ، والى اجواء الغرب المتوحشة في امريكا ، اما زخزفة المسرح الآن فشيء يمت الى المستقبل . فالصهاريج الفضية البراقة والانابيب الحمراء والخضراء والصفراء ، ووهج اللهب الغازي الذي يلقي بضوئه المفزع على المخيم في الليل ، واجهزة مكافحة الحرائق ولافتات خطر التدخين ، والاشرعة والحبال ، والمناطق المحظورة ، واضواء الانذار الحمراء ، والمضخات والآلات ، والرجال الذين يرتدون النظارات السوداء والخوذ والقفازات من الاسبستوس ، والاحذية التي يلبسها الغواصون ، كلها علائم تشير الى محطات في الفضاء الخارجي ، والمستعمرات المقامة في المريخ . ومجموعات « اللقلق » المهاجرة ، التي تحملها احياناً العواصف الرملية اثناء طيرانها باتجاه الشمال فتهبط بها للراحة ، في حقول الزيت في حاسي مسعود تبدو وكأنها تمت الى كوكب آخر .

لكن هذا الشريط العلمي ، ليس « اوبرا » خيالية ، ولا يمثل اسطورة من أساطير الماضي ، او حكاية من بنات الخيال ، من مبتدعات الغد ، وانما تمثل حاضراً واقعاً . اما الرجل الذي يجلس في مكتب المشرف الاداري (الشيريف المعروف في ولايات الغرب في امريكا) ، فليس من النوع الضخم الجسم الذي نراه في الاشرطة السينمائية الذي يلبس سراويله دون كي ، وانما يرتدي الملابس التي خاطها أحسن خياطي باريس ، وبدلاً من المسدس الضخم في جيبه ، تمتلىء هذه الجيب بالأوراق التي تشمل الاحصاءات والارقام والموازنات .. وقال لي الرجل الذي قابلته في المحطة ، حيث كان يجري عزل الغاز عن الزيت ، عندما كنا نحتسي قدحاً معاً في البار ، انه يوفر كل شهر عشرة جنيهات ليبتاع كرماً في بورغندي ، كان جده قد تعهده دائماً .

وهناك نوع من الاسطورة يتناول قصة حاسي مسعود . فكلمة مسعود تعني السعادة والبركة والخير . ولم يكن أي انسان قبل عشر سنوات يجروُ على التخيّل بان شيئاً مما توحي به هذه الكلمات قد ينطلق من جوف الصحراء المعروفة بمياهها غير العذبة ، كما لم يكن قبل خمس سنوات من يصدق ان

بلدة صغيرة يمكن ان تخرج كحبة « الفطر » ، على ضفاف نهر « اغرغر » الجاف والذي وجد قبل التاريخ . أما الآن فيزور حامي مسعود في كل شهر نحو ثلاثمائة زائر ، بقصد مشاهدة تفجر الزيت ، ويستمع هؤلاء الى قصص اسطورية عن ولادة هذه البلدة .

قرر مركز الشركة الوطنية (ريبال) ان يعدل عن الحفر الذي كانت تقوم به الشركة منذ ستة اشهر على مقربة من الطريق الصحراوية الممتدة من ورغلة الى قلعة لاليماند ، والتي تقع في منتصف الطريق بين الواحتين تقريباً . وكان الحفر قد بلغ عمق عشرة الاف قدم دون العثور على أي اثر للزيت او الغاز . وكانت لا تزال لدى رئيس مهندسي الحفر انبوبة فولاذية باقية لا يعدو طولها عشر ياردات ، فخالف التعليمات التي تلقاها من مركز شركته في الجزائر واستمر في الحفر هذه الياردات العشر ، وكان هذا التمديد حاسماً ، فقد اخترقت الحافرة الفولاذية طبقة من الصخر الرملي تضم مخزونات كبيرة من الزيت .

هذه قصة ، اما القصة الثانية فتقول ، ان القرار اتخذ بالعدول عن الحفر ، ولكن تأخراً غير مقصود ، أو محسوب ، طرأ في موضوع السيارات . وكان رئيس المهندسين يكاد يمزق شعر رأسه غيظاً من هذا التأخر لمدة اربع وعشرين ساعة اذ سيكلف ثروة ضخمة من المال . ولكن عالم طبقات الأرض في المخيم اغتنم فرصة هذا التأخر الطارىء ، فطلب من رئيس الحفارين ان يستعمل الآلة الفولاذية الحافرة ، وان يجمع عينة من تراب قعر البئر . وفي الرابع من حزيران ١٩٥٦ جيء بقطعة من الصخر ، فاظهرت على النقيض من كل توقع سابق ، اثاراً واضحة للزيت . واستؤنف العمل في الحال ، وفي الخامس عشر من حزيران تفجر الزيت لأول مرة في حاسي مسعود .

ولم استطع العثور على أي تأكيد رسمي لأي من هاتين القصتين . وقد رجاني المهندسون الذين نقلوا الي القصتين ان لا اذكر اسماءهم . فالسلطات العليا في الشركة تريد ان تعزو اكتشاف الزيت في حاسي مسعود الى الحسابات

الدقيقة المضبوطة ، لا الى مجرد الحظ والصدفة .

وانتج العثور على الزيت في حاسي مسعود اجود أنواع النفط الخالي من الكبريت مع سبعة آلاف قدم مكعب من الغاز لكل طن . ومتى تم رفع الرمل أمكن استعمال الزيت المستخرج فوراً دون أي تكرير لادارة الماكنات ، وانتاج القوة الكهربائية في المخيمات . وبرهنت الطبقة الحاملة للزيت على انها كثيفة الى حد كبير (٤٥٠ قدماً) ، وان الزيت واقع تحت ضغط شديد بحيث لا توجد هناك اية حاجة للضخ . واطلق على البئر الأولى في حاسي مسعود اسم (إم. دي. واحد) ، في سجلات الشركة ووثائقها ، أما بالنسبة الى العمال والحفارين فتسمى ببئر جان – ريمر ، تخليداً لذكرى احد زملائهم وقد مات اثر انفجار وقع في الغاز الذي لا لون له .

وتقع هذه البئر على حدود امتياز الشركة الوطنية (ريبال) . والى جواره تمتد منطقة امتياز الشركة الفرنسية للبترول الجزائري ، التي فجرت الزيت في (او. ام. واحد) . واتفقت الشركتان اللتان كان التعاون يسود اعمالهما ، على ان حقل الزيت الواحد الممتد بين منطقتي امتيازهما ، يجب ان يكون موضع استغلال مشترك . ولم يحل كانون الثاني عام ١٩٦٠ حتى كانت ثمان واربعون بئراً تعمل وتنتج ، وكانت المخزونات الاحتياطية تقدر بنحو خمسمائة طن من الزيت الخام . ولهذا فإن حاسي مسعود تعتبر بين اكبر عشرة حقول نفط في العالم . ومع ذلك فلم تكن الكميات الاحتياطية قد قدرت بشكل صحيح ودقيق حتى مطلع عام ١٩٦٠ . وادت عملية الحفر التي جرت في (او. ام. جي ٥٧) على بعد خمسة عشر ميلاً الى الشمال من البئر الاصلية، والتي قامت بها الشركة الفرنسية للبترول الجزائري ، الى اكتشاف طبقة رملية تضم الزيت ، وتبلغ من كثافتها ثلاثين قدماً . وادى هذا الاكتشاف الى تحسين اوضاع حاسي مسعود في سوق استثمار الزيت ، بحيث دفع بها الى الصفوف الأولى من حقول الانتاج.

وكان الفرنسيون منذ سنوات طويلة يشنون حملة دعائية واسعة تتناول الصحراء . وجاءت حاسي مسعود لتؤمن العتاد لهذه الحملة . وكانت ثروات

الصحراء الاسطورية ، التي الف دافع الضرائب الفرنسي ان يقرأ عنها في كل مرة فتح صحيفته الصباحية ، حتى ذلك الوقت تمثل لا سراباً بل احتمالاً باهظ التكاليف . وكان تطوير الصحراء في رأيه مقامرة غالية الثمن . ولهذا فإن السلطات ومختلف الشركات العاملة في المدن ، لم تضع وقتاً او تأل جهداً ، في ان يأخذ الشعب الفرنسي شمة من زيت الصحراء . وكتب معلق انكليزي في ذلك الحين يقول : « ان المسيو لاكوست (وكان وزيراً للجزائر آنذاك) مصمم على ان يملأ ناقلة نفط من زيت الصحراء ، حتى ولو حمله الى البحر في أقداح الشاي » . ولكن روبير لاكوست كان في غنى عن أقداح الشاي ، فقد اقام خطاً صغيراً من انابيب الزيت من حاسي مسعود الى توغورت ثم مد السكة الحديدية الواصلة بين بسكرة وتوغورت مسافة قصيرة ، فانتهت المشكلة كلها . وكانت التكاليف شيئاً تافهاً بالنسبة الى الكرامة الوطنية في فرنسا . ومنذ كانون الثاني عام ١٩٥٨ ، اخذ نحو من ستمائة طن من الزيت سرعان ما ارتفع الى الف ومائتين والف وثمانمائة طن يصل يومياً الى ميناء سكيكدة (فيليب فيل) ، في كل يوم . وكان كل برميل من الزيت الصحراوي الذي يصل الى فرنسا لتكريره يكلف عشرة اضعاف البرميل المستورد من تكساس . ولكن هذه التكاليف ، لم تكن شيئاً يقاس بما تنطوي عليه الاكتشافات الجديدة من آمال الحياة الجديدة في الصحراء ولم يكن من الصعب على الشركة الفرنسية للبترول الجزائري والشركة الوطنية (ريبال) ان تطرحا اسهماً جديدة في الأسواق تكفي لعمليات التطوير والتنمية . وكان ثمة الكثير من شراة الأسهم الذين قبلوا عن طيبة خاطر ، استثمار أموالهم في (ريبال) حتى ولو ابتاعوا السهم بستمائة وخمسين في المائة من قيمته الاسمية الاصلية .

والبحث عن الزيت عملية باهظة التكاليف ، ولكنها اقل تكاليف على أي حال من عملية العثور على الزيت . فتطوير الحقل ، واستخلاص الزيت ، ومد الانابيب كلها عمليات تتطلب مبالغ ضخمة من المال . وعمق الزيت في حاسي مسعود (١١,٥٠٠) قدم بينما يبلغ معدل عمق الزيت ١٦٠٠ قدم

في كركوك و ٤٠٠٠ قدم في الكويت و ٧٠٠٠ قدم في السعودية و ٧٠٠٠ قدم في ليبيا . يضاف الى هذا ان الحفر في حاسي مسعود شاق نسبياً . فكل عملية تكلف في النهاية نحواً من خمسمائة مليون فرانك . ويتطلب انتاج اربعة عشر مليوناً من الاطنان في السنة اكثر من مائة بئر .

وقد احتفل في نهاية عام ١٩٥٩ بافتتاح خط الانابيب الجديد الذي تبلغ سعته اثنتين وعشرين بوصة والذي ساعد البنك الدولي في تمويل انشائه عبر جبال الاطلس الى ميناء بجايه على البحر الابيض المتوسط . وقد تم تخطيط وانشاء عدد من محطات الضخ لزيادة انسياب الزيت من (٤,٦) مليون طن الى اربعة عشر مليوناً في عام ١٩٦١ . ويعني هذا زيادة اضافية في انتاج الغاز السائل في حاسي مسعود بمعدل مليون طن .

وتأمل فرنسا في أن تنتج (٣١) مليون طن من الزيت الخام في عام ١٩٦٣ من حاسي مسعود وايجيلي ، وهو ما يعادل ما تستهلكه فرنسا حالياً ، بحيث تستطيع أن توفر على نفسها (٣٥٠) مليون دولار من النقد الاجنبي . واذا فسح المجال للتقنيين الفرنسيين فإن هذا الأمل سيتحقق . لكن زيت الصحراء يؤلف في حد ذاته مشكلة سياسية اكثر منها تقنيّة . فقد ارغمت الفريقين المتحاربين في الحرب الجزائرية ، على التشدد في موقفيهما . ففرنسا لم تعد تقاتل في سبيل الحفاظ على مجرد مستعمرة لها وراء البحار ، تستطيع ان تخلق فيها اوضاعاً معاشية محترمة لجواليها ، ولم تعد تأمل في اداء رسالة روحية او اخلاقية ، وانما تقاتل في سبيل الحفاظ على كنوز الصحراء ، التي تضمن عودتها الى حظيرة الدول الكبرى في العالم . ولقد قال اندرية مالرو قبل مدة قصيرة.... « الشكر كل الشكر للصحراء ، لأنها ستجعل من فرنسا ابرز دولة على البحر الابيض المتوسط . الشكر للصحراء لأن الاوضاع الاقتصادية في جنوب ايطاليا واسبانيا ستمر في مرحلة تبدل جذري . الشكر للصحراء ، لأن فرنسا ستستطيع ان تجلس في مؤتمر ذروة على قدم المساواة مع الاتحاد السوفياتي » . وما زالت الصحراء تمثل للجمهورية الخامسة ما كانت تمثله للجمهورية الرابعة ، وهو

الترياق السحري الذي يعيد لفرنسا « مجدها » السابق ، و « عظمتها » التليدة . أما حكومة الثورة الجزائرية (الحكومة المؤقته للجمهورية الجزائرية) ، فقد صممت على الحفاظ على كنوز الصحراء ، وثروتها التي هي عطية من الله ، يمكن ان تحيل حرية الجزائر الى استقلال شامل . ولم تتخذ الحرب في الصحراء حتى الآن شكلاً حاداً ، يفوق حد الغارات العرضية ، ولربما كان هذا ناجماً عن أعمال الاستطلاع المستمرة التي تقوم بها الطائرات الفرنسية فوق الصحراء ، والأنوار الكاشفه ، وحواجز الرمل والاسلاك الشائكة والمكهربة ، ونشر قوات المظليين ، وجيوش الشركات النفطية من المرتزقه . لكن قد يكون هناك سبب اعمق من هذا ، وهو ان الثورة الجزائرية ، قد تريد ان تعرقل او تخرب أعمال تطوير الصحراء وبرامجها ، لأنها تثق بأن هذه الأعمال ستكون من نصيبها في النهاية .

وكان عام ١٩٥٦ ، يوبيل الصحراء ، وكان ذلك العام ايضاً ، هو نفس السنة التي انتقلت فيها ادارة قناة السويس وهي شريان حيوي لتموين الزيت لاوروبا الغربية ، من ايدي الدول الغربية . وهكذا فإن كثيرين من الفرنسيين يرون في زيت الصحراء « منّاً » هبط من السماء ، لينقذ اوروبا ، وليعطي درساً لرجل « النيل » القوي . ولكن هذا المن ، قد قوّى من دعوة القاهرة « يا عرب العالم ، اتحّدوا » . وكلما ارتفع مستوى العيش عند أهل الصحراء ، كلما ازداد عدد اجهزة الراديو التي يملكونها ، وازداد استماعهم الى إذاعات القاهرة . والى عهد قريب ، لم يكن لدى أهل الغولية كلها ، جهاز راديو واحد ، ولكن منذ انشاء شركة البترول الجزائري ، واقامتها معسكراً على مقربة من البلدة ، بلغ عدد اجهزة الراديو فيها اكثر من ثلاثمائة . ولا ريب في ان الرئيس (الكبتن) باربا ، يعرف ما يعنيه هذا ، انه يعني زيادة عدد المستمعين الى اذاعة القاهرة بنسبة ثلاثمائة شخص .

ولولا الاستطلاع الجوي ، ودوريات سيارات الجيب ، وقوات الأمن الخاصة ، والسيارات المدرعة ، ومراكز الشرطة العسكرية ، والاستعدادات

الحربية القائمة على قدم وساق في حاسي مسعود وغيرها من مراكز الزيت في الصحراء ، لما وصل هذا الزيت الى الشاطىء ابداً . وليس ثمة من شك لدى الفرنسيين في ان انسياب زيت الصحراء، لن يغدو سليماً وامينا، ومشروعاً اقتصادياً ، إلا اذا تمت تسوية المشكلة الجزائرية .

كان بيير ديسفورج الذي يبلغ السادسة والعشرين من عمره ملازماً سابقاً في الفرقة الاجنبية ، وقد غدا الآن ، جنرالاً ، يتولى قيادة قوة الأمن التي عهد اليها بالدفاع عن مخيم الشركة الفرنسية للبترول الجزائري في حاسي مسود ، في حالة تعرضه للهجوم . وتقوم القوة باعمال الشرطة . وليس ثمة من افتقار الى النظام والبيروقراطية في (او. ام. واحد) . ولا يسمح لأي شخص بالمرور في هذه البلدة الحديثة دون ان تكون لديه أوراقه وجواز دخوله . ويراقب ديسفورج جميع الزائرين الذين يفدون الى البلدة مراقبة دقيقة ، ويعمل على ان يؤمن لهم جميع وسائل الراحة ، وان يعودوا الى ديارهم ، وقد حملوا أحسن انطباعات عنها . وهو قريب دائماً ، بحيث يستطيع الاستماع الى كل شكوى .

وهناك في الصحراء ، الحديثة الثراء ، طبقتان ليس إلا ، الطبقة الوسطى أو البورجوازية ، والطبقة العاملة . ويمت كريتاز الى الطبقة العاملة أما ديسفورج فيمت الى الطبقة الوسطى . ويتناول كل منهما اجراً طيباً . ويأمل كل منهما عندما يجلس الى وجبته ان يتناول ثلاثة اصناف من الطعام يعقبها الجبن والفاكهة والقهوة . وكلاهما يذهب الى اجازته بالطائرة ، كما ان كلاهما يوافق على ان بقاءه يعتمد على « الثلاجة » اكثر من اعتماده على حواجز الاسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة . ولكن رجل الطبقة العاملة يعيش في خيام استوائية يسودها الحر في النهار والقر الشديد في الليل . وهو في صراع دائم مع الصحراء ، يتجدد كل يوم . وهكذا يحس ابناء هذه الطبقة انهم يسيرون على خطى مكتشفي الصحراء القدامى الذين عانوا الكثير من المشاق والأهوال لينقلوا الى العالم الخارجي اول الانباء من بلاد الظمأ والأهوال . وهم يتطلعون الى رجال الطبقة

البورجوازية بذلك الطراز من الحسد الذي لا يخلو من الاحتقار .

أما ابناء الطبقة المتوسطة فيحيون حياة مترفة . فالغرف المكيفة الهواء مضمونة ومتوافرة لهم ، وكذلك البارات ، والمطاعم ، والملاهي ، ودور السينما والعمل ثماني ساعات في اليوم ، ومعامل عصير الليمون ، والمخابز الانيقة ، والشوارع الظليلة ، واجهزة الخدمة الهاتفية والبرقية ، وحوانيت بيع الطباق وغيرها . وقد عرض علي ديسفورج حوض السباحة ، وتحدث الي بحماس عن ملعب كرة القدم وملاعب كرة المضرب (التنس) . وقد وصلت قبل يوم واحد شحنة من الرغام الذي تفرش به ارض مُلاعب كرة المضرب ، قادمة من الجزائر ، بعد ان قطعت نحواً من ستمائة ميل ، بينما قبل سنة واحدة كانت الجرّافات تمخض ارض الصحراء . وكان ديسفورج يزرع الشوفان ، وشجر الكافور (اليوكالبتوس) والنخيل ، والخضروات ، ويطلق في ربوعها الطيور ، وقد اصبحت البلدة تدعى بالمدينة الخضراء .

وحاسي مسعود مجتمع حسن التنظيم تسوده الفنون والحرف . وتتمثل المنزلة الاجتماعية التي يحتلّها الانسان في لون قميصه . فرجال البارات يلبسون القمصان الحمراء ، والخادمات يلبسن القمصان الزرقاء ، والندل يلبسون القمصان الصفراء ، أما الطباخون فيرتدون القمصان البيضاء ، يساعدهم رجال يرتدون القمصان الخضراء . أما الخبازون فيرتدون القمصان الرمادية ، والبقالون يلبسون القمصان الارجوانية ، ويلبس الكناسون القمصان البنفسجية . ولا نجد اثراً للقمصان السوداء او البنية في البلدة . ويرتدي عمال الحفر قمصان « الترتان » . أما الزائرون فيسمح لهم بارتداء قمصانهم . وعندما يصل الزائر ، يضع موظف الاستقبال في يده مع مفتاح غرفته ، بطاقة تحمل مواعيد فتح حانات « الشاشاشا » و « البكيني » و « الريلي » والمواعيد التي تقدم فيها وجبات الطعام في المطاعم الأربعة (الفطور من الثالثة الى الثامنة صباحاً) كما يعطيه ورقة ، تتضمن عنواناً يستطيع التقدم اليه بأية شكوى تخطر في باله .

وحاسي مسعود بلدة نمت بسرعة البرق ، وكان ردها على القصة التي هي

ليست في صالحها ، والقائلة بأنها مدينة بوجودها الى وقوع تأخير طارىء لمدة اربع وعشرين ساعة في وصول سيارات شاحنة ، حازماً بحيث انها نمت نمواً سريعاً يكاد يشبه الحمى الطارئه . ولم يكن هذا هو كل شيء ، فما كاد يعرف اتساع حقل النفط ، حتى قامت بلدة جديدة في المركز الذي تقوم الشركة الفرنسية للبترول الجزائري باعمال الحفر فيه، ويقول مهندسو التخطيط ، والمعماريون ، ان من حسن الحظ ، ان هناك شيئاً فيه بعض الاناقة والاكثار من الزخارف ، في حاسي مسعود وغيرها من بلدان الصحراء النامية حديثاً ، مما يزعج اعصابهم . وهم يجدون في رجال الزيت مزيجاً غير مرض من المعلومات التقنية والولع المذهل بالفنون الجميلة . وعندما تظهر اقل مشكلة في عمليات الحفر ، يهرع الى الميدان حشد كبير من الخبراء والاخصائيين . ومع هذا فإنهم يعهدون الى موظف صغير بأن يضع مخطط مخيم ، او قاعدة نفطية أو بلدة صغيرة .

ويريد الخبراء ان يسمع صوتهم في تخطيط مدن الزيت في المستقبل . والمدينة الصحراوية المثالية في رأيهم ، ليست كما يتوقع الآخرون حلماً من احلام الغد يبنى من البلاستيك والاسمنت المسلح . واجهزة تكييف الهواء بالنسبة اليهم ليست إلا حلولاً موقتة قصيرة الأجل ، ذلك لأن قاطن الصحراء ، لا يستطيع ان يحس معها بالراحة والدعة . ولكن مدينة الصحراء في الغد ، لن تكون مقتصرة في سكناها على المنفيين . ويجب اخضاع الصحراء لاخداعها ولهذا فان بلدة الزيت في رأي هؤلاء المهندسين يجب ان تكون واحة صغيرة تقتصر مواد البناء المستعملة فيها على المواد المتوافرة محلياً كالجبس أو « اللبن » المصنوع من الطين بعد ان تحرقه الشمس . ولن يكون في هذه البلدان ذلك الفن المعماري ، الذي يتميز بالساحات الواسعة والشوارع الفسيحة التي تسبب للسكان التعرض لضربات الشمس والحرارة . وسيجري البناء على غرار الطراز المعروف عند سكان الصحراء الاصليين وهو طراز يصفه هؤلاء المهندسون والمخططون بأنه « تحفة فنية رائعة في فن العمارة وتخطيط المدن . ومن المحتمل ان تكون

بلدة الصحراء في الغد ، مبنية باكملها تحت سطح الارض تماماً كبلدة الكهوف التونسية مطماطة. وقد قدم دانيال فوكيه الى مدرسة الهندسة المعمارية في لوزان خريطة « لمدينة الرمال » ، جعل ابنيتها الشبه دائرية والمصنوعة من الفولاذ مع مروحات دوارة متحركة غارقة في الرمال ، تماماً كالكهوف في الصحراء .

ويتجه الحديث في كل مساء في خيام الطبقة العاملة الى الصحراء ، أو ما يسمونها « بحر الشيطان » ، بكل ما فيها من سراب خداع ، ورياح قبلية سامة ، تحمل الرمال ، وكثبان بيضاء يذوب عليها الصقيع ، ونسيم الليل العليل ، اسرع من ذوبان الاحلام في وهج الشمس المشرقة ، والى الغابات المتحجرة ، والنقوش الصخرية . أما أحداث العالم الخارجي ، فلا تترك عليهم كبير اثر ، ولا سيما انباء الاقمار الصناعية ومستكشفي الفضاء الخارجي ، وصواريخ الكون ، فالحياة في الصحراء اشبه ما تكون برفرفة الانسان على حافة الفضاء .

أما أفراد الطبقة الوسطى ، فيجدون مواضيع اكثر حساً يتناولونها في احاديثهم . انهم يتحدثون عن اجازاتهم القادمة وشروط عقودهم ، وفواتير مشروباتهم الروحية والنساء اللائي يعرفونهن . أجل ان موضوع النساء تحتل زاوية مهمة من احاديثهم . ومتوسط عمر الرجل من أفراد هذه الطبقة هو الخامسة والعشرون . وهناك عدد من الحانات في حاسي مسعود ، ولكن اياً منها لا يضم امرأة واحدة . وينطبق هذا القول على كل بلدة اخرى من بلدان الزيت في الصحراء . وقد جرت محاولة ذات مرة للمجيء بفتاة للعمل في الهاتف . وما زال الحديث يدور عن هذه التجربة في الصحراء ، حيث تنتشر الشائعات كما تنتشر في أية قرية ريفية . ولا تصلح التفاصيل المتعلقة بهذه التجربة للنشر ، ولكن كل ما يمكن قوله ، هو ان الفتاة الشابة قد نقلت بسرعة الى الشمال ، ومنذ ذلك الحين ، حظّر على النساء دخول حاسي مسعود حتى ولو جئن كزائرات .

وما سمعته من بيير ديسفورج عن الصحراء ، كنت قد سمعته عن الآخرين ،

اكثر من مرة ، من الفرنسيين العاملين في صناعة الزيت والذين يعتقدون ان مصير فرنسا هو في الصحراء . وعندما يبدأ الحديث في الصحراء عن هذا الموضوع يعود المتحدثون الى أيام اللورد سالسبوري رئيس وزراء الملكة فكتوريا .

فقد وقع السفير الفرنسي في لندن في الخامس من آب عام ١٩٨٠ اتفاقاً ينص على أن تكون الاراضي الواقعة الى الجنوب من الخط الوهمي الممتد من (سي) على نهر النيجر الى باروا على بحيرة تشاد في منطقة النفوذ البريطاني بينما اعطي الفرنسيون كتعويض ، اجزاء الصحراء الممتدة بين جبال الاطلس والسودان ، التي لم يكن لفرنسا فيها منافس على كل حال ، والتي كانت لها قيمة نظرية ، اذ تربط بين مستعمرات فرنسا في أواسط افريقيا وغربيها وبين ممتلكاتها في جبال الاطلس ، اذ ان عبور الصحراء في ذلك الوقت كان لا يزال مقامرة مع الموت . ولم يكن من الغريب ان يعتبر رئيس وزراء بريطانيا هذا الاتفاق ، صفقة تجارية من الطراز الأول . لكن مواطنيه اعتبروا الاتفاق سخياً كل السخاء ، مما حمل سالسبوري على إلقاء عدد من الخطب دفاعاً عنه .

وقال في احدى المناسبات انه تبادل مع السفير الفرنسي الهدايا من الجبال والانهار والبحيرات ، ولعل الحقيقة المزعجة في الموضوع ، أن اياً من هذين الرجلين اللذين تبادلا الهدايا ، لم يكن يعرف اين تقع تماماً هذه الجبال والانهار والبحيرات . وقال في خطاب القاه في مجلس اللوردات ، ان من المهم ان نحكم على أي بلاد لا بحجمها بلى بقيمتها ايضاً . ومضى يقول... ان المنطقة موضوع البحث ، هي ما يمكن ان يدعوه الفلاح «بالارض الخفيفه». وبكلمة اخرى ، كان البحث يدور حول الصحراء ، ولتقييم الارض بصورة واقعية ، يجب ان نسقط من الحساب تلك المساحات الشاسعة من الصحراء التي تطالب فرنسا بالسيطرة عليها . وقال سالسبوري في مناسبة اخرى ، وكان دائماً يحس بالضعف تجاه استعمال عبارات الهزء والتعليقات الساخرة بعيداً عن لغة الدبلوماسية انه اعطى الديك الغالي ، مجرد أراض رملية .

ولم يرض جميع الفرنسيين عن شروط سالسبوري. وكانت التعليقات الساخرة التي صدرت عنه جارحة لكبرياء فرنسا ، واثارت الملاحظات التي القاها اللورد سالسبوري في مجلس اللوردات المفاوض الفرنسي الرسمي الذي كان يستمع الى الخطاب من شرفة الدبلوماسيين ، مع ان ما قاله لم يكن سراً من الاسرار ولم يتجاوز الحقيقة . ولم تسر عنه حتى المقالة الافتتاحية التي نشرتها التايمس في اليوم التالي عن « الاحتمالات الرائعة » للصحراء ، وهي المقالة التي اقبل على قراءتها في صباح اليوم التالي ، عندما شرع يتناول فطوره . وكتب بلهجة غاضبة الى سالسبوري يقول : « لا ريب في ان الصحراء ليست حديقة ، وتضم كما تقول ارضاً خفيفة مجدبة ، ولكن ألم يكن من الافضل ان نتجنب ذكر ذلك علناً . أو لم يكن حرياً بك لو تركت لنا ان نجد هذا بانفسنا » .

وتسلم جول كامبون ، حاكم الجزائر العام فوراً تحدي سالسبوري ، والقى خطاباً في عين الصفراء ، رسم فيه صورة خيالية للاحتمالات غير المكتشفة للمنحة البريطانية . ومضى يقول : « حسناً سنحفر في هذه الرمال ، وسنمد فيها السكك الحديدية ، واعمدة البرق ، ونحفر الآبار الارتوازية ليندفع الماء الى السطح ، وسنسمع في الواحات صوت الديك الغالي ، وهو يهتف في كل حين بصوته المنطلق بالسعادة من سقوف بيوت القصبة » . واليوم وبعد ان لم تعد الصحراء عبئاً اقتصادياً ، واخذ الزيت يتفجر من « ارضها الخفيفه الجدباء » ، اخذ الديك الغالي ، يهزأ ببيان سالسبوري عن الصحراء ، وينطلق بصياحه المعبر عن النصر ، والهزء والسخرية ، فيطن صوته في آذان جميع زائري الصحراء من غير الفرنسيين الذين قد تثير تصرفاتهم شكوك الفرنسيين ، فيجدون انفسهم متهمين بالتآمر ضد عبقرية فرنسا . وكل ما في وسع الزائر من هؤلاء ان يدعيه هو وجود ظروف مخففة كأن يقول انه لا يحمل جواز سفر سويسري ، إذ أن سويسرا محايدة في الحرب الجزائرية ، أو انه ليس بالامريكي ، لأن امريكا ليست محايدة في هذا الصراع .

وكل ما كان في وسع بيير ديسفورج قوله بصدد تدويل البحث عن الزيت

في الصحراء ، هو ان فرنسا محاطة بالاعداء ، وان الامريكيين بصورة خاصة لا يمكن الوثوق بهم .

وتقوم علاقات فرنسا بالولايات المتحدة على مزيج مرتبك من الآمال والمخاوف . ويقال أن شركات الزيت الامريكية تمول الثورة الجزائرية لتأخذ في المستقبل امتيازات البحث عن الزيت والمعادن في الصحراء بعد ان ينسحب الفرنسيون وذلك كمكافأة لها على حسن سلوكها ، فهي في وضع من ينتظر شراء الصحراء تماماً كما ابتاعت الهند الصينية » . ولكن نفس الفرنسيين الذين يوجهون مثل هذه الاتهامات الى المصالح والاستثمارات الامريكية وما تنطوي عليه من دوافع وحوافز ، لا يودون شيئاً اكثر من جر هذه الاستثمارات الى الميدان للعمل معهم . وكانوا منذ سنوات طويلة يحتفظون بجزء شهي من «كعكة» الامتيازات جانباً ، كطعم شهي للامريكيين . ولو قامت شركة امريكية ضخمة بالتهام قطعة من هذه الكعكة ، لضمن الفرنسيون وقوف واشنطن الى جانبهم في الحرب الجزائرية .

وكان الفرنسيون المتطرفون في وطنيتهم يؤثرون الاحتفاظ بخيرات الصحراء لأنفسهم ، ولكن استغلال هذه الثروات ، التي نبشها « الديك » الغالي من رمال الصحراء كانت اكثر من ان تحتملها موارد فرنسا . وقد ابتلع التنقيب عن زيت الصحراء وحده اكثر من ثلاثمائة الف مليون فرانك على شكل استثمارات بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٦٠ . وتقول احصاءات متحفظة ، أن هذه المشاريع ستستهلك نحواً من خمسمائة الف مليون فرانك اخرى قبل نهاية عام ١٩٦٢ . والدولة التي دعمت مشاريع التنقيب عن الزيت حتى الآن لا تستطيع ان تؤمن مبالغ ضخمة على هذا النطاق . كما لا يستطيع رأسمال فرنسا الشخصي تأمين هذه المبالغ ، لأن هذا الرأسمال ، كان حتى الآن يدعم مشاريع الدولة منذ عام ١٩٥٦ . وحصلت فرنسا حتى الآن على قرضين من البنك الدولي . وهناك ايضاً بعض العوامل الأخرى التي تقف الى جانب الاستثمار الاجنبي ، وتدعو اليه واهمها افتقار فرنسا الى المعدات والجهاز الفني ، وهو

افتقار اخذ يهدد مشاريع التطوير بالابطاء تهديداً جوهرياً ، والخبرة الثمينة التي كسبتها الشركات الاجنبية في حقول الزيت الأخرى ، ولاسيما في اساليب الاستغلال ، والحاجة الى فتح أسواق جديدة خارج منطقة الفرنك بالنظر الى ما يتوقع من قيام تخمة زيت في الأسواق العالمية .

واكتشفت فرنسا بمرارة أن من الأسهل عليها ان تعثر على الزيت وتستخرجه وتنقله من أن تبيعه ، فمعامل التكرير الفرنسية ومنظمات التسويق للمنتجات المعدنية ، هي في ايدي شركات الزيت الضخمة ، وهي تؤلف احتكاراً لم تنضم اليه شركتان فقط من شركات الزيت الصحراوية وهي الشركة الوطنية (ريبال) وشركة كريبس . ومن السهل على الانسان أن يفهم ان هذا الاحتكار لا يبدي حماساً كبيراً للزيت الصحراوي ، الذي يهدد سوق الزيت الخام الذي يحصل عليه الاحتكار من حقول الزيت في الشرق الاوسط . وهناك نقطة عيب واحدة يعاني منها الزيت الصحراوي ، ولا يمكن التغلب عليها إلا بمساعدة الاحتكار ، وهو انه أجود نوعاً مما يحتاج اليه السوق الفرنسي . فهو يحتوي على نسبة عالية من البنزين وعلى نسبة ضئيلة نسبياً من زيت الوقود . ولكن الصناعة الفرنسية اخذت توجه الآن لاستعمال الزيت الخام الفني والثقيل النوع . والى أن يحين الوقت الذي يشرع فيه باستعمال غاز الصحراء بدلاً من زيت الوقود ، فليس ثمة مناص أمام الفرنسيين من مقايضة الزيت الصحراوي ، بزيت الشرق الأوسط الثقيل ، تماماً كما يقايض الدانماركيون زبدتهم الرائعة بالسمن النباتي (المرغرين) . وهي عملية تتعلق باستثمارات الزيت الكبرى في العالم . ولم يكن ما كتبته الصحيفة الامريكية (بترول‌يوم ويكلي) ، محذرة الفرنسيين من أن الزيت قد ينساب قريباً من آذانهم بلا داع او سبب .

وكان في وسع فرنسا حتى أواسط عام ١٩٥٩ ان تتخيل المجازفة عند اللزوم بالدخول في حرب في الاسعار مع الشركات المنضمة الى الاحتكار . فنفقات النقل بالنسبة للزيت الصحراوي ، اكثر منها بالنسبة لزيت الشرق الاوسط . يضاف الى هذا ان حدود الفائدة اكثر اتساعاً ومرونة . ولكن

الصورة تبدلت تماماً في النصف الثاني من ذلك العام عندما ظهرت مخزونات النفط الاحتياطية الضخمة في ليبيا . فالزيت الليبي اقرب الى سطح الارض والى ساحل البحر من زيت الصحراء ، وهو في ايدي جماعات الاحتكار .

وبذلت فرنسا ضغطاً شديداً على معامل تكريرها وعلى منظماتها التسويقية لتضمن نسبة معينة من الاستهلاك في السنوات القليلة القادمة . وتبذل الجهود في نفس الوقت لاقامة منظمة مشتركة خاصة تجمع بين التكرير والبيع .

ويجب أن لا يكون التسويق على هذا الشكل مشكلة مستعصية ، بين الآونة الحاضرة وبين الوقت الذي تكون فيه فرنسا قد استكفت حاجاتها تماماً من الانتاج الصحراوي . ولكن بعد عام ١٩٦٤ سيكون من الصعب التخلص من الفائض . والقول بان انتاج الزيت في الصحراء ، مستند الى ضمانة الجيش الفرنسي ، ولا يعتمد على رغبات وزير أو حاكم عربي ، قد يكون مقبولاً في باريس ، ولكنه ليس مقبولاً في بون مثلاً . فما دامت الحرب الجزائرية مستمرة ، فليست هناك دولة اوروبية واحدة تستطيع ان تتعامل جهاراً بالزيت الصحراوي دون ان تعرض نفسها لغضب العرب وسخطهم . وبالاضافة الى كل هذا فهناك الكثيرون الذين يهتمون بسوق الزيت الأوروبية ، ولن يكون خط الانابيب بين مرسيليا وستراسبورغ وكارلسروه ، هو الخط الوحيد . فهناك هنريكو ماتيي ، الذي يفكر في مد خط لأنابيب الزيت من جنوه الى ميونيخ ، بينما هناك خطوط أخرى تزحف من شرق اوروبا وتصل بالزيت الروسي الى أبواب العالم الحر .

وقد ناشدت فرنسا الدول المشتركة معها في المجلس الاقتصادي لغرب اوروبا ، ان تقدم لها العون ، واقترحت بأن تعطى للزيت الصحراوي معاملة الافضلية في دول السوق الأوروبية المشتركة . ولكن يبدو انها تلقت رداً جافاً . فالاعتراض الاساسي يقوم في ان أية ضمانة لزيت الصحراء في اوروبا ستعني حتماً فرض قيود على واردات الزيت الثقيل من الشرق الاوسط ، مع ما تنطوي عليه هذه القيود من نتائج سياسية لا يصعب على الانسان ان يراها .

ويقوم الحل الوحيد لفرنسا في ايجاد سوق حرة ترتكز على اساس العرض والطلب وعلى اتباع سياسة متحررة تنطوي على التدويل . وقد مهد قانون الزيت الذي صدر في اللحظة الأخيرة وأثار الأسى لدى دعاة الوطنية المتعصبين وذوي المطامح الاحتكارية القصيري النظر ، الطريق لمثل هذا الحل . فقد سمح القانون للشركات الاجنبية والمجموعات المالية بأخذ خمسين في المائة من حصص استثمارات الزيت . وليس من المستغرب ان لا تبدي فرنسا وهي التي ضحت بالكثير من الأموال في سبيل اكتشاف الصحراء وفتحها ، ميلاً الى تسليم ثمار متاعبها للدول الاخرى . ومع ان قانون الزيت سمح للاجانب بالاشتراك في استثمار خيرات الصحراء ، إلا أنه في الوقت نفسه يضمن مصالح فرنسا وسيطرتها ، ويضع قيوداً مشددة للحيلولة دون ان تصبح الصحراء ميداناً للاصطراع بين المصالح النفطية . واضطرت حتى شركة ستاندارد اويل اوف نيوجيرسي ، التي دأبت دائماً على فرض شروطها الى الموافقة نهائياً بعد سنوات طويلة من المساومات الشاقة ، على قبول خمسين في المائة بدلاً من الواحد والخمسين التي كانت تطلبها .

ويميل الفرنسيون الى المبالغة في تقدير القيمة السياسية للاسهام الاجنبي في هذه المشاريع . وقد يكون لهذا الاسهام تأثير نفسي على عدد من الفرنسيين يوحي لهم بضمانة استمرار الاوضاع الراهنة . ولا ريب في أن سوبوليف الروسي الذي اعلن اثناء مناقشة قضية الجزائر في الامم المتحدة في نهاية عام ١٩٥٨ وجود « تفاهم سري بين مشاريع الزيت الامريكية الضخمة وبين الاستعماريين الفرنسيين » قد ايد هذا الانطباع . ومع ذلك فإن من السذاجة بمكان عظيم ، الافتراض بأن وزارة الخارجية الامريكية ستسمح للاستثمارات الامريكية الضئيلة في زيت الصحراء ، بالتأثير على سياستها الجزائرية المقبلة . ولا ريب في ان التنافس القائم بين المصالح الاجنبية الاخرى على ذهب الصحراء الأسود ، لا يعكس ثقة هذه المصالح باستقرار الاوضاع السياسية في الشمال الافريقي ، وإنما بقدرتها عندما تقتضي الضرورة على التفاوض للوصول الى

شروط معقولة مع خلفاء فرنسا في الجزائر .

فما هو مستقبل الزيت الصحراوي يا ترى ؟ لقد اوضح المسيو ديسفورج في رده ، ان حاسي مسعود تؤلف بالنسبة له كما لغيره من الفرنسيين « مقبض » الكون . وتتوارد المقارنات قوية وسريعة ، ويعتبر البعض الصحراء وكأنها « فنزويلا » جديدة او تكساس ، بينما يرى البعض الآخر فيها مملكة سعودية أو شرقاً اوسط بأكمله ، وكل وفقاً لمفاهيمة ولدرجة تفاؤله او تشاؤمه . وليس ثمة من شك عند البعض في أن الصحراء قد تكون اغنى من كل هذه المناطق .

أما الحقيقة الموزونة المعقولة ، فهي ان حاسي مسعود ، حقل نفطي مهم وقد يكون مثيراً ايضاً . أما اولئك الذين يقدرون مخزونه بالف مليون طن (أي واحد من اربعين من احتياطي العالم) ، فيغرقون في خيالات هوجاء . ومن الواجب ان يتطلع الانسان الى صورة حاسي مسعود ضمن إطار شمال الصحراء كلها . فحقل الزيت في « برج نيلي » ، في منتصف الطريق بين غردايه والاغواط ، والذي تولت شركة المانية حفر آباره بالنيابة عن الشركة الوطنية (ريبال) ، وحقل الغاسي الواقع على بعد خمسين ميلاً الى الجنوب من حاسي مسعود ، حيث ظهر الزيت في صيف عام ١٩٥٩ على ايدي الشركة الوطنية لبترول اكويتانيا (SNPA) ، لم يجر استغلالهما الى الحد الكافي بعد بحيث يمكن تقدير اهميتهما . لكن مما لا ريب فيه ان الآمال في تطوير شمال الصحراء الى منطقة تغطية ، ذات اهمية رئيسية لأوروبا الغربية قد تحسنت الى حد كبير . ومن الناحية الاخرى ، فإن الادعاء بأن الصحراء هي تكساس ثانية أو انها كالكويت والعربية السعودية تعومان على الزيت ، أو أن مواردها المتوافره تفوق مخزون البترول في منطقة خليج البصرة (حيث يوجد اكثر من ستين في المائة من احتياطي الزيت في العالم فاغراق في التمنيات .

وبلغ عدد الآبار التي تم حفرها حتى مطلع عام ١٩٦٠ بما في ضمنها الآبار التي تسمى بالسطحية ، نحواً من اربعمائة بئر ، مع ٢٩ بئراً أخرى يجري اعدادها . أما في الولايات المتحدة فقد تم حفر ٥٨,١٦٠ بئراً في عام ١٩٥٦

وحدها . ولم يجر التنقيب حتى الآن عن الزيت إلا في حوض واحد من المنخفضات الأربعة الكبرى التي يمكن ان تضم مخزونات من الزيت وهي حوض تاؤوديني وحوض تندوف وحوض السودان – النيجر الى الجنوب من اضرار دي زيفوراس ، وحوض الصحراء الشمالية الذي يقع بين الهجر والاطلس من ناحية وبين تانزروفت وطرابلس من الناحية الاخرى . ولم يمنح من نحت نصف مليون ميل مربع من الطبقات الصخرية ذات الاهمية بالنسبة لعلماء طبقات الارض إلا نصف هذه المساحة للشركات ذات الامتياز . ولا تملك إلا شركة واحدة امتيازاً في منخفض تندوف خارج الصحراء الشمالية ، وان كانت لم تشرع في عمليات الحفر بعد .

وهناك نقطة أخرى جديرة بالملاحظة ، اذا رغب الانسان في الحصول على صورة دقيقة . فمن المحتمل ان تظهر الكميات الاحتياطية في حاسي مسعود وكأنها من نفس النوع الموجود في الشرق الاوسط . ولكن هناك فرقاً هاماً يؤثر على أسعار الانتاج ، فالصخر الحامل للزيت في حاسي مسعود وفي ايجيلي أقل مسامّ من غيره . وتقابل عشرة آبار في الصحراء كل بئر واحدة في العربية السعودية . ومن الحق ان يقال ان هناك « بئراً اعجوبه » واحدة في حاسي مسعود تنتج الفاً وخمسمائة طن من الزيت الخام في اليوم ، ولكن معدل ناتج الحفر ، يقرب من اضعف بئر من التي تنتج خمسين طناً في اليوم . وفي وسع السعوديين ان يثقوا من الحصول على الف طن او احياناً اكثر من الفي طن في اليوم .

وسألت بيير ديسفورج عمّا اذا لم تكن في رأيه ، هذه المقارنات نابعة عن شعور بمركب النقص عند الفرنسيين ، أو ألا يعترف على الأقل بأنها اضافت بضع صفحات الى قصة الصحراء الملطخة بالدماء ؟

ففي السادس عشر من تشرين الثاني عام ١٨٨٠ ، بدأ العقيد فلاترز من الأغواط ، حملته الثانية باتجاه الجنوب . وكانت الأوامر التي تلقاها تقضي بأن يندفع الى هجر الطوارق وان يستطلع طريقاً ممكناً تصلح لسكة حديد عبر

الصحراء . وكان بين الحجج التي استند اليها دعاة السكة الحديدية ، ان الامريكيين شقوا قبل احد عشر عاماً ، سكة حديدية عبر قارتهم . ولم تكن فرنسا لترغب في التخلف كثيراً عن الامريكيين ، لاسيما وأن ما رواه المستكشف هنري دوفيريير ، عن السلوك الفروسي للرجال الملثمين في جبال الهجر ، يجعلهم لا يقارنون مطلقاً بصيادي الجماجم من الهنود الحمر .

وكانت حملة العقيد فلاترز الأولى باتجاه الجنوب قصيرة وغير مثمرة . وقد اصر على القيام بالحملة الثانية لاصلاح النكسة التي مني بها في حملته الاولى . ولم يكن فلاترز عاشقاً للصحراء . وكان قد بلغ الخمسين من عمره ، ولم يكن لديه في الحقيقة حافز فعّال يدفعه الى القيام بمثل هذه المغامرة الخطرة . وكان انساناً يفتقر الى الروح متحذلقاً دعياً ، كثير الأعداء ، وكان اعداؤه يصفونه بأنه مضطرب العقل ، لا يملك أياً من الصفات اللازمة للقيام بمثل هذا المشروع . ولم يتمكن من حشد عدد من الرجال يتجاوز نصف العدد الذي حشده في حملته الاولى ، وكانت تسيطر عليهم اوهام سوداء « لا تقل في قتامها عن الأوهام التي سيطرت على رجال الجيش الاعظم الذين اتخذوا مواقعهم ليموتوا » (الجيش الاعظم — هو الجيش الذي هجم به نابوليون على روسيا) . وضمت قوة فلاترز عشرة من الفرنسيين من الضباط والمهندسين ، وستة وثمانين من أهل الصحراء ، معظمهم من الشعانبه اعداء الطوارق الألداء . وبدأت هذه الحملة العسكرية التي تستهدف غاية علمية سيرها كقافلة سلمية . وترك حملة البنادق الجزائريون بزاتهم العسكرية في بيوتهم ليعملوا كأدلاء وليقودوا القافلة المؤلفة من مائتين وثمانين جملاً . ولم تكن القافلة اقوى سلاحاً من أية قافلة عادية في الصحراء . وتقرر اللجوء الى كل وسيلة ممكنة لتجنب استفزاز الطوارق الذين غدت اعمالهم الحربية وشجاعتهم اسطورة دائرة في الصحراء .

وتفاءل فلاترز اكثر من اللزوم ، فتجاهل الانباء التي وصلته عن الموقف العدائي الذي يقفه شيخ هجر الطوارق . واطلت في كانون الثاني عام ١٨٨١ ، عليهم جبال الهجر السوداء منذرة بالشر والويل . وبعث فلاترز في نهاية كانون

الثاني بلهجة الظافر الواثق الى باريس يقول ان موقف الطوارق كان ودياً من الحملة ، على الرغم من أن نجاحها كان يعني دمار تجارة قوافلهم . وسجل في تقريره ، انهم عرضوا عليه تزويده بالادلاء ، وانه يدرس الآن ، هل يعود بطريق النيجر ، أو بطريق طوارق الهجر . وكانت هذه الرسالة آخر ما بعث به فلاترز .

وفي الثامن والعشرين من آذار وصلت جماعة قليلة من الرجال الى ورغله ، وهي تترنح . وقد كاد الجنون يذهب بلبهم ، من الجوع والعطش ، وهم اقرب الى الموت منهم الى الحياة . ولم تكن هذه الهياكل العظيمة الحية ، إلا البقية القليلة الباقية من حملة فلاترز . أما فلاترز نفسه وعدد من رجاله ، فقد سيقوا الى كمين وقتلوا . ثم سلبت جميع إبل القافلة .

وقد نجا من المذبحة خمسة من الفرنسيين وثمانية واربعون جزائرياً ، ولكن ليصبحوا أسرى الصحراء . وظلوا يسيرون اربعين يوماً في وجه ظروف وأهوال مرعبة . ونفدت منهم مؤنهم وذخائرهم . واعطى الطوارق للرجال الذين يتضورون جوعاً ، تمراً مسمماً ذهب بلبهم ، ثم زعم الطوارق انهم على استعداد لبيعهم بعض الاغنام فلما اوفدت بقية الحملة رسلها ، ذبحهم الطوارق وقرر الرجال المتعبون اخيراً ان يحاربوا . وخسر الطوارق ثلاثين قتيلاً ، وفروا من الميدان . أما من تبقى من رجال الحملة بعد الاشتباك ، فقد واصلوا التراجع . وكانوا قد غدو الآن اشبه ما يكونون بالحيوانات . وقام الباقون بتقطيع اوصال آخر رجل بقي من الفرنسيين . وكان هو بدوره قد عاش الأيام الاخيرة من حياته على لحوم البشر . وكان اكل لحوم البشر ، هو الذي مكن الحفنة القليلة الاخيرة من الرجال من البقاء ليرووا القصة المخيفة . وبعد مدة طويلة جداً تبيّن ان هؤلاء لم يكونوا هم الوحيدين الذين نجوا ، فقد اشفقت امرأة طارقية على بعض الجرحى ، وبدلاً من ان تقتلهم كما تقضي العادة بذلك ، آوتهم في خيمتها وعنت بهم الى ان شفوا من جراحهم ، على الرغم من غضب الطارقي الذي كان قد قاد الهجوم على فلاترز ، والذي كان قد اصيب بدوره

بجراح خطيرة . وقد تمكن هؤلاء من العودة اخيراً الى وطنهم عن طريق طرابلس . وكان سلوك هذه الطارقية الرائع قد حفز شارل دي فوكو ، فيما بعد ، على اتخاذ قراره بالاقامة كناسك في تامنراسيت ، ولكن الأثر المباشر لتدمير حملة فلاترز ، كان في اقحام الصحراء في موجة من الرعب لم تنحسر عنها قبل مضي عشر سنوات .

هذه هي نتائج تلك المقارنة التعسة بين سكة حديد عبر الصحراء وبين سكة حديد عبر القارة الامريكية .

ووجهت سؤالاً اخيراً الى المسيو ديسفورج ، فقد قلت : « قل لي يا سيد ديسفورج ، لماذا لم يبدأ البحث عن الزيت في الصحراء إلا بعد انتهاء الحرب فقط ؟ » .

ولم يرضني الرد الذي تلقيته منه تمام الرضى ، ولكنه لم يكن يقل صلاحاً عن الردود السابقة ، فقد ذكر ان فرنسا كانت تملك صناعتها الخاصة بها لتكرير الزيت ، وهي اكبر صناعة من نوعها في اوروبا ، ولكن المورد الرئيسي في القوة كان الزيت . ولم يكتسب الزيت تلك الأهمية البالغة ليصبح كمصدر من مصادر القوة ، وليغدو كمادة اولية ، تجعل استهلاك الزيت مقياساً لتطور أي بلاد اقتصادياً ، إلا بعد الحرب . لكن الافتقار كان يعدو مجرد الطلب ، فقد كانت الموارد التقنية المتوافرة غير كافية ، للشروع في هجوم على الصحراء ، ولم تكن الطرق الجغرافية ــ الطبيعية (الجيو ــ فيزيقية) ، للتنقيب عن الزيت قد تقدمت الى حد كاف ، كما لم تكن وسائل النقل بالسيارات قد صممت بعد تصميماً خاصاً يتفق مع اوضاع الصحراء ، يضاف الى هذا ان الداكوتا ، وطائرات النقل والهليوكبتر ، لم تكن قد ادخلت بعد ، وكان البحث العلمي في الاوضاع المناخية لا يزال في طفولته . ولعل أهم من ذلك كله ، أن الصحراء لم تكن بعد قد كشفت عن كنوزها الدفينة ، ولم يكن أي بدوي قد نقل الى السلطات اكتشافه لمخزون من الغاز ، أو أي هجان قد لفت انتباه قائده الى بركة من القطران . أو أي مكتشف قد لاحظ بركاناً من الطين ، أو انبثاقاً للغاز

أو أية علامة اخرى على وجود الزيت . ولم يكتشف علماء طبقات الارض التابعون لشركة كريبس وجود برك صغيرة من الزيت في الصحراء ، إلا بعد ان تم حفر آباره في ايجيلي . وكانت المعلومات عن طبقات الارض في الصحراء نادرة وكثيراً ما تكون مضللة وغير صحيحة . وكان معظم العلماء يعتقدون ان مسيّفي الهجر والاقلاب ، يستمران نحو الشمال ، واستخلصوا من ذلك ، أن وجود الصخور الحاملة للزيت على نطاق يستحق الاستغلال ، لم يكن أمراً محتملاً . وعندما بدأ الحفر في الصحراء في عام ١٩٤٩ ، قال هالليس هيلدبرغ ، وهو رئيس علماء طبقات الارض في شركة زيت الخليج ، وأحد الخبراء البارزين في مهنته ، ان الطبقات الصخرية في الصحراء « لا تثير الاهتمام كثيراً » . وعاد في عام ١٩٥٢ ، فنفى ان تكون الصحراء « مما يثير الكثير من الاهتمام في أعمال التنقيب المقبلة » . وعندما اكتشف حقل الغاز الطبيعي في بيرقة في آذار عام ١٩٥٤ ، اضطر الى الاعتراف بخطئه في التقدير . وليس من الغريب ان يحتل النبي الامريكي المخطىء ، نفس مكانة اللورد سالسبوري في اثارة الشكوك والهزء عند رجال الزيت اليوم .

وعندما تحدثت الى عالم في طبقات الارض في ايجيلي ، كررت على مسامعه جميع الحجج التي كنت قد سمعتها لتبرير التأخر في البحث عن الزيت في الصحراء .

وقال الرجل : « انني افهم تماماً ، لماذا لا تقنعك هذه الحجج . ففي وسعك ان تضع مقابل كل حجة منها ، حجة مقابلة . ولكن قد تكون احدى الحجج غير مقنعة لوحدها ، ولكنها اذا جمعت لبعضها ، غدت مقنعة حتماً . فكلمة « الصحراء » لم تعد تعني شيئاً كثيراً بالنسبة الى الكثيرين من الناس إلا بعد الحرب . وعليك تبعاً لذلك ان تتخلص من أية فكرة قد تطرأ على ذهنك بأن الصحراء لا تستهوي رجل الزيت . ولم يكن في امكاننا هناك في ايجيلي ان نقلل من المتاعب . فعندما بدأنا العمل هنا ، في هذا المكان الذي يبعد الفا ومائتي ميل عن الجزائر بالسيارة والطرق الصحراوية . وجدنا انفسنا في ارض عذراء ،

وليست لدينا مواصلات لاسلكية ، وتموي‍ناتنا شاذة ، والجو الذي نعيش فيه يشبه الجحيم ، وليس هناك أي انسان ، أو نقطه ماء واحدة على بعد اقل من مائتي ميل . ومع ذلك فان الصحراء ليست العدو الكلي للمنقب عن الزيت : انها ايضاً صديقته . ويرجع الفضل الى التصوير الجوي في كشف الصحراء عن كنوزها . ولما كانت الطبقات الصخرية التي تهمنا ، ليست مغطاة بطبقات ارضية حديثة كما هي الحالة مثلاً ، هنا على الاطراف الشمالية من الهجر ، فان اخذ صورة كاملة للمنطقة بواسطة التصوير الجوي يعادل في قيمته جهود جيش لجب من علماء طبقات الارض . ويجري تنسيق هذه الصور وفحصها الى ان تجيء الفحوص الارضية مؤكدة لها . وقد قامت شركة كريبس في عام ١٩٥٢ بتصوير جوي في منطقة مساحتها خمسون الف ميل مربع في غضون اسبوع واحد . ولم تمض اربعة اشهر ، حتى كانت الشركة قد اعدت سلسلة كاملة من الخرائط الفوتوغرافية للمنطقة كلها . وسرعان ما تبين ان ثلث هذه المنطقة لا يصلح لأعمال التنقيب ، وشرع علماء طبقات الارض يقومون ببحوث تفصيلية في بقية اجزائها . ولكن الصور الجوية كانت قد قدمت اشارات على احتمال وجود الزيت في ايجيلي . ولو كانت الأرض مكسوة بالخضرة ، لكانت هذه الهرطقة التصويرية مستحيلة . وهناك وسائل اخرى تعين فيها الصحراء رجال الزيت . فلو سألت أي عالم في الجغرافيا الطبيعية ، كان قد عمل في الغابات الاستوائية او في مستنقعات لويزيانا لحصلت على الجواب الشافي . ففي المنطقتين السالفتين لا يستطيع العالم ان يدرس اكثر من قطاع طوله عشرة اميال وعرضه ستة ، أما في الصحراء ، ففي وسعه ان يدرس عشرة اضعاف هذه المساحة او عشرين ضعفها . وفي تطوير أي حقل من الحقول ، تكون الصحراء عوناً اكثر منها عقبة ، ولكنها دائماً المشكلة عينها ، فكل انسان يعتقد أن عمله ، هو اصعب الأعمال .. والآن كيف بدأنا الحديث حتى وصلنا الى هذه النقطة ؟ »

— « لقد سألتك ، لماذا تأخر البدء بالتنقيب عن الزيت في الصحراء ؟ » .

— « إنها مجرد حقيقة على الانسان ان يقبل بها . فقبل الحرب ، لم يكن الوقت ناضجاً بعد للزيت الصحراوي . واذا أردت الدليل ، فعليك ان تتذكر الاشخاص الذين قالوا بوجوده . آن اياً من الناس لم يكن ليصدق قولهم .

واحسست في ايجيلي لأول مرة بالأصوات التي ضاعت في الصحراء ، وهي أصوات اولئك الرواد الاوائل ، التي لم يستمع اليها انسان . ولعل ابرز هؤلاء كونراد كيليان . ولم يكن مجرد صدفة عارضة ان الرجل الذي حدثني عن كيليان ، كان اشبه ما يكون بكونت من المهاجرين الروس وهو يحمل بالفعل اسما روسياً . وبدا لي ان من المناسب جداً ، ان رجلاً منفياً وضع جذوراً جديدة في الصحراء ، قد عرف الكثير عن رجل ولد قبل الأوان وكان يعتبر مصدر ازعاج لجميع اقرانه .

ويقال ان شعنبياً ، كان هو الذي أذاع الشائعة القائلة بأن فلاترزكان ، قبل موته ، قد عثر على الكنز الاسطوري للقرامنتيين . وأحس رأسمالي جزائري بعد اربعين عاماً بالحاجة الى الحصول على الزمرد ، الذي قيل انه يبلغ حجم بيض الحمام ، وعهد الى ضابط صف سابق من القوات الصحراوية بالعثور عليها . ورغبة في ضمانة السلامة ، قرر أن يطلب الى عالم مرافقة الضابط ، فسأل ويلفريد كيليان العالم الجيولوجي الفرنسي المعروف بأن يقترح عليه احدهم . واقترح كيليان ولده . وكان كونراد في الثالثة والعشرين من عمره ، عندما دخل الصحراء اول مرة . ولم تمض بضعة أيام ، حتى كان قد اختلف مع قائد الحملة ، الذي اكتشف بأنه اكثر ميلاً الى ابتزاز مخدومه الغني والغبي من العثور على زمردات القرمنتيين . واختصم الرجلان وتضاربا اخيراً ، وافترق كيليان عن رفيقه في بطن الصحراء . وظل ينتقل اكثر من اربعة شهور في الصحراء على ظهر هجينه جائلاً في منطقة الهجر . ولقي هذا الشاب الأنيق الجميل ، حفاوة كبيرة في مخيمات الطوارق . وقد انقذته امرأة طارقية من الموت بعقار شعبي عندما اصيب بالزائدة الدودية . وقد تمكن من رد الجميل بأن أجرى لها عملية قيصرية ناجحة بأدوات التشريح التي كان يحملها معه

للقيام ببعض البحوث في علم الحيوان . وعاد كيليان الشاب من هذه الرحلة الرومانطيقية يحمل من المعلومات ما يكفي لقلب جميع النظريات التي كانت مقبولة حتى ذلك الحين عن التشكيلات الجيولوجية ، في الصحراء الوسطى ، وفي ربع القارة الافريقية . وكان كيليان يحمل آراء تعاكس تقريباً في كل ناحية من النواحي ، تلك التي كانت سائدة ومعروفة حتى ذلك الحين . وشك ويلفريد كيليان في تعميمات ولده ونظرياته ، فأعد رحلة لأحد رفاقه للذهاب الى الصحراء والتثبت من آراء ولده . وقد جاءت آراء هذا الرفيق مؤيدة لنظريات الشاب ، وغدت التعابير الجيولوجية التي استخدمها مقبولة بصورة عامة .

ولم يكن من قبيل الصدفة ايضاً انني سمعت باسم كيليان لأول مرة في ايجيلي . فقد ذهب كيليان الى الصحراء الشرقية في عام ١٩٢٦ . وقد استغرقت حملته ثلاث سنوات ، وكانت قد غدت شيئاً من الاسطورة ، قبل ان يعود كيليان حاملاً ثروة ضخمة من المعلومات عن علم الحيوان والنبات وطبقات الارض ، وعلم الحفريات ، والجغرافيا والتراث الشعبي (الفولكلور) . وقد وضعت قبيلة السنوسيين القوية ثمناً لمن يأتيها برأس هذا المغامر الفرنسي الاحمق ، ولكنه ظل يستقل هجينه الابيض بهدوء ، لا يرافقه إلا شخص يحمل العلم الفرنسي وعلم اسرة كيليان ، ودخل مدينة « غات » المحرمة . وعامله الأهلون هناك كما يعامل السلاطين . وجاءه وفد يعرض عليه ان يغدو حاكم فزان ، ووعدوه بثمانية آلاف محارب اذا تمكن من طرد الايطاليين . وقاوم كيليان الاغراء ، واكتفى بسلسلة من الجبال تمتد مائتين وخمسين ميلاً من غات الى « تومّو » ، كانت حتى الآن منطقة محايدة منذ تم التوقيع على المعاهدة الفرنسية ـ الايطالية في فزان عام ١٩١٩ ، واستولى عليها باسم فرنسا . واطلق على هذه الجبال اسم « جبال دوميرج » بالنسبة الى رئيس جمهورية فرنسا آنذاك . لكن الحكومة الفرنسية لم تعترف قط بهذا الضم ، ولم ترد حتى على مذكرة كيليان وأوراقه . ولم تكن الكي دورسية راغبة في ان تزج نفسها في المتاعب بسبب عالم جيولوجي رومانطيقي ، قد يكون عبقرياً ، ولكنه على

كل حال لا يخلو من الجنون . واطلق كيليان ، على نفسه غير هياب ولا وجل لقب « مستكشف السلطان » ، مستنداً الى احد قوانين العهد السابق ، الذي لم يلغ قط ، والذي كان يمنح هذا اللقب لأي فرنسي يستكشف مناطق لا صاحب لها ، على حسابه الخاص ، ويحتلها احتلالاً رمزياً بالنيابة عن وطنه ، ويرفعه الى مرتبة السفارة .

ويقال ان كيليان قد ادرك في هذه الرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات في الصحراء ، والتي استنزفت كل فلس خلفه له والده ، الاهمية التي تحتلها منطقة ايجيلي وفزان . كاراض غنية بالزيت .

وظهر الزيت لأول مرة في ايجيلي ، بل في الصحراء كلها في السادس من كانون الثاني عام ١٩٥٦ ، واذيعت الانباء على موجات الاثير ، وبعد يومين كانت صناديق الشمبانيا تصل الى محطة الحفر (ال. دي. ١٠١) . وفي حزيران عام ١٩٥٦ ، ظهر الزيت من جديد في تيغونيتورين الواقعة على بعد خمسة واربعين ميلاً الى الغرب من ايجيلي . وفي كانون الثاني عام ١٩٥٨ ، اكتشف حقل الزيت في « زار زيتين » على بعد خمسة وعشرين ميلاً الى الشمال ، وفي أيار اكتشف حقل « هضب العراش » على بعد خمسة وسبعين ميلاً الى الجنوب الغربي من ايجيلي وفي تشرين الثاني حقل « وان تار يديرت » على بعد خمسين ميلاً الى الجنوب الغربي من ايجيلي ، وفي كانون الأول في صخرة كولينياس ، على بعد ستين ميلاً الى الجنوب من ايجيلي ، وفي آب عام ١٩٥٩ في وان تاريدجيلي ، الى الشمال من « زار زيتين » . وقد جاء الاكتشاف الأخير مبرراً للقرض الكبير الذي فاوضت شركة كريبس في عام ١٩٥٩ للحصول عليه لانشاء خط الانابيب الممتد الى البحر الابيض المتوسط .

ولا تشتمل هذه اللمحة المختصرة إلا على الاكتشافات الاكثر اهمية . فهناك اليوم في حقل الزيت في ايجيلي ، أو ما يسميه رجال النفط بحوض قلعة بوليناك ، ما لا يقل عن « دزينة » من الطبقات الارضية التي تحمل الزيت بصورة فردية . وتقع الطبقات المنتجة في أحسن الحقول الثلاثة على بعد يتراوح

بين الف وثلاثمائة والفين وستمائة قدم في ايجيلي ، وبين ١٦٠٠ و ٦٠٠٠ في تيغونيتورين وبين ١٦٠٠ و ٤٥٠٠ في زار زيتين . وكان مجموع المخزون الاحتياطي في هذه الحقول الثلاثة يقدر في عام ١٩٦٠ بمائة وخمسة وعشرين مليوناً من الاطنان .

وعندما يعثر احد الحلاقين في الجزائر على غبار احمر في رأس أحد زبائنه يصل فوراً الى الاستنتاج بأنه جاء من الصحراء ، فيبادره بالسؤال قائلاً : وكيف الأحوال في البيت الاحمر ؟ .

والبيت الاحمر ، هو « العاصمة » الاقليمية لمقاطعة الزيت في ايجيلي . وهي مستعمرة تخلو من الذوق الهندسي ، تضم « البناقل » ، والاكواخ ، التي يلفها محيط رائع الألوان . فالوادي العريض الواسع ، الذي تقطعه تلال صغيرة غريبة اللون ، تبدو وكأنها خرجت الى قيد الحياة ، هي مزيج من الألوان الأرجوانية والبنفسجية والحمرية . فالى ناحية واحدة يرتفع جبل زارزيتون الصخري الرمال ، الأشهب اللون ، بينما ترتفع الى الناحية الاخرى كثبان الرمال ، تمشطها كل يوم من جديد الرياح ، وقد اكتسبت اللون الاحمر في المقدمة ، ليختفي وراءه اللون الاصفر. ووراء هذه الكثبان جبل ايجيلي ، وهو مسيّف من الصخر الرملي الأسود ، العميق الاخاديد ، وهو يكتسب اسمه من الفراشة السوداء ، وهي القاطنة الجريئة في الرمال المتنقلة . ولعل المنظر المريح الوحيد من هذا الجبل القاتم المعتم ، هو التلوّن المتراوح احياناً بين الصفرة والخضرة والزرقة في التربة الرملية .

وقد وقع الاختيار على البيت الاحمر « ميزون روج » ، لتكون قاعدة هذه المنطقة ، لا بسبب مناظرها الجميلة ، بل بسبب تربتها الحمراء الصلبة التي تستطيع الطائرات ذات الطابقتين ان تهبط فيها في الليل بأمان ، وكأنها تهبط على مدرج من الاسمنت المسلح . ولا يكاد الالف رجل الذين يعملون اليوم في مقاطعة ايجيلي الزيتية ، يتطلعون الى ما يحيط بهم من مناظر طبيعية . اذ ليس هناك من مكان ، اسوأ وفادة في الصحراء كلها من ايجيلي . ففي الصباح

الباكر من أيام الشتاء ، تهبط درجة الحرارة الى الرابعة عشرة تحت التجمد ، بينما ترتفع في الصيف الى ما فوق المائة والعشرين ، وتبلغ درجة حرارة الارض بين المائة والستين والمائة والخمسة والسبعين . ويغدو الرمل حاراً الى الحد الذي يحار فيه الغزال اين يضع حوافره ، ولا يستطيع سائق الاظعان إلا أن يضع النعال في قدميه . ويشرب العمال في ايجيلي ما يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين بنتاً في اليوم من السوائل لكل عامل (البنت ثمن الغالون) ، وهو أقصى ما يمكن للجسم البشري ان يمتصه في الاربع والعشرين ساعة . وبعد قضاء ستة أسابيع في هذا الجحيم تتشقق شفاههم ، وتجف اغشيتهم المخاطية ، ويذيب الألم عضلاتهم ، وتلتهب عيونهم بالاحمرار ، ويطيرون الى فرنسا للاستشفاء والنقاهة .

وفي وسع فرنسا ان تعتبر نفسها محظوظة لأن حقول الزيت في ايجيلي تقع فعلاً في الارض التي تحتلها من الصحراء . فقد تعمدت ايطاليا في اتفاق عام ١٩١٩ ان تترك خط الحدود غير محدد تماماً . وكانت فرنسا تواقة لتعطي الايطاليين الانطباع بأنهم يستولون على مناطق ، لا تريد هي فعلاً ان تتخلى عنها . وعندما ظهر الزيت لأول مرة في ايجيلي ، كانت هذه تمت بموجب الاتفاق المكيافيلّي ، الى ليبيا ، ولكن لجنة الحدود الفرنسية — الليبية ، اختارت بسخاء ان تفسر روح الاتفاق لا نصه ، وفي عام ١٩٥٦ ، وطبقاً لاتفاقية الصداقة التي عقدت في العام السابق ، انسحب الفرنسيون من فزان ، مما حمل الليبيين على اظهار بعض التسامح في قضية الحدود . وقررت اللجنة ان يكون الخط الفاصل الدائم ، طريقاً للجمال تبدو على خريطة قديمة ، ولكنها طمست معالمها منذ عهد بعيد بعجلات السيارات التي سارت فوقها . وأعلن ان ثلث مطار البيت الاحمر (ميزون روج) تابع للمنطقة الليبية ، ولذا فقد كانت شركة كريبس تدفع الى الملك ادريس جعلاً سنوياً قدره جنيه ليبي واحد . ولكن على الرغم من أن روافع الزيت في ايجيلي وزار زيتين تلقي بظلها عبر الحدود الليبية ، فان حقلي الزيت يقعان في الجانب الجزائري من الحدود .

وستظهر الأيام ما إذا كان الجانب الليبي يضم مخزونات مماثلة من الزيت . وكانت شركة ايسّو – ستاندارد ، قد حصلت على امتياز من الحكومة الليبية ، قبل ان تعثّر (كريبس) على الزيت في منطقة ايجيلي التي تقع ضمن حدود امتيازها ، وقد بدأت الشركة الامريكية أعمال الحفر على بعد ستين ميلاً من البيت الاحمر (ميزون روج) ، بنجاح كما يقال عظيم الى حد ما . وما زالت مخزونات الزيت التي عثر عليها في فزان متأخرة الى حد كبير عن تلك التي عثر عليها في الصحراء الليبية الى الجنوب من سرته .

وما زال زيت ايجيلي ، وهو من النوع الخالي من الكبريت والخفيف ، ومن أجود الأنواع ، حتى الآن ورغم مرور اربعة أعوام على اكتشافه شيئاً محتكراً ، ولا يتوفر إلا لآلات الديزل التي تستخدم في الحفر ، ولشاحنات كريبس التي تستعمل الزيت الخام كما يستخرج من الارض دون تكرير . ولكن شجرات عيد الميلاد أخذت تتوالى ، وشجرة الميلاد ، هي ابتكار يوضع فوق كل بئر جديد للزيت . وعندما يتم فتح ثقب جديد للزيت هناك ، ينطلق اندفاع من الغاز أولاً ، وبعد وقفة دراماتيه ، يندفع الزيت . والناتج اليومي لكل بئر في ايجيلي صغير جداً ، لا يعدو ثلاثين طناً ، ولهذا فان اشجار الميلاد تقف متقاربة من بعضها البعض . والزيت من الناحية الاخرى ، قريب جداً من السطح ، وهذا يعني ان حفر البئر يمكن ان يتم في ايجيلي في غضون اسابيع ، بينما لا يحفر في حاسي مسعود قبل مرور اشهر .

وفي مستهل عام ١٩٦٠ كانت هناك نحو من مائتي شجرة ميلاد قد اقيمت في منطقة الزيت في ايجيلي ، وكان نحو ستة من الآبار ينتج الغاز ليس إلا . ومن المتوقع ان يرتفع هذا الرقم في السنوات القليلة القادمة ، لأن خط الانابيب ذا اتساع اربعة وعشرين انشاً بين ايجيلي والصخيرة على خليج قابس ، سيبدأ العمل فيه قريباً ، وسيحمل عن طريق محطة ضخ واحدة ثمانية ملايين طن ، سيرتفع رقمها الى سبعة عشر مليوناً في عام ١٩٦٣ . وهذا لا يعني الاكثار من محطات الضخ ، بل وصل حقول الزيت الاخرى بخط الانابيب . ويجري الآن

بناء مدينة جديدة في « عين عميناس » ، حيث ينتهي خط الانابيب بسرعة البرق . وتمر ثلاثمائة ميل من هذا الخط في الاراضي التونسية ، وهي حقيقة تثير الفرنسيين اشد القلق . ولقد وقعت الحكومة التونسية الاتفاق الخاص بهذه الانابيب مع فرنسا على الرغم من احتجاج الحكومة الجزائرية الموقتة ، لأن المبالغ التي عرضتها الشركات الفرنسية على الحكومة التونسية مغرية كل الاغراء . ولكن الفرنسيين لا يساورهم ادنى شك في ان ابا رقيبه قد يسير في نفس التيار الذي يسير فيه الزعماء العرب الآخرون ، وقد ينجرف مع تيار القومية المتطرفة . وهذا يعني إما اغلاق المدخل الجانبي للزيت الصحراوي ، أو الى ان يصبح خط الانابيب ورقة رابحة في أية عملية ضغط سياسي . وهكذا فان التطوير البعيد المدى لايجيلي يعتمد ايضاً على ايجاد حل دائم للمشكلة الجزائرية .

ولنعد الآن لحظة الى كونراد كيليان . أنه لم يعمّر ليشهد حمّى الزيت في الصحراء . ففي ذات يوم في نهاية شهر نيسان عام ١٩٥٠ ، عثر على جثة معلقة في حبل موثوق الى نافذة الغرفة التي يقيم فيها في احد فنادق غرينوبل ، وقد تدفق الدم من فمه بغزارة . وبعد تحقيق سريع قامت به الشرطة ، والمحققون ، صدر القرار الظني ، بأنه قد مات منتحراً . وكان الرجل التعس قد حاول اولاً ان يقطع احد شرايينه بقطع من الزجاج .

وقد قضى كيليان السنوات الاخيرة من حياته في فقر مدقع . وقام بحملة ثالثة الى الصحراء ، أبان الحرب ، كانت القاضية على صحته . وحاول جاهداً اقناع الحكومة الفرنسية ، بوجوب استمرار احتلالها لمنطقة فزان بعد الحرب . وكان يوالي قذف كبار الساسة الفرنسيين بالمذكرات ، وكان يقوم بزيارتهم شخصياً بحكم المنصب الذي ادعاه لنفسه وهو « مستكشف السلطان » ، ولكنهم كانوا يتجاهلونه ويهملونه ويزدرونه . وكان كيليان الذي لا يعرف من الدبلوماسية شيئاً ، يستفز بهذه المعاملة ، فتثور اعصابه ، ويلجأ الى السباب والشتائم . وهكذا نمت معه بفضل عزلته ، وما يشكو منه من خيبة ومرارة ، جميع ظواهر « جنون الاضطهاد » .

ولكن هل انتحر كيليان فعلاً ؟ ان اصدقاءه المقربين يشكون في ذلك تماماً . وكانوا يقولون ان الرجل الذي تعود مثله على المظاهر المسرحية ، لا يمكن ان يواجه مثل هذه النهاية الفظيعة . وهناك مفارقات ومتناقضات ظاهرة ، تثير الشك ، تبدو مترابطة مع موته . فهل قصد من ادعاء الانتحار ، اخفاء جريمة قتل ؟ يقول اصدقاؤه ان كيليان ذهب ضحية الحرب النفطية ، التي تدور دائماً وراء الكواليس . فقد كان الرجل يعرف ان الزيت موجود في فزان ، وهذا هو السبب الذي دعاه الى حث الحكومة الفرنسية على عدم التخلي عن الأراضي التي احتلها الجنرال ليكليرك . وهذا هو السبب ايضاً ، وهذا ما يدعيه اصدقاؤه ، الذي دعا بعض الذين يعملون في الظلام من الانكلو — سكسون ، والذين قضت مصالحهم ، بأن تغدو فزان جزءاً من دولة ليبيا المستقلة والضعيفة والمعادية لفرنسا ، ان يزيحوا هذا الرجل من الطريق . وما تزال هذه القصة الخيالية منتشرة اوسع انتشار في فرنسا ، وتجد الكثيرين من المؤيدين . وقد رفع المركيز دي شاسيلوب لوبات ، صديق كيليان الحميم ، لواء هذه النظرية ، وتحدث عنها بجلاء ووضوح في الجلسة التي عقدتها « اكاديمية علوم ما وراء البحار » في السابع عشر من تشرين الأول عام ١٩٥٨ .

وتقترح سلطات البريد الفرنسية إصدار طابع تذكاري خاص يحمل صورة كيليان . ومن المتوقع ان تعاد تسمية « قارة الجنون » في جبال الهجر ، حيث اقيمت لوحة تذكارية تضم اسماء جميع رواد الصحراء ، وبينهم كيليان « باسم جبل كيليان ، في الخرائط المقبلة التي تصدرها فرنسا عن الصحراء ، كما ستسمى اول بلدة سيتم بناؤها في الصحراء باسمه . ويود اصدقاؤه ان يمضوا بعيداً وان يطلقوا على كونراد كيليان اسم « والد الزيت الصحراوي » . ولكن المراقبين الأقل تحيزاً له ، يودون أن يشمل هذا الشرف جميع الرواد من علماء طبقات الارض ، الذين قطعوا مفاوز الصحراء على ظهور الابل ، في وهج الشمس ولظاها ، وهي المفاوز التي يقطعها خلفاؤهم اليوم في سيارات الجيب وطائرات الهليوكبتر .

١٢

هدير في الواحات

« الصحراء : حديقة الله ، وقد نزع منها جل شأنه
كل حياة مصطنعة ، لتظل المكان الوحيد الذي يعبد فيه
على طبيعته . »
— قول عربي —

عندما يصل الزائر تعباً الى فندق « ترانس اتلانتيك » في ورغله ، يكون اول ما يسأل عنه ، بعد أن يكون قد تلقى بعض المعلومات من اصدقائه ، عن السيدة « بوفيز » ، مديرة الفندق . ويوجه الزائر هذا السؤال الى الساقي الأسود ليستهل به الحديث ، ولكن استهلاله لا يجديه فتيلاً ، اذ ان الساقي يرد عليه قائلاً : اوتريد غرفة ؟ وفي رده ، ولهجة حديثه تعبير واضح ، عن شكه في اكتمال قوى محدثه العقلية الذي يسأل عن غرفة في فندق .

وفنادق الصحراء ، التي بنيت بين الحربين الكونيتين ، والتي تضمنت كل مظاهر الرفاه ، حتى أحواض السباحة ، ملأى دائماً بالنزلاء ، وقد حجزت غرفها لعدة اشهر مقدماً . ومع ذلك فالسلطات لا تشجع السياحة الى الصحراء .

اذ يحتاج المسافر الى الصحراء ، الى اذونات خاصة ، وتأشيرات وصور فوتوغرافية ومختلف أنواع الأوراق والشهادات . وقد قيل لي في وزارة الصحراء في باريس : « يجب علينا ان نختصر جولاتك في الصحراء بسبب متاعب النقل » . ولا تعني متاعب النقل في الصحراء التي يستطيع فيها الانسان ان يرى الطريق ممهدة بين الأغواط وتامنراسيت ، إلا جيش الثورة الجزائرية . والسائحون الذين يؤمون اليوم فنادق الصحراء لم يأتوا انتجاعاً للصحة . فمنذ الساعة الرابعة صباحاً ، في كل يوم ، تبدأ سيارات الجيب واللاندروفر ، في الحركة ، ويعود الرجال الذين يعملون في المساء وقد اغبرّت وجوههم . وتقرأ احدى الاعلانات المعلقة في فندق « ترانس اتلانتيك » في غردايه ، فتجد مكتوباً عليها « يرجى من النزلاء ان لا يذهبوا من « البار » الى غرفة الطعام بملابس العمل » . ولكن يبدو ان كل انسان يتجاهل هذا الاعلان . فغرفة الطعام ملأى بالقمصان المفتوحة ، والسراويل القصيرة ، والبسة الخاكي .

ولا يدري الوافد ماذا يعمل ، عندما يجد ان الفندق مكتظ بالنزلاء ، فهل يذهب الى « حي الدعارة » لقضاء ليلته مع احدى فتياته ؟ ولكن هذه العادة غدت الآن شيئاً من أمور الماضي ، فلم يعد هناك بطالة حتى لفتيات هذا الحي .

ومن المدهش ان يجد الانسان في الغولية ، فندقاً « كدال بياز » ، اشبه ما يكون بالقصور ، وهو يضم ستين غرفة مكيفة الهواء ، وفي كل غرفة منها حمام خاص بها وهاتف . لكن هذا الهاتف مرتبط ببدالة البواب ، التي لا تجد من يرعاها في النهار ، وقد سمعت أحد أصحاب الفنادق يقول : « الغريب انك لا تستطيع ان تعثر على بواب للنهار . فكل واحد يريد أن يكون بواباً ليلياً ، لأن معظم النزلاء يغادرون في الليل ، ويدفعون حسابهم . وأحسن الهبات تدفع لعمال الفنادق في الصحراء المستصنعة في الساعات المبكرة من الصباح » .

وأماكن السكنى نادرة ايضاً في الصحراء ، ولا سيما في ورغلة ، التي تعتبر مدخل اكبر حقل نفطي في الصحراء . وقد تحدثت الى عامل من أهل البلدة ، قضى ستة اشهر يعمل في حاسي مسعود ، وقد جمع في غضونها مائة

وستين الف فرنك . وهو على النقيض من أغلب زملائه ، لم ينفق ماله في ابتياع الملابس الزاهية الألوان ، ونظارات الشمس ، والاقلام ، وولاعات السجائر ، والبدلات المستعملة والمجوهرات الرخيصة ، وانما استثمره في بناء بيتين جديدين يسكن احدهما اليوم معتزاً ، ويعيش على دخله من قيمة ايجار المنزل الثاني .

ولقد تغير وجه الصحراء . ولم يجذب هذا التبدل اهتمامي بوضوح في أي يوم اكثر من يوم المولد النبوي . وفي كل مرة كان « الدف » يسكت عن القرع ، فيضطر القارع عليه الى استخدام أوراق التمر المحترقة لشد الجلد الى « الدف » ، كان صوت « الدق » على صفائح الزيت يعلو شيئاً فشيئاً ، بينما القارعون يعلون في عزف « النغم » . وسألت « الشيخ » ، الذي كان يركع حزيناً على أقدام الضريح الذي يتولى رعايته بعيداً عن أصوات الغناء والرقص ، عن هذا التبدل الذي طرأ على الغولية وغيرها من الواحات . واشار متألماً بيده الى جماعة من الشبان المسلمين الذين يرتدون السراويل الباهتة اللون ، وهم يمدون ايديهم الى قدر خشبي كبير مليء بالكسكسي . وكانت هذه « الموضات » الأخيرة من السراويل ، اشبه ما تكون « بالشوكة » في لحم هذا الرجل المتدين ، ولكنه كان قد ألف ايضاً رؤية هذا الصفائح من الزيت ، والمشاعل الكهربائية المبالغة في عصريتها التي كانت تطل علينا من جموع الراقصين .

ولم يكن في وسعه ان يقول شيئاً عن الزيادة الواضحة في استهلاك الخبز واللحوم . فلدى أهل الغولية من الخبز اليوم لطعامهم ، ثلاثة اضعاف ما كان لديهم منه قبل خمس سنوات . وكان ثغاء الغنم ورغاء الابل في ورغله عند ذبحها من الأمور المألوفة في كل ليلة . أما استهلاك اللحوم . وهو مقياس صادق لمستويات العيش ، فآخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً . وقد غدا المسلخ القديم صغيراً جداً لا يتسع لما يذبح في البلدة كل يوم ، وسيتم بناء مسلخ جديد ، عندما تصل الاذونات اللازمة من الشمال . أما الآن ، والى ان يتم بناء المسلخ الجديد ، فهناك « سوق سوداء » لذبح الماشية ، سراً ، وان كان بعلم السلطات وتحت

سمعها وبصرها .

وظهرت في الواحة لوحات جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، فهذه تقول « يمنع وقوف السيارات هنا ». وتلك تقول.... طريق واحد للسيارات وثالثة تحمل العبارات التالية : يمنع سير الدراجات . فالغلمان في سراويلهم «الامريكية والذين يذرعون الطرقات الضيقة في مجموعات ، لم يعودوا يظهرون في هذه الطرقات . وصاحب الحانوت ، الذي لم يمض على ابتياعه سيارته « السيتروان » اكثر من اسبوعين يضيع وقاره ، ويشرع في كيل الشتائم والسباب ، وكأنه واحد من سائقي الاظعان . ويمر جندي الفرقة الاجنبية بسيارته « الجيب » فيشتم ويلعن . ورجل الزيت الذي يحمل في سيارته « اللاندروفر » مدير شركته القادم من باريس ، ليطوف به ارجاء الواحة ، يشعر بالاعتزاز على الرغم من توقف سيارته ، وليطلع رئيسه على ما حققوه من اعمال ، وسائق السيارات الضخمة من عابرات الصحراء ، يجلس في غرفة قيادته وكأنه قبطان باخرة من عابرات المحيط ، ويطلق « بوق » سيارته . ويتطلع راكب الهجين ، وهو واقف في زاوية السوق الى كل هذه المناظر بنظرة ازدراء واحتقار . أما المشاة ، فلم يعد لهم مكان في الصحراء الجديدة .

وليس في كل ما اوردته من وصف أية مبالغة ، فالسلطات في مدينة غرداية الجديدة النامية . اخذت تسمي شوارعها بأسماء لابيرين وشارل دي فوكو وغيرهما من رواد الصحراء ، وشرعت تدرس فكرة ايجاد الاشارات الضوئية ، فقد غدا العمل مرهقاً في الطرق الرئيسية التي امتدت باشاراتها الى الصحراء . وأخذت الطرق المعبدة تزحف نحو الجنوب ، وأخذ شريط التزفيت الأسود ـ الأزرق ، يمتد في كل يوم مع آلات التزفيت نحواً من نصف ميل الى الجنوب . ويكلف كل نصف ميل من تعبيد الطرق في الصحراء (٦٥) الف غالون من الماء ، ونحواً من ثلاثة عشر مليوناً الى عشرين مليوناً من الفرنكات . ورصدت المنظمة المشتركة للمقاطعات الصحراوية (OCRS) مبلغ ستة وعشرين مليارا من الفرنكات للانفاق على الطرق الصحراوية بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٠ .

والقاعدة العامة ان الماء اكثر استعصاء على الوجود من المال . والطريق الممتدة من عين صلاح الى تامنراسيت ، والتي ينتظر إكمالها في وقت ما من هذا العام والعام الذي يليه ، هي كابوس لعمال الطرق ، بالنظر الى انعدام الماء في الهجر .

وكانت الصحراء حتى عهد قريب ، تعيش على الطرق الرملية الصحراوية ، التي يعرف فيها السائق طريقه بواسطة الآثار التي تتركها السيارات التي سبقت سيارته في المرور بهذه الطريق ، ولكن السائق لا يحاول السير على نفس الآثار القديمة وانما يسير الى جانبها ، اذ أن ذلك أهون عليه ، واكثر راحة . ولكن هذا السائق كثيراً ما يضطر الى السير على نفس الطريق السابقة عندما تجتاز وادياً او تمر برمل متنقل ، أو بمجموعة من الصخور ، وان كان احساس بالقلق يتسلط عليه وهو يفعل ذلك . لأن الأرض التي كانت صلبة بالأمس ، قد تكون جرفتها عاصفة رملية أو أمطار سحابة عابرة ، أو ضاعت معالمها مع انقضاء فترة طويلة من الوقت عليها دون استعمال .

وتسبب هذه الطرق ، متاعب دائمة لشركات النقل . وتأخذ الفجوات والاخاديد جزيتها حتى من اشد السيارات واضخمها . وقبل ان تبنى طرق الزيت ، اضاعت شاحنة حمولتها عشرون طناً ، مجموعة كاملة من الاطارات في رحلة واحدة قامت بها من الجزائر الى ايجيلي ذهاباً وإياباً . وبالاضافة الى كل هذا ، فهناك الضرر الكبير الذي يلحق بالحمولة من جراء اهتزاز السيارات ، والطقس السيء . ويحسب المتعهدون تكاليف النقل على الطرق الصحراوية العادية ، بأنه ضعف التكاليف او اكثر بقليل ، بالنسبة الى الطرق المعبدة . ولما كان هناك ما يزيد على خمسين الف طن من الحمولة ، تنقل في كل عام على كل طريق من هذه الطرق ، فإن هذه الحركة الواسعة تبرر التكاليف الباهظة التي تنفق على انشاء الطرق .

وهناك اسباب تقنيّة بالاضافة الى الدوافع الاقتصادية ، جعلت شق الطرق في الصحراء ، يحتل مكان الصدارة في كافة المشاريع . ولأوضح ما اقول ، اذكر على سبيل المثال ، ان مجموع حمولة ما نقل على الطريق بين الغولية وعين

صلاح قد ارتفع من ٣٥٠٠ طن في عام ١٩٥١ الى خمسة وعشرين الف طن في عام ١٩٥٥ . وتمثل هذه الأرقام بالطبع زيادة في عدد السيارات ، ولكن ما هو أهم من ذلك ، هو تلك الزيادة الثابتة في طاقتها على الحمل . فقد رفع البحث عن الزيت حجم السيارات التي تستعمل هذه الطرق ، وأدى نمو حقول الزيت في حاسي مسعود الى خراب الطريق التي تصلها بورغله ، الى الحد الذي غدا فيه من المتعذر على السيارات ذات حمولة خمسة اطنان او عشرة أن تسير عليها .

وبات في امكان الانسان ان يسافر الآن عبر الصحراء كلها دون أن يضطر الى رفع إطارات سيارته من الرمال عندما تغرز فيها . وتسير الطريق مستقيمة ثابتة دون ليّات أو اعوجاج ، بصورة لا يكاد يصدقها العقل ، وتبدأ طريق الزيت من بسكره ، مارة بواحات الريغ عبر توغورت وورغلة وحاسي مسعود الى قلعة لاليماند على طرف العرق الشرقي الكبير . وهناك طريق اخرى تبدأ من الأغواط ، مارة بأراضي المستنقعات عند (داياز) الى غردايه ومن عاصمة وادي المزاب ، عبر سفوح التلال التي تؤلف بداية هضبة « الشبكة » الصخرية الى الغولية . وإذا أراد الانسان أن يذهب سراعاً الى منطقة الزيت ، فهناك طريق ممتازة بين غردايه وورغله ، ويستطيع ان يمضي منها في طريق فرعية الى الواد عاصمة بلاد السوف . اما كولمب بشار في غرب الصحراء الجزائرية ، فيمكن الوصول اليها بسهولة من عين الصفراء .

ولا تعتبر هذه الشبكة من الطرق ، كاملة على أي حال من الأحوال . فالعمل يجري لاكمال الطريق الزيتي بين قلعة لاليماند وايجيلي ، كما أن العمل قد بدأ ايضاً في الطريق المهمة بين بيريان الى الشمال من غردايه عبر قرارة وتوغورت . وتوضع الخطط ايضاً الآن لاستكمال الطريق الوسطى من الغولية الى عين صلاح وتامنراسيت التي ينتظر ربطها ايضاً بالطريق الزيتي الآخر من « امقيد » وقلعة فلاترز . ويدرس المهندسون شق طريق مباشرة بين كولمب بشار والأغواط . وما زالت دائرة الطرق في المنظمة المشتركة للمقاطعات

الصحراوية تنتظر تعليمات جديدة من إله الزيت العظيم لوضع مشاريع جديدة . وتقوم فرق خاصة من المساحين في كل عام باضافة الف ميل من الطرق المخططة للمشاريع الجديدة .

ويعتبر ولفرام هيمكي ، المهندس الألماني من الشخصيات البارزة في النقل الصحراوي . وقد وقع هذا المهندس في أسر الحلفاء عندما تراجع رومل بفيلقه الافريقي . وبعد ان اطلق سراحه من معسكرات الاسرى ، احتل مركزاً رفيعاً في « الاتحاد الصناعي الافريقي » . وتمثل الصحراء بالنسبة اليه تحدياً تقنياً . وتقوم شركته ببيع الشاحنات الامريكية « كينويرث » التي صممت في الاساس للعمل في العربية السعودية .

وقد قاوم صانعو السيارات الفرنسية بالطبع غزو الامريكان للصحراء . وقد نشب صراع يائس بين الشركات الفرنسية من ناحية ، وبينها وبين الشركات الاجنبية المنافسة من الناحية الاخرى . واسفرت المنافسة عن الاسراع في خلق سيارات اضخم واضخم . ويبلغ عرض سيارة (تي. ١٠٠) اربع ياردات وطولها اربع عشرة ياردة وقوتها ستمائة حصان ، وتشق طريقها بستة إطارات خاصة . وغرفة السائق مكيفة الهواء ، وفيها محطة إرسال لاسلكية . ويتراوح مجموع حمولة هذه السيارة بين الثمانين طناً والمائة والعشرين . وهناك اربعة أنواع اخرى من السيارات الضخمة اعدت خصيصاً للصحراء ، ويستطيع احدها ان يحمل مضخة ثقيلة أو آلة حفر كاملة .

وقد قابلت هيمكي في سيارة كينويرث ، في كثبان الرمال الواقعة الى الجنوب من ورغلة ، حيث كان عدد من المهندسين يقومون باختبار قوة سياراتهم على الصعود والسير والسحب في مختلف أنواع الأرض . ويخيل الى الانسان وهو يقف مع عدد من البدو الذين يراقبون الاختبار ، وكأنه في سباق للسيارات.

ولم يكن المهندسون والتقنيون ، اقل حماساً وهم يختبرون هذه السيارات الجبارة على جزء من الطريق بين ورغلة وحاسي مسعود . ويحاول صانعو السيارات بكل ما لديهم من جهد تبديد مخاوف الذين يتولون بناء الطرق ، من

انتاج إطارات أوسع وأوسع . ولا يعتبر الضغط العادي لاطار سيارة (تي. ١٠٠) اكثر ثقلاً من وطأة خف البعير . ولكن للسائقين مخاوفهم ايضاً . فقد قال احد السائقين من عابري الصحراء : « سيأتي يوم ، يمنعوننا فيه من استعمال هذه الطرق كلية » .

ولكن هذا ليس كل ما يقلق السائق من عابري الصحراء . فهو يعيش مع زميل له اسابيع طويله ، في هذه الغرفة الزجاجية من السيارة . وكثيراً ما يتعرض لكمين ، من رجال جيش التحرير الجزائري ، وتطلق عليه العيارات النارية من كل جانب ، فاذا كان اوروبياً قتل ، واحرقت سيارته ، وان كان جزائرياً فرّ ، وعاد الى قاعدته ، ليروي قصة جديدة عن اهوال الصحراء . وهناك الرمل المسحوق المسمى « فش فش » الذي يكون كامناً احياناً تحت سطح صلب. وقد سقط حميدة السائق الجزائري ، الذي نجا من اكثر من كمين ، من المحاربين ، في شرك « الفش – فش » . فقد اوقف سيارته كعادته ذات يوم ، ونام تحتها . وفي اثناء الليل ، أخذت السيارة تغرز في الرمل شيئاً فشيئاً ، ساحقة عظام حميده ورفيقه تحتها . ومن اعداء سائقي الصحراء ، مرض الاسقربوط ، فهو بخلاف رجل الزيت الذي يعيش على تموينات سخية من الخضار الطازجة واللحم والفواكه التي تصله بالطائرات، يعيش على المعلبّات التي تسبب له هذا المرض .

ولا تستهوي الألفاظ الطنانة من امثال « استكشاف الصحراء » ، وخلود الرواد ، والوطنية ، السائقين الذين يعملون في الصحراء ، وانما تستهويهم الأوراق المالية ، التي تبدد مخاوفهم وقلقهم . ولروح الزمالة عندهم حدودها وقيودها . فمن القوانين غير المكتوبة ، ان لا يطلب الانسان ، اذا وقع في ورطة من زميله مساعدة تفوق ما يستطيع هو تقديمها اليه لو انعكست الآية . وشعار سائق الصحراء « ان كل انسان يعمل لنفسه » . وهناك نظام سخي من العلاوات ، يحمله على ان يظل في حركة دائمة . فالوقت بالنسبة اليه مال . فلو قطع مثلاً المسافة من الجزائر الى ايجيلي ، ذهاباً وإياباً ، وهي ٢٥٠٠ ميل ،

في ثمانية عشر يوماً ، فانه يتقاضى علاوة خمسة وثمانين في المائة على اجرته الاصلية . وتستغرق هذه الرحلة عادة ثلاثة اسابيع . وهو في مثل هذه الحالة يتقاضى علاوة ستين في المائة . يحرم منها ، اذا استغرقت الرحلة اكثر من اربعة وعشرين يوماً . ويستطيع سائق الصحراء عن طريق العلاوات ، والنفقات الاضافية ، والحصص في الارباح والهبات وما شابهها ان يحصل على ثلاثة أضعاف دخله الشهري العادي .

وأدى استغلال الصحراء الى أن أصبح نقل الحمولات تجارة هامة . ويمكن لصاحب سيارة شاحنة حمولتها عشرون طناً ان يتقاضى ثمن سيارته اجراً لثلاث رحلات تقوم بها من الجزائر الى حاسي مسعود ذهاباً وإياباً . ويستطيع متعهد اذا حالفه الحظ ، أن يقوم بهذه الرحلات الثلاث في غضون شهر واحد ، ولكن الوقت قد انقضى ، على ان تتمكن أية سيارة ذات اربع عجلات ومحرك قديم من السير عبر الصحراء . فالمنافسة شديدة . لكن هذه السيارات متفقة على شيء واحد ، وهو ان تظل المنافسة قائمة بين المردة من السيارات ، وان لا تسمح للاقزام ، حتى بالتقاط الفتات ، والخريطة الصفراء التي يتحدث عنها سواقو الصحراء بتقديس واجلال ، وكأنها كتاب مقدس ، تضع القيود على الحمل . وتحدد السيارات التي يسمح لها باقتطاع جزء من الكعكة الشهية . وحق تشغيل سيارة شاحنة في الصحراء ، اثمن اليوم بكثير من قيمة السيارة نفسها .

وقد تحققت تألية الصحراء على حساب الجمل . وتقوم سيارة شحن متواضعة حمولتها خمسة اطنان اليوم ، وتقطع مائة وعشرة اميال منذ شروق الشمس حتى مغيبها ، بعمل يعادل ما يقوم به مائتان وخمسون جملاً ، أما ما تقوم به شاحنة ضخمة فيعادل ما تقوم به خمسة آلاف من الجمال . ومن العوائق التي تقف حائلاً دون استخدام الجمل ايضاً ان المائتين والستين رطلاً التي يحملها الجمل عادة ، يجب ان توزع بعناية على سنامه ، وإلا ترنح تحتها وعجز عن السير . وهذا لا يعني ان الجمل قد ابعد نهائياً عن ميدان العمل . ففي كل سنة تقوم قوافل ضخمة من الجمال تحمل السلع من تاوُوديني واما ضرور ، والملح

الصخري ، من بيلما الى الموانىء الواقعة على الحدود الجنوبية من الصحراء والى بلاد السودان والنيجر وتشاد . وما زال الجمل السيارة التي يستعملها البدوي في جمع حاجياته . ويرجع الى الجمل الفضل في ان بدو الصحراء لم يغدوا مقتصدين في حياتهم كما ينسب اليهم . ويبتاع بدو موريتانيا من أسواق مراكش والسودان والسنغال ما يتراوح بين اربعين وخمسين الف طن من الذرة في السنة ، واربعة آلاف الى خمسة آلاف طن من السكر وثمانمائة طن من الشاي وستة آلاف الى ثمانية آلاف طن من الملابس . وحتى الصحراء المستصنعة لم تستغن عن الجمل نهائياً . فهو يحمل الزيت الى المطارات النائية والى مستودعات البترول . فالطائرات الناقلة للزيت تستهلك نصف ما تحمله من وقود ، والسيارات الناقلة للزيت ، تتعطش اليه بحيث يغدو استعمالها أمراً غير اقتصادي . ومن المؤلم ان الجمل يسمح للآخرين باستغفاله ، اذ يحفر قبره بيده . وهناك موجة من البطالة تهدد الثلاثمائة الف جمل التي تعيش في الصحراء ، وتدفع بها دفعاً الى المسالخ للذبح . وفي الصحاري الهادرة بحمى الزيت ، تصبح شريعة الازل في « ان الجمل هو صديق الانسان » لا وجود لها ولا قيمة ، وتسود الشريعة الاخرى التي يتحدث بها رجال الجيش الفرنسي في الصحراء والتي تقول : « ان لحم الجمل لا يقل لذة ونفعاً عن لحم البقر ، ومع ذلك فهو ارخص منه ثمناً » .

* * *

وشرع القدامى من رجال الصحراء يتبرمون ويضجرون . فمن هم هؤلاء ؟ هناك أولاً القائد الذي قضى عشرين عاماً يحلم بفيضانات الربيع وبالهواء المنعش في مقاطعته « بريتاني » ، والذي وجد انه بعد تقاعده من الجيش ، لا يستطيع أن يغادر الصحراء . وهناك الجندي الألماني السابق في الفرقة الاجنبية والذي ينفق مرتبه في حانة صغيرة حيث يتناول دائماً قطعة اللحم اليابسة ويستمع الى النكات القذرة . وهناك الملازم الأول من فرقة

الهجانة ، الذي يرفض التحدث الى أي انسان لم يقطع ستة آلاف ميل من ارض الصحراء . وهناك الطبيب الذي تعلم من أهل الصحراء ، ان لحم عظاءة الصحراء (السحليّة) ، يشفي من عضة الثعبان المجنح . وهناك الناسك ، الذي يبحث عن الله في الصحراء ، والاحمق الذي يحاول البحث عن زمرّدات القرامنتيين ، والحكيم الذي يبحث عن الراحة في الصمت الخالد .

ويجلس هؤلاء في نعالهم الصحراوية ، وسراويلهم التي غدت كالأكياس يتناولون اقداح حليبهم ويانسونهم ، يسرون عن همومهم . وهم يتذمرون بمرارة من هذه الشاحنات الثقيلة ، التي تمر بهم هادرة مزمجرة ، ومن رجال الزيت الذين يشربون الويسكي ، باحذيتهم وملابسهم القصيرة وقبعاتهم التي تشبه قبعات الكشافه ، ومن خوذة الحفار المصنوعة من الصفيح ، ومن زجاجة الزيت التذكارية الصغيرة التي جاءت من حاسي مسعود والمعلقة على جدار البار مع القبعات المدنية والعسكرية من زرقاء وبيضاء .

وهم ساخطون قبل كل شيء على انفسهم . فقد ادركوا ، ولكن بعد فوات الأوان أنهم قد خدعوا . فالعالم الجيولوجي الذي ساعدوه لأنه كان ينام مثلهم في العراء ، ويشرب مثلهم الماء الأجاج من القرب الجلدية ، والذي كان يذرع الصحراء مثلهم على ظهور الابل ، لم يكن ، واحداً منهم . انه شريك للباحث عن الزيت في الصحراء ، الذي ينتعل الاحذية العالية ، ويلبس القفازات الجلدية والخوذ اللامعة .

وكثيراً ما يتفجر الغضب في شكل قصائد شعرية . فقد نشر جان لي موليتييه قصيدة شعرية مؤلفة من ستة ابيات في المجلة الصحراوية تحت عنوان « اذهبي الى الجحيم ، ايتها الصحراء القديمة » قال فيها « اذهبي الى جهنم ، فستموت الجمال فيك . وستصبح شمسك مكيفة وفي الوديان القائمة بين الكثبان الرملية ، ستتفجر « السلطة » من الارض .. »

ويستاء أهل الصحراء من هذا . ولكن هناك اكثر من الاستياء . فهم يعرفون الصحراء اكثر بكثير من هؤلاء الذين وفدوا لايقاظها من سباتها الطويل ،

ليعودوا فيقذفوا بها الى الارض ثانية . وهذا الهدير ، يثير عند هؤلاء اكثر من ألم العاشق الذي يحس بأن معشوقته قد تخلت عنه وفرت مع أول رأسمالي ثري رأته . كما انه يستفز عندهم شيئاً من المشاعر الأبوية التي لا يستطيعون تجاهلها ، والتي تفرض عليهم احساساً بالمسؤولية .

وقال لي ضابط ولد عشرين عاماً بعد أوانه ،... « ان أهل الصحراء واقعون تحت تأثير الباحثين عن الزيت ، وصائدي الكنوز الأخرى ، ويكادون يقطعون الساق التي يجلسون عليها. » كان هذا الضابط الشاب في مظهره ، القديم في افكاره يبدو قلقاً ، ومضى يقول : « أنا لا أريد اطلاق سحب الدخان هذه في حديقة الله . وقد اكون عنيفاً في افكاري ، ولكنها ليست مجرد العواطف الحساسة التي تحملني ، وتحمل غيري ، على التوجّع ، عندما نسمع هذا التعبير عن تصنيع الصحراء . وقد جاءت السنوات الاخيرة بأزمات على الصحراء قد لا تفيق منها ابداً . ويعتقد المهندسون والتقنيّون انهم قد تغلبوا على الصحراء ، وانهم كانوا على جانب كبير من الذكاء لكي يحققوا ذلك . ولكن هذا الاعتقاد خاطىء تماماً . فقد بنوا عدداً قليلاً من القرى المكيفة الهواء ، التي يرجع الفضل في بقائها واستمرارها الى النقل الجوي . ولكنهم في الوقت نفسه قد حطموا ودمروا المورد الوحيد لحياة أهل الصحراء ، وهو النخيل . وقد حقق رجال الزيت نصراً ظالماً » .

وبالطبع فان ازمة الواحات قديمة الأجل . فقد بدأت منذ تحرر العبيد ، وقد غدا العبيد السود مزارعين بالحصة ويسمون باصحاب « الخمس » . ولكن هذه الحصة اسمية ليس إلا . فطريقة الاقتسام تختلف من واحة الى اخرى وتعتمد على الري وكثرة العمل . ففي بني العباس مثلاً حيث توجد مياه الينابيع ، يحصل الفلاح الاجير على ثلث ناتج التمر والحبوب ونصف ناتج الفواكه . أما في الغولية حيث توجد الآبار الارتوازية فان الفلاح يحصل على حفنة من الفواكه من كل شجرة مثمرة ، وعلى نصف الخضار والحبوب . وفي السوف ، يقوم أصحاب الاراضي بالعناية بنخيلهم بأنفسهم . ولكنهم

وحيدون في ذلك . ومعظم بساتين النخيل ليست ملكاً لفلاحيها . أما أصحابها البيض والمنتفعون منها بصورة رئيسية ، فيعيشون إما كبدو رحل ، بعيداً عنها أو كأصحاب واردات ثابتة في « القصور » والقرى .

وكان صاحب الأرض في عهد العبيد يؤدي عملاً مهماً ، فقد كان هو المموّل ، وهو المسيطر على جميع وسائل الانتاج ، كالتربة والماء واليد العاملة . وكان العبد الذكر في عام ١٨٩٩ يثمن وفقاً لسنه بمبلغ يتراوح بين مائة وخمسين ومائتي فرانك ذهبي . وكان المال الذي يدفعه صاحب العمل ، للايدي العاملة ، منخفضاً كل الانخفاض ، وكان يعادل « استيفاء الدين » ، وتأمين القوت للعبد ولأسرته ، ولكن بعد الغاء الرق ، ارتفع سعر اليد العاملة ارتفاعاً سريعاً وكبيراً . ولكن ارباح زراعة النخيل كانت ضئيلة ، وكانت وسائل صاحب الارض محدودة . وظل الكثير من الاعمال بلا يد عاملة تؤديها ، وانخفض الانتاج ، وأخذ المال يندر شيئاً فشيئاً ، وهكذا دواليك .. ولم يعد في وسع صاحب الارض ان يؤدي الدور الذي تخوله اياه حقوقه القانونية ، وهو دور الرأسمالي . فلقد غدا مجرد طفيلي ، بل عبئاً على اقتصاد الواحات .

ولا تعتبر زراعة النخيل من الأعمال التجارية الناجحة . انها لا تعدو أن تكون ضماناً ضد الموت جوعاً ، وقد لا تصل حتى الى هذه المرتبة في سنوات المحل . وفي الصحراء الكبرى اكثر من تسعة ملايين شجرة نخيل ، سبعة ملايين منها في جنوب الجزائر . واذا ما قارنا ذلك بما في لواء البصرة في العراق من نخيل ، اذ تبلغ الاشجار هناك عشرة ملايين ، تبين لنا الفرق الشاسع من ناحية المساحة . ومعدل نتاج شجرة النخيل الواحدة في الصحراء ، خمسة وخمسون ليبرة . ويملك الفرد من اصحاب النخيل في منطقة السوف مثلاً ، نحواً من عشرين شجرة ، أما في بسكرة ، فيملك نحواً من مائة وعشرين شجرة ، وفي ورغلة فيملك نحواً من اربعمائة ، اكثر من نصفها لا يحمل الثمر مطلقاً . أما في اجزاء اخرى من الصحراء ، فقد يشترك نحو من ستة اشخاص في شجرة واحدة .

ولا يحصل العامل الأجير الذي يتناول خمس المحصول . على ما يكفي لعيشه ، فهو مهدد بالمجاعة دائماً . وعلى الرغم من تحرره من الرق ، فقد ظل سجيناً في الواحات . ومحاولة الخلاص منها مشياً على الأقدام تعرضه للموت المحقق ، ولعل من الاسهل على المرء في اوروبا ان يحصل على سيارة يبتاعها بالتقسيط ، من ان يحصل احد سكان الصحراء ، على جمل بطريق الايجار من البدو . وكان الخلاص من الواحات مستحيلاً الى ان جاءت السيارة ، فارتحل الكثيرون من العبيد نحو الشمال الى الجزائر وتونس وفرنسا يبحثون عن العمل . لقد فروا من الزراعة الفقيرة في الصحراء ، وادى فرارهم الى ازدياد فقرها .

وتعرضت الواحات لمظهر آخر من مظاهر الضغط . فقد احتل الفرنسيون تندوف في عام ١٩٣٤ ، وتم باحتلالها اخضاع آخر البدو المحاربين في الصحراء وسرعان ما تعرضت روحهم المعنوية لكثير من الألم . وكان الفرنسيون بتحريمهم السابق لتجارة الرقيق ، قد حرموهم من تجارتهم المربحة ، وها هي السيارات تجيء الآن ، فتحرمهم ايضاً من تجارة القوافل التي كانوا يعتمدون عليها . وأخذ البدو الرحل يفرون شيئاً فشيئاً من القفار ، ويتجمعون وكأن قوة دافعة تدفعهم على حدود الصحراء الشمالية ، أو كأنهم من الغرقى الذين يتعلقون بالواحات . وعلى الرغم من انهم غدوا من المزارعين المقيمين ، إلا أنهم لم يقبلوا على العمل في مزارع النخيل ، التي كانت ملكاً لهم الى حد ما . ويقول كابوت راي ، ان عدداً من أفراد قبيلة الشعانبة قد غدوا من « السادة المزارعين » في الغولية ، ولكن معظم غزاة الصحراء السابقين ، اكتفوا بأن يجدوا تعويضاً على ما لحقهم من اذلال ، باظهار المزيد من الازدراء لمزارعي النخيل ، فقد اتفقوا مع أفراد الطوارق في شعارهم المعروف بأن « الفأس يأتي بالخزي على البيت الذي يكون فيه » .

وبينما ازداد سكان الواحات عدداً نتيجة تدفق البدو الرحل عليها . ونتيجة نجاح أعمال المكافحة ضد الأمراض السارية ووفيات الأطفال ، فان هروب المزارعين ــ الاجراء ، خفض من كمية المواد الغذائية النامية محلياً . فقد انتجت الصحراء في عام ١٩٣٠ نحواً من تسعمائة ليبرة من التمور لكل فرد من السكان ،

ثم هبط هذا الرقم الى الربع في عام ١٩٥٠ ، ويرجع السبب في أن الأهلين عاشوا على هذا المستوى من الكفاف هذه السنوات الطويلة دون ان يثوروا ، الى طريقة حياتهم البدائية من ناحية ، والى روح التضامن في الكيان القبلي ، وهو طراز المجتمع الذي يعيشون فيه . ولو كان هذا المجتمع يقوم على أفراد من الذاتيين ، لماتوا كلهم من الجوع . ولكن تضامنهم الجماعي وبعدهم عن الاثره، يوضحان هذا الافتقار الكامل الى الحيوية الاقتصادية الذي يسود حياتهم .

وقد سمعت احد الشيوخ في الصحراء ، يتلو قولاً مأثوراً .: « اذا قتلت نعجة فكأنك قتلت نحلة . واذا قتلت نحلة فكأنك قتلت نخلة ، واذا قتلت نخلة فكأنك قتلت سبعين نبياً » . ولقد شهدت الصحراء في السنوات الاخيرة مصرع الالوف من الانبياء . ولا ريب في أن قتلتهم لا يشعرون بأي وخز للضمير ، ويعيشون في رخاء متواضع .

ولا ريب في ان فرنسا تلام على أنها لم تقم ببذل جهود كبيرة لتطوير اوضاع الصحراء لتتلاءم مع متطلبات القرن العشرين . وقد اكتفت بتقليم اظافر نظام اجتماعي تقليدي ، كانت تحس بما فيه من اجحاف . وقد نجح حكام الصحراء في تحطيم القانون الصارم الذي يقول ان الحرب والمجاعة والأوبئة . هي الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها لحفظ التوازن بين عدد السكان والموارد الطبيعية . ولكن هؤلاء الحكام لم يفعلوا أي شيء ، ليجعلوا حياة اولئك الذين انقذوا أرواحهم جديرة بالعيش . فقد حالوا بين البدو وبين شن الحروب والاتجار بالرقيق ، ولكنهم في الوقت نفسه سمحوا لهؤلاء البدو بأن ينحطوا الى مرتبة « المتحجرات الحية ». وقد غدا العبد صاحب أجر ، ولكن الأجر الذي دفع له لم يكن يمكنه من العيش .

ومع أن اللوم يقع على الفرنسيين لأن الخطوات التي اتخذوها لم تكن حازمة تماماً ، إلا ان الدوافع قد لا تكون واحدة ، فرواد الصحراء من الفرنسيين الذين استقلوا بشؤون الصحراء حقباً طويلة كانت تتنازعهم عواطف متضاربة . فهم من الناحية الاخرى يريدون ان يؤمنوا للأهلين حياة لا بأس بها على الطراز

الأوروبي ، تنطوي على تحسين في الأحوال الصحية وفي الري والزراعة ، ولكنهم من الناحية الاخرى كانوا يرون في البيادي الرملية والصخرية ، المنابت المثالية للنظام التلقائي والاحتمال والشجاعة . وكان حملة هذا الرأي يعيشون مع البدو ، ويقفون الى جانبهم ضد الحكام الاداريين ، ويحاولون ان يحيوا طراز حياتهم الفقيرة والكريمة والابية . ولم يكن في وسع انسان أن ينكر على الهجانة بملابسهم البيضاء وانطقتهم الحمراء ، المنظر الرائع الذي يضفونه على الرمال الصفراء ، ولكن ، كان المستقبل قد تقرر بالنسبة الى هؤلاء ايضاً .

وكان رواد الصحراء واثقين من أن تطوير الصحراء سيتم بصورة تدريجية : وعلى الرغم من انهم في محاولاتهم تهدئة الصحراء ، قد بدأوا ثورة فيها ، إلا انهم ظلوا يتحدثون عن تطويرها . وكان من الممكن ان يقحموا انفسهم في متاعب خطيرة حتى بدون مجيء رجال الزيت . أما هؤلاء فقد كانوا ينفذون حكماً صدر منذ أمد بعيد . وكل ما عملوه ، هو انهم قدموا موعد التنفيذ . ولم تعد الصحراء تمثل لهم « الفن من أجل الفن ذاته » ، وانما غدت تمثل استثماراً ضخماً ، عليه ان يدفع تكاليفه . واذا كانوا يستعيرون من تعابير اسلافهم من الرواد بعض الجمل « كسر الصحراء » ، و « نداء الصحراء » ، فلأنهم يريدون حفز الشعب الفرنسي على الاسهام باكتتاب جديد . وقد غدت الصحراء التي كانت في عهد رجال الفيلق الاجنبي محط الاختبار لجميع فضائل الرجولة وصفاتها ، مركز التجارب للقنابل الذرية والصواريخ الموجهة ، وها هو الهجان ، يخرج الآن منسلاً من الصحراء « كشبح يسير في الظلام ، او كممثل شقي ، يرغي ويزبد ساعة على المسرح ثم يمضي فلا يعود انسان يسمع به » . فماذا يمكن فعله لوقف هذه الازمة ؟

لقد أعادوا نظام الرقيق الى تامنراسيت ولكن في شكل حديث يمتاز ببطاقات الهوية والطوابع والواجبات ، وان كان لا يختلف في الحقيقة عن النظام القديم بأي شيء . وقد بدا الرئيس بريت ، الذي يحكم منطقة الهجر ، والذي

يلقبونه هزءاً وسخرية ، « بالملك الصغير » ، مهتاجاً ، عندما جبهته بالحقيقة . وقال وهو يتنقل بسيكارته بين شفتيه القرمزيتين : « على كل من يريد العمل مع المنقبين عن الماس والبلاتين والاورانيوم ، أو مع أية منظمة همها تطوير الصحراء ، ان يحصل على اذن خاص . ومثل هذا الاذن لا يعطى لمن يحتاجونه اشد الحاجة . فالفلاحون الاجراء الذين يعملون بالحصة ، والعبيد ، الذين يتولون ببطونهم الخاوية ، زراعة واحات الهجر الصغيرة بالحنطة لحساب الطوارق ، والذين لا يتقاضون اجوراً يومية تعدو الخمسمائة فرنك أو ستمائة او سبعمائة ، محرومون من هدير الصحراء . وكل من يتخلى منهم عن عمله دون اذن يطارده رجال الشرطة » . وكان تبرير الرئيس لهذا التدخل الخطير في حرية الفرد ، ان الواجب يقضي بحماية بساتين الصحراء ، وإلا غدا مصيرها محتوماً . ثم اضاف قائلاً : « وفوق هذا فان علينا التزامات خاصة تجاه امناء العقل » . ومن الطبيعي ان يكون من الاهمية بمكان عظيم لأمين العقل او الرئيس الأعلى لطوارق الهجر ، ان لا يهجر الارض ، العبيد والفلاحون الاجراء الذين يتولون اطعامه واطعام اتباعه الكسالى والعاطلين . ويأمل الفرنسيون عن طريق هذه الايماءات الودية التي يبدونها له ، في كسب ثقته وتحويل انظاره عن اذاعات القاهرة او اغراءات جبهة التحرير الوطني الجزائري التي تتوغل دعايتها حتى تصل اقاصي جبال الهجر .

ومن الواضح ان إجراءات من هذا النوع تخفي المرض الى فترة معينة . ولكنها لا تشفيه مطلقاً . ولا تستطيع الشركات التي تقوم بتغيير وجه الصحراء عن طريق موافقتها على تبني سياسة « موجهة » في التشغيل والتوظيف ، ان تفعل اكثر من وقف الطوفان . وسواء أكانت هذه الشركات تنافس بعضها البعض ، في الحصول على الأيدي العاملة ، وانتزاع العمال من منافساتها ، أو لا ، فان رافعات الزيت ما زالت تقوم بأعمالها ، وتلقي ظلالها الطويلة على الصحراء.

وهكذا يظل السؤال قائماً : ماذا يمكن عمله ، للتخفيف من حدة الأزمة أو تجنبها ؟

هناك حل في تحسين ما هو موجود وتوسيعه ، أي بزيادة مراكز الماء لحماية قطعان البدو من أهوال الجفاف المخيف ، واقامة الكهوف كملاجيء للوقاية من البرد في مناطق التوالد ، وتعليم البدو على تربية الماشية لزيادة الانتاج . ويعاني البدو خسائر فادحة في الوقت الحاضر من اضطرارهم الى سوق مواشيهم الى الشمال لتذبح هناك ، فهم يضطرون الى قطع مسافات طويلة مشياً على الأقدام أو في شاحنات السكك الحديدية أو في البواخر ، مما يلحق بقطعانهم خسائر كبيرة في اللحم الذي تؤمنه كماً وكيفاً. ولا ريب في أن اقامة مسالخ حديثة الطراز في متناول مناطق الرعي ، وادخال خدمات جوية خاصة لنقل اللحوم سيشجع البدو الذين عانوا خسائر بالغة بصورة خاصة من السنوات العجاف في الآونة الأخيرة . ولا ريب في أن اجراءات من هذا النوع ستعني بصورة طبيعية السباحة ضد التياردون أي احتمال في الوصول الى نتائج سريعة .

وتندر التجارب الضخمة في الوقت الحاضر ، وتقع في ازمنة متباعدة . وقد ادرك الخبراء ، ان إعداد برامج شاملة تضم عدداً كبيراً من التعديلات والتحسينات الطفيفة ، طريقة أمثل ، في معالجة حالة طارئة ، في برنامج ضيق لا يضم إلا عدداً من « المعروضات » . ولا ريب في ان السلطات التي تحاول بهذه الطريقة بعث الثقة من جديد في نفوس أهل الصحراء في احتمالاتها الزراعية ، انما يصارعون الصحراء نفسها . وهم لا يحققون في الوقت الحاضر إلا القليل . ولكن ساعتهم ستأزف عندما تمر حمّى الصحراء .

وهناك حل ثان يكثر الحديث عنه ، وهو ان تحوّل الواحات الى ضواح للصحراء الصناعية . ويتخيل حملة هذا الرأي اقامة مراتب ضخمة ، وفنادق ، ومشاغل ، وابنية حكومية ، ومخازن اغذية ، وشركات نقل ومصارف في الواحات . وهم يشيرون الى الواحات التي بوشر في استعمالها كنقاط مرحلية في البحث عن الزيت. ولكنهم يشيرون ايضاً الى الماضي ، عندما كانت الواحات اقل اهمية في انتاج الغذاء ، منها كاسواق أو اماكن لقاء لبدو الصحراء .

وقد قابلت رجالاً لا يرضون بهذا الحل او ذاك ، ولا يقبلون بالتحدث عن

ازمة في الواحات على الاطلاق . فهناك بالنسبة اليهم ازمة بشرية ليس إلا ، هي ازمة الناس الذين يعيشون في الصحراء . وكان اثر الرأسمالية على اقتصاد الصحراء القائم على المقايضة اشبه ما يكون بتحطيم سد من السدود ، وتدفق فيضان لا يقاوم . واقصى ما يستطيع الانسان ان يفعله تجاههم ، هو ان يقذف الى الضحايا بشيء يتعلقون به ، أو أن يعلمهم السباحة ، ولكن عدد المشتغلين بعملية الانقاذ هذه ضئيل ، وليست هناك تحت تصرفهم موارد ضخمة يضعها اولئك القائمون وراء المعجزة الاقتصادية . ولكن حماس هؤلاء ومجهودهم البشري ، لا يتناسب مطلقاً مع الموازنة الواقعة تحت تصرفهم . انهم هم الرجال الحقيقيون الذين يصارعون الصحراء حقاً :

١٣

مدارس للبدو

يعيش الاستاذ على مقربة من مدرسته . وهو لا يحتاج لمغادرة فراشه ، إذا أراد التأكد ذات يوم ، من انه عندما يفيق من نومه ، سيجد ان المدرسة قد ذهبت . ان كل ما يحتاج اليه ، هو ان يمد يده ، ليلمس ذلك بها . فالمدرسة وبيت الاستاذ لا يعدوان ان يكونا عدداً من الاعمدة ، غرزت في الرمال ، وغطيت بخيمة زرقاء . أما الاثاث فبدائي كل البدائية . انه لا يعدو منضدة ، ومقعداً ، وسريراً سفرياً ، وفراشاً في خيمة الاستاذ ، وحصيرة للجلوس ولوحاً أسود في خيمة المدرسة . ويطلق على الخيمتين معاً اسم مدرسة الكدية البدوية ، وهي قائمة في جبال الهجر العظيمة .

وارتقيت صخرة كبيرة تقوم وراء الخيمتين ، واخذت اتطلع الى لسان من الرمال ، يمتد بين شدقين من صخور الغرانيت السوداء . وفي ابعد نقطة من المنخفض ، يقوم واد صغير ، ينساب متلوّياً بين الصخور . ووراء هذا الوادي سبع خيام برتقالية اللون لبدو الطوارق ، تقوم منتصبة فوق الرمال والصخور ،

تتسلق مرتفعة فوق خيام اخرى من الجلد ، لا يزيد ارتفاع الواحدة منها اربعة أقدام ، ولكل منها باحة امامية يحيط بها سياج من الحصر . ورأيت في باحة الخيمة الرئيسية ، كلود بلانجرنون « مدير مدرسة الصحراء » وقد جلس مع ستة من رجال الطوارق الملثمين ، وقد تعانقت ارجلهم تحتهم . وكان مشغولاً بتدبيج رسالة لأحدهم ، يعتزم ارسالها الى احدى الوزارات في باريس . وكان عليه أن يبذل منتهى العناية للعثور على الكلمة الفرنسية الصحيحة التي تقابل كلمة التمحاق . وسبق لي أن رأيت بلانجرنون يعمل ، فادركت لتوي ماذا كان يحدث في تلك اللحظة . انه يلقن هؤلاء الرجال درساً دون ان يدركوه . ذلك لأن كلود بلانجرنون مؤسس مدارس البدو ومديرها . استاذ بفطرته وغريزته . وليس في مظهره ما ينم على طبيعة عمله ، فهو يرتدي غطاء على رأسه ، ويضع نعالاً في قدميه لوقايتهما من حرارة الرمال، ويلبس سراويل مهلهلة ، وقميصاً بلا أكمام .

ورأيت تحتي مباشرة بيير دوميز ، المفتش الرسمي ، يصغي الى طالبين يجلسان الى جانبه على حصيرة امام الخيمة ، بينما وقف استاذهما مارسيل انطوان عن كثب يصغي باهتمام . حقاً انه لمنظر رائع . فمن المكان الذي وقفت فيه كنت أرى الغلامين الطارقيين ، وقد اختفيا تحت ثيابهما الزرقاء ولثاميهما ، ولم يظهر منهما إلا اقدامهما السمراء وبعض شعيرات رأسيهما . وكان عبدالله ، وهو غلام ذكي في الحادية عشرة من عمره ، قد سبل شعره على جبهته مستعملاً السمن لتطريته . أما سليمان وهو في الخامسة عشرة ، فكان يرتدي ملابس الرجال تماماً وقد جدل شعره في ضفائر على غرار ما يفعله الرجال من الملثمين الزرق ، تحيط بمقدم رأسه الذي حلقه بالموسى . أما دوميز ، فقد بدا في سرواله الانيق الحديث الكي وصديريته الجميلة ، وكأنه خارج من معرض احد الخياطين .

وقد كتب الكثير عن الملثمين الزرق في الصحراء ، ولذا فسأقصر حديثي على بعض الحقائق الجوهرية .

يعد طوارق الهجر الآن نحواً من خمسة آلاف وخمسمائة نسمة ، ويؤلفون

مع طوارق العجر وغيرهم من الجماعات البدوية الاخرى التي تمت الى نفس الأصل ، اتحاداً تعاونياً قبلياً ، لا تتساوى فيه جميع القبائل المشتركة فيه في المنزلة . وتؤلف « الايموهار » الطبقة الارستقراطية المختارة ، بينما تؤلف « الايمراد » طبقة الاتباع والخدم . ولا يعرف انسان كيف نشأ هذا التفاوت الطبقي . وقد يمت الى موجتين من موجات الهجرة ، اخضعت الثانية منهما سابقتها . ويمت ملك الاتحاد ، امين العقل ، الذي يملك جميع الأرض الى قبيلة ايموهار ، على الرغم من ان زعماء قبيلة الايمراد يشتركون في انتخابه ايضاً . وفي قعر السلّم الطبقي الاجتماعي ، يقف « الايكلان » وهم العبيد الذين تسلسلوا من الزنوج القادمين من السودان . وتقوم النساء من الايكلان بأعمال الطبخ والخياطة والغسيل وحمل الماء ، أما الرجال ، فيعنون بالماشية . ويشترك الايكلان ايضاً بالأعمال الزراعية مع الحراثين في الواحات الصغيرة التي تنتج القمح . ويجب ان لا يخلط الانسان بين الايكلان السود الذين يعدون الفاً وثمانمائة وبين الحراثين الذين يعتبرون احراراً من الناحية النظرية . ويعتبر الايكلاني وذريته ملكاً للسيد ، الذي يتولى كسوتهم واطعامهم وتأمين المأوى لهم . وفي وسع العبد الذي لا يرضى عن طريقة معاملة سيده له ، ان يطلب نقله الى سيد آخر . واذا رفض سيده التخلي عنه وتلبية طلبه ، كان في وسع العبد ان يبحث عن طريقة اخرى ، وهي ان يقطع اذن احدى الماعز التي تعود لسيد آخر يختار خدمته ، وتقضي شريعة الطوارق ، بأن في مكنة السيد المتضرّر ان يطلب العبد جسداً وروحاً . وتأتي الطبقة الرابعة وهي طبقة « الاينادين » ، وليس لها مركز محدود في النظام الاجتماعي الطارقي ، فهم بوصفهم من ارباب الحرف ، محترمون ومنبوذون في آن واحد .

ومنذ عدة حقب ، يجري اختيار امين العقل ، من قبيلة معينة هي « كيل ريلا » ، وتتفرع منها قبيلة من الاتباع هي « الواغ رالي » . وكان دانغوشي ، زعيم المضارب التي قمت بزيارتها هو الرئيس الأعلى أو (امرار) قبيلة الواغ رالي . ولدانغوشي كلمة مسموعة في بلاط حاكم البدو ، اكثر من جميع

الزعماء الآخرين مجتمعين . والسبب في ذلك في غاية البساطة ، وهو « تهدئة » الصحراء . وتوًلف الايموهار طبقة المحاربين . وتعني الايموهار « ابناء العنصر الحاكم » . وتمت هذه الكلمة ايضاً الى معنى « النهب » . وكان حق النهب يعتبر بين قبائل الطوارق امتيازاً لذوي المنبت العالي . وقد عاش الايموهار على الغزو امداً طويلاً . وكثيراً ما ترصدوا للقوافل العابرة في اراضيهم ، يفرضون عليها الجزية ، او ينهبون تجارتها . وهم يهاجمون الواحات التي ترفض دفع الجزية لهم ، ويتولون حماية الايمراد والايكلان من هجمات الاعداء . ويقوم الايمراد بمساعدتهم بتهيئة الهجن لهم عند الغزو ، وتجميع القوافل والعناية بقطعان الماشية . واذا ما حزب الأمر انتضوا السلاح ايضاً وقاتلوا جنباً الى جنب مع الايموهار النبلاء .

وعجز الطوارق كفرسان القرون الوسطى عن الصمود للاسلحة النارية . وحط الفرنسيون من قيمة الايموهار ، الى ان وصلوا بهم الى حالة من العجز . فقد حرموا تجارة الرقيق ، وحظروا النزاع بين القبائل المتخاصمة ، وفرضوا الأمن لطرق القوافل . أما الايمراد ، فقد افادوا من هذا التطور ، إذ كانوا هم الذين تولوا تنظيم القوافل ، والافادة من تهدئة الصحراء .

وتعد قبيلة دانغوشي اربعمائة رجل مسلح ، ولكل منهم عبده من الايكلان . وتملك القبيلة نحواً من الف ومائتي رأس من الماعز والف رأس من الابل . وتدفع قبيلة الواغ رالي ، جزية سنوية لأمين العقل تقدر باثني عشر جراباً من التمر ، وثماني قرب من الزبدة ، واثني عشر رأساً من الغنم الحلوب ، وعشرة روًوس من الماعز للذبح . أما العائلات التي تملك قوافل شخصية لها ، والتي تعمل في تجارة الملح والتمر ، فتدفع جزية خاصة .

وقد عالج الفرنسيون مشكلة الطوارق منذ البداية من ناحيتين مختلفتين . ولما كان الفرنسيون هم السلطة الحامية في الصحراء ، فقد حرموا على قطاع الطرق منهم تجارتهم وعملهم . واضطر بعضهم الى الانضمام الى فريق الهجانة . وباستثناء هذا السبيل ، لم يوفر الفرنسيون للايموهار أي مورد آخر للرزق :

فعلى النقيض من ذلك ، تعلق الفرنسيون بالاساطير الرومانطيقية عن الفرسان الملثمين ، وأضفوا عليهم بعض الحماية التي تضفى عادة على التماثيل القديمة . وتحولت الهجر الى نوع من المتاحف الطبيعية وحدائق الحيوانات التي تؤلف مجموعاتها مصدر دهشة لعلماء الاجناس البشرية ، وكبار الزائرين . ولم يول الفرنسيون عناية كبيرة لموضوع تحرير العبيد الذي ظل حتى الآن مجرد عمل شكلي .

وخطط لمدرسة البدو أن تكون عملية انقاذ . فقد سمع كلود بلانجرنون وكان استاذاً في قسنطينه ، بما احاق بالطوارق من انحلال وانحطاط . وتمكن من اقناع الحكومة فوقفت الى جانبه ، وأقرته على مشروعه في فتح مدرسة في تامنراسيت في عام ١٩٤٧ . وكان أطفال الحراثين ، وهم فلاحو الواحات السود ، الوحيدين الذين اموا هذه المدرسة . ولم يؤم المدرسة أي من ابناء الطوارق ، ولا حتى من ابناء عبيدهم . ولم ييأس بلانجرنون . فاذا كان الطلاب لا يفدون الى المدرسة ، فعلى المدرسة ان تمضي اليهم . وقال طارقي بتلك اللهجة المتعجرفة التي يتحدثون بها : « انني اوثر ان اخنق اولادي بيدي ، على أن ابعث بهم الى مدرستك » . وقال امين العقل بغلظة وخشونة : « ان ولدي لن يذهب الى مدرستك » . ولكن بلانجرنون شرع يشرح لأمين العقل بما يعرفه من كلمات التمحاق ، المنافع التي يمكن ان تتحقق عن طريق مدرسة بدوية ، مما حمل امين العقل على التسليم له برأيه . ولكنه لم يكن على استعداد لاتخاذ مثل هذا القرار وحيداً ، فعلى بلانجرنون ، أن يقنع جميع زعماء الطوارق ، وآنذاك يمكن ان يتحقق له ما يريد .

وكانت الطريقة التي اتبعها بلانجرنون بسيطة وفعالة . فكان يجمع الرجال في كل مخيم من مخيمات البدو ، ويوجه اليهم ثلاثة اسئلة . أما السؤال الأول : إذا كان الجمل يساوي عشرين الف فرانك فكم يساوي جملان ؟ ولم يكن الطارقيون يجدون صعوبة في الرد على هذا السؤال . ثم يأتي السؤال الثاني : كم تساوي اربعة جمال؟ وكان الرد هنا يتأخر بضع دقائق يقضيها الطارقيون

في التفكير . ثم يطلع عليهم بالسؤال الثالث : وكم تساوي مائة من الجمال ؟ وكان بلانجرنون يسرع الى كتابة الرد على ورقة ويقلبها واضعاً إياها على الرمال. وبعد ان يقضي الرجال زهاء ساعة من التفكير العميق ، يصلون الى النتيجة ، فيرفع بلانجرنون الورقة ، ويريهم انه وصل الى نفس النتيجة في ثوان . وافهمهم أن هذا السحر هو ثمرة الدراسة . فتأثر الطارقيون ووافقوا على تأييد فكرة المدارس البدوية .

ويعتبر مركز المرأة الطارقية فريداً في نوعه في العالم الاسلامي . فالمرأة بخلاف الرجل ، لا تتحجب ، وهي لا تسمح بوجود امرأة اخرى في المنزل . ولهذا فجميع الطوارق لا يتزوجون بأكثر من واحدة . واذا احست الطارقية بأن معاملتها قد اسيئت كان في وسعها ان تطلب الطلاق . ولا تتزوج الفتاة في سن مبكرة ، ويندر أن تتزوج الواحدة قبل أن تصل الخامسة والعشرين من عمرها . وهي قبل الزواج ، تقضي حياة متحررة تتمتع بها الى اقصى حدود المتعة . ويجتمع الشبان والفتيات ، والأرامل من النساء والرجال في ما يسمونه «بالأهل» او بلاط الحب ، في الليالي المقمرة ، يعزفون الموسيقى ، ويتناشدون الشعر . والحب في هذه المجتمعات ليس عذرياً . وهذا ما دعا الأب دي فوكو الى القول بعدم وجود لفظة « للبكارة » في لغة التمحاق . وتعتبر الطارقية حارسة التقاليد القديمة فهي تعرف كتابة التفيناغ وتحفظ الاساطير والخرافات واغاني البطولة ، وهي تعزف « الافراد » ، الذي يشبه الى حد كبير الربابة . وتتقن الطارقية علاج الامراض بالاعشاب والحشائش والعلاجات الطبيعية . وفي الاشهر الطويلة التي يغيب فيها زوجها عن المضارب ، تصبح هي السيدة المطلقة في الخيمة وتفرض إرادتها واحترامها . وترتكز سمعتها على حق الوراثة ، فهذا الحق ينتقل من الأم لا من الأب . وعندما يموت أمين العقل ، يكون ورثاؤه المباشرون هم أولاد اخته .

واقامة مدرسة عصرية في مجتمع عتيق قديم ، يمت الى عصر الاقطاع والى عصور ما قبل التاريخ وسيطرة المرأة ، تخلق الكثير من المشاكل حتماً . ولم يكن

قصد بلانجرنون من اقامة مدرسة البدو ، ان يقفز بالطوارق الى القرن العشرين مرة واحدة ، بل ان يخفف من الصدمة التي تصيبهم من جراء اجتياز هذه القرون . وكانت فكرته تتلخص في وجوب تعليم الطارقي الكتابة والقراءة والحساب ، ليتمكن من وضع الاحكام التي يريدها . وهذا هو السبب الذي يفرض عدم تعليم أطفال البدو في مدارس ثابتة ، ويفرض على المعلمين العيش في المضارب والانتقال مع الطوارق ، انتجاعاً للكلأ واستسقاء للماء . ويطلب بلانجرنون من المعلمين الذين يعملون تحت امرته ، أن يكيفوا انفسهم لعادات القبائل ، مهما كان في تكيّفهم من نكران للذات . ولم تجر أية محاولات لتمجيد فضائل الحياة الزراعية الثابتة . وكان الاب دي فوكو ، قد جهر برأيه في أن الطوارق لا يمكن لهم ان يغدوا متحضرين ، إلا اذا انتقلوا الى الحياة الثابتة المستقرة . ولكن الفرنسيين تخلوا عن هذه الفكرة منذ امد بعيد ، ولم يحاولوا تحضير الطوارق ، لأسباب انانية مجردة . فقد دلت التجارب ، على أن البدو عندما يتحضرون ، يثيرون من المشاكل ، عدداً اكبر من تلك التي يحلها تحضيرهم .

وكان لبلانجرنون هدف بعيد من انشاء مدرسة البادية ، وهو النفاذ الى عالم الطوارق ، الذي كان خفياً مغلقاً حتى الآن . أما وقد تحقق هذا الهدف الآن ، فقد غدت الصفوف البدوية تعبيراً حياً للوجود « الفرنسي » . وتؤدي هذه المدارس واجباً محدوداً ، اذ ان العلماء المسلمين الذين يفدون الى الصحراء من الشمال ، لتعليم البدو دينهم يحملون في يدهم القرآن الكريم ، ومنشورات جبهة التحرير الوطني الجزائري في اليد الاخرى .

وقد لخص كلود بلانجرنون الوضع بقوله : « لو كنا اثرياء وشرفاء ، لكانت هناك مئات المدارس البدوية . ولكن لما كنا لسنا بالاثرياء ولا بالشرفاء ، فليست هناك إلا ثلاث مدارس . ونحن لسنا بالشرفاء ، لأن هذه المدارس الثلاث لا تخدم إلا أغراض الدعاية ، وتكلفنا نفقات باهظة . وستمضي سنتان او ثلاث سنوات قبل أن نتمكن من اخذ طالب أو طالبين من الطوارق ،

وتدريبهما للعمل كمعلمين في مدارس البادية في المستقبل » .

ويقول بلانجرنون أن من الخير أن يقدم جميع ابناء الطوارق الى عدد من الاختبارات ، وان يختار منهم ، اكثرهم ذكاء ، فيعهد بهم الى مدارس خاصة ، وان يطلقوا بعد ذلك على أهلهم ورفاقهم الطلاب . ولكنني لا استطيع ان اتصور بلانجرنون جاداً في قوله ان مثل هذه الطريقة ستنجح حقاً . ولا ريب في انه يوغل كثيراً في بعد النظر في هذه القضية ، فهناك سبب آخر لهذه المرارة التي يتحدث بها عن المخلوق الذي اتى به ، وعن رغبته في تدريب اكبر عدد ممكن من معلمي الطوارق . فذلك الطراز من المدارس الذي حلم به في يوم ما ، والذي يمكن ان يعد الطارقي الشاب عندما يصل الى مفترق الطرق ، اعداداً يمكنه من ان يقرر لنفسه الخطة التي سينتهجها ، قد أصبح قديم الطراز ، لا يصلح لهذه الأيام ابداً ، ذلك لأن تطوير الصحراء الاقتصادي قد وصل به الى تلك الحالة ، وليس لطريقة الطارقي في الحياة ، أي مكان في الصحراء « المستصنعة » ، حتى ولو عاشت هذه الطريقة في جزيرة معزولة عما يحيط بها .

وليس من المستغرب أو غير المألوف اليوم ، أن نجد طارقياً ، يعمل في خدمة منقب عن المعادن في الجبال ، أو في شق طريق . وعندما يعود العبد (الايكلان) الذي وجد أن من الانسب له ان يعمل كعامل مع هذه المشاريع ، بدلاً من ان يعمل كعبد ذي أجر ، الى سيده ، بعد أن غاب عنه بضعة اشهر ، وهو يحمل المال الذي وفره ، واكياس السكر والشاي ، فان السيد الطارقي لا يتردد لحظة واحدة في مشاركة عبده غنيمته ، ولكنه يدرك تماماً ، أن هذا العبد ، لن يعود ثانية اليه ، واذا عاد ثانية ، فلن يعود ثالثة ابداً . وهنا تلعب الهواجس في صدر الطارقي الذي تؤرقه ذكرى اكياس الشاي والسكر ، فيفكر جدياً في ان يحذو حذو عبده .

وسلطة سيد الارض آخذة في الانهيار يوماً بعد آخر . ولم يمض طويل وقت ، منذ ذهب عدد من المشايخ الى دنغوشي يحملون توصية من أمين العقل ، فردهم

هذا خائبين دون أن يكترث بالتوصية التي يحملونها . وغدت « اكليل ريلا » التي كانت قبيلة دنغوشي مضطرة الى دفع الجزية اليها ، « بالجماعة التي تكلف كثيراً » . ويملك امين العقل الارض ، وهي على حد تعبير الفرنسيين ملأى بالكنوز الطبيعية . فمن يملك هذه الكنوز يا ترى ؟ أهي لأمين العقل ؟ وقد بدأ « الايمراد » في بحث هذا الموضوع بين انفسهم . والتسلسل القبلي الذي صمد للاختبار قروناً طويلة بدأ في التحطم والانهيار ، فريسة للسلام والبلاتين وآلة الاحتراق .

* * *

« ويقوم محمد برعاية ماشية احد أفراد قبيلته . وفي ذات يوم تقوم « ورشة » عمل على مقربة منه . انه يرغب في العمل في هذه الورشة ، وان يتعلم فيها مهنة تنفعه في مستقبل أيامه . ولكنه يتردد . فسيده رجل طيب وعادل ، وهو يريد منه البقاء مع ماشيته . فماذا يعمل محمد ، ولماذا ؟ » .

وجه هنري – جان كوتان هذا السؤال الى محمد بوخده . وهو غلام في السادسة عشرة من عمره ، كان يتطلع الى الرسم الذي يحاول كوتان به ايضاح سؤاله ، صورة راع يقف الى جانب آلة للحفر .

ويرد الغلام باصرار : « يجب عليه البقاء مع سيده . هذا هو الحل الافضل : فمن المحتمل ان لا يعثر على عمل . وقد يتوقف الحفر ، ويفصل من عمله . »

وكتب كوتان الرد على نموذج ، واخرج سؤاله الاختباري الثاني ..

« يوشك محمد أن يخسر منصباً طيباً ، قضى فيه وقتاً طويلاً ، لأن سيده يعتزم الانتقال الى منطقة اخرى . فماذا يفعل ولماذا ؟ »

ورد الصبي دون تردد او تلعثم.... « اذا كان قد افاد من سيده ، فعليه ان يتبعه . ولكن طبعاً ، اذا دفعت له تكاليف نقله وسفره .. »

وقد اقيم هذا الاختبار في ديوان العساكر في ورغلة ، الذي وضعته السلطات العسكرية تحت تصرف بعثة دراسية تتولى البحث في المشاكل الانسانية في

المناطق الصحراوية . وكان كوتان وزملاؤه يقومون بهذا الاختبار ، وقد احالوا البناء المهجور وباحته الى مختبر حديث يضم جميع الوسائل المستخدمة في البحث النفسي .

وكان محمد بو خده واحداً من نحو اربعمائة شاب من قبيلة المخادمة من ابناء القبائل الذين جرى اختبارهم . ويعتبر الدكتور فيغان « طبيب الصحراء » قلب هذا الاختبار النابض ، فهو الذي يشير على الشركات العاملة في الصحراء ، في جميع الشؤون المتعلقة بتحسين أحوال مستخدميها في جميع الاجواء القاسية ومع ذلك فهو يرى التزاماته المهنية على صعيد أوسع من الذي يراها عليه الذين يستخدمونه ، ذلك لأنه مهتم لا بمساعدتهم فقط ، بل بمساعدة الأهلين ايضاً . فالمشكلة الرئيسية بالنسبة للأوروبي الذي انتقل الى الصحراء ، هي في تكييف نفسه بدنياً للطقس فيها . أما بالنسبة الى ابن الصحراء ، فالمشكلة هي في أن يتأقلم لأوضاع العمل الجديدة ، وهي مشكلة اجتماعية ونفسية ، وتغدو بالنسبة الى البدوي حادة للغاية لاسيما اذا كان قد ورث شعوراً عميقاً من الامتهان للعمل الشاق .

وانجذبت قبيلة المخادمة مع القبائل البدوية الاخرى من امثال الشعانبة وبني ثور وسيد عتبه ، نحو واحة ورغلة . وتبين ان البدو الرحل و « القصوريين » المتحضرين من سكان الواحات ، يكملون بعضهم البعض . ويقوم الفلاحون بحفر الآبار وصيانتها وتسميد اشجار النخيل ، وزراعة الخضار والقمح والتمور كما يقومون في أوقات الطوارىء بالسماح لمحاربي الصحراء باللجوء الى أسوار قراهم المنيعة ويسمحون لهم ايضاً في ازمنة الحروب او المحل ، بالعيش على ما لديهم من موءن وحاجيات . اما البدو ، فيتولون من الناحية الاخرى أعمال النقل ، ويجلبون اللحم والصوف والزبدة والجبن ، ويقومون بحراسة الفلاحين وحمايتهم من غزوات البدو الآخرين : لكن هذا التحالف القائم بين أهل المدر والوبر لم يكن اختيارياً كما لم يكن قائماً على الاحترام المتبادل . فالضرورة القصوى وخطر القوة ، كانا يرغمان الفلاحين على هذا التحالف لا سيما بعد أن

غدوا من الكسالى الذين يخيم عليهم السبات من جراء رطوبة الأجواء في الواحات ، واصبحوا من الضعفاء صحياً من اثر حميات الملاريا ، بحيث بات لزاماً عليهم ان يطلبوا الحماية من بعض القبائل او من غزاة الصحراء . وكانوا يكرهون سادتهم ويخافون منهم ، وهؤلاء كانوا بدورهم وبالاشتراك مع القبائل الاخرى الغازية يكرهون آكلي القمح ويحتقرونهم . وكان بدو المخادمة يغدون في كل عام على ورغلة فينصبون مضاربهم في جوارها عندما ينضج التمر ، ليشرفوا على المحصول ، وليبتاعوا القمح والشاي والسكر ، ويجمعوا مؤنهم ويخزنوا ما يفيض منها في مخازنهم . وكانت ورغلة تمثل بالنسبة لهم مخزناً تجارياً وحربياً في آن واحد . أما مراعيهم فتقع الى الغرب ، وعندما تنضب هذه المراعي من كلأها ومائها ، كانوا ينتقلون من وادي ميا مع قطعانهم الى وادي الميزاب باتجاه زلفانة ومتليلي .

وسرعان ما انتهى عهد الهدوء في الصحراء وجاءت آلة الاحتراق اليها . وانتهى النظام الاجتماعي الذي كان يضع محارب الصحراء في مرتبة اعلى من ابن القصور (القرى) ، وتضاءلت تجارة القوافل الداخلية التي كانت المورد الرئيسي للدخل . وانتقل المخادمة الى حياة العوز والفاقة . وخسر هؤلاء بين عامي ١٨٨٥ و ١٩٤٥ اكثر من ثلثي مواشيهم ، وشطراً كبيراً من اشجار نخيلهم . واشارت مادلين بريغول الى عامل مهم آخر . فلقد كانت قبيلة المخادمة في السابق مجتمعاً يؤمن بالنظام الزعامي ، وهذا أمر يتفق مع طريقة حياتها كقبيلة يعمل ابناؤها في تربية الماشية . وكان عليهم ان يعملوا معاً ، فمشاكل الرعي والهجرة وتربية الماشية تتطلب الكثير من الخبرة . ولكن مع حلول السلام في الصحراء حل الأمن ، ونبتت البذور الأولى للفردية . ومن الغريب ان جيش الصحراء الذي اجتذب الكثيرين من البدو ، فشل حتى في الابقاء على الشعور التقليدي بالولاء للجماعة . ويبرهن البدو الذين قاموا بالخدمة العسكرية على انهم اكثر الناس تعلقاً بالمشاعر الفردية . وهكذا بدأ النظام القبلي كله ينهار ويتحطم . فلقد انسحبت القبيلة أمام العشيرة ، وهذه أمام العائلة ، وتلك أمام

الفرد . ولكن خيمة واحدة تفتقر الى التجارب والوسائل اللازمة لتربية قطعان كبيرة من الماشية والى مجاراة التبدلات الهائلة في الأجواء والأسواق . وهكذا اسفر هذا التحول عن زيادة الاتجاه الى الاستيطان في الواحات . وكان من الاسباب الرئيسية ايضاً ، وقد قام بدور النتيجة في الوقت نفسه ، الهبوط في عدد الماشية . فلو هبط عدد الجمال لكل خيمة مثلاً ، الى جملين أو ثلاثة ، لم يعد في وسع البدوي ان يؤمن الحاجيات لأسرته ، فكيف بالانضمام الى أية قافلة . وعندما يتحضر ويصبح البدوي مقيماً ، يفقد الاهتمام بتربية الماشية .

وقد شرع أول البدو من قبيلة المخادمة في الاستيطان في عام ١٩٠٨ . واتسعت حركة الانتقال الى الواحات بين عامي ١٩٢٠ و١٩٣٠ . ولم يحل عام ١٩٥٠ حتى كانت هذه الحركة تسير سيراً سريعاً . ولم يعد في وسعنا اليوم ان نعتبر قبيلة المخادمة التي تضم (٤٥٠٠) شخص من قبائل البدو الرحل . وتتألف القبيلة من اربع طبقات . اولاها طبقة الشرفاء التي تمت بنسبها الى الحسن بن علي حفيد الرسول . وثانيتها طبقة « الزوا » وهم علماء الدين ، الذين يولدون لينشأوا تنشئة دينية خاصة . وهكذا تؤلف هاتان الطبقتان فئة ارستقراطية دينية واحدة ، تأخذ الزكاة والمنح من اتباعها من المسلمين . ثم تليهما الطبقة الثالثة وهي « الاحرار » ، وتضم خمسة وثمانين في المائة من ابناء المخادمة . أما الطبقة الرابعة وهي طبقة العبيد ، ولم يكن أفرادها يعاملون في الماضي على أنهم من البشر ، وانما سلع تباع وتشرى ، ثم سرعان ما امتصهم مجتمع المخادمة . ولا يقاس وضعهم بوضع العبيد عند الطوارق ، مما يذكرنا بأن الحياة في الصحراء ، تختلف باختلاف اماكنها . وقد يرفع المخادمي الحر حاجبيه عند ما يرى احد عبيده « المحرّرين » ، وعندما يتحدث عنه ، تشعر في لهجته ، شيئاً من الزراية والامتهان ، ولكنه على كل حال ، الف منذ عهد بعيد العمل اليدوي ، الذي كان العبد يقوم به في الماضي . وبدأت الحواجز العرقية بين هذه الطبقات تختفي بسرعة عن طريق التزاوج .

وقد وضعت مادلين بريغول مقارنة رائعة بين بيت القروي (القصوري) وبيت

البدوي . فبيت الورغلي مثلاً يضم باحة داخلية وسلماً وشرفات . أما بيت البدوي فطبقة واحدة دائماً ولا يضم أي سلالم أو شرفات . وكثيراً ما يكون للبناء في الاصل مجرد غرفة للخزين ، بينما تعيش الاسرة في خيمة ، والفرق الوحيد أن المخزونات تجد الحماية من الطقس ومن اللصوص . وعندما تخلى البدو عن ترحالهم ، بنى الواحد منهم لنفسه غرفتين او ثلاثاً واضاف اليها باحة لماشيته . ولم تكن النتيجة اكثر من خيمة من الحجارة . وتنعكس صورة الاضطراب العقلي الذي يحس به هؤلاء البدو الذين ابعدوا عن الصحراء ، في هذه الخيام من وبر الجمال التي يقيمونها في باحات بيوتهم . وتعطي هذه الخيمة الانطباع بأنها محور البيت ونقطة ارتكازه . يختلف عملها باختلاف الاسر البدوية نفسها ، فهي احياناً تستخدم لسكنى النساء ، وأحياناً كمسكن صيفي ، واخرى كمثوى لوالدة سيد البيت ، التي لم تستطع ان تألف الحياة تحت السقف . وقد رأيت خيمة كهذه في كل بيت من بيوت المخادمة تقريباً حتى بيت القائد نفسه

وعندما يستقر البدوي ، لا يرى حاجة الى استعجال اقتباس عادات القصوريين الحسنة أو السيئة . فتظل نساء المخادمة يجلن انحاء الواحات سافرات ، وهي عادة الفنها في الصحراء ، ويحسدهن عليها اخواتهن من نساء الفلاحين (القصوريين) ولا يتقن المخاديون زراعة الارض بصورة خاصة . وخصص ربع المياه التي يتفجر بها أول بئر جوفي (من الالب من بحر سافورنين) في ورغلة ، الى المخادمة ، الذين لا يصدقون أن هناك نهراً يجري تحت الارض . وتبدأ اليوم المزرعة النموذجية وراء بيت القائد مباشرة ، وهي تضم عدداً من اشجار النخيل الصغيرة الى المدى الذي تصل اليه العين في نظرها ، وقد زرعت في شكل هندسي ، تفصل الواحدة منها عن الاخرى مسافة معينة .. وتجري المياه في اقنية الري القريبة ، وقد ارتفعت درجة حرارتها الى ما يزيد على المائة درجة . وتبدو الحالة ، وكأن مستقبلاً زراعياً قد اشرق على المخادمة . ومع ذلك فهناك عدد من المتشائمين . فالمخاديون لم يكونوا راغبين في اعداد الارض للمزرعة النموذجية ، وكانوا عاجزين بالفعل عن اعدادها . وتحتم استيراد مائتي

مزارع من مستنقعات الملح في الشط ، وهم من خيرة العمال الزراعيين لمساعدة المخادمة في العناية بأشجار نخيلهم . وليس في وسع الانسان ان يحكم الآن ما إذا كان المخادمة سيألفون الزراعة ويتقنونها في المستقبل القريب ، أو انهم سيسمحون لبساتين نخيلهم بأن تتحول في غضون بضع سنوات الى صحاري جرداء .

* * *

ولم يكن سيادة المونسنيور جورج ميرسييه « مطران الصحراء » ، مفتقراً الى الجرأة الأدبية . فعندما كانت رمال حاسي مسعود تتفجر بالذهب الأسود ، وكانت الصحراء ، قد غدت مصابة بحمّى الزيت ، اصدر سيادته التحذير التالي : « ان الصحراء لا تملك إلا مورداً واحداً من موارد الثراء ، ينمو بازدياد واضطراد ، وهو شعبها الفتي الجديد » .

ويعتبر المونسنيور ميرسييه طرازاً فريداً من نوعه بين امراء الكنيسة . فهو لا يحفل كثيراً بالمظاهر . وتحيرّه الهبات التي يغدقها عليه أفراد رعيته لتمويل ابرشيته . وتعتبر الالبسة التي يرتديها افراد رهبنته « الآباء البيض » ، وهي العباءات البيض والقبعات الحمراء التي تشبه الطرابيش ، نوعاً متقناً من الملابس التنكرية . وهو لا يختلف عن اتباعه إلا في الخاتم الذي يضعه في اصبعه . والصليب الذي يعلقه على صدره . ومع ان المركز الرسمي لأبرشيته يقع في الاغواط في الطرف الشمالي من الصحراء ، إلا أن المونسنيور لا يقيم فيها إلا نادراً . وتعتبر ابرشيته ، اكبر ابرشية في العالم اذ تشمل (٨٢٠) الف ميل مربع ، ويقوم سيادته بادارتها بالعيش متنقلاً في ارجائها كأي بدوي من البدو الرحل ، ومستخدماً في تنقله المستمر ، الطائرة وسيارة اللاندروفر والجمل . ولا يقتصر اهتمامه على أفراد رعيته من المسيحيين ، إذ أن مسلمي الصحراء يرون في « الأب الأبيض » ومطران الصحراء ، خليفة الاب دي فوكو ، الناسك المتعبد الذي لا ينساه ابناء الصحراء . ويقود المطران ميرسييه حملة قوية لتطويب الناسك فوكو قديساً . ولا شيء امتع الى قلبه من ان تستجيب رومه لحملته ، فتمنح

الصحراء قديسها في الوقت الذي يواصل فيه صيادو الكنوز الحفر في رمالها بحثاً عن هذه الكنوز ، وفي الوقت الذي تنطلق فيه الصواريخ في سمائها الملتهبة . ويحترمه الصحراويون لاسباب اخرى ، اهمها المدارس التقنية التي انشأها لتعليم ابنائهم على العمل في البحث عن كنوز الصحراء .

وقال لي المونسنيور : « اننا نعلمهم السباحة ، حتى لا يغرقوا في هذا الطوفان الاقتصادي الذي يتفجر عليهم » .

وقد شرع الآباء البيض في انشاء المدارس التقنية في الصحراء في محاولة لتحسين الأوضاع اليائسة التي يحياها الشبان فيها . فبين المائة والثمانين الفاً من الصبيان والبنات في سن التعليم يؤم ثلاثون في المائة منهم فقط المدارس الابتدائية ، ولا تنهي هذه المدارس إلا نسبة ضئيلة جداً منهم . ولأضرب مثلاً على ذلك اقول ان أياً من المخادمة من ورغلة لم يجتز الدراسة الابتدائية . أما اولئك الذين يحصلون على الشهادة الابتدائية (السرتفيكا) ، فانهم سرعان ما ينسون كل ما تعلموه في المدرسة في السنوات الثلاث او الاربع التي تنقضي بين تركهم المدرسة وبين العثور على عمل . وعندما يصل ابن الصحراء الى الثامنة عشرة ، يتفتح أمامه سبيلان للعمل ، هذا اذا لم يؤثر المضي في حياة الكفاف في العمل في بساتين النخيل ، وهذان السبيلان ، أما الالتحاق بالجيش متطلعاً الى راتب تقاعدي ضئيل عندما يبلغ الخامسة والثلاثين ، او العثور على عمل موقت من أي نوع ، وهذا يعني ان يقضي حياته كلها في شيء من الشك والاذلال ، باحثاً عن عمل . ولعل اكثر ما يأمل فيه هو ان يظل عاملاً بالمياومة حتى النهاية . ولم يؤد غزو الزيت والتنقيب عن المعادن الاخرى ، وشق الطرق وبناء المطارات والحفر بحثاً عن الماء وغير ذلك من المشاريع التي اخذت تحيل الصحراء الى خلية من النشاط الصناعي ، الى أي تبدل في المشكلة بالنسبة لابن الصحراء . وقد تكون السهولة التي غدا في امكانه ان يعثر على العمل فيها ، والأجور العالية نسبياً على المقاييس الصحراوية التي يتقاضاها ، قد اسفرتا عن تحسن في الاوضاع . لكن المشكلة الحقيقية ، في معظم الحالات ، وهي انسانية اكثر منها مشكلة

عمل ، قد غابت عن الانظار .

وكان الهدف الاساسي من المدارس التقنية ، اعداد الفتيان في الواحات اعداداً مهنياً اولياً ، في احد الحرف ، مما يساعدهم على العثور على اعمال أكبر أجراً في شمال الجزائر وفي فرنسا . ولكن العمل لم يكد يبدأ في هذه المدارس ، حتى بدأ الحلم القديم في تصنيع الصحراء يتخذ شكلاً عملياً واضحاً . وهكذا ، أخذ طلاب « الآباء البيض » يعثرون على العمل محلياً ، دون ان يضطروا الى الهجرة الى الشمال .

وسرعان ما رأى « الرهبان البيض » ان مشروعهم يلقى تأييداً وتشجيعاً لا من السلطات وحدها بل من عدد من الشركات التي تعمل في الجنوب ايضاً . ولا تمت دوافع هذه الشركات في مساعداتها الى العواطف الانسانية أو الاجتماعية بل الى المصالح الذاتية والانانية . وتحضرني محادثة دارت بيني وبين رئيس فرع التوظيف في احدى شركات الزيت ، فقد قال لي بصراحة « إننا نحاول بكل ما لدينا من طاقة ان نستعيض عن الجزائريين الشماليين ، بعمال محليين من ابناء الجنوب . فهناك أولاً الاسباب المناخية . إذ ان اهل الصحراء ، اكثر ملاءمة من الناحية الطبيعية لأجواء الصحراء ، ولا سيما لحرارة الصيف اللاهب .. وهناك ايضاً حقيقة ثانية .. وتوقف الرجل قليلاً ، متردداً ، ثم عاد يقول « ان الناس هنا ، لا يزالون خاماً ، لم تتلفهم المدنية . فالاختلاط بين الجزائريين الشماليين وبين الاوروبيين والحضارة الاوروبية منذ نعومة اظفارهم ، لم يكن نعمة مجردة ، لا تخلو من شوائب... ارجو ان تكون قد فهمت .. » .

وفعلاً لقد فهمت .

وقد تم حتى الآن فتح خمس مدارس مهنية ، في الاغواط وورغلة وكولمب بشار وعين الصفراء والغولية ، وتقوم هذه المدارس بتدريب طلابها على اعمال البناء ، وأعمال الميكانيك العامة والكهرباء ، وميكانيك السيارات والمحركات ، وقيادة السيارات . وتستمر الدروس ستة اشهر على الأقل وسنتين على الاكثر .. وقد وزعت المدارس بشكل تجتذب اليها الطلاب من جميع انحاء الصحراء

الجزائرية . ويتراوح سن الدخول اليها بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين ، ولكن صغار السن الموهوبين يؤلفون الغالبية . وليس ثمة تمييز بالنسبة الى اللون او الدين . فهي تقبل المسلمين والمسيحين والبدو وساكني الواحات ، والعرب والبربر والزنوج على حد سواء . والدراسة مجانية ، كما ان الطلاب يتقاضون رواتب شهرية ، مع علاوات للاطفال اذا كانوا من المتزوجين .

واخذ مطران الصحراء ، يشرح لي ، ونحن نحتسي قدحاً من الجعة المثلجة في مطبخ مدير مدرسة الغولية ، رأيه في تطوير الصحراء ..

« تخرج مدارس الآباء البيض التقنية في كل عام نحواً من مائة وخمسين شاباً . وأنا ادرك بالطبع أن هذا الرقم صغير ، بل وصغير جداً ، اذا ما قيس بضخامة المشكلة . ولكن علينا ان نبدأ من مكان ما ، ثم نأخذ في اعلاء هدفنا شيئاً فشيئاً من ناحية الكم والكيف . ولكن علينا للوصول الى هذه النتيجة أن فلقى شيئاً من العون . واود ان اؤكد لك ان النطاق الضيق الذي نعمل فيه الآن ، هو ايضاً فوق ما تتحمله امكاناتنا المتواضعة . ونحن نسترشد باعتقادين ، اولهما أن مستقبل الصحراء يعتمد على الطريقة التي يعالج فيها العامل الانساني . فالرجل هو اثمن رأسمال في أي بلاد، ومن الواجب «تطويره وانماؤه» . ويصح هذا القول ، لا على الصحراء فحسب ، بل على كل مكان في العالم ايضاً . ويشكو موظفو الايدي العاملة المحلية دائماً ، من أن عمالهم لا يحملون روح العمل كفريق ، وهم عاجزون عن البقاء في مكان واحد للعمل . ومن الحق أن يقال ان كثيرين من أهل الصحراء ، يعودون الى واحاتهم ، بعد ان يكسبوا مالاً يكفي لحياتهم بضعة اسابيع أو اشهر . وهذا ليس بالشيء المستغرب . والعثور على العمل شيء مهم ، ولكنه ليس كل شيء . فمن الواجب تعليم الانسان على العمل . وتطوير الصحراء بالنسبة الي ، أو الينا ، شيء يجب ان يبدأ بهؤلاء العفاريت الصغار المساكين الذين يسكنونها . فعلينا ان ننفذ عميقاً الى حاجاتهم الاساسية ومصادر شقائهم ، وان نحاول المجيء اليهم بالانقاذ والخلاص في اسرع وقت ممكن ، وان نعلمهم على طرق الخلاص . وليس ثمة من منطق في

اقامة الاسس الادارية للدولة العصرية ، بمفردنا ودون عون الناس الذين هم في حاجة الينا ، اذا لم نفكر في الموضوع تفكيراً عميقاً ، سواء في طريق الخير او في طريق الشر ، واذا اكتفينا بالمضي في طريقنا على اساس الافتراض الخاطىء بأن هؤلاء العفاريت المساكين ، سيكيفون انفسهم بطريق او بآخر ، وسيتمكنون في يوم ما ، من احتلال مكانهم في نظامنا . هل قلت ان هذا شيء غير معقول ؟ انه اكثر من ذلك ، انه دليل على قصر النظر ، بل انه خطيئة في حق الجار . ان الواجب يحتم علينا ان ننفذ عميقاً الى افكارهم ، والى طريقتهم في الحياة ، وان نعمل على تحسين أحوالهم بما يقدمونه هم من عون ، وبما نزودهم به من مهارة تقنية . ولقد كتب الأب دي فوكو ذات يوم يقول : « اذا لم نقم بواجبنا ، واذا واصلنا سياسة الاستغلال بدلاً من سياسة التمدين ، فسنفقد كل شيء ، وسينقلب علينا هذا الوئام الذي أمناه لهذا الشعب » . وقد اكتسبت كلمة تمدين اليوم ، طعماً خاصاً بها . ولكن على الرغم من ذلك ، فنحن نعرف ما عناه بها الأب دي فوكو ، قبل خمسين عاماً . فاذا طورنا الصحراء ، دون ان نعنى برأسمالها البشري ، واذا حاولنا اخراج اهلها من اماكنهم ، ونحيناهم جانباً ، أو القينا اليهم ببعض العظام ليمضغونها ، فسيأتي يوم تستغل فيه ردود فعلهم بصورة جازمة ، وسنحصد ثورة شديدة عارمة .

« اما الامكان الثاني ، فيربطنا اليهم من الناحية الأخرى ، منذ البداية ، وفي وسعنا ان نعلمهم باستمرار ، وان نساعدهم على التحرر تدريجاً من استعباد محيطهم لهم ومن الروابط القديمة البالية التي تشدهم . وفي وسعنا ان نقودهم خطوة خطوة في طريق بناء المجتمع ، والكيان الصناعي وهما ما نعمل الآن على اقامته لهم ومعهم . وليس ثمة إلا برنامج واحد للمستقبل ، وهو المستقبل القريب جداً ، وهو ان نحسن ما هو قائم في الوقت الراهن ، واعني به طريقة الحياة التقليدية التي يحياها البدو من الرعاة ومزارعو النخيل ، وان نعد ما يجب ان يقع ، وهو الامتصاص في نظام اقتصادي عصري ، في الصناعة » .

ومضى المونسنيور ميرسييه يشرح ما يفهمه من تحسين ما هو قائم وموجود .

فهو قبل كل شيء يؤيد الاستعاضة عن المدارس الابتدائية الراهنة ، والمستوردة مباشرة من فرنسا تحمل ثقافة اكثر مما يحتاج اليها أهل الصحراء ، بطراز اساسي من المدارس ، التي تعد طلابها للعمل كفلاحين أو كعمال يدويين . وهو يود ايضاً ان يرى سن مغادرة المدرسة وقد استطال سنتين اخريين لملأ الفراغ الراهن بين ترك المدرسة في الرابعة عشرة وسن الرشد . ولكن مطران الصحراء ، يعترف في الوقت نفسه بأنه مهما كان هذا الأمر ضرورياً ومهماً ، فانه لا يعتقد كثيراً ، بما هو قائم في الوقت الراهن بالنسبة الى ما قد يجيء به الغد من صناعة .

ومضى المطران يقول.... « وقد ذكرت أن العمود الأول والأساسي في عملنا ، هو الاعتقاد بأن علينا ان نبدأ بحاجات أهل الصحراء . وعلى الرغم من ان هذه الحاجات ما زالت محاطة بالكثير من « اذا » و « لكن » ، فانها ما زالت الأمل الوحيد للصحراء وأهلها . ولا تعتبر الموارد الطبيعية كافية ويمكن الاعتماد عليها . وثروة الصحراء الدفينة المستمرة وحدها ، هي التي تستطيع ان تضمن لأهلها مستوى اعلى من العيش وان تحافظ على هذا المستوى . وليس للصحراء أي مستقبل زراعي ، وقد بدأت الآن تفقد ما كانت تعرف به من حرف خاصة . فعلينا في المستقبل ان نفكر اولاً وقبل كل شيء بأصحاب الحرف والفلاحين . وفي وسع ما يتقاضاه العامل من أجر ، ان ينفق على زراعة بستان نخيل للفلاح . وهذا قانون اساسي بالنسبة لاقتصاد الصحراء ، وقد اكتشفه المزابيون الكثيرو النشاط منذ امد طويل . ويقول المزابيون « تمتد جذور الميزاب فتصل الى حوانيت الجزائر » . ولكن علينا ان لا نسمح لابن الصحراء بالدخول الى ارض الميعاد في الصحراء المستضعفة ، كمجرد عامل عارض ، أو كخادم للقيام بجميع الاعمال » . وسيأتي يوم تمد فيه انابيب الزيت وتعمل آلات الضخ ومحطاته ، وتبنى فيه الطرق والمطارات . ويتطلب التنقيب عن الزيت جهوداً اكبر من التي يتطلبها استغلاله ، وعندما يشتد الطلب على الفنيين من العمال ، سيتقلص السوق اللازم للعمال غير الفنيين ، وماذا يقع

آنذاك ؟ وهل يمكن للصحراويين الذين رأوا وذاقوا وتمتعوا في محطات الزيت ومعسكراته بكل نعم الحضارة العصرية المادية ، وهي اشياء كانوا يسمعون بها مجرد سماع قبل بضع سنوات ، ان يتركوا هذه الوجبات السخية في مطاعم المعسكرات ، دون برم او تذمر ، وان يعودوا الى اكل التمور وشرب الماء ؟ أو هل يثأرون من اولئك الذين دمروا بيوت اسلافهم دون ان يبنوا لهم بيوتاً احسن منها واكثر اتساعاً ؟ وهل سينسفون انابيب الزيت ، ويحرقون الشاحنات ويهاجمون مدن الزيت ، وبالاختصار ، هل يثورون لأنهم ادركوا انهم قد استغلوا بدلاً من ان يمدّنوا ؟ انني لا أكاد اصدق ان التعليم التقني سيحل كل هذه المشاكل . وكل ما اعتقده انه درس عملي ، يؤدي الى هدف لا بأس به » .

وانسلت اشعة شمس الظهيرة عبر درفات النوافذ المغلقة الى المطبخ الصغير . وجلسنا في الظل نمسح العرق عن جبهتنا :

« وتحتاج عملية الادماج التي حاولت تحديدها ، الى المتمولين والتقنيّين . ولم يكن هناك افتقار اليهم في الصحراء . أما اذا اردنا سياسة صحيحة نحو شبيبة الصحراء ، فنحن في حاجة الى الرجال الذين لا يكونون من البيروقراطيين بل من الرسل المنظمين . ويحارب في الجزائر اكثر من نصف مليون شاب فرنسي . ولا استطيع احياناً ان امنع نفسي من التفكير فيما كان بامكان هؤلاء الشبان تحقيقه ، لو ذهبوا الى هناك كمدنيين لا عسكريين ، ينقلون رسالة السلام والصداقة والقوة الروحية . انه السلام الذي يجب أن « يؤنسن » لا الحرب . وستظل المسؤولية هي زبدة المشكلة دائماً . مسؤولية الشعوب التي تحسن صنعاً للشعوب المتخلفة التعسة الحظ . وكلما ازداد الشقاء الانساني ، كلما ازدادت المسؤولية الملقاة على عواتقنا . وهل هناك من مسؤولية اثقل من تلك الموجودة في الصحراء ، حيث يتحطم كل رقم قياسي للعوز والفاقة » .

١٤

تعاون أوروبي - أفريقي ؟!

يقول شرل دي فوكو عن صديقه لابيرين ، انه عرض حياته العملية للخطر عندما قدّم الصحراء لفرنسا رغم إرادتها . وقد اشترك لابيرين في هذا المصير مع كثيرين من الفرنسيين المغامرين الذين بنوا امبراطورية لبلادهم وراء ظهرها . ولم تثر الصحراء بعكس الممتلكات الفرنسية الاخرى التي ظلت شوكة في جنب فرنسا ، أي مشاعر من العداء للاستعمار في اليسار . وكانت تتمتع دائماً بشعبية لا تجارى ، اذ حتى لو لم تكن كثبان الرمال ، فيها مسرحاً لشريط سينمائي عابر ، فان جبالها ، تؤلف اساس قصة من القصص ، او ان عروقها واخاديدها تصلح نقطة انطلاق الى الفضاء الخارجي . وكثيراً ما نسيت الصحراء بكاملها . ولم تكن هناك أية وزارة للصحراء ، أو موازنة لها ، ولا شيء يمكن له ان يضيق الخناق على روح تلك الصحراء الكبرى الطاغية الساحرة . وكانت الصحراء تتألف من زوائد لمختلف الوحدات الادارية ، وعكست حدودها الداخلية المطالب المتنافسة للضباط ، الذين اوغلوا في بطنها ، من الشمال والجنوب ،

واحتلوها ، اكثر من عكسها للخلافات بين بدوها على حقوق المرعى ، وطرق القوافل .وقد تبعت بعض اقسام الصحراء الجنوبية التي الفت قسماً من افريقية الغربية الفرنسية وافريقيا الاستوائية الفرنسية ، وزارة ممتلكات ما وراء البحار . أما الصحراء الجزائرية التي تؤلف الجزء الجنوبي من الجزائر ، فتتبع وزارة الداخلية الفرنسية ، وقد صدر قانون خاص بها ، يخول حكامها نوعاً من الادارة العسكرية الشاملة . وهكذا اخذت فرقة الهجانة ذات « القبعات الزرق » تتحكم دون أية مهام محددة أو ميزانية معينة في اكثر من ثلاثة ارباع مليون مربع من الارض المنسية من الجبال والحصى ، والحجارة والرمل . وكان ضباط الصحراء يرقبون بعين يقظة واعية أي دخيل اجنبي يخطو الى هذا المسرح الهائل الذي تمثل عليه قصص دراماتية من الشجاعة والتضحية والاساطير الخرافية ، والاحتمال الانساني . وعلى الرغم من ان دوائر باريس كانت تهزأ باعمال الهجانة ، وتهزأ بالتفاهم السري القائم بين الحاكمين والمحكومين ، إلا أن الضباط غير المتزمتين الذين كانوا يبدون اهتماماً اكبر بالتضاريس الارضية منه بالاوسمة الذهبية والفضية المعلقة فوق بزاتهم العسكرية ، كان يسمح لهم لهم بأن ينفذوا ما يريدون .

ثم حل اليوم الذي ارتقت فيه الصحراء الى مصاف الاراضي الغنية والمنتجة . ولم يكن هذا الارتقاء بالنسبة الى الجيش ارتفاعاً في الرتبة بل خفضاً لها . وقد اعلن ان ادارة هؤلاء العسكريين التي برهنت على فاعليتها ، وعلى تكييف نفسها للاوضاع المحلية ، قد غدت جاهزة للانهيار . وكان ضباط الصحراء قد ركزوا افكارهم على اهلها ولكنهم فشلوا في ان يتقدموا ولو بعض التقدم من هذه البداية المشجعة . فهم بعد ان يقعوا في سحر الصحراء ، يصبح من الصعب عليهم القبول بتغيّرها . وهاهم رواد جدد لصحراء جديدة يقتحمون عليهم حياتهم وصحراءهم. وقد رفض هؤلاء بلطف ودماثة، ما لدى سابقيهم من شذوذ في امزجتهم الذاتية ، ووجدوا انهم يؤلفون عائقاً في طريق مشاريعهم الشاملة للصحراء . ولم يكونوا قد تأثروا بوجود قوانين سياسية ، وانظمة إدارية

مختلفة ، أو بوجود عملات وضرائب مختلفة ومتباينة ، أو بما يرونه عادة من رسوم مالية وعائدات للتعدين متنوعة ومتفاوتة أو حواجز جمركية . وكل ما يريدونه هو توحيد الصحراء .

وشهد عام ١٩٥٧ تأسيس « منظمة مشتركة للنواحي الصحراوية » وقيام وزارة الصحراء . وحولت في الوقت نفسه المناطق الجنوبية الى اقليمين يبلغان في مساحتهما ثلاثة اضعاف ونصف ضعف مساحة فرنسا كلها ، احدهما يدعى اقليم الصورة وعاصمته كولمب بشار والثاني اقليم الواحات وعاصمته الاغواط . والغيت وزارة الصحراء إسماً في عام ١٩٥٩ ، واعيد تنظيم المنظمة المشتركة بحيث تصبح جزءاً من الاعمال الادارية .

وتشمل صلاحيات المنظمة المشتركة للنواحي الصحراوية ، الاقليمين الصحراويين المذكورين ، ولكنها توسع نشاطها لتشمل مناطق اخرى من التي كانت جزءاً من الاتحاد الفرنسي . وتنطوي المنظمة تحت جناح الوزير المسؤول عن الصحراء ويدير المنظمة موظف يدعى « الممثل العام » الذي يستعين بلجنة من الفنيين ، واخرى من المعنيين بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية لتقديم المشورة له . ويتولى الوزير المسؤول عن الصحراء اليوم ، منصب « الممثل العام ايضاً » .

وتتمتع اللجنة المشتركة للنواحي الصحراوية ، باستقلال مالي . وأهم مورد مالي لها هو الزيت ، اذ ان الارباح التي تعود للدولة ، تنقل الى اللجنة بعد أن تخفض منها نسبة معينة تعطى للجزائر لتطويرها . وهكذا يتبين ان فرنسا تريد أن تستغل الارباح العائدة من الصحراء في تطوير الصحراء نفسها . وتذهب نصف ارباح الزيت نظرياً الى اللجنة المشتركة ولكن بالنظر الى الاستثمارات الهائلة التي يجب دفعها أولاً ، فان أية ارباح لن تجنى من الزيت الصحراوي قبل عام ١٩٦٤ . ويتبين من هذا ، أن على اللجنة ان تنتظر مدة طويلة قبل الحصول على رأسمال عامل لها من الارباح التي تجنيها شركات الزيت ، اذا كان عليها ان تنتظر فعلاً الشروع في جني هذه الارباح . ولهذا فقد نص قانون

الزيت على ان تتسلم اللجنة (١٢,٥) في المائة من قيمة الزيت منذ ان يغادر هذا الزيت البئر ، أما الحصة الباقية فتتسلمها الدولة فيما بعد على شكل ضريبة على الارباح . وعلى هذا ، غدا في مكنة اللجنة المشتركة ان تعتمد على دخل يقدر بنحو خمسين مليوناً من الجنيهات حتى عام ١٩٦٣ .

ولم يسر هذا التبدل الاداري في الصحراء ، سيراً ناعماً ، طيلة هذا الوقت . وعلى الرغم من ان المحافظات التي خلقت جديداً ، وما يتبعها من تقسيمات ادارية اخرى ، قد استوعبت الجهاز الاداري السابق ، إلا أن هؤلاء الموظفين لم يقبلوا بأوضاعهم الجديدة ، عن طيب خاطر ، فالسلطات العسكرية تدافع وراء الكواليس عن مواقعها بعناد ضد السلطات المدنية . ويشكو رجال الصحراء القدامى من هؤلاء « المستحدثين » القادمين من باريس ، الذين يسرقون منهم الصحراء ، دون ان يدركوا ما يفعلونه بها . ولقد قال لي احد الملازمين وهو يشير بسبابته باحتقار : « انهم من البرابرة الذين لا يحسون بما في مغيب الشمس في الصحراء من جمال ، وهم يقلبون عالي كل شيء سافله ، كما يحطمون الجهاز التقليدي الاداري ، والحياة الشخصية والعائلية والقبلية لابناء الصحراء » . ويرد المدنيون على ذلك قائلين : « نحن آسفون .. ان الوقت لا يصلح الآن للتطلع الى مغيب الشمس . فالصحراء الصناعية ليست بحاجة الى الحالمين بقدر ما هي بحاجة الى المديرين .. » .

وقد يكون في وسع أي مراقب خارجي ان يعتبر هذه الضغائن والدسائس مظاهر مألوفة لأية فترة انتقالية ، اذا قدر لنشاط الحكام الجدد وحماسهم ان يكونا فعّالين . ولكن هذا ما يشك فيه الكثيرون ، إذ أن عدداً من الفرنسيين يرون في اللجنة المشتركة ايغالاً مزعجاً في البيروقراطية .

والهدف الرئيسي للجنة طبقاً لدستورها ، تنسيق المشاريع الاقتصادية لتطوير الصحراء ، ولكن من مهامها ايضاً تطوير الصحراء اجتماعياً . وقد اشغلت نفسها حتى الآن بصورة رئيسية في بناء الطرق والمطارات ، ومد انابيب المياه والمواصلات الهاتفية والاذاعية .

وكان ايريك لابون أول من وضع مشروعاً لتصنيع الصحراء . وكثيراً ما سمعنا في الماضي عن « لجنة دراسات مناطق التنظيم الصناعي والاستراتيجي في افريقيا — ZOIA » ، ولكننا لم نعد نسمع بها كثيراً . وقد تقرر ان تكون منطقة كولمب بشار المنطقة رقم (١) ، وأن تضم محطة للقوة الكهربائية والحرارية ومصنعاً للحديد والمنغنيز ، ومصنعاً آخر للسماد الصناعي . وقد اعتقد المشرفون على المشروع بوجود كميات كافية من المياه اللازمة للصناعة ، والأيدي العاملة ، والمواد الاولية في المنطقة . لكن المراقبين الموضوعيين رأوا في هذا المشروع ما يشبه القطة التي تواصل مطاردة ذيلها . ولقد قيل انه سيصبح في الامكان استغلال معدن النحاس في « ابو قيس » عندما يتم انشاء المنطقة الصناعية في كولمب بشار . وقد لا يتحقق هذا تماماً ، إلا عندما يثبت وجود كميات كبيرة كافية من المعدن الخام... ولعل الاهتمام قد ازداد بهذه المنطقة ، بعد ان غدت مركز اختبار الصواريخ البعيدة المدى والموجهة ، مما اثار اهتمام حلف الاطلسي ايضاً ، وهي حقيقة لم تبدد شكوك ارباب الاقتصاد . وفي غضون ذلك ، تأجلت عملية اقامة محطة توليد الكهرباء كما تقرر تأجيل انشاء المنطقة الصناعية الى أجل غير مسمى . وهكذا تبين ان مشروع لابون ، لم يكن قد نضج بعد وان لم يثبت انه مشروع خاطىء .

وليست اللجنة المشتركة للنواحي الصحراوية ، اذا ما حكمنا عليها من ناحية أهدافها المقررة إلا مشروعاً آخر من مشاريع التنظيم الصناعي والاستراتيجي على نطاق واسع . ويرى فيها مؤيدوها ، تجربة صناعية واقتصادية واجتماعية رئيسية على غرار سلطة مشروع وادي تنيسي في الولايات المتحدة . ولكن العقبات الكأداء كانت تقف في طريق اللجنة منذ البداية بحيث باتت آمالها في النجاح غير مشرقة . ولم تنس السلطات الاقتراح الذي قدم في عام ١٩٥١ لتأميم الصحراء . ويعتبر بعض الناس موضوع اللجنة بعثاً لدولة الصحراء ، بعد أن دفنها الخبراء على أساس ان المشاكل الانسانية للصحراء ، من ناحية السكان والكيان الاجتماعي معقدة كل التعقيد . وقد اثار التطوير الوهمي نوعاً للجنة ،

على اسس ليست اقتصادية مجردة ، وانما على اسس ادارية وسياسية ، الكثير من المخاوف بالطبع ، كما آثار مثلها ايضاً ادماج منصب « الممثل العام » بمنصب وزير الصحراء ، وخلق وسام الاستحقاق الصحراوي لعام ١٩٥٨ ، الذي يشير الى قيام دولة صحراوية خاصة .

ولم يحمل التأكيد على ان اللجنة لن تصطدم بكيان الصحراء السياسي محمل الجد ، وادت الشكوك منذ البداية الى نتائج وخيمة . فقد ظلت موريتانيا خارج النطاق الصحراوي ، مع ان اشتراكها كان سيقابل حتماً بالكثير من الترحاب . فهي تمتاز بشواطئها البحرية ووجود ميناء لها في «بورت اتيين» — انواء الذيب ، وبمخزون الحديد في قلعة غورو (كدية الحل) والنحاس في اكجوجت . وقد وافقت دولة النيجر بعد مساومات طويلة وتأكيدات عدة ووعود وعهود من اللجنة المشتركة ، على ادخال مخزون الصفيح في جبال عئير ضمن نطاق اشراف اللجنة . وقد اثارت الصبغة السياسية المتزايدة للجنة في عام ١٩٥٨ قلقاً نامياً في المناطق الجنوبية من الصحراء . وتوقف السودان الفرنسي — مالي — بعد ان حصل على استقلاله بموجب استفتاء ديغول عن تجديد عقوده مع اللجنة المشتركة . وهكذا لم تتمكن حتى الآن من تحقيق أهدافها الاساسية ، ولم توافق إلا جمهوريتا النيجر وتشاد على المجهود المشترك في الصحراء ، وان كانتا قد قدمتا عدداً من التحفظات . واذا قدر للجنة المشتركة ان تظل محصورة النشاط بهذا الشكل بصورة مستمرة ، فان أهدافها الاساسية في اقامة منطقة اقتصادية موحدة لمصلحة المجموع ، تحتل مكانة ثانوية .

ومن المصاعب التي واجهت اللجنة المشتركة ايضاً ، الموقف التعاوني الذي وقفته الدول المجاورة . وتعتقد اللجنة انها ستستطيع في المستقبل ان تضمن تعاون مراكش وتونس وليبيا واسبانيا (مع الصحراء الاسبانية) والسودان في مشروع مشترك لتطوير الصحراء ومواردها الطبيعية . وقد يكون هذا المشروع جذاباً ولكنه خيالي يوتوبي في الوقت الحاضر . فمن الحقائق المرة مثلاً ان اللجنة لم تفلح في ان تكسب الى جانبها موريتانيا ومالي ، وهما دولتان من اعضاء

الاتحاد الفرنسي . وقد ادى تقسيم الصحراء الجنوبية الى اقليمين ، واقامة اللجنة المشتركة الى تجدد فكرة قيام اتحاد مغربي ائتلافي (فيدرالي) ، يضم المغرب العربي . ولكن اعادة تنظيم الصحراء إدارياً ، اعتبر في جميع بلاد المغرب العربي كمحاولة من جانب فرنسا للاستئثار لنفسها بثروة الصحراء ، قبل ان تفلس سياستها نهائياً في الجزائر ، وقد غدا هذا الشك اعتقاداً ثابتاً في خريف عام ١٩٥٩ . عندما وعد ديغول باعطاء الجزائريين حق تقرير المصير ، بينما حرم مثل هذا الحق على سكان الصحراء . وقد ادت هذه المحاولة لمعاملة الصحراء كوحدة سياسية مستقلة ، الى قيام اقتراح مغربي بايجاد حاجز يمتد من مراكش الى ليبيا ، يقف حائلاً بين اللجنة المشتركة وبين البحر الابيض المتوسط . وفي وسع فرنسا ان تتفاءل من موافقة الحبيب بو رقيبة على السماح لزيت ايجيلي بعبور الارض التونسية ، ولكن هذا القرار جاء مخالفاً للقرار الخطير الذي اتخذته الاحزاب الافريقية الشمالية الوطنية في مؤتمر طنجة في ربيع عام ١٩٥٨ ، وهو القرار الذي يقضي بتأليف مغرب عربي واحد . ولا تستطيع فرنسا ان تتجاهل انه كلما طال امد الحرب الجزائرية ، فان تيار القومية العاصف الممثل في جبهة التحرير الوطني الجزائري سيمد سيطرته على رئيس جمهورية تونس وملك المغرب ، أو يجرفهما اذا حاولا الوقوف في طريقه .

وهناك عقبة اخرى في طريق اللجنة وهي مشكلة الحدود التي تتمثل في الخلافات العديدة ولا سيما في مطالب مراكش . ومن الحق ان يقال ، انه الى الجنوب من كولمب بشار فليست هناك حدود شرعية بين مراكش والجزائر . وقد قسم اتفاق « للا مارنيا » الذي وقع بين الحكومتين الفرنسية والمراكشية في آذار عام ١٩٤٥ . الواحات والقبائل الى الجنوب من ممر « تنييت ساسي » ، واضاف الاتفاق قوله « اما بالنسبة الى الاراضي الواقعة الى الجنوب من القصور (الواحات) فان الحكومتين تريان ان تخطيط الحدود شيء لا ضرورة له . اذ ان المنطقة صحراوية تخلو من الماء والسكان » . وقد ندم الفرنسيون ندماً شديداً على انهم سمحوا ببقاء الحدود دون تخطيط اكثر من قرن كامل . وقد

فات الوقت اليوم على التخطيط . وتضم خريطة مراكش الكبرى ، التي حملها علال الفاسي ، نبي الوحدة المغربية ، من القاهرة في نهاية عام ١٩٥٥ . والمعلقة الآن في مقر قيادة حزب الاستقلال ، كلاً من كولمب بشار والصورة وتوات وتندوف والصحراء الاسبانية وموريتانيا . وتمتد حدود هذه الامبراطورية العلوية الى نهري النيجر والسنغال في الجنوب وتضم أراضي تبلغ في مساحتها ضعفي مساحة مراكش الحالية . وتستند الحجج التاريخية التي تقوم عليها هذه الدعوى الى آراء غريبة (هذا رأي المؤلف طبعاً !!) . ومن أهم هذه الحجج ان امبراطورية المرابطين كانت تمتد في القرن الحادي عشر من السنغال الى قشتالة ومن برقة الى الاطلنطي . ويتجاهل المراكشيون الحقيقة الواقعة ، وهي أن قصة المرابطين التاريخية ، وقد جاءوا من الجنوب ، تدعم دعوى الجنوبيين في مراكش وغرب الجزائر وساقية الذهب . على أي حال ، أخذ المراكشيون في الآونة الاخيرة يبدون اهتماماً متناقصاً ، وحماساً اضعف بالادعاء التاريخي مؤثرين الاعتماد على رغبات الشعوب في المناطق المتنازع عليها ، في العودة الى « الوطن الأب » ، وهو شعار لا يجد كبير صدى في موريتانيا حيث يتقوى الشعور الوطني الانفصالي .

لكن المغرب الكبير « لم يعد مجرد مزاح ساخر . فقد تبنى الملك محمد الخامس قضية المراكشيين القوميين ، الذين اوجدوا « جيش التحرير للصحراء المراكشيه » ، وقد أثار هذا الجيش الكثير من المتاعب للفرنسيين في المنطقة كلها ، بما فيها موريتانيا . وتدهور في غضون ذلك موقف فرنسا ولجنتها المشتركة للنواحي الصحراوية . فالى عهد قريب ، كانت فكرة مراكش الكبرى وقفاً على علال الفاسي وعلى حزبه من الوطنيين المتحمسين ، ولم يكن العرش مشتركاً فيها . لكن وزارة الداخلية المراكشية انشأت في نهاية عام ١٩٥٧ ، دائرة خاصة بالصحراء ، عهد برئاستها الى احد زملاء علال الفاسي ، وفي عام ١٩٥٨ شرع الملك محمد الخامس يطالب جهاراً بالصحراء . فقد قام في شهر شباط من ذلك العام بجولة في الجنوب ، نادى إبانها بمطالب السي علال ،

جملة وتفصيلاً . وتخلت اسبانيا في نيسان من ذلك العام ، طبقاً لاتفاق سابق عن « حمايتها » على معظم المنطقة الجنوبية المسماة بطرفاية ، لكن تأثير هذا العمل لم يقدر له أن يعمر طويلاً بالنسبة الى المراكشيين . ومنح الرأسمالي الايطالي الكبير ، انريكوماتيي الذي وصف « بأنه اقوى شخص ظهر في ايطاليا بعد الامبراطور اوغسطس » ، امتيازات للتنقيب عن الثروة المعدنية ، واخذت الرباط تشير الى ان تندوف غدت في مرمى المدفعية المراكشية. وتبنى المجلس الحربي للقوميين المغاربة في طنجة مطالب الرباط في موريتانيا . وحاولت مراكش استخدام « حقوقها السيادية » ، في وقف عملية قرض من البنك الدولي ، لتمويل التنقيب عن المعادن في قلعة غورو . وعقد في الرباط مؤتمر لتحرير موريتانيا . وعندما منحت فرنسا اوّل امتياز للتنقيب عن الزيت في منطقة تندوف التي تصل حدود المغرب ، تمكنت الحكومة المغربية من اقناع شركة امريكية واخرى المانية ، بأن تطلبا هذا الامتياز منها . وعندما قامت اسبانيا في عام ١٩٥٩ بمنح امتيازات للتنقيب في المناطق الصحراوية التي تحتلها احتجت الرباط بشدة من جديد ضد الحفر في « مناطق صحراوية متنازع عليها » . وتقوم اذاعة المغرب ببث دعايتها الخاصة بالصحراء ، على موجة خاصة ، كما تضمن هذه الدعاية في المجلة الاسبوعية « صحراء المغرب » ، والمجلة التي تصدر بالفرنسية « الآمال في الصحراء » .

ويبدو ان النزاع على الحدود الجزائرية — التونسية في الصحراء ، سيؤدي ايضاً الى احتمالات غير سارة للفرنسيين . فقد اكد الرئيس بورقيبه في مقابلة صحفية في شباط عام ١٩٥٩ ، بأن الحدود التونسية في الصحراء ، لم تخطط قط . وقد تذمر من ان فرنسا قد اغلقت باب الصحراء في وجه تونس ، واحتج على منح حقوق التنقيب عن الزيت لشركة « ايسّو الصحراوية » ، وهي شركة متفرعة عن شركة « ستاندارد اويل » الامريكية وبعض الشركات الفرنسية المترابطة معها . وأكد الرئيس بورقيبه ان القسم الاكبر من منطقة الامتياز ، ارض مختلف عليها . وأعلن ان تونس قد عرضت مطالبها على جبهة التحرير

الجزائري ، وعلى فرنسا ، وانها مصممة على الحصول على حقها ، عن طريق رفع شكوى الى محكمة العدل في لاهاي .

* * *

كتب جي. آر. فون ساليس ، في كتابه « تاريخ العالم في العصور الحديثة » يقول « ان حقبة الثمانين في القرن الماضي شهدت عرضاً فخماً ومتحمساً وشرساً ومتعجلاً ، للحكم الاوروبي في افريقيا ، وكانت قوته الدافعة شبيهة بتلك التي أدت في القرن نفسه الى توسع الولايات المتحدة الامريكية السريع عبر القارة الامريكية الى سواحل المحيط الهادي . لكن العدد الضخم من الدول الأوروبية المتنافسة على افريقيا أدى من الناحية السياسية الى أن يواجه الأوروبيون في مختلف اجزاء القارة السوداء ، عدداً من الدول الافريقية المنظمة ، وعوامل جغرافية ومناخية ، جعلت التطورات في افريقيا مختلفة في طبيعتها تمام الاختلاف عن التوسع الامريكي في الغربين الاوسط والصحراوي ، وتكساس وكاليفورنيا وريغون والاسكا . ولم يكن من الممكن اسكان البيض على نطاق ضخم ، كما لم يكن من الممكن من الناحية الواقعية ابادة السكان الاصليين ، مما فرض حلاً عملياً واحداً ، وهو ان يقوم الاوروبيون باضفاء حمايتهم الاستعمارية على أهل القارة الافريقية كخطوة اولى نحو اقامة شراكة لا بد منها بين البيض والشعوب الملونة » .

فأي اسهام يمكن للصحراء ان تقدمه الى شراكة من هذا النوع ؟ على الانسان ان يتذكر عندما يصل الى هذا الحد . الآراء التي تقدم بها رجلان كانا من رواد فكرة التعاون الاوروبي — الافريقي . وأول هذين الرجلين الماني واسمه هيرمان سورغيل والآخر فرنسي واسمه ايريك لابون .

وقد طلع سورغيل في حقبة العشرين من القرن الحالي بمشروعه للبحر الابيض المتوسط . فقد تأثر المذكور بقوة امريكا ، ورأى ان المستقبل الوحيد لأوروبا يقوم في تعاون وثيق مع افريقيا ، على ان يمثل البحر الابيض المتوسط ، دور

القوة الكهربائية المولّدة لهذا الاتحاد . وكانت خطة سورغل ترمي الى تخفيض مستوى البحر المتوسط ، باقامة سدود في جبل طارق ومضائق الدردنيل ، لمنع انسياب المياه من الاطلنطي والبحر الأسود الى المتوسط . ولما كان هذا البحر يفقد عادة كمية اكبر من الماء عن طريق التبخر من تلك التي يتلقاها من الانهار التي تصب فيه أو من الامطار ، فإن مستوى البحر سينخفض بمعدل ياردة كل عام . ويضيف مشروع سورغل ، ان في الامكان استخدام السدود ومصبات الانهار ، كمصادر لتوليد الطاقة الكهربائية التي تزيل الاملاح من مياه البحر ، وتدفع بهذه المياه عن طريق الضخ الى الصحراء الكبرى . ومضى سورغل الذي كان اصدقاؤه يلقبونه « بالدالاي لاما » لأن رأسه (أي افكاره) مرتفع دائماً فوق السحب ، في مشروعه الى ابعد من ذلك ، فتصور أن اعادة بحر من بحار ما قبل التاريخ الى الكونغو ، سيؤثر حتماً على الطقس في أواسط افريقيا ، ويحول بين بحيرة تشاد وبين الجفاف — اذا كانت الفكرة ان هذه البحيرة ستجف — ويؤمن مصدراً آخر للطاقة الكهربائية عند نقطة التقاء هذا البحر بالمحيط الاطلسي .

وقارن ايريك لابون ، في نفس هذا الوقت ، وكان مقيماً عاماً لفرنسا في مراكش وتونس ، جبال الأطلس ، بجبال الاورال ، واصدر الانذار التالي : « ان اوروبا المفككة والفقيرة ، تقيس قوتها الضعيفة ، بالتطور العظيم الواقع في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وافريقيا هي أمل اوروبا الوحيد إذ أنها القارة التي ان قررت اوروبا ، ان تمضي في مشروع مشترك لتطويرها ، لتستطيع تمكين الأوروبيين من اختراق هذا الوجود الصغير الشبه — جزري المفروض عليها ، وان تجد وحدتها في مجهود مشترك » . وكان سورغل ولابون يتفقان مع سنت — ايكزوبيري في قوله « ارغمهم على بناء سور معاً ، فتجعل منهم اخوة » .

وفي هذه الأيام ، التي تتقارب فيها اجزاء القارة الأوروبية من بعضها ، وتظهر فيها الجماعات الاقتصادية التي تتخطى الحدود الاقليمية في اوروبا ،

فان حلم التعاون الافريقي – الاوروبي يبدو اقرب الى التحقيق من أي وقت مضى . ومع ذلك فما زالت فكرة هذا التعاون الاصيل ، كما يعرف كل قارىء عادي للصحف ، في طفولتها . وقد تم بعض التقدم في البلاد الافريقية التابعة لفرنسا ، بحيث وضعت بعض الدول الاعضاء في السوق الاوروبية المشتركة ، وفي مقدمتها المانيا الغربية ، خططها ، لاستثمار مبالغ ضخمة من أموالها في السنوات القليلة القادمة . وتبنت فرنسا في الأطراف الجنوبية من الصحراء ، سياسة واسعة النطاق من اعادة النظر في خططها الاستعمارية . ففي خريف عام ١٩٥٨ ، مارس الجنرال ديغول ، الصلاحيات الخاصة به ، لاختراق النطاق التشريعي والاداري السابق ، فأجرى استفتاءه في جميع الممتلكات الفرنسية السابقة ، وقد اقترعت جميع هذه الممتلكات باستثناء غينيا الى جانب البقاء في عضوية « الجامعة الفرنسية » ، التي اخذت تتطور باتجاه جامعة للشعوب ضعيفة العرى والوشائج . واخذت فرنسا ، بعد ان رأت مثال غينيا تضع ما يمكنها من العراقيل في طريق تيار التحرر المتزايد ، الذي يسود محميات فرنسا السابقة ، وهي محميات لم تعد تقنع بالحكم الذاتي ، وانما أخذت تطالب بالاستقلال الناجز الكامل .

واذا تمكنت في فرنسا من السير قدماً في سياسة اعادة تخطيط استعمارها ، فان سياسة التعاون الافريقي – الاوروبي ستحقق نصراً ، لن يكون موضع شكر الكثيرات من شريكات فرنسا الاوروبيات . ولكن فرنسا نفسها ، هي التي تحطم مركزها في افريقيا . كما تحطم مستقبل اوروبا في افريقيا .

فمنذ عام ١٩٥٦ ، بدأ شعور جديد وغير منتظر من العداء للاستعمار ، ينمو في فرنسا ، ويوطد أقدامه فيها . وقد بدأ هذا الشعور ، بسلسلة من المقالات كتبها ريمون كارتيير في المجلة الاسبوعية المصورة « باري ماتش » . وتقوم الكارتييرية على اساس النظرية القائلة ، بأن فرنسا هي موضع استغلال مستعمراتها السابقة ، وان هذه المستعمرات ، تأخذ من فرنسا اكثر مما تعطيها . وهو يرى أن من الافضل تبعاً لذلك ان تستثمر الموارد المالية والتقنيّة التي

تصرفها فرنسا حالياً في مستعمراتها في المناطق المتخلفة في فرنسا نفسها . وتود الكارتييرية ان ترى محميات فرنسا السابقة ، وقد تحررت من كل شيء ، حتى من المساعدات المالية التي تتقاضاها من فرنسا . واذا قبلت هذه النظرية التي تستند الى عدد كبير من الحجج الاقتصادية ، واصبحت شائعة ، فإنها ستكون اقرب الى التنكر لالتزامات فرنسا الادبية والاخلاقية لمساعدة البلاد المتخلفة بصورة عامة ، كما ستعني نهاية التعاون الافريقي ، في وقت بدأت بعض الآمال المعلقة عليه تبدو مشرقة يانعة .

لكن هناك خطراً اكبر من الكارتييرية ، يهدد تطوير فرنسا للقارة السوداء ، وهو تطوير يهم اوروبا بأسرها ، وذلك هو خطر الحرب في الجزائر . وقد وصف الاستاذ هيربرت لوثي ، هذه الحرب ، بأنها « دمّل » ، أوصل ازمة فرنسا الى ذروتها . ولم يكن الوطنيون الجزائريون في حاجة الى المناداة بأكثر من شعارات الثورة الفرنسية ، وهي الحرية والمساواة والاخاء ، ليعرضوا على الشعب الفرنسي ما في موقف فرنسا من تناقض فظيع في الجزائر ، واذا قدر لهذا « الدمّل » ان « يفقأ » فيجب أن يتم ذلك ، برغبة فرنسا ، وليس في وسع أي معلق غير فرنسي يعتبر نفسه عادلاً ومنصفاً ان يتجاهل اثر الحرب الجزائرية على بقية انحاء افريقيا . وعندما رفع شعار « ارفعوا أيديكم عن افريقيا » في مؤتمر الشعوب الافريقية في اكرا ، لم يكن هذا الشعار متجهاً ضد الدول الاستعمارية فحسب ، بل ضد اوروبا الجديدة كلها . وقد جاءت هذه المظاهرة المعادية لأوروبا نتيجة اوضاع الجزائر ، ذلك لأن حرب الجزائر تفرض ضغطاً متزايداً على هذه الدول ، التي غدت بفضل الانظمة التي ابتكرت بعد الحرب للانتقال من العهد الاستعماري راغبة في التعاون مع فرنسا وشريكاتها الاوروبيات . ولكنها لا تتمكن من ذلك من جراء ضغط الأوضاع الجزائرية . ويجب أن يذكر الانسان ان التعاون الافريقي — الاوروبي ، ليس بالاقتراح الوحيد المعروض على الافريقيين . ففلسفة ثورة عبدالناصر تأمل باتصال وثيق الوشائج بين افريقيا وآسيا ، يقوم على تعزيز الحركة الاسلامية في القارة السوداء .

وفي وسع جماعات المبشرين المسيحيين في افريقيا ، ان يؤكدوا قوة التيار الاسلامي الذي عجزوا عن وقفه ، لا سيما وانه يحمل في كل عام ما لا يقل عن مائة الف من الحجاج الافريقيين المسلمين الى مكة . ولا ريب في أن حرب الجزائر ، تضفي قوة دعائية قوية على الحركة الاسلامية .

ويصف الدعاة الفرنسيون الصحراء بأنها الاسمنت المسلح للتعاون الافريقي — الأوروبي ، اذ انها المغناطيس القوي الذي يقرب بين افريقيا واوروبا . ولكن ، هل في هذا القول شيء من الصحة ؟

فالصحراء من الناحية الأولى تقيم الدليل المقنع على صحة الافتراض القائل بوجوب ان تصبح القارة الافريقية مشروعاً اوروبياً مشتركاً . وفي وسع الانسان ان يستخلص جزءاً لا بأس به من ثروات الصحراء الطبيعية ، اذا كانت اوروبا على استعداد لاستهلاك هذا الجزء . ومن الناحية الاخرى ، فان المستهلكين المحتملين ، يضعون رؤوس الأموال والتقنيين والمعدات الفنية ، في الاماكن التي يجب أن توجد فيها ، وحيثما تقتضي الضرورة وجودها فيها ، بحثاً عن هذه الثروة وطريقة استخلاصها . وفي وسعنا ان نورد مثالين على ذلك .

ولا ريب في ان كلمة « زيت » تركت اثراً سحرياً في الصحراء ، بحيث تغافل البعض البحث عن الغاز الطبيعي . وكان الغاز بالفعل في جميع انحاء العالم ولمدة طويلة يؤلف العنصر الفقير في الاسرة النفطية ، مع أن هذا الاعتبار خطيئة كبرى . ولقد كانت له في الحقبتين الاخيرتين ، انتصارات باهرة كمصدر من مصادر القوة في الولايات المتحدة ، وغدا اليوم يؤلف ثلث قوة امريكا . وتتطور صناعات الغاز الطبيعي في كندا اليوم تطوراً سريعاً ، وتقفز الى الامام بخطوات جبارة . وقد بدأت اوروبا منذ نهاية الحرب الكونية الثانية تهتم به اهتماماً متزايداً . ففي ايطاليا احدثت صناعات الغاز الطبيعي في حوض نهر البو وفي ابروزي وجزيرة صقلية ثورة كاملة في استهلاك القوى المحركة في البلاد ، وغدا حقل الغاز في « لاك » في جنوب غرب فرنسا اساس التطور الصناعي فيها . واخذت النمسا منذ توقيع معاهدة الصلح في توسيع صناعة الغاز كما ان

المانيا الغربية وانكلترا تأملان في العثور على مخزونات كبيرة منه . ولا يحتمل ان تؤدي اكتشافات الغاز في اوروبا الى التخفيض مما تحس به اوروبا الغربية من افتقار الى القوى المحركة الناتجة محلياً ، ذلك لأن هذا النقص ، سيزداد حتماً بنسبة ثلاثة اضعاف في عام ١٩٧٥ . ولكن غاز الصحراء الطبيعي سيكون كافياً لسد حاجات اوروبا الى الوقت الذي تغدو فيه الطاقات الذرية كافية للقوى الانتاجية .

وهناك الآن ثلاثة مستودعات هائلة من الغاز الطبيعي في الصحراء اولها الى الجنوب من عين صلاح والثاني فى حاسي مسعود والثالث في حاسي الرمل . وتنتج الحقول الواقعة الى الجنوب من عين صلاح الميثين الجاف النقي . ولكن شركة (كريبس) المستثمرة ليست على عجلة من أمرها لتطوير هذه الحقول ، لأنها تبعد سبعمائة ميل جوي عن ساحل البحر الابيض المتوسط . ويتوقع ان تنتج حاسي مسعود الغاز السائل من بوتين وبروبين . ويبلغ انتاج حاسي الرمل السنوي ثمن ما تنتجه الولايات المتحدة كلها واكثر من خمسة اضعاف الانتاج الحالي في اوروبا كلها باستثناء الاتحاد السوفياتي . ويبعد حقل حاسي الرمل في اقرب نقطة منه ثلاثمائة ميل عن الساحل ، ولكن نقل الغاز الطبيعي في انابيب من ذات الضغط العالي رخيص ، ما دام ان هناك كميات كبيرة تنقل بهذه الطريق .

ولن تستطيع الجزائر قط استهلاك مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي في العام ، وهو الحد الادنى المطلوب لكي تصبح تموينات حاسي الرمل ، ذات قدرة تنافسية قبل عام ١٩٦٣ على اقرب تقدير . وهو التاريخ المحدد اذا نفذت مشاريع التصنيع التي تم وضعها في بداية عام ١٩٥٩ . وسيكون من الضروري انتاج كميات اكبر . هذا اذا استثنينا موضوع تطوير حقل حاسي الرمل على المدى البعيد ، ليصبح الغاز الطبيعي ارخص سعراً من الوقود المستورد . وليست لمثل هذه الاعتبارات بالطبع أية اهمية الآن لا سيما وان فرنسا قد قررت لاسباب سياسية استخدام الغاز الطبيعي الناتج في حاسي الرمل كأساس لتصنيع

الجزائر . ويجري الآن انشاء خط انابيب للغاز قطرها ٢٤ انشاً، ستتصل بوهران والجزائر وتبلغ طاقتها السنوية بعد إكمالها ثلاثة ملايين متر مكعب ، أي اكثر مما يمكن للجزائر كلها ان تستهلكه في المستقبل عند تصنيعها . وتتطلع فرنسا الى اوروبا الغربية ، التي تستطيع ان تستهلك على حساب أنواع الوقود الاخرى ٧٤ ملياراً من الامتار المكعبة من غاز الصحراء الطبيعي .

ويقع البحر الابيض المتوسط لسوء الحظ بين حاسي الرمل واوروبا . ويجري الآن درس وسيلتين ممكنتين للتغلب على هذا العائق الضخم ، واولاهما ان ينقل الغاز بعد « تسييله » بطريق البحر بواسطة ناقلات زيت خاصة ، أو بواسطة انابيب خاصة بعيدة المدى من التي تستخدم تحت البحر . ولا يحول استخدام احد الحلين دون استخدام الحل الآخر . وللبدء بتنفيذ هذين السبيلين ، يجب الشروع في بناء مصنع في ارزو على مقربة من وهران ، لتحويل الغاز الى سائل ، بتبريده الى درجة (١٦٠) تحت الصفر . وتؤدي هذه العملية الى ضغطه الى حجم يبلغ واحداً من ستمائة من حجمه الاصلي . وستقوم ناقلات الميثين بحمله الى اوروبا حيث يجري خزنه ، واذا اقتضت الضرورة ، اعادته الى درجته الطبيعية العادية وايصاله الى جهاز التوزيع . وهذا الحل الذي يفترض وجود جهاز كاف من ناقلات الميثين ونتائج مرضية من شحن الغاز السائل ، سيستعاض عنه حالما يتم ايجاد الحل الثاني وهو انابيب تحت البحر . واذا تقرر اختيار مضائق جبل طارق كنقطة انتقال ، فلن تكون ثمة حاجة الى اكثر من ثلاثة اميال او اربعة من الانابيب تحت الماء . ولكن اجتياز البحر الابيض المتوسط ، يمكن ان يحدث الى الشرق ايضاً . فحتى الآن لم يجر مد أية انابيب تحت البحر على عمق كهذا أو الى مسافة طويلة كهذه ، ودلت الدراسة التي اجريت لقعر البحر بين مستغانم على مقربة من وهران وقرطاجنة في اسبانيا على وجود واد تحت سطح البحر يبلغ طوله مائة وخمسين ميلاً ، وقد غطته طبقة كثيفة من الطين . ويضم هذا الطين ميكروبات تستهلك الاوكسجين ، وتحمي الانابيب من الصدأ . وتشير الارقام الألمانية ، انه حتى لو دارت ناقلات الزيت

حول جبل طارق ، وقطعت ١٧٥٠ ميلاً حول الجزائر والمغرب واسبانيا وجنوب فرنسا ، فان ثمن الغاز الطبيعي الصحراوي في ستراسبورغ سيكون منخفضاً جداً ، هذا اذا افترضنا امكان نقله في كميات ضخمة وبصورة مستمرة . وتظهر الخرائط التي وضعها دعاة التعاون الافريقي الأوروبي انابيب اخرى تمتد من فرنسا الى انكلتره ، والمانيا ودول البنيلوكس . ويعتمد تحقيق هذه المشاريع الطموحة على ما اذا كانت اوروبا ستقرر في السنوات القادمة تجميع مصادر طاقتها في مكان واحد . ولكن هناك شيئاً وحيداً مؤكداً وهو أن في وسع حاسي الرمل ان تسهم اسهاماً لا مثيل له في تطوير صناعة الغاز في القارة الاوروبية كلها .

وتقيم الصحراء حجة جديدة ، تؤيد النظرية القائلة بأن تطوير افريقيا ، أمر يمكن تحقيقه عن طريق قيام مشروع اوروبي موحد . للحصول على مخزون الحديد في قلعة غورو وغار جبيلات .

وتستهلك صناعة الحديد والفولاذ في العالم اليوم ستمائة مليون طن من الحديد الخام . وتملك كل من روسيا والولايات المتحدة تموينات كافية لهما ، بينما عثر على مخزونات جديدة في فنزويلا وكندا . لكن اوروبا الغربية لا تحتل وضعاً سعيداً في هذا الصدد . وستعاني خطر الافتقار الى الحديد الخام ، اذا لم تتخذ خطوات عاجلة لتوسيع تمويناتها عبر البحار . وتؤلف افريقيا لاسباب جغرافية مصدراً مهماً وطبيعياً ، ولكن استغلال المواد المخزونة في افريقيا أمر يفوق طاقة أي بلد اوروبي وحيد .

وقبل ان يبدأ التعدين في (كدية الجل) قلعة غورو ، يجب ايصال هذه البقعة الصحراوية النائية بالساحل. وتزداد الوحول والطمي في أقرب ميناء وهي فيلا سيزنيروس سنة بعد أخرى ، وهكذا تقرر مد السكة الحديدية الى ميناء موريتانيا الصغير (انواء الذيب) بورت اتيين. وعندما تقترب السكة الحديدية من الشاطىء ، يتحتم عليها ان تجتاز نحواً من ستين ميلاً من الكثبان والتلال الرملية التي توالي الزحف جنوباً . وقد اعد المشروع بشكل لا يمكن تنفيذه قبل انعدام عشرين عاماً . وتجري

محاولة ايضاً لتقوية انحراف الكثبان الرملية باتجاه الريح عن طريق رشها بالزيت ، ولما كانت مدريد قد رفضت مرور السكة الحديدية بالارض الاسبانية . كما كان من المتفق عليه سابقاً ، فقد اصبح من المحتم ان تصطدم السكة بعدد آخر من الكثبان والتلال الثابتة غير المتحركة ، ولاسيما في المنطقة التي تندفع فيها الحدود مما يرغم السلطات على مد نفق عبر هضبة عالية . وستؤدي الدورة حول هذه التلال ، الى زيادة نفقات الانشاء . وسيصبح في الامكان نقل ستة ملايين طن من المعدن الخام في كل عام عبر هذه الثلاثمائة والخمسين ميلاً من خط السكة الحديدية ، التي سيمد منها فيما بعد خط فرعي الى اكجوجت . ولا ريب في أن اوضاع العمل الصعبة ، وارتفاع تكاليف النقل ، وهي عقبات مألوفة في كل موارد معدنية افريقية ، تجعل من المشكوك فيه ان تكون هذه الخامات عرضاً ذا قيمة اقتصادية في اوروبا ، ولا ريب ايضاً في ان مشروع قلعة غورو ، الذي تلقى عوناً مالياً ضخماً من البنك الدولي لا يقل عن اربعين في المائة من المبلغ المطلوب للمشروع كله ، قد جعل في الامكان ان يبدأ العمل ، في العام الماضي على سبيل الاختبار والتجربة . أما الكمية الأولى من الخامات فلا ينتظر شحنها قبل عام ١٩٦٤ . ومع ذلك فان شركة مناجم حديد موريتانيا (ميغيرما) التي تمثل فيها المصالح البريطانية والايطالية والألمانية بالاضافة الى الفرنسية تشرق بالأمل . ولا ينظر الى الاخطار السياسية المترتبة على مطالبة المغرب بموريتانيا نظرة جدية ، اذ ان هذه المناجم ، أياً كانت السلطة الحاكمة في البلاد ، ضرورية لتحسين أحوال العيش لدى الأهلين .

وتتألف اللجنة التي كانت تتولى دراسة الامكانات الاقتصادية في غار جبيلات من هيئة دولية تضم الخبراء من فرنسا وبلجيكا ولكسمبورغ والمانيا وايطاليا وهولنده . ويحتوي المعدن الخام الذي عثر عليه في تندوف على الفوسفور وهو من النوع الذي يستخدم في اربع من هذه البلاد ليس إلا . ومن الناحية الاخرى فان نسبة الخامات من طراز (توماس) في خامات الحديد العالمية ، ضئيلة للغاية ، ولذا فان اضافة مخزونات جديدة وغنية منها ، يمكن لها أن

تلعب دوراً مهماً في التخطيط البعيد المدى لاقتصاد اوروبا .

* * *

ويمكن القول أن فرنسا قد كسبت معركة الصحراء من النواحي العلمية والتقنية والاقتصادية ، وذلك بالنيابة عن اوروبا ، وعلى اوروبا ان تساعدها في متابعة هذا الكسب . وتأمل فرنسا في أن ينال سكان الصحراء حصتهم من هذا ألمن الذي هبط من السماء (نظرة استعمارية استغلالية محض — المعرب) . وهي تدرك ان آبار الزيت ، ومناجم المعادن ، والمشاريع الصناعية في الصحراء ، ليست مصادر لتحسين أحوال العيش فحسب ، بل هي في الوقت نفسه سبب في اضطرابات اجتماعية ، إلا اذا اتخذت اجراءات سريعة ومدروسة ، لتثقيف أهل الصحراء ، على العمل وعلى تطوير شعور من المسؤولية نحو المجموعة العالمية .

وليس ثمة من شك في ان الصحراء متخلفة من الناحيتين الاجتماعية والسياسية . وقد قامت بعثة من البرلمانيين الافريقيين من الافريقتين الغربية والاستوائية بزيارة الصحراء في عام ١٩٥٧ ، فدهش اعضاؤها ، من المستوى الخفيض في التعليم الموجود فيها ، وحتى عند الموظفين . فقد رأوا ان الوجهاء والقادة والشيوخ لا يعدون ان يكونوا من جماعة الامّعات الذين يوافقون السلطات الفرنسية على كل شيء ، ويتعاونون معها جهاراً ، حاملين اوسمتها ، دون ان يكون لهم أي وزن سياسي لا عند قومهم ولا عند الفرنسيين .

وتريد فرنسا ان تفصل الصحراء عن الجزائر التي قد تصر على المطالبة بالاستقلال . ولكنها في الوقت نفسه ، تحاول ان تقذف بثروة الصحراء في الميزان . كعامل استقرار في الجزائر . فهي تعد الجزائريين باقامة مصنع للفولاذ في عنابة ، وانشاء عدد من معامل تكرير الزيت والاسمنت والصناعات الكيمائية — النفطية ، كما تحدث اندريه مالرو عن خلق مقاطعة نموذجية في الجزائر . على أي حال ستكون الصحراء ، مصدر القوة المحركة والمواد

الاولية . ويؤلف هذا التصنيع العمود الفقري في مشروع قسنطينه ، الذي ينص على عمليات الاصلاح الزراعي ايضاً ومكافحة البطالة ونشر المدارس ، على ان يمول المشروع كله جزئياً من عائدات زيت الصحراء . وتأمل فرنسا عن طريق هذا المشروع في ايجاد جو من الثقة بها في الجزائر (أي ثقة !!) ، بحيث يصبح في الامكان بحث المشكلة السياسية . ومن الحق ان يقال ، أن على الشعوب ان تطور مناعتها ضد الاستعمار قبل ان يمكن التغلب عليه بصورة مناسبة ، ولكن هذا المبدأ لا يمكن تطبيقه الآن وبعد فوات الأوان على الجزائر ، ذات الوعي السياسي الكامل .

وقد حاولت فرنسا الطيران الى الأمام في الصحراء . فقد منيت بخيبة الأمل في هذا التصارع العنيف بين احزابها السياسية ، وبالانتكاس الذي حل « بعظمتها » على المسرح العالمي ، فاستدارت الى الصحراء ، راغبة في ان تخلق منها شيئاً عظيماً وفريداً . ويبدو الآن ان جهودها في الصحراء قد تنتج ، وقد تصبح لها أهمية حقيقية في عالم التعاون الافريقي - الاوروبي ، لا يقاس بالارقام والحسابات . ولكن « قد » هذه تتوقف على شيء واحد ، قبل كل شيء ، وهو ان تحل مشاكلها مع الجزائر .

١٥

ترويض الناشز

« خلق الله الطبيعة . وأوجد الانسان الصحراء »

— جويز هويزنجير —

قال غوتييه ذات يوم ... ان الجنون ، هو المرض الوحيد المتأصل في الصحراء ..

وما زال الحديث يدور الآن في مستهل عهد الصحراء الصناعي عن مشروعين يمتان الى الفترة السابقة التي تميزت بالبطولات في تذليل الصحراء ، وهما سكة حديد عبر الصحراء . وبحر الصحراء الداخلي . ولا ريب في ان هذين المشروعين دليلان ناصعان على الافتقار الى الواقعية في معظم المشاريع الضخمة ، والافتقار الى الاسس العلمية والاقتصادية .

وقد بدأت فكرة سكة حديد عبر ــ الصحراء ، التي تعود في جذورها ، الى الرغبة الكامنة ، والقديمة قدم الاجيال ، في ربط الشمال الافريقي ببلاد

الزنوج عبر الصحراء ، تتخذ شكلها الواضح في الحقبة التي تلت عام ١٨٧٠. وكان ادولف دوبونشيل ، والد هذه الفكرة المحدّدة ، رجلاً متحمساً اشدّ الحماس للتقدم التقني . وقد وضع ادولف مخططه لاقامة خط للانابيب يحمل الخمر من بيزيير الى باريس . واقترح ايضاً اقامة صنابير من الماء المضغوط الى درجة عالية لاستكمال قناة بناما ، كما اقترح القيام بعملية مماثلة ، لغسل بعض الرواني الكلسية في جبال البيرنيز ، لتغطية عدد من المستنقعات في جنوب فرنسا بالطمي الخصب . ولكن مشروع السكة الحديدية الصحراوية ، كان الحلم الذي يؤرقه ويسهّد عليه نومه . ويعود اليه الفضل في قيام الجمعية الوطنية الفرنسية في عام ١٨٨٠ بتخطيط ثلاث طرق لهذا المشروع . ثم حلت قصة حملة فلاترز وذبح رجالها ، وهي الحملة التي اوفدت لدراسة الطريق المحتملة الى الشرق ، فاسفرت هذه القصة عن اسدال ستار من النسيان على المشروع مدة حقبة كاملة ، وعندما اعترف اللورد سالسبوري ، بادعاءات فرنسا في الصحراء في عام ١٨٩٠ ، عاد المشروع الى الظهور ، ليختفي من جديد بعد قليل ، بعد ان تبين ، ان اللورد قد منح لفرنسا ، شيئاً لا يملكه كما لا تملكه فرنسا . ولم يظهر المشروع من جديد إلا عندما تمكن الجنرال لابيرين من فرض الهدوء على الصحراء ، بفرقته من رجال الهجانة . وبعد دراسة المخططات تم تنفيذ شيء فعلي ، فقد مد خط حديدي ضيق الى كولمب بشار ، حيث توقف البناة ، وهم يسألون انفسهم ، عمّا ستحمله السكة الحديدية التي اقاموها ، وهكذا توقف المشروع ثانية .

ولا ريب في ان الجزء الاكبر من قصة سكة حديد الصحراء يبدو كمهزلة أو اضحوكة . فقد اجتمعت عناصر مختلفة من الغموض والمثالية والحمق والوطنية ، وجنون العظمة ، لتسهم في الرغبة الملحة ، في روية قاطرات البخار تغذ السير عبر الصحراء . وحتى الحماس التبشيري لعب دوراً قوياً في الموضوع ، ففي نفس السنة التي قتل فيها فلاترز ، ذبح الطوارق قرب غدامس ثلاثة من « الآباء البيض » وهم في طريقهم الى أواسط افريقيا ، مما حمل الكردينال

لافيجيري ، مؤسس رهبنة « الآباء البيض » ، على ان يتولى الدعوة لانشاء سكة حديد عبر الصحراء .

وكانت الميزة الرئيسية التي تميز دوبو نشيل عن أي « نصّاب » عادي ، هي قدرته البديهية على أن يحمل بياناته الجريئه محمل الجد . وعندما بدأ متمولو باريس ، يدرسون الفوائد الاقتصادية التي يمكن ان تجنى من مد هذه السكة الحديدية ، اخذ يتلو على مسامعهم قصة « المائة مليون من المستهلكين » الذين يقيمون في الطرف الجنوبي من الخط ، والذين ينتظرون وصول منتجات فرنسا الصناعية اليهم ، كما اخذ يحدثهم عن فراديس المنطقة الاستوائية وكنوزها ، التي يمكن نقلها الى فرنسا عن طريق المشروع بعد تنفيذه في غضون ستة أيام ؛ ولهذا فقد ازعجه بالغ الازعاج الاتفاق الذي تم الوصول اليه مع اللورد سالسبوري والذي تخلت فرنسا بموجبه عن المناطق التي كان من المقرر ان ينتهي الخط فيها ؛ وكان مولعاً الى حد كبير بعقد المقارنات مع الولايات المتحدة الامريكية ؛ وكان يقول لسامعيه : اولم تروا كيف ادت السكة الحديدية التي وصلت في عام ١٨٦٩ رغم الصحارى والجبال بين ساحلي الاطلنطي والهادي في امريكا ، الى قيام عدد لا يحصى من القرى والمدن على طول الطريق ؟ وكان دوبونشيل يريد ان يتجاهل الحقيقة الواقعة وهي ان الخط الحديدي الامريكي يمر بمناطق غنية بمعادنها . وبأجواء يستطيع المستوطنون البيض احتمالها . ونسي ايضاً (اذا كان يعرف) ان الامريكيين قبل أن يبدأوا العمل اوفدوا لجنة الى المجاهل الواقعة بين نهر المسيسيبي وكاليفورنيا ، فدرسوا أراضيها وان تقرير هذه اللجنة المتضمن دراساتها ، ملأ اربعة عشر مجلداً . ولكن دوبونشيل الذي لم يكن من الناحية الاخرى قد اوغل في الصحراء بعيداً عن الاغواط ، كان يفخر بأن باستطاعته أن يمد سكة حديدية عبر صحراء لا يعرفها « ولم تجر أية دراسة اولية من ناحية المساحة لها » بعيداً عن أية مدينة في الجزائر ؛

ولم يكن الذين أيدوا المشروع واثقين من نجاحه ، ثقة دوبونشيل الذي كان يقول : « ان حركة السير تخلق حركة في السير » . وشرع البعض يضع الخطط

لانعاش حركة نقل السائحين والتجارة ، وغدا الجو ملائماً للمغامرين الافاقين .
واقترح شخص يدعى المستر فوك ، اقامة ضريح لأحد الاولياء في نقطة معينة على الخط الحديدي ، وأن يتولى شيخ رعايته ، يقوم مقابل جعل شهري ببعض المعجزات ، ليجعل المؤمنين به على ان يفدوا اليه من اقاصي السودان الفرنسي (مالي) . ولم يكن من الغريب ان يقوم ثري احمق يدعى جاك ليبودي ، فيعلن نفسه امبراطوراً على الصحراء ، وان يتحمس في دعوته لاقامة السكة الحديدية عبر الصحراء ، وان يوغل في هذه الادعاءات التي دفعت به الى مستشفى المجاذيب في جزيرة (لونغ) .

ومن المضحك ان فكرة سكة حديد عبر الصحراء ، ما زالت حية قائمة . وكانت الملفات الخاصة بالمشروع ، تخرج في فترة بين الحربين من خزائنها ، لينفض الغبار عنها ، ثم تعود الى قواعدها من جديد . وفي غضون ذلك تم مد (١٨٠) ميلاً من السكة الحديدية الى كولمب بشار ، وكان بين القرارات الاخيرة التي اتخذتها حكومة الجمهورية الثالثة ، مد هذا الخط الى كنادسه ، حيث تقرر الشروع في العمل في مناجم الفحم . واعلنت حكومة فيشي في عام ١٩٤١ بصورة مفاجئة ان سكة حديد عبر الصحراء يجب ان تمد . وكانت حكومة فيشي تأمل عن طريق هذا الجسر فوق الصحراء ، ان تظهر ان فرنسا على الرغم من اذلالها وخنوعها ما زالت عظيمة ، وانها تستطيع ان تنزل الخزي بعدوها . على أي حال ، كانت الفرصة مؤاتية لاعادة الاتصال بافريقيا الاستوائية عن طريق البر ، لاسيما وأن الاسطول البريطاني ، كان يهدد طريق اتصالها البحري بمستعمراتها . وبدا ان الألمان كانوا مؤيدين للفكرة منذ البداية ، ولكنهم فجأة حولوا اهتمامهم الى فكرة اقامة خط انابيب صحراوي لنقل زيت الفستق . وكان من المتوقع ان يؤدي هذا المشروع لو نفذ ، الى تأجيل مشروع سكة حديد عبر الصحراء ، ولكن نزول الحلفاء في افريقيا في تشرين الثاني عام ١٩٤٢ ، أخر المشروعين في وقت واحد . ومنحت شركة « النيجر — للبحر المتوسط » في عام ١٩٤٥ ، مكانة رسمية . ولكن الخط الحديدي لم يمتد

منذ ذلك التاريخ اكثر من ستين ميلاً وراء كولمب بشار الى العبادلة ، وغدت المهمة الرئيسية ، للسكة الحديدية تأمين العمل لنحو من ٢٥٠٠ ميل من الطرق الصحراوية .

وقد اعدت التصميمات والخرائط ، التي تختلف عن ارتجالات دوبونشيل منذ عام ١٩٤٧ . ومن المقرر ان تمر السكة الحديدية في اقليم الصورة وصحراء تانزروفت الى عين تاسيت ، حيث يمد فرع منها طوله ١٥٥٠ ميلاً الى غاو ونيامي يتصل بسكك حديد النيجر عبر تمبكتو – سيفون (١٨٠٠ ميل) ، ويرتبط بشبكة مواصلات السنغال . وسيبلغ طول الخط الحديدي الذي يمتد الى الجنوب من كولمب بشار نحواً من الفي ميل. ولا يؤلف خط حديدي صحراوي من هذا النوع في الوقت الحاضر ، من الناحية التقنية أية مشكلة او صعوبة ، ولكن مبرراته الاقتصادية ما زالت موضع الشك . وقررت لجنة خاصة في عام ١٩٣٠ ان البضائع التي تنقل بين غاو وكولمب بشار تقدر بربع مليون طن في السنة. لكن هذه الارقام لم تتعد في عام ١٩٥٠ ، أي بعد عشرين عاماً ، ٩٩٧ طناً في اتجاه و ٩٩٤ في الاتجاه الآخر ، وهو رقم لا يكاد يكفي لأن يجعل خطاً حديدياً يسير في أي اتجاه .

ومن العدل ان يقال ، ان اعمال التطوير في الصحراء بعد ذلك التاريخ قد زادت الحاجة الى حركة النقل والمواصلات ، ولكن ليس ثمة من تفكير في الوقت الحاضر في مد الخط الحديدي عبر الصحراء الى ما وراء الفرع الممتد الى اضرار . ومن المحتمل ان يمتد الخط الحديدي الحالي في المستقبل القريب الى جبل القطارة (وهي على بعد ٩٥ ميلاً من العبادلة) لحمل الحديد من مناجمها والرصاص من مناجم طاووس المراكشية التي تقع على بعد مائة وسبعين ميلاً من كولمب بشار . وكل هذه الامتدادات لا يمكن ان تعتبر طلائع سكة حديد عبر الصحراء المقبلة وانما مجرد مشاريع موضعية لمواجهة احتمالات محلية .

* * *

وقد سار مشروع انشاء بحر داخلي في الصحراء ، جنباً الى جنب مع مشروع السكة الحديدية من ناحية الزمن والمسافات . فقد اكتشف في منتصف القرن الماضي تقريباً ان سطح « الشطوط » في القسم الشمالي الشرقي من الصحراء الجزائرية وفي الصحراء التونسية يقع تحت مستوى سطح البحر تقريباً . وقد أوحت هذه الحقيقة للرئيس (الكبتن) فرانسوا ردوير ، وكان آنذاك ضابطاً في الاركان العامة ، بفكرة انشاء « بحر داخلي صحراوي » . واقترح اختراق الجدار الصخري في قابس بشكل يسمح للبحر الابيض المتوسط بالانسياب الى داخل الصحراء . وقد نشأت فكرته من الافتراض بأن سلسلة الشطوط هذه وتمتد مائتين وخمسين ميلاً لابد وان تكون ناجمة عن منخفضات ، واعتقد بأن شق قناة لا يزيد طولها على العشرة اميال ، يؤدي الى الغاية المتوخاة . وابدى فرديناند دي ليسيبس ، الذي كان في الفترة التي انصرمت بين فتح قناة السويس في عام ١٨٦٩ وشق قناة بناما في عام ١٨٧٩ ، على استعداد للاهتمام بأي مشروع ، اهتماماً بمشروع رودير اكثر من اهتمامه بسكة حديد عبر ـ الصحراء . وادى اهتمامه بالطبع الى ان ينال المشروع الكثير من الدعاية والانتشار . وغدا موضوع بحر الصحراء الداخلي مدار الحديث في نوادي الصحراء . واستخدم الكاتب المعروف جول فير الفكرة في قصة « غزو البحار » .

وأقرت الجمعية الوطنية الفرنسية بالاجماع في عام ١٨٧٤ قرضاً لا بأس به للقيام بدراسة تفصيلية لمنطقة « الشطوط » . وباشر رودير في التنفيذ بين عامي ١٨٧٣ و ١٨٧٦ ، في اسوأ الاوضاع الممكنة واكتشف ان شط « ملغيغ » وشط « الحفنة » هما منخفضان فعلاً . أما « شط الجريد » الذي يقع قريباً الى البحر ، فيرتفع فوق سطحه . ولكن رودير لم ييأس . وأعاد النظر في مشروعه ، بحيث تمتد القناة الى الشمال من « شط الجريد » باتجاه المنخفضات . وكانت لا تزال مساحات كبيرة من الارض تقع تحت سطح البحر تكفي لخلق بحر سعته ثلاثة آلاف ميل مربع . ولكن الاضطرار الى حفر قناة تطول عشرة اضعاف عن القناة التي كانت مقترحة في الاصل ، قد اضعف من الحماس العام

للمشروع وان لم يخمده تماماً ، فهناك سابقة قناة السويس ، التي لا تنقص كثيراً عن القناة المقترحة ، والتي تم حفرها في اجواء مناخية مشابهة .

ولما كان روديير من ضباط الاركان ، فقد رأى ان حفر مثل هذه القناة المائية حتى بسكره ، سيسهل عملية نقل القوات الفرنسية الى جنوب الجزائر والى تونس ايضاً التي غدت تابعة لفرنسا بعد عام ١٨٨١ . ولكن حجته الرئيسية تستند الى الصحراء الخضراء . وكان يأمل في ان يؤدي انشاء البحر الداخلي الى رفع مستوى المياه الجوفية في المناطق الساحلية ، مما يؤدي الى أن تصبح مناطق قاحلة صالحة للزراعة . وكان يأمل ايضاً في ان يؤدي التبخر الى زيادة رطوبة الهواء ، مما يسقط الامطار ويخلق حاجزاً طبيعياً ضد جو الصحراء . وكانت مشاريع روديير وآراؤه تتعرض من الناحية العلمية لكثير من الاعتراضات التي لا عد لها ولا حصر . وقد حذر الخبراء في اكاديمية العلوم المسؤولين من اقحام انفسهم في مغامرة كهذه لا تعرف نتائجها ، لاسيما وان مستوى المياه في الشط لم يكن قد حدد بعد . واشاروا الى أن السراب وخداع النظر ، كثيراً ما يكونان في هذه المستنقعات ، اشياء مألوفة ، وان ادق المراقبين قد يخطىء حتى ولو كان على بعد ياردة او ياردتين . وفي وسع هذه الياردة أو الياردتين ، ان تخلقا كل فرق ممكن في حجم البحر الداخلي ، وفي مصير الواحات القريبة . واقر البرلمان في عام ١٨٧٨ مبالغ اخرى للقيام بدراسات جيولوجية جديدة تقرر ان يشترك فيها دي ليسيبس نفسه . وعهد في عام ١٨٨١ – ١٨٨٢ الى لجنة رسمية بدراسة التعقيدات المالية للمشروع . وتبين ان المشروع يقتضي رفع تراب وصخور تبلغ في زنتها ستة اضعاف ما رفع في عملية قناة السويس . وقدرت اللجنة التكاليف بنحو من (١,٣) مليار فرانك . وهو رقم ارعب وزير المالية . وقد تمكن روديير ودي ليسبس من جمع نحو من تسع هذا المبلغ . واذا قدر لهذا المشروع اخيراً ان يسقط من الحساب بعد موت روديير في عام ١٨٨٣ ، فالسبب في ذلك راجع الى المعارضة العنيفة التي أبداها احد الجيولوجيين المعروفين .

وقد اعتمد نجاح فكرة رودير على الافتراض بأن بحر الصحراء ، كان موجوداً فعلاً في عصور ما قبل التاريخ ، وكان يدعى « بحيرة ترايتون » التي تحدث القدامى من الكتاب عن شطئانها الخصبة المأهولة بالسكان . ولكن أ . بوميل كان احد العلماء القلائل الذين عارضوا بشدة وعنف نظرية البحر في العصر الجيولوجي الرباعي . وعندما تحدث هذا العالم لأول مرة في عام ١٨٧٢ ، لم يحمل الكثيرون أقواله على محمل الجد . ولكنه عندما تحدث للمرة الثانية بعد ثماني سنوات وكان قد قام بدراسة دقيقة للاوضاع الجيولوجية في خليج قابس ، كان شديداً في معارضته هذه المرة ، ولقيت آراؤه ترحيباً في الاوساط كلها مما اثار دهشة وزير المالية . وقد اثبت ان جدار قابس الصخري ، لا يمكن أن يكون تشكيلاً جيولوجياً جديداً ، مما ارغم دعاة فكرة بحر الصحراء ، على التخلي عن اقوى حججهم ، وهي انهم اقتبسوا مشروعهم من الطبيعة .

ومن سوء حظ بوميل ان افتراضاته كانت صحيحة ولكن النتائج التي توصل اليها كانت خاطئة . فالبحر الرباعي الجيولوجي الذي غدا موضع النقاش ، قد عاد الى الجريان . اذادت الحفريات التي قام بها رجال الزيت في عام ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ الى قيام الدليل على وجود حلقة ارتباط بين الشط وبين البحر الابيض المتوسط في العصر الجليدي . ولم تظهر هذه المرة قصة حاجز قابس الصخري ، بل ان شاطىء البحر المتوسط هو الذي هبط مسافة ثلاثين ياردة ، وتحولت بحيرة تريتون الى ارض « سبخه » ومستنقع مالح .

وليس من المستغرب ان يكون هذا الاكتشاف قد اثار من جديد الاهتمام ببحر الصحراء . واعلن في الجريدة الرسمية في حزيران عام ١٩٥٧ عن تأليف « جمعية الابحاث التقنية لدراسة البحر الصحراوي الداخلي » ــ أرتيميس . وظهر الكونت ايفيز ميشيل دي بيريدون فأحيا مشروع رودير ، الذي كان جده ميشيل باشا باني « الفنارات » السلطانية في الامبراطورية العثمانية قد ايده بالتعاون مع دي ليسبس وتمكنت جمعية الابحاث التقنية (ارتيميس) في عام ١٩٥٨ ، من ايصال وثيقة عن البحر الصحراوي الى الجنرال ديغول . وعلى

الرغم من هذه المحاولة التي جرت لأثارة الأهتمام في الدوائر العليا ، فان السلطات الفرنسية ظلت ملتزمة جانب الصمت . وتمكنت الجمعية اخيراً من الوصول الى نتائج واضحة في عام ١٩٥٩ ، ثم انتهت الى عالم التصفية . وحلت محلها مؤسسة للبحث العلمي ، التي يتولى النطق باسمها اتحاد التعدين الفرنسي (هيرسبنت) والتي تمكنت من متابعة الموضوع بالتعاون مع وزارة الاشغال العامة في الحكومة التونسية .

واذا ما حكمنا على الموضوع بالنسبة الى الوثيقة التي وضعتها ارتيميس ، فاننا نرى ان الخطة التي وضعها رودير قبل خمسة وسبعين عاماً ، لم تفقد شيئاً من طابعها الأصلي .

وكان رودير قد وضع خطته على اساس قناة عمقها خمس عشرة ياردة وعرضها ثلاثون ياردة . أما (ارتيميس) فقد اقترحت شيئاً اضخم ، اذ خططت لقناة يتراوح عمقها بين اربعمائة ياردة وسبعمائة ، ويكون اتساعها بين ميل ونصف وميلين وربع الميل ، مع اقامة سد ضخم في توزر على شط الجريد لتوليد الكهرباء . وأراد رودير أن تمتد قناته الى الشمال من شط الجريد أما جمعية الابحاث التقنية (ارتيميس) ، فقد أرادت ان تمتد قناتها الضخمة عبر المستنقع المالح الكبير . وكان رودير قد قدر ان الأعمال الانشائية ستستغرق خمس سنوات وان الانتهاء من اعداد البحر سيكون بعد تسع سنوات ، أما جمعية الابحاث ، فقد وعدت بانجاز الاعمال في غضون بضعة اشهر ، واعربت عن ثقتها بأن البحر الداخلي لن يكلف إلا جزءاً من تقديرات رودير .

فهل وجدت لجنة الابحاث (ارتيميس) بيضة كريستوفر كولمبس ؟ لا . انها لم تجدها . انها تركز آمالها على القنبلة الهيدروجينية . ففي وسع قنبلة واحدة ذات قوة عشرين (ميغاتوناً) ، اذ انفجرت على عمق (٢٥٠٠) قدم ، ان تعمل فجوة قطرها ميلان . واذا ما تم تفجير خمسين قنبلة من هذا النوع ، اما في وقت واحد او على فترات متقطعة ، بين الواحدة والاخرى بضع ثوان ، امكن حفر القناة من قابس الى شط الحفنة .

وترى لجنة الأبحاث ان من واجب شركات الزيت تأييد هذا المشروع تمام التأييد ، اذ في وسعها ان توفر عدة مئات من اميال الانابيب ومراكز الضخ الباهظة التكاليف ، اذا امكن نقل الزيت من حاسي مسعود وايجيلي بواسطة ناقلات النفط ، من شواطىء البحر الصحراوي . لكن رجال الزيت يرون في مشروع لجنة الابحاث (ارتيميس) ، مجرد اغراق في الخيال . فلم يرد في الاحصاءات أي ذكر لمنشئات الموانىء . ولا لجعل المنخفضات صالحة للملاحة إذ أن شط ملغيغ في اعمق نقاطه لا يعدو مائة وخمسين قدماً تحت سطح البحر . ولكن ما يثير رجال الزيت اكثر واكثر ، انه لم ينص في المشروع على موعد تنفيذه . فهم في عجلة من أمرهم ، والزمن يمثل المال لهم . ولم تذكر لجنة البحوث . المكان الذي ستستطيع شراء القنابل الهيدروجينية اللازمة منه .

* * *

وقد تمكن لويس كيرفران الذي اخرج مشروع رودير عام ١٩٥٣ من ملفات النسيان ، من ايجاد وسيلة لاصابة عصفورين بحجر واحد ، وهما سكة حديد عبر الصحراء ، والصحراء الخضراء . وقد نشر مشروعه في عام ١٩٥٨ . وينص هذا المشروع على تحويل المياه من نهر النيجر على مقربة من تمبكتو باتجاه الشمال الى المنطقة المحيطه بتاوُوديني . ويمكن تجزئة الماء هنا الى جزئين يتجه احدهما في عطفة واسعة الى صحراء موريتانيا ليصب في الاطلنطي على مقربة من نواق الشط (نواكشوت) . أما الجزء الثاني فيتجه شمالاً من تاوُوديني الى عين صلاح ومن هناك بالانابيب والاقنية الى قلعة فلاترز ، حيث يدخل وادي اغرغر المتحجر لينساب منه الى شط ملغيغ . ويعتقد كير فران ان هذا المشروع لا يحتاج الى الكثير من الحفريات . أما القوة المحركة الضرورية فيمكن الحصول عليها من الغاز الطبيعي في بيرقة .

ولم يسدل على مشروع كيرفران بعد ستار النسيان ، ولكن لابد بعد أن تتولى

عدة لجان دراسته ، بحماس وجد ، وسيلقى نفس المصير الذي لقيته المشاريع السابقة .

* * *

فهل يمكن ترويض الصحراء ؟

ان الرد على هذا السؤال يتوقف على الطاقة ، الرخيصة . فالافتقار الى الطاقة تعبير آخر عن الصحراء نفسها . ولا يتوقع انسان ان يجد الآن مخزونات ضخمة من الفحم في الصحراء . وقد تؤدي مخزونات الغاز الطبيعي الى الجنوب من عين صلاح في المستقبل البعيد الى اقامة مؤسسات صناعية ، لكن عامل المسافات البعيدة . وهو من اهم مظاهر الصحراء ، شيء لا يمكن التغلب عليه بسهولة . ومن هنا يكون البحث المحموم في البلاد الصحراوية عن مصادر الطاقة ، غير متأثر منذ البداية بتكاليف النقل العالية .

ولا تضيع رياح الصحراء القوية الدائمة عبثاً . وقد تعود أهل الصحراء منذ امد بعيد على محطات القوة المولدة التي تحركها الرياح . فطاحونة الهواء تحرك مولداً ، والمولد ينتج قوة كهربائية تكفي الضابط المنعزل الوحيد، لقراءة صحيفته التي مضى على صدورها نحو من شهر . على ضوئها الاحمر . وتجري الآن تجربة محركات هوائية اكبر حجماً . وقد قمت في اضرار بزيارة محطة كهربائية المانية الصنع ، تعمل على سبيل التجربة منذ عام ١٩٥٣ . وتتألف المحطة من طاحونة هوائية لها ثلاث دوّارات ريّاحة ، طول الواحدة منها خمسة وعشرون قدماً ، وتقوم على برج ارتفاعه خمسة وستون قدماً وتتصل مباشرة بمضخة . وعندما تكون سرعة الريح متراوحة بين اثنين وعشرين وخمسة وعشرين قدماً في الثانية ، يمكن اخراج مياه تكفي لسقاية مائتي فدان من الزراعات الخضراء في وسط الصحراء . ورأيت على تل « الرياح الكبيرة » قرب الجزائر ، آخر المبتكرات في المحركات الهوائية ، وهو مولد كهربائي صغير يعمل بقوة الريح ، وقد تم صنعه في انكلترا وفقاً للتصميم الذي وضعه اندرو المهندس

الفرنسي ، وهو رائع في قدرته على توليد الطاقة الكهربائية . والدوارتان. الرياحتان والبرج ، خاوية خالية . وعندما تدور الريّاحة ، تطرد الهواء من منافذ في أطرافها ، فتخلق فراغاً يجتذب الهواء من أسفل البرج ، ويؤدي التيار الهوائي الداخل الى تحريك اسطوانة متصلة بمولد تيار كهربائي قوته مائة كيلوواط ولا شك ان جهاز اندرو ، سيكون ذا اثر كبير وفعّال في مستقبل الصحراء .

وقد تكهن تقنيّ شاب تحدثت اليه، بأن الصحراء ستشهد إن عاجلاً وإن آجلاً اجهزة ضخمة من مولدات الطاقة الكهربائية بقوة الرياح . وقد عنى بكلمة « ضخمة » ، طواحين هوائية ، لها عجلات قطرها ثلاثمائة ياردة تنصب على روافع هائلة تشبه برج ايفل . ولكن الخبراء يشيرون الى ان العلماء ما زالوا يجهلون موجات الرياح الصحراوية وقوتها .

وما زال الصناعيون يتفننون يوماً بعد آخر في ابتكار المولدات الكهربائية بقوة الرياح . وقد غدت هذه المولدات تدور اوتوماتيكياً مع الرياح ، وفي وسعها ان تبدأ وان تكيف سرعتها وان تقف عند هبوب العواصف بصورة اوتوماتيكية رتيبة . وتصنع الدوّارات الرياحة من مواد مركبة تقويها انسجة زجاجية . وعلى الرغم من هذه الابتكارات الباهظة التكاليف ، فإن تكاليف الطاقة الكهربائية او الآلية التي تنتج عن الرياح . ما زالت صالحة من ناحية اقتصادية حتى للصحراء . والعيب الوحيد هو عدم الاتكال على انتظام الرياح ، اذ يكفي ان تتوقف مضخة تعمل بقوة الريح ، وتستخدم في الري ، عن العمل يوماً واحداً في فصل الصيف ، ليتعرض المحصول كله للخطر . ولكن من الأمور العسيرة مادياً ، من الناحية الثانية اقامة آلة تعمل بالاحتراق الذاتي ، لتكون احتياطاً في حالة الطوارىء . ومن هنا ينشأ تردد الخبراء في ان يكلوا مستقبل الصحراء الى الرياح .

ونصل الآن الى الشمس . فما موضوعها ؟

وقد لا يكون من المدهش ابداً ، ان يفغر أهل الصحراء أفواههم ذهولاً عندما يسمعون ، وهم الذين ضنت عليهم الطبيعة بكل شيء ، بما يمكن ان

ينطلق عن الشمس من طاقات مجانية لا تكلف شيئاً . فعلى مربع مساحته ستون ميلاً مربعاً في الصحراء ، تفجر الشمس كل عام طاقة تبلغ اربعين بليون كيلواط — ساعة ، وهو ما يعادل اربعين ضعفاً من انتاج العالم الحالي من الطاقة الكهربائية ، وخمسة اضعاف الطاقة الحرارية التي يمكن ان تنتجها مخزونات النفط المعروفة في الصحراء . ويمكن تحويل هذه المساحة الصحراوية التي تبلغ مليونين ونصف المليون من الافدنة ، على اساس الشحنات الكهربائية الشمسية الى مصنع ضخم للكهرباء ينتج تياراً سنوياً قوته اربعة بلايين كيلواط — ساعة . وانشاء هذه المحطة الكهربائية لا يعني أية مشاكل تقنية اساسية . ولكن تغطية هذه المنطقة بألواح السليكون الحساسة للضوء والمنتجة للكهرباء ، تكلف نفقات خرافية . واصطياد اشعة الشمس واستخدامها أمران باهظا التكاليف ، وتزداد هذه التكاليف اتساعاً ، اذا لم يكن من المتوقع منها ان تنجح .

وقال لي فريدال جوستون — كومات ، وهو عالم طبيعي شاب قابلته في « بوزرعيه » ان « قضية التكاليف المخيفة ، تختلف من مكان الى آخر . فالياردة المربعة من الارض في أواسط الصحراء تتعرض لطاقة شمسية تبلغ ثلاثة أضعاف الطاقة التي تتعرض لها نفس المساحة في زوريخ مثلاً . ولكن الفحم والزيت في زوريخ ارخص منهما في الصحراء . وبعبارة اخرى فان أي ابتكار لتجميع الطاقة الشمسية سيؤدي الى احتمالات اقتصادية اعظم في الصحراء ، حيث يمكن ان يحسب حساب اربعة آلاف ساعة من الشمس المشرقة من الاحتمالات في زوريخ » .

وبوزرعية هي « مشّمس » الجزائر ، أما فريدال جوستون — كومات فهو مدير اكبر فرن شمسي في العالم . وتقوم مرايا الالومنيوم المائة والاثنتان والعشرون في عاكسها السلجمي ذي القطع المكافىء ، الذي يبلغ قطره سبعة وعشرين قدماً ، بتركيز اشعة الشمس في دائرة قطرها بوصتان ونصف البوصة و درجة حرارة ثلاثة آلاف . وقد قامت « منظمة البحث العلمي لاستخدام الطاقة الشمسية في الجزائر » — اريزا — التي تتولى تشغيل هذا الجهاز الباهظ التكاليف ،

باستخدام القسم ما وراء البنفسجي من الطيف الشمسي ، في تجاربها ، ولكن الفرن الشمسي تمكن حتى في هذا الحقل المحدود من توليد كيلواط واحد ، يعتبر بالنسبة الى التجارب الضوكيمائية ، منبعاً قوياً الى حد الاذهال للطاقة فوق البنفسجية .

وتتصل تجارب جوستون – كومات في البوزرعيه اتصالاً غير مباشر بعمليات تطوير الصحراء . ففي الامكان استخدام هذه الطاقة فوق البنفسجية في المستقبل في صناعات الصحراء لتصديع الهايدروكربونات ، ولتحطيم الغاز « المبلول » في حاسي الرمل وتحويله الى بنزين واسيتين وغيرهما من المنتجات الاخرى . وستتمكن الأفران الشمسية في مراكز تكرير المعادن الخام من صهر هذه المعادن . أما في المناطق الزراعية ، فسيكون في وسعها تحويل الآزوت (النيتروجين) والاوكسجين الموجودين في الهواء الى اسمدة آزوتية .

لكن استخدام الطاقة الشمسية بصورة فورية سيكون في المنازل قبل أن يكون في الصناعة . وتهتم منظمة البحث العلمي لاستخدام الطاقة الشمسية (اريزا) ، في خلق البيت الصحراوي المثالي ، الذي تبرده الشمس في الصيف وتدفئه في الشتاء . وفي الامكان الحصول على مياه الشرب ومياه الطبخ والحمام الباردة منها والحارة حسب المطلوب من اجهزة التقطير الشمسية التي توضع على سقوف المنازل ، وهي سقوف تغطيها قباب ، لأنها الطراز الطبيعي لسقوف المنازل في الصحراء ، ذلك لأن حرارة الشمس لا تتمكن من التركيز إلا على نقطة واحدة فيها في أي وقت معين .

وبالاضافة الى هذه المنظمة ، فقد قامت جماعة دراسية اخرى متفرعة عن مكتب الصناعات الافريقية تدعى « جمعية الدراسات والتطبيقات الصناعية للطاقة الشمسية » – اينرسول – بابحاث واسعة النطاق في هذا الميدان ، ولا سيما في التطوير المحتمل ، لجهاز امريكي مصغ لتوليد الطاقة الشمسية . فأشعة الشمس تقوم بتسخين بطارية شاحنة ، وتقوم وحدات حرارية بتحويل الحرارة الى تيار كهربائي . وقد اثبتت جمعية الدراسات هذه (اينرسول) ،

انه عن طريق طاقة تتراوح بين عشرة واطات وعشرة كيلواطات . يمكن لمحطة مولدة من هذا النوع في الصحراء ان تنافس مولداً عادياً له نفس القوة . ويعمل بالزيت أو بالبنزين . ويقول لويس ارمان ، وهو الرئيس السابق للجنة الطاقة الذرية الاوروبية ، ومن المعروفين بذكائهم وبعد نظرهم ، ان مرحلة التجارب في المختبرات وفي المصانع الصغيرة يجب ان تنتهي في غضون خمسة وعشرين عاماً ، يبدأ بعدها استخدام الطاقة الشمسية على نطاق واسع .

ولا يمكن إيفاء هذا الموضوع المتعلق بالشمس والرياح كمصدرين من مصادر الطاقة حقه ، دون الاشارة الى الذرة . ولما كان الغرام الواحد من الاورانيوم يحتوي على نفس القيمة الحرارية التي تحويها عشرة اطنان من الفحم ، فان مشكلة تكاليف النقل لم تعد ذات بال . ولا ريب في أن مصانع صغيرة لانتاج الطاقة الذرية ، ستلعب دوراً هاماً في الصحراء . لكن الطاقة الذرية ، لا يمكن ان تبرهن على انها المصدر الرخيص للطاقة التي ستحتاج اليها الصحراء لعمليات تطويرها الطويلة الامد . ويبدو ان القنبلة الذرية ستكون في الحقبة القادمة اكثر اهمية للصحراء من العاكس الذري .

والصحراء هي ارض الميعاد بالنسبة الى الاغراض السلمية من التفجيرات الذرية . ولم يكن من المعروف منذ امد ما ، متى ستفجر فرنسا اول قنبلة ذرية لها في ريغان . وان كانت الخطط للتفجيرات الذرية قد وضعت منذ امد بعيد . (فجرّت فرنسا في الصحراء حتى الآن اكثر من قنبلة ذرية واحدة ـ المعرب) . ومن المقرر ان يتم في عام ١٩٦٥ خلق ميناء على ساحل المغرب الاطلنطي بالطرق الذرية ، لنقل خامات تندوف المعدنية الى الخارج . ومن المنتظر استخدام التفجيرات الذرية لاعادة النشاط الى حقول الزيت في ايجيلي وحاسي مسعود ، في حالة اقترابهما من درجة النضوب . ولا ريب في أن استخدام الطاقة الذرية في مشاريع المياه في الصحراء ، أمر يدعو الى الأمل المشرق .

واعرب الصحفي الفرنسي كميل روجيرون ، الذي نال شهرة عالمية داوية في عام ١٩٥٦ بكتابه الذي أصدره عن استخدام الطاقة الذرية في الاغراض

السلمية ، عن آماله في أن تؤدي التفجيرات الذرية والهيدروجينية التي قامت بها امريكا في باطن الارض عام ١٩٥٧ ، الى فرص جديدة وغير منتظرة لمشاريع المياه في الصحراء .

وكان علماء القوى المائية يظهرون منذ امد بعيد اهتماماً ملحوظاً بوديان الصحراء ، التي تحمل المياه بصورة منتظمة من جبال الاطلس الى الصحراء . وادى اهتمامهم الى قيام سد فم الغرزة والى مشروع خزان جرف التربة . وعمل الخبراء رغبة منهم في الحصول على مستوى ثابت من الماء طيلة أيام السنة ، على انفاق مبالغ اضخم من المال ، وتعريض انفسهم لا للخسارة البالغة عن طريق التبخر فحسب، بل لتزايد الاملاح في المياه ايضاً الى درجة الخطورة. وقد درست امكانية سدود في داخل الصحراء ووسطها . وفي الامكان اقامة سدود في بعض وديان الصحراء الجافة في المناطق الجبلية في التيبستي وعئير والهجر ، لاستخدامها كخزانات نافعة لجمع مياه الفيضانات . ولكن جميع هذه المشاريع التي هي من هذا النوع قد اصطدمت بالتكاليف الباهظة وبالنسبة العالية في التبخر في الصحراء .

وقد اكتشفت طرق ووسائل عدة في الآونة الاخيرة لمواجهة مشكلة التبخر والتغلب عليها . ففي الامكان تغطية سطح الخزان ، بغشاوة واقية من المواد الكيمائية. وقد تم حتى الآن تجربة عدد من المواد الكيمائية وبينها الهيكساديكانول التي تشبه الشمع ، والتي برهنت على نجاحها التام . وتحول هذه المادة بين الماء وبين الهواء بطبقة لا يزيد سمكها على سمك الجزيء ، وتمتاز بالمناعة ضد الامطار والغبار والأمواج وحتى حركات الزوارق . وهي مادة رخيصة للغاية ، فالرطل منها لا يزيد ثمنه على بضعة شلنات ويستطيع ان يقلل نسبة التبخر بمعدل النصف من سطح مائي يتسع عشرة افدنة .

وقد تصبح مادة الهيكساديكانول ، والسدود في بعض الحالات ، اموراً لا ضرورة لها . ففي وسع تفجير ذري يقع في قعر بئر عميق ان يخلق الخزان اللازم في باطن الأرض . وفي الامكان حساب العمق حساباً دقيقاً بحيث لا

تنطلق المياه من قوة الانفجار . ولا يمكن رؤية الاخدود من الصخور التي انطلقت من مكانها بفعل الانفجار الدوثروي ، على سطح الارض إلا على شكل تورم ضخم . وقد اقترح روجيرون ، الاستعاضة عن مشروع خزان جرف التربة ، بتفجير قنبلة ذرية زنتها « ميغاتونان » وفي الامكان وضع هذه القنبلة على عمق ثلاثة آلاف قدم تحت الجانب الشرقي من الصفوف الصخرية التي تقرر بناء الخزان فوقها . وهو يعتقد ان هذا التفجير سيخلق اسفنجة صخرية ضخمة ، تقوم مقام الخزان . وليست جرف التربة إلا مكاناً واحداً من امكنة عدة ، يمكن تطبيق هذا الأسلوب فيها . وفي وسع التفجيرات الذرية ان تحدث اسفنجات – صخرية في داخل الصحراء . فالتشكيلات التي لا مسام فيها ، والتي تتبخر من فوقها مياه الامطار المتساقطة الثمينة والفيضانات بدلاً من ان تمتصها ، يمكن تحطيمها بالتفجيرات الذرية ، بينما يمكن جعل المناطق التي تتغذى فيها الآلات المائية المهمة على المياه السطحية ، اكثر استعداداً لقبول نفاذ الماء منها . وعلى الرغم من ان التجارب التي اجريت في هذا الصدد ما زالت محدودة حتى الآن إلا انها اثبتت ان تلويث المياه بالاشعاعات الذرية ، لن يؤلف خطراً شديداً ، لا سيما اذا استخدمت أنواع « نظيفة » من القنابل . فالذرات الاشعاعية تحترق تحت ضغط الصخور الذائبة والمتبخرة ، التي تكوّن فوقها طبقة عازلة قوية .

وهذا ليس كل شيء على كل حال . ففي وسع القنابل ان تضاعف من كميات المياه التي تدفع بها الآبار . ولا ريب في ان روجيرون عندما يقول هذا القول ، يفكر ببحر سافورنين . ففي وسع تفجيرات صغيرة لا تعدو حدود بضع كيلوتونات ، ان تزيد في نتاج الابار الارتوازية القائمة ، ما دام ان الانابيب لا تحدد هذا النتاج ، ولعل من ابرز الامثلة على ذلك ، البئر الارتوازية في سيدي خالد ، حيث يسحب الماء من اعماق بعيدة جداً ، بينما لا يبلغ النتاج نصف ما يستخرج من النهر الجوفي (الالب) في ورغلة ، وثلث ما يستخرج من زلفانة رقم (٢)

أما قضية توافر القنابل ، مع القوة التفجيرية اللازمة التي يمكن ادخالها في ثقب بئر فقضية اخرى . ولا يمكن تطبيق هذا الاعتراض على كل حال على الآبار الجديدة التي تم حفرها بواسطة الاستعانة بالتفجيرات الذرية . فهذه الآبار تنتج مائتي غالون او يزيد في الثانية . وفي وسع أي منها ان يكون مصدراً مهماً من مصادر القوة الميكانيكية . وفي وسع ضغط الماء في زلفانة ادارة محرك ذي مولد كهربائي. ومن الحق ان يقال ان تكاليف انشاء مثل هذا المشروع ، والحفاظ عليه، عالية وباهظة ، ولكن اذا بلغ الانتاج مائتي غالون في الثانية فان تكاليف القوة الكهربائية ستنخفض الى حد بعيد .

ويمضي روجرتون الى ابعد من هذا . فهو يقول انه كلما كانت البئر اكثر عمقاً ، كلما كانت مياهها اكثر حرارة . فالبئر التي تبلغ في عمقها خمسة عشر الف قدم ، تنتج نظرياً نبع ماء ساخن ارتفاع اندفاع الماء فيه الفا قدم ، ودرجة حرارته ثلاثمائة فهرنهايتيه . واذا ما تم تبريد الهواء ، ونشيء مصنع كهربائي ، فان القوة المولدة ستكون كافية لادارة مولد كهربائي قوته مائتا الف كيلو واط ، ولري خمسة وعشرين الف فدان من الارض .

ولا تقلل من اهمية افكار روجيرون ، الحقيقة الواقعة وهي انه ميال في الغالب الى الاغراق في الخيال . ولا ينتظر استخدام التفجيرات الذرية في الآبار الجوفية، لأن انتاجها الحالي من الماء يعتبر كافياً بصورة عامة . ولكن في الامكان استعمالها بصورة فعّالة في التشكيلات الجيولوجية التي تحمل الماء والتي تم حفرها بالطرق والاساليب القديمة ، ولذا فهي لا تنتج كميات كافية من الماء تدعو الى الحفر العميق . ولعل أحسن مثال على ذلك طبقة الصخور الرملية في تاسيلي التي تضم حتماً مخزونات كبيرة من الماء ، ولكنها لا تعطي من الماء اكثر من غالونين وربع الغالون في الدقيقة . ومن المحتمل ان يؤدي تفجير ذري واحد الى مضاعفة هذا الرقم مائة مرة على الأقل او الف مرة على الاكثر .

وعلى الرغم من كل هذا الذي قيل ، وعلى الرغم مما قد تأتي به التفجيرات الذرية من نتائج هي معجزة في حد ذاتها ، فلن يكون في الامكان قط ،

استخلاص كميات من الماء من الارض اكثر من تلك الموجودة فيها حالياً او التي تذهب اليها . وعلى هذا ففي وسع الانسان ان يفهم النتيجة المتحفظة التي توصل اليها في دراسة مشتركة كل من عالم الارصاد الجوية جان دوبييف وعالم مياه الطبقات الارضية اندريه كورنيه عندما قالا : « ان الاوضاع الحالية قابلة للتحسين ، ولكن ليس في وسع الانسان ان يأمل في تبديل الصحراء تبديلاً جذرياً . فاذا الصقت بعض أوراق الزينة على جدار غرفة عارية ، امكنك ان ترسم صورة للمناطق المزروعة في الصحراء. أما اذا اضفت خمس عشرة ورقة اخرى او عشرين على الجدار العاري ، فستتكون لديك فكرة عما يمكن ان يؤدي اليه الاستغلال المطلق لجميع موارد المياه في الصحراء . فهناك لا تزال مساحات شاسعة من الصحراء » .

ومع ذلك فقد قابلت رجالاً في الصحراء ، على الرغم من تأييدهم لهذه النظرية ، ما زالوا يأملون في أن يحل اليوم الذي تظهر فيه أوراق اخرى اكثر واكثر على الجدار .

واستخدام مياه البحر في ري الصحراء حلم قديم ، لم يتحقق منه شيء بعد بالنظر الى تكاليف التقطير الهائلة ، ونقل الماء العذب الى الصحراء . وتوحي اساليب التقطير الجديدة للمياه المالحة والاجاج ، والتي انتهت تجربتها بنجاح في كثير من البلاد في السنوات الاخيرة وفي مقدمتها الولايات المتحدة ، وصمدت أمام الاختبارات الصناعية بالأمل في حلول اليوم الذي سيصبح في امكان البحر فيه ان يؤمن المياه العذبة بتكاليف طفيفة . واذا ما استخدمنا التعابير الكيمائية المجردة ، قلنا ان المياه المالحة هي نتيجة نظام بسيط من ذوبان املاح غير عضوية في الماء . ولما كان هذا النظام ثابتاً فانه يتطلب انفاقاً ضخماً نسبياً من الطاقة لعزل المركبات عن بعضها وفصلها . وقد غدا التقطير عملية مقبولة ومعروفة ، أما التقطير على نطاق واسع عن طريق التبخر فما زال شيئاً مستحدثاً . وقد اقيمت معامل لتقطير المياه في مدينة الزيت في الكويت على الخليج العربي تنتج اكثر من خمسة ملايين غالون من المياه العذبة في

اليوم من مياه البحر ، ويجري الآن بناء مصنع آخر لانتاج ثلاثة ملايين غالون جديدة . لكن الكويت فريدة في وضعها ، فالقوة اللازمة للتقطير وأعني بها الغاز الطبيعي ، بلا ثمن اذ انها تنطلق من الزيت المحروق ، وكان على البواخر من ناقلات الماء ان تمضي للحصول عليه من البصرة في العراق بتكاليف باهظة . وبالطبع لن تكلف الطاقة الشمسية كثيراً ، ولن تكون مقتصرة على مناطق الزيت . ولذا فان انشاء مصنع لتقطير المياه باستخدام الطاقة الشمسية أمر عملي تماماً . وفي الامكان تبخير المياه المالحة في مكان حار تحت اشعة الشمس ، ثم يكثّف البخار على الزجاج ، وتنساب قطرات المياه الى صهاريج الخزين . ومع ذلك يبدو ان التكاليف الضخمة للتقطير الصناعي الشمسي ما زالت عالية .

وقد جربت عمليات اخرى في الآونة الاخيرة ، اعتبرت ثورية في جدتها ، وباعثة للآمال المشرقة . وتستخدم احدى هذه العمليات اغشية مختارة . ويتألف المصنع من سلسلة من الخلايا التي تفصل الاغشية احداها عن الاخرى . وتحمل هذه الاغشية الدوالف (الايونات) الكهربائية من موجبة وسالبة على التعاقب . وعندما يمر تيار كهربائي، يستخلص الملح من احدى الخلايا ويمر الى الخلية المجاورة . وهذه الطريقة مجدية وفعّالة مع الماء الاجاج بصورة خاصة . وهناك طرق كيمائية اخرى ، منها استخدام طاقة بعض السوائل على امتصا ص كميات ضخمة من الماء في درجة حرارة معينة ، ثم افراز هذه المياه في درجة حرارة ثانية .

لكن ري الصحراء بمياه البحر يحتاج الى اكثر من اجراء واحد من هذا النوع . فعندما يتم انتاج الماء العذب يجب نقله الى الاماكن التي تحتاج اليه . وستكون أطراف الصحراء على الغالب الهدف الأول ، ولكن ضخ المياه العذبة حتى الى مسافات قصيرة مشروع يكلف كثيراً . وقد تستمر الحالة على هذا الشكل بعض الوقت . أما في المستقبل البعيد ، فإن الراكس الاشعاعي ، الذي ينتج الطاقة الشمسية عن طريق الاشعاعات الذرية النووية ، قد يغدو مصدراً

رخيصاً من مصادر القوة . وكتب لي ام. ال. اي او ليفانت ، وهو عالم طبيعي في شؤون الذرة ويمتاز بواقعيته من استراليا يقول : « يطيب لي ان اتصور محطات للقوة النووية الحرارية مقامة على الشواطىء ، لتتولى تقطير مياه البحار وضخها بعد ان تصبح عذبة الى المناطق الداخلية للقيام بالاغراض الزراعية والصناعية والبيتية . وستستمد هذه المحطات في الوقت نفسه وقود الدوتريوم اللازم لتشغيلها من المياه المالحة ، وتنتج عمليات التقطير الواسعة النطاق كميات ضخمة من الاملاح يمكن لأية مصانع كيمائية تنشأ خصيصاً ، وتستخدم طاقات متوافرة ، ان تحولها الى اسمدة والى منتجات ثمينة اخرى . وتقوم الاسلاك الطويلة بنقل الكهرباء الى الداخل . بينما يتمتع مستهلكو المياه بتكييف الهواء وغير ذلك من متع الحضارة . وآنذاك يمكن ان تقوم المناجم ومصانع تنقية الخامات المعدنية في المناطق التي تعتبر اليوم غير صالحة من الناحية الاقتصادية لاعمال التعدين » . ولا ريب في أن الاستاذ اوليفانت يدرك تمام الادراك بأنه يكتب صكاً على بياض بالنسبة الى المستقبل ، ولكنه مقتنع ايضاً انه بالنسبة الى مستقبل الصحارى فان استخدام القوة النووية الحرارية ليست مجرد حلم « ابيض » .

وما زالت قضية انتاج المطر الصناعي تشغل العلماء في العالم القديم . أما في العالم الجديد ، من الناحية الاخرى ، فان احتمالات زيادة مناسيب الامطار صناعياً وبصورة فعّالة ، غدت امراً مقرراً لا يتطرق اليه الشك . ولقد قامت اللجنة الاستشارية للسيطرة على الطقس ، والتي ألفتها الحكومة الامريكية بدراسات استغرقت ثلاث سنوات ، ثم نشرت نتائج دراساتها في كانون الثاني عام ١٩٥٧ ، وكانت هذه النتائج مشجعة تمام التشجيع .

وتحاول منظمة تطوير الاساليب التقنيّة للمطر الصناعي (سوديتيب) تحت إشراف مكتب الصناعات الافريقية حل مشكلة المطر الصناعي في الصحراء وكانت هذه المنظمة ، هي المؤسسة الفرنسية الرسمية الوحيدة التي انضمت اليها مراكش وتونس . وقد كان من حسن حظ هذه المنظمة انها افادت من التجارب

الفنية التي قامت بها شركة تطوير موارد المياه الامريكية ، والتي انهت في عام ١٩٥٧ دراساتها في خمس عشرة بالمائة من مجموع الاراضي المزروعة في الولايات المتحدة .

ولم تكن الصحراء بالطبع المكان النموذجي الذي يصلح لاجراء اولى التجارب في الشمال الافريقي . فخير حليف لصانع المطر ، هو الطقس السيىء ، وهذا امر نادر في الصحراء . يضاف الى هذا ان أية زيادة في الوقت الحاضر في منسوب الأمطار لن يفيد إلا عدداً قليلاً من البدو والماشية والابل . وهذا هو السبب الذي حمل منظمة تطوير الاساليب التقنية (سوديتيب) الى اختيار الف وثلاثمائة ميل مربع من منطقة «تيارات» والفين وخمسمائة ميل مربع من منطقة سطيف في اعالي الهضبة الجزائرية . ويهتم المستوطنون الفرنسيون في المنطقتين بزيادة الامطار ولا سيما في الربيع ، لمزروعاتهم الشتوية كالحنطة والشعير . فكل سنتمتر اضافي من المطر يسقط في الربيع ، وفي زخة واحدة ، يعني زيادة اضافية في المحصول .

وشرح لي شارل ديتريل ، السويسري الذي يتولى ادارة التجربة ، في مركز عمله ، ان فصل الربيع هو خير الفصول « للسحب الدافئة » ، أي لنوع الطقس الذي يحتاج اليه صانعو الامطار . ويتابع ديتريل وموظفوه من رجال الارصاد الجوية ، أحوال الطقس العامة ، ولاسيما في المنطقة التي يعملون فيها ليلاً ونهاراً . وعندما تقترب « سحابة ساخنة » من احدى مناطق العمل ، يأمر ديتريل الوحدة اللازمة بالعمل فوراً . وتتألف كل وحدة من موقد ووقاد . وكانت هناك خمس وعشرون وحدة من هذا النوع في عام ١٩٥٩ في قطاع سطيف وثماني عشرة في قطاع « تيارات » . ويجري تسخين الموقد بالفحم الحجري المسقي بالايوديد . وعندما تصل درجة حرارة الموقد الى الالف والخمسمائة ، يتبخر ايوديد الفضة ، وينطلق من الموقد ، ويتبلور في الهواء الخارجي البارد . وليس لهذه البلورات الايوديدية أي وزن . ويطلق الموقد الذي يدعوه صانعو المطر مولداً عشر بلورات في الدقيقة من التي لا وزن لها ..

وتحمل الرياح أو التيارات الصاعدة هذه البلورات الى السحب الحاملة للرطوبة ، حيث يأمل صانع المطر ، ان تثير التكاليف وتنتج قطرات المطر . وحتى لو وصل جزء ضئيل من البلورات الى المكان الذي يقصده ، وقام جزء ضئيل من هذا الجزء بتكوين قطرات المطر ، فإن النتيجة تكون في كميات محترمة من المطر . وهذه الطريقة المعينة هي ارخص الابتكارات المعروفة في صناعة المطر .

وقد بدأت تجربة « تيارات – سطيف » في نهاية عام ١٩٥٧ ، ولم تقم جبهة التحرير الوطني الجزائري حتى الآن بتدميرها . ولا ينتظر الحصول على نتائج محدودة كل بضع سنوات ، اذ يجب ان تنقضي سنوات عدة قبل الحصول على المطر الصناعي بصورة تفوق حدود مجرد الصدف العادية . ولكن الهيئتين اللتين تتوليان تجارب المطر وهما منظمة تطوير الاساليب التقنية (سوديتيب) وشركة تطوير موارد المياه الامريكية ، متفائلتان كل التفاؤل من النتيجة . وقد تمكنتا في عام ١٩٥٧ بالتعاون مع « منظمة المطر الصناعي في الجزائر » ، من اقامة اثني عشر خزاناً اضافياً للترسيب في جبال الهجر ، كما انشأتا خمس محطات جديدة لمراقبة الطقس . واشتملت هذه المحطات على اجهزة لقياس اشعة الشمس ورادار للطقس ذي موجة ٣,٥ سنتمرات . وقد حددت سوديتيب منطقة جبال الهجر ، كمنطقة التجارب الأولى في الصحراء بالنظر الى تكون السحب فيها دون ان يتساقط المطر منها .

وكان أي احتمال بتطوير الزراعة الى عهد قريب في الصحراء ، أمراً مستبعداً بسبب الافتقار الى الماء ، وبسبب ندرة الارض المزروعة . وكان من غير المعقول من الناحية الحسابية ان تتوافر الارض المروية في هذه الآفاق الواسعة من الصحراء ، في الاماكن التي توجد فيها المياه ، ولكن العلماء ، ينظرون الى هذه المشكلة اليوم ، على ضوء اكثر فائدة ونفعاً .

فهناك أولاً الاكتشاف المثير الذي ظهر اخيراً ، والذي يشير الى وجود تربة متحجرة تحت معظم العروق الصحراوية في هذه الفيافي المستوية الى الحد الذي يتيح لكل حصوة ان تحدث ظلاً على الارض . ويقال ان تراث الفترة

الممطرة الصحراوية قد احتفظ به تحت قشرة ماحلة من التراب والحصى . وستكشف الأيام ان هذه القشرة لن تكون اقل قيمة من الزيت والغاز الموجودين في بطن الصحراء . ولعلها فكرة رائعة ان يقال بأن تربة خصبة توجد تحت « ارض المخاوف » التي هي رمز الصحراء القاحلة ، وان هذه التربة تنتظر من يزرعها ، وان صحراء تنزروفت التي يستسلم فيها حتى الطارقي للموت عندما يتوه عن قافلته ، ستغدو فردوساً اذا توافر الماء لها .

وهناك سبب آخر يدعو الى الأمل من جديد ، وهو ان اساليب الزراعة المائية ، التي كان العلماء يجرون تجاربهم عليها في جميع البلاد الصحراوية قد اثبتت نجاحاً منقطع النظير ، فهناك نباتات تنمو في الصفائح ، وتتغذى على المركبات الكيمائية أو على التراب والرمال التي اضيفت اليها بعض الاغذية اللازمة للنبات . وتشير آخر البحوث العلمية الى ان الطريقة التقليدية للزراعة في الواحات كما في منطقة الريغ مثلاً لا تعدو ان تكون فلاحة من هذا النوع ، فالرمل يمسك بالجذور ، والماء الذي يضم الاملاح المعدنية الرئيسية وبعض العناصر الذائبة هو الغذاء الطبيعي . والفلاحة الكيمائية التي يقوم الاستاذ شوارد من جامعة السوربون باجراء التجارب عليها في محطة البحوث الصحراوية في بني العباس ، توصلت الى نتائج لا يمكن الحصول عليها في اكثر الاراضي الترابية خصوبة .

والهدف الفوري للاستاذ شوارد . هو خلق حوافز جديدة في زراعة الواحات . وهو يحس بشوكة في جسده من الشذوذ الاقتصادي القائم في ارسال الخضار الطازجة والفواكه بالطائرات من فرنسا وافريقيا الشمالية الى مخيمات الزيت في الصحراء . وهو يود ان يرى استخدام احدث الاساليب كجزء من خطة عامة ، لفتح مصادر المياه المعروفة والبحث عن موارد جوفية جديدة ، وتوسيع مساحة الاراضي المزروعة وتحسين الاساليب التقليدية في الزراعة . ولا ارى فائدة من القول في ان كل هذه الأمور لن تؤدي الى اخصاب مساحات كبيرة من الارض ، وستظل الزراعة محصورة في المستقبل القريب في الواحات ،

وان كان هذا الحصر لا يعني ان في الامكان زيادة المحصول زيادة كبيرة .

ويرى الاستاذ شوارد ان برنامج التوسع هذا يجب ان يسير جنباً الى جنب مع البحث العلمي المتزايد ، الذي يستهدف قبل كل شيء اكتشاف الطرق والاساليب لاستخدام المياه المتوافرة بصورة اقتصادية نافعة . ويعتقد الاستاذ ان الاساليب البدائية الراهنة في الزراعة ، يمكن تحسينها في وقت قصير بصورة تكفي لخفض استهلاك المياه الى الثلث تقريباً .

وهناك طريقة واضحة لتوفير المياه ، وهي خفض الخسارة عن طريق التبخر . وللطريقة الشائعة في الري اثر في اشباع الطبقة السطحية في التربة . ولكنها تعني في الوقت نفسه ، ان يجف انش او انشان من التربة الواقعة تحت السطح ، عن طريق التبخر . ويرى الاستاذ شوارد ان الحل يقوم في الري الجوفي ، الذي جربه بنجاح في بني العباس . ويمر الماء في انابيب تحت الارض ، وقد ثقب الطرف الاسفل منها ثقوباً صغيرة تتسرب منها المياه فتمضي مباشرة الى جذور النباتات .

ولعل من المهم بالطبع اختيار اكثر ما يمكن من الفصائل النباتية التي تلائم طبيعة الصحراء والتي لا تنفق المياه لا عن طريق التبخر ولا عن طريق العرق . ومن هذه النباتات مثلاً (الكلوريلا) وهي من فصيلة الطحالب الصحراوية الخضراء . ولا يستهدف النباتيون ان يستخدموا الكلوريلا في طعامهم ، وانما يستهدفون منها ان تكون علفاً صالحاً للحيوانات ، كما قد يمكن مزجها مع الدقيق في الطبخ . وقد ثبت ان لهذه الفصيلة قيمة غذائية كبيرة . واذا ما تجزأت خلايا الطحالب بسرعة معقولة ، فان النتيجة تسفر عن اربعين في المائة من بياض البيض وعشرين في المائة من الشحم والمواد الدهنية وثلاثين في المائة من السكر والمواد النشوية والسيلولوز وعشرة في المائة من الاملاح المعدنية ويحتوي رطلان وربع الرطل من هذه المادة المجففة على (٥٣٠٠) سعر حراري (كالوري) . وبياض البيض الذي يهم العلماء بصورة خاصة ، نقي تمام النقاء كالآح (بياض البيض) أو كالحليب ، أو كأنقى البروتينات الحيوانية .

وتحتوي الكلوريلا ايضاً على ميزة اخرى تجعلها صالحة للزراعة الكثيفة في للصحراء . ولا يذهب الماء الذي لا تحتاج اليه الى الهواء بل الى العصائر الغذائية التي تحيط بها . وهي تحتاج فقط الى كمية صغيرة جداً من الماء اللازم للنمو الطبيعي . وقد تكون هذه الفصيلة النباتية مرشحاً نموذجياً للزراعات المائية الصناعية في الصحراء ، هذا اذا لم يتبخر الماء من الصفيحة المكشوفة . أما اذا زرعت الكلوريلا في صفائح مغطاة بالزجاج ، فان الداخل تشتد حرارته ، وتتوقف الخلايا الطحلبية وهي شديدة الحساسية للحرارة عن التجزؤ والتفسخ . وقد يكون في الامكان تخفيض التبخر ، عن طريق « رش » السطح بغشاء واق ، دون ازعاج نمو الكلوريلا وتوالدها . ولم تجر محاولة من هذا النوع ، حتى الآن ، طبقاً لمعلوماتي . وقد لفت الاستاذ شوارد من الناحية الاخرى اهتمام علماء توالد النبات الى خطة ترمي الى تنمية فصائل منيعة ضد الحرارة من الطحالب ، تستطيع احتمال درجات عالية قد تبلغ المائة والاربعين درجة فهرنهايتية . وقد يكون من الافضل ايضاً ، بالطبع اذا عني بطحالب منيعة ضد الحرارة والمياه المالحة بحيث يمكن استخدام الماء الاجاج أو حتى ماء البحر . وقد تكون هذه الفكرة خيالية يوتوبية ، ولكن اذا عدنا بخيالنا الى ما قبل عشرين عاماً ، رأينا ان زراعة الكلوريلا على نطاق واسع وباسعار تنافس المنتجات الزراعية الاخرى ، كان امراً خيالياً يوتوبياً ايضاً . ولكن هذا الخيال غدا واقعاً الآن ، واخذ يكتسب اهمية متزايدة في بلد مكتظ بالسكان كاليابان مثلاً .

* * *

وما زال أي أمل في تحويل الصحراء خارج حدود الواحات حتى الآن الى جنة من الجنات ، حلماً من الاحلام . ولكن الاحلام والخيالات شيئان مختلفان تمام الاختلاف . والاثرياء وحدهم هم الذين يستطيعون الهزء بالاحلام دون ان يحاولوا حتى تحقيقها . أما الفقراء فليسوا في ذلك الوضع ابداً . ونحن ما زلنا نعيش على قانون الفائض لأننا لا نفكر تفكيراً عالمياً . وتعزز هذه النظرة المحدودة

الى الحياة باقتصاد عالمي ، هو في الحقيقة ليس عالمياً ، وإنما هو اقتصاد مقتصر على المحظوظين . ولكي يدرك الانسان هذه النظرة الشاملة ، عليه أن يتصور النتاج العالمي وقد توزع بصورة عادلة على جميع سكان العالم وقد تقاسمته الدول المستصنعة بصورة ديموقراطية مع البلاد المتخلفة . وقد يكون هناك نقص خطير في عدد من السلع ، بينها المواد الغذائية بالطبع . ولكن تطوير الصحارى التي تؤلف ربع مساحة القارات في العالم يغدو آنذاك مشكلة ملحة ، مثل مشروع مانهاتان او التسابق على غزو الفضاء .

ويمكن عرض خرافة الفائض العالمي في شكل آخر . وقد تعلمنا من الصحارى درساً وهو ان الماء يحدد عدد السكان ومجالات التطور في أية منطقة من المناطق . ولكن قد يكون من المفاجئات غير الممتعة لهؤلاء الناس الذين تستهويهم فكرة الامكانات التي لا حدود لها ان يعرفوا ان احتياطي المياه العذبة محدود ايضاً حتى في المناطق ذات الارقام العالية في سقوط الامطار . وقد اصيبت الولايات المتحدة الامريكية بصدمة عنيفة عندما اكتشفت انها حوالي عام ١٩٧٥ ستواجه نقصاً ملحوظاً في مياه الشرب والمياه الصالحة للاغراض الصناعية . وسرعان ما هب العلماء يكرسون جهودهم على « حلم » تقطير مياه البحار . وتمكنوا بعد ان وضعت أموال هائلة تحت تصرفهم من الوصول في سرعة قياسية الى نتائج عظيمة تتعلق بانتاج المياه العذبة .

وهذا هو السبب في رأيي ، الذي يدعوني الى الاعتقاد بأننا لم نسمع كلمة العلماء الاخيرة في موضوع « احلامهم » في الصحراء . ومن المحتمل ان يقدر لهذه الكلمة ان تكون اكثر من مجرد تقوية للتعاون الافريقي الاسيوي ، انها قد تعطي في يوم ما « للانسان المتفوق على الملكوت » الفرصة ليظهر ما يستطيع فعله عندما يمد يده لتحقيق الأغراض السلمية . وعلى كل حال فقد مهدت الطريق لتدويل البحث العلمي في الصحراء ، عندما قررت منظمة اليونسكو في المؤتمر الذي عقدته في دلهي الجديدة في عام ١٩٥٦ ، ان تكون الصحراء « مشروعاً رئيسياً » .

ورائد الصحراء الأول ، الذي يخرج توراته من جراب يضم اسهمه الصوانية ، ويضم ثعباناً مخيفاً وحية محنطة في الكحول ، ثم يأخذ في تلاوة الآيات التالية من نبوءة اشعيا ، « سأفتح لكم الانهار في الاماكن العالية والينابيع في وسط الوديان ، وسأجعل من الصحراء بركة من الماء ، ومن الارض اليابسة جداول وسواق . وسأزرع في الصحراء اشجار الأرز والطلح والآس والزيتون ، وسأضع في الصحراء شجرة التنّوب والصنوبر . » ، هل كان محقاً يا ترى في قوله ؟ وفي هذا العالم الجديد اليوم من طائرات الهليوكبتر التي تبحث عن مراع جديدة ، ومن طائرات النقل التي تحمل البدو وقطعانهم من مرعى الى آخر ، ومن مصانع تقطير المياه وانابيب المطاط ومن محطات توليد الطاقة الشمسية ، ومن المحركات التي تديرها الرياح ومصانع توليد القوة النووية ، والمراكز الصناعية بمراجلها وأفرانها ، والمناطق الزراعية بانتاجها الضخم للطحالب في اوعيتها الكيمائية والمائية ، ومن الزراعات المائية في أحواض الاسبستوس ، ألا يصح ان يقال ان نبوءة اشعيا قد تحققت أو في طريق التحقق ؟

لنتطلع بأمل الى تحقيقها . وآنذاك يمكن لمعاصرينا من الاغنياء ان يلتقوا بابناء الصحراء الخصبه وجهاً لوجه ، وهم في راحة من ضمير .

الفهرس

صمم الغلاف ونفذه

تشموط اخوان

٦١-٨-٣٢٥

مراجعة لكتاب الصحراء من تأليف (غيرستر) من خلال الترجمة الإنجليزية التي قام بها (ستيوارت طومسون) سنة 1961م

المراجعة نشرت في عدد مجلة (العلم) الامريكية الصادر في 12 مايو 1961م

النص المقتبس من مجلة العلم:-

Sahara, Desert of Destiny. Georg Gerster. Translated by Stewart Thomson. Coward-McCann, New York, 1961. xi + 302 pp. Illus. + maps. $5

Gerster's Sahara is a prize package of its kind. An awesome mass of factual information, sparingly sprinkled with misinformation. is presented so skillfully that the book is as enjoyable to read as a good novel. Unfortunately.

in the sections dealing with prehistory and native customs. fact is mixed indiscriminately with fantasy. Specialists will heave many a weary sigh as they encounter tediously obsolete and confused theories concerning rock paintings and camels. the Hyksos and the Garamantes the feudal matriarchal free-loving Tuareg and such. Arabic words often defeat the author utterly.

For example. Sahara does not mean "mouse-colourcd" but "a desert habitable in spots" The Gandourah by definition cannot have a hood, and

Davel Askri is certainly a strange rendering of Dar el Askri. Curious factual errors occasionally creep in too .

It is stated that "the early palaeolithic" only "goes back some eight to fifteen thousand years" although "The Early Stone Age" may go back hundreds of thousands!"

Rene Caillie (misspelled Caille as usual) is said to have been the first European to reach Timbuktoo": and so on.

But all of this is relatively unimportant. The immediate future of the Sahara is a matter of rapidly increasing urgency because of the major roles that Moslem Africa and the Mediterranean are beginning to play in the struggle for survival of the West. In this context Gerster shines as a singularly penetrating political and economic analyst.

Water is , of course. the main thing in the Sahara. Obviously even the most primitive communities cannot live without it. while oil drilling installations consume such enormous quantities that they depend on the discovery of new and practically inexhaustible reservoirs of water. This situation poses a whole series of problems which are clearly explained and discussed most entertainingly.

The bulk of Gerster's book is devoted to the consideration of these and other natural resources. Search, discovery, and exploitation are described minutely and as painstakingly evaluated . all in an easy-flowing style that makes them fascinating. And if the author hasn't heard that the discovery of diamonds near Silet was a hoax, it hardly matters .

Gerster goes on to discuss the impact of modern industrial expansion on native institutions. He closes with a searching and impartial examination of perilous problems of near future in which conflicting forces of political aspirations and economic necessity will become increasingly difficult to reconcile.

For students of political science, economics, and human and industrial geography, this book is a real goldmine. Nor can any reader, regardless of prejudice, help but be lost in admiration for the author's forthright and yet charitable objectivity. Sahara is a really valuable and palatable contribution. in the critical fields of international and Inter-religious political economy

LLOYD CABOT Briggs

Peabody Museum, Harvard University

هذا الكتاب

إنّه أول كتاب من نوعه عن صحراء الجزائر .. الصّحراء التي تعثرت على طريقها مفاوضات إيفيان .. المستودع الهائل الذي يضمّ كنوزاً لاتحدّ من الزيت والغاز الطبيعي والذهب والكروم والأورانيوم والبلاتين والنحاس والحديد ، وغير ذلك من المعادن الثمينة

يُقدّم لنا المؤلف في هذا الكتاب فصولاً ممتعة عن أحوال الصحراء الكبرى .. بنخيلها وإبلها ورمالها وصخورها وجبالها .. ومياهها العذبة التي تتفجّر من جوف الرّمال الملتهبة .

أمّا قصصه عن البحث عن المعادن ، والتنقيب عن الزيت ، وقصص الطوارق ، قبائل الملثمين الزّرق ، وقصص المعارك بين الفرنسيّين وبدو الصحراء ، وقصص المدن الحديثة التي نمت هناك وسط الرمال ... كل هذه القصص سوف تنال إعجاب القرّاء العرب وتفتح عيونهم على عالم واسع كبير ، عظيم الامكانيات ، كان بالنسبة لهم قبل اليوم ، سرّاً مغلقاً ..

الثمن : ٤٠٠ ق . ل .
٥٠٠ ق . س .